

مجالس النبوة

في تذكّر القرآن الكريم وتفسيره

بمنهج علي بن أبي طالب

المجلد الأول

الشيخ الدكتور

محمد عيسى الكبيسي

راجعه وعقّق مسأله وقرع اعاديه

د. وليد الحسيني د. ابراهيم الانصاري د. محمد المصلح



دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press

مَجَالِسُ التَّوْحِيدِ

فِي تَذَكُّرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَتَفْسِيرِهِ

بِسَبْحِ عَمَلِي وَتَرْوِي جَلِيدِي

لِلْمَجْلَدِ الْأَوَّلِ

الشيخ الدكتور

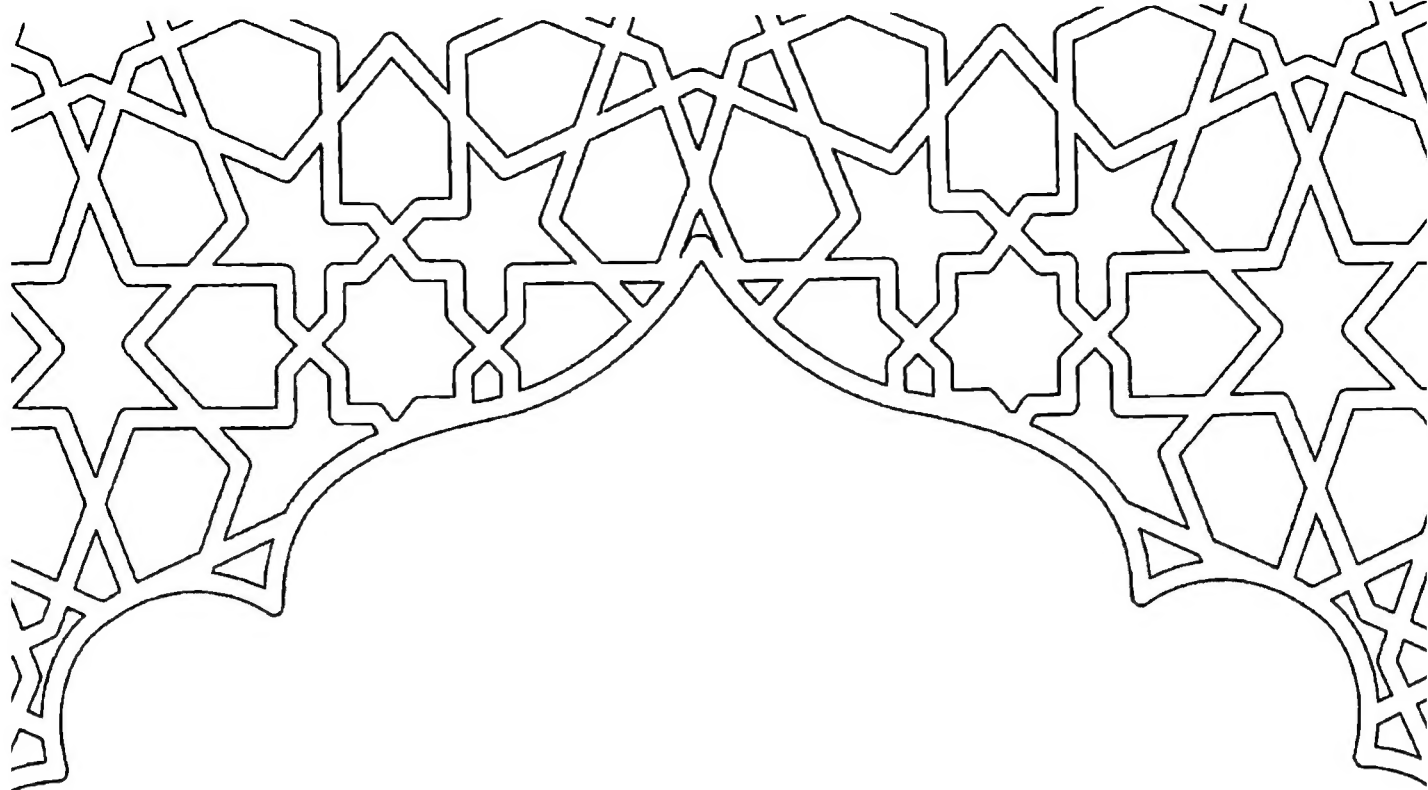
محمد عيسى الكبيسي

راجعته ومحقق مسأله وخرج إظهاره

د. وليد الحسبي د. إبراهيم الأنصاري د. محمد المصليح



دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مجلدات مجالس النور

من فاتحة الكتاب إلى سورة الأنفال	الصفحات ٥١٧ - ١	عدد المجالس ٧٨	المجلد الأول
من سورة التوبة إلى سورة الشعراء	الصفحات ١٠٢١ - ٥١٩	عدد المجالس ٨٧	المجلد الثاني
من سورة النمل إلى سورة ق	الصفحات ١٥٢٩ - ١٠٢٣	عدد المجالس ٧١	المجلد الثالث
من سورة الذاريات إلى سورة الناس	الصفحات ١٩٩٢ - ١٥٣١	عدد المجالس ٦٤	المجلد الرابع

المحتويات

المجلد الأول

١٠	- مقدمة
١٢	- المقدمات العشر

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

٣٠	- المجلس الأول	المنظومة القيمية
----	----------------	------------------

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

٤١	- المجلس الثاني	بناء المجتمع المسلم وتمييزه عن المجتمعات الأخرى
٥٧	- المجلس الثالث	استخلاف الإنسان على هذه الأرض
٦٢	- المجلس الرابع	العهد الإلهي لبني إسرائيل
٦٧	- المجلس الخامس	بنو إسرائيل في خضم التجربة
٧٧	- المجلس السادس	محاكمة ومحاجة
٨٥	- المجلس السابع	دروس ومساائل من وحي التجربة
٩٣	- المجلس الثامن	معالم في هوية الأمة الجديدة
٩٩	- المجلس التاسع	تمييز الهوية
١٠٥	- المجلس العاشر	أسباب الضلال
١١٠	- المجلس الحادي عشر	بناء المجتمع
١١٥	- المجلس الثاني عشر	رسالة الصوم
١٢٢	- المجلس الثالث عشر	رسالة الجهاد
١٢٦	- المجلس الرابع عشر	رسالة الحج
١٣٠	- المجلس الخامس عشر	جبهة النفاق
١٣٥	- المجلس السادس عشر	يسألونك
١٤٢	- المجلس السابع عشر	فقه الطلاق

١٥٣	الجلس الثامن عشر	التربية العسكرية
١٥٧	الجلس التاسع عشر	مجادلات في مسائل الإيمان
١٦٢	الجلس العشرون	فقه الإنفاق
١٦٩	الجلس الحادي والعشرون	فقه العلاقات المالية
١٧٦	الجلس الثاني والعشرون	موجّهات ختامية

سُورَةُ الْعَمَّارَاتِ

١٧٩	الجلس الثالث والعشرون	المحكم والمتشابه
١٨٥	الجلس الرابع والعشرون	التمايز بين أهل الحق وأهل الباطل
١٩٠	الجلس الخامس والعشرون	التجربة الإصلاحية الكبرى في تاريخ الأنبياء ﷺ
١٩٨	الجلس السادس والعشرون	حوارات مع أهل الكتاب
٢٠٧	الجلس السابع والعشرون	حقيقة العلاقة بين الرسالات السماوية
٢١٣	الجلس الثامن والعشرون	مقومات بناء الأمة المسلمة
٢١٩	الجلس التاسع والعشرون	في الطريق إلى أحد
٢٢٤	الجلس الثلاثون	بيان المعركة
٢٣٣	الجلس الحادي والثلاثون	دروس المعركة
٢٤٠	الجلس الثاني والثلاثون	الرد السريع
٢٤٢	الجلس الثالث والثلاثون	العلاقة بأهل الكتاب

سُورَةُ النَّبِيَاءِ

٢٥١	الجلس الرابع والثلاثون	وحدة الأصل البشري
٢٥٨	الجلس الخامس والثلاثون	نظام الإرث
٢٦٢	الجلس السادس والثلاثون	المجتمع الطاهر
٢٦٨	الجلس السابع والثلاثون	تنظيم شؤون المجتمع
٢٧٦	الجلس الثامن والثلاثون	اليهود وعداوتهم للمؤمنين
٢٨٠	الجلس التاسع والثلاثون	التشريع ومرجع الحكم
٢٨٥	الجلس الأربعون	التربية العسكرية
٢٩٣	الجلس الحادي والأربعون	العلاقات العسكرية

٣٠١	المجلس الثاني والأربعون	توجيهات تربوية للمقاتلين
٣٠٧	المجلس الثالث والأربعون	العلاقات الأسرية
٣١١	المجلس الرابع والأربعون	المنافقون
٣١٦	المجلس الخامس والأربعون	أهل الكتاب

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

٣٢٢	المجلس السادس والأربعون	إكمال الدين وإتمام النعمة
٣٣١	المجلس السابع والأربعون	ميثاق الله السابق لأهل الكتاب
٣٣٦	المجلس الثامن والأربعون	الأمن والحياة
٣٤٢	المجلس التاسع والأربعون	أهل الكتاب واختبار الحكم
٣٤٦	المجلس الخمسون	الولاء والبراء
٣٥١	المجلس الحادي والخمسون	حوار مع أهل الكتاب
٣٥٧	المجلس الثاني والخمسون	بناء المجتمع المسلم
٣٦٣	المجلس الثالث والخمسون	معجزات النبي عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٣٦٩	المجلس الرابع والخمسون	القرآن في مواجهة المكذبين
٣٧٧	المجلس الخامس والخمسون	حوار مع المشركين
٣٨٢	المجلس السادس والخمسون	التكوين الإيماني للمجتمع المسلم
٣٨٩	المجلس السابع والخمسون	الهدى الإبراهيمي
٣٩٤	المجلس الثامن والخمسون	الوحي والحياة
٤٠١	المجلس التاسع والخمسون	طرق الغواية والضلال
٤٠٧	المجلس الستون	نماذج من الغم والضلال
٤١٣	المجلس الحادي والستون	الشرعية السمحة
٤١٦	المجلس الثاني والستون	وصايا عشر وتوجيهات ختامية

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

١٢٣	المجلس الثالث والستون	درس الحياة الأول
١٣٠	المجلس الرابع والستون	يا بني آدم .. خطاب الإنسانيّة والفطرة
١٣٥	المجلس الخامس والستون	حوارات في دار الجزاء
١٤١	المجلس السادس والستون	دموة المرسلين من محمد إلى نوح ﷺ
١٤٦	المجلس السابع والستون	هود وصالح عليهما السلام
١٥٠	المجلس الثامن والستون	لوط وشعيب عليهما السلام
١٥٨	المجلس التاسع والستون	النبوة في مواجهة السحر
١٦٣	المجلس السبعون	الصراع المفتوح مع فرعون وملئه
١٦٧	المجلس الحادي والسبعون	قيادة موسى عليه السلام لقومه بعد هلاك فرعون
١٧٥	المجلس الثاني والسبعون	الخطاب القرآني لليهود
١٨١	المجلس الثالث والسبعون	سبيل الهداية وأسباب الضلال
١٨٦	المجلس الرابع والسبعون	تلخيص وتوجيهات ختامية

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

١٩٢	المجلس الخامس والسبعون	يوم الفرقان
٥٠٠	المجلس السادس والسبعون	تمايز الصفوف
٥٠٦	المجلس السابع والسبعون	بيان المعركة
٥١١	المجلس الثامن والسبعون	فقه الجهاد

مقدمة

يسر دار نشر جامعة قطر أن تزف إلى جمهور قرائها الكرام باكورة إنتاجها وأول إصداراتها كتاب "مجالس النور في تدبر القرآن الكريم وتفسيره بمنهج علمي وتربوي جديد"، مستفتحة بمجاله تفسير القرآن الكريم الذي هو أشرف المعارف وأزكى العلوم قاطبة لتعلقه بأحسن الحديث وأقوم القيل؛ كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

إن كتاب مجالس النور الذي بين أيديكم قد حاز قصب السبق في ترشيحنا وانتقائنا له من بين عشرات الأعمال الجليلة التي قُدمت للدار من لدن كوكبة من العلماء المتخصصين في حقول معرفية شتى، لنستبشر به كأول مولود للدار ألفيناه يتيمة الدُر وواسطة العقد.

إن القراء الكرام سيجدون في هذا الكتاب محاولة جادة تتسم بمنهج عملي وتربوي تجديدي موفق؛ يقرب القرآن الكريم من حياة الناس وهمومهم تقريباً يعينهم على التفاعل المثمر مع القضايا المستجدة في كل مجال من مجالات حياتهم، بأسلوب يجمع بين العبارة السهلة والمنهج الرصين باتزان، فلا هو مع رصانة منهجه عسير على جمهور المثقفين، ولا سهولة عبارته قللت من فوائده للمتخصصين، وبهذا فهو يسد فراغاً كبيراً في المكتبة العربية الإسلامية ويلبي احتياجاً مهماً في أوساط الشباب والمثقفين.

إن فريق الدار وهو يصول ويجول مع مؤلف الكتاب ومساعديه في عمليات التدقيق والتحرير والتنسيق لإعداد الكتاب للنشر قد وقف على جملة من مزاياه منها:

• تقسيمه إلى مجالس للتدبر بلغت ثلاثمائة مجلس، يتناول كل مجلس منها مقطعاً من الآيات الكريمة المترابطة في موضوعاتها ومقاصدها وفوائدها، ويختم بدقائق تفسيرية تسهل فهم غريب الكلمات الواردة فيه.

• وضع عنوان لكل مقطع يبرز الفكرة المحورية فيه.

• تصدير مجالس كل سورة بقائمة المحاور التي تجمع موضوعاتها.

ويأتي اختيار الدار لهذا الكتاب ووضعه بين يدي القارئ الكريم منسجماً مع رسالة الجامعة التي نصت على الالتزام «بإجراء البحوث ذات الصلة بالتحديات المحلية والإقليمية والإسهام الإيجابي في تحقيق احتياجات المجتمع وتطلعاته». ومن هنا؛ يحق للدار أن تفخر بهذا العمل البحثي الجماعي النوعي لا سيما وأن مؤلف الكتاب واثين من مساعديه هم من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالجامعة.

وإن الدار لتشي على هذه الروح العالية بين فريق التأليف في منهجية العمل الجماعي التكاملي؛ مما انعكس بوضوح على خروج هذا الجهد الثري الذي ينتظمه خيط مترابط الأفكار متناسق

الصياغة بلا شذوذ ولا إفراط ولا تفريط، في جراءة محمودة احترمت قداسة المسلمات تاركة للأمة عنان المراجعة لاختيار ما يناسبها من اجتهادات السابقين واللاحقين، مع ما أضافوه من لمسات جعلت من الكتاب مرجعاً في التفسير التريوي العملي الذي يخاطب الأمة بكل فئاتها ومستوياتها.

فلهم من الدار كل التقدير والامتنان، وهي بحق فرصة تعبر فيها الدار عن دعمها وتشجيعها لهذا النمط من البحوث الجماعية التي تضمن مستوى عالياً من الجودة والإتقان.

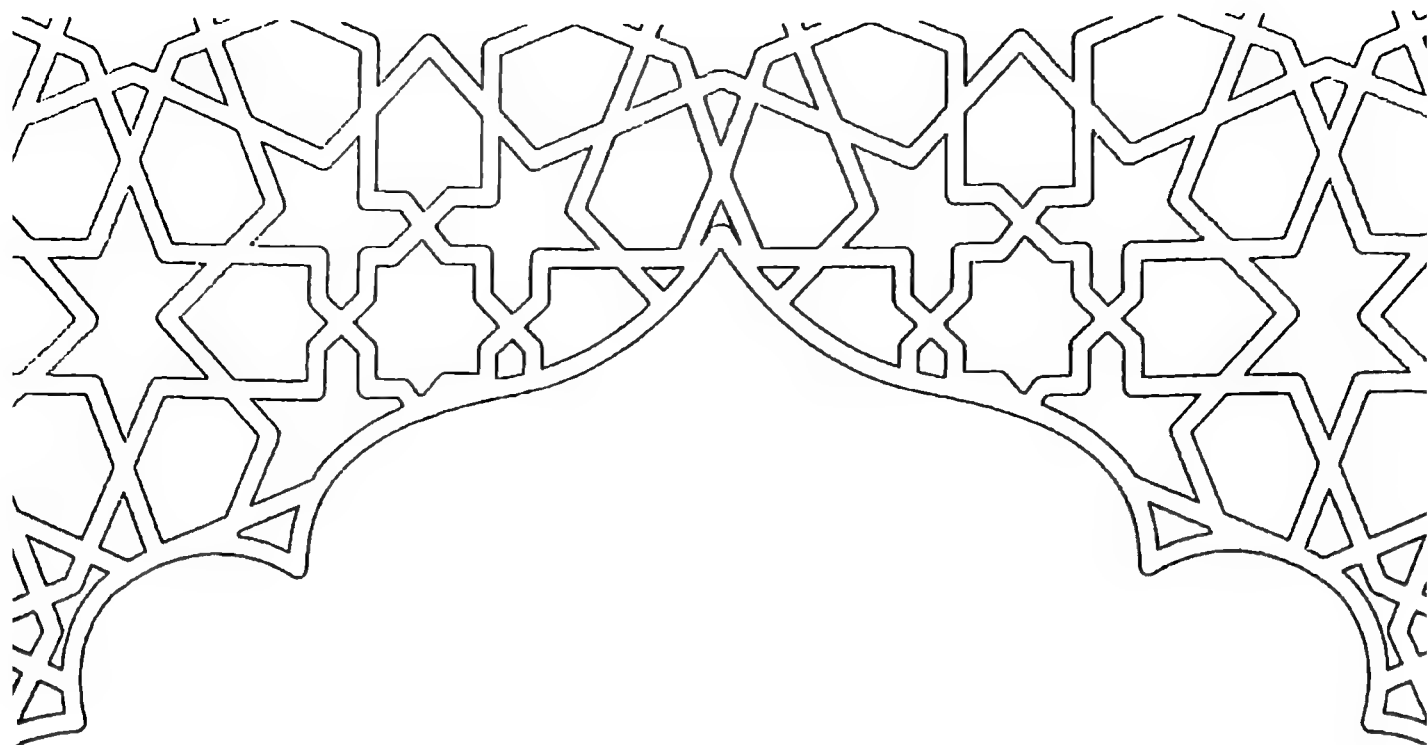
ولا يسعنا في الدار إلا أن نشيد بالدور المهم لوحدة البحوث في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر في متابعة تحكيمه حيث ننوه بالمستوى الرفيع للتحكيم ودقة ملاحظات المحكمين التي استوعبت الكتاب كله رغم ضخامته، وهي ملاحظات أثرت الكتاب وزادته إحكاماً.

إن دار نشر جامعة قطر وهي تشق طريق ارتقائها لتحتل مكانتها اللائقة بها بين دور النشر العالمية لتؤكد التزامها بأعلى المعايير العالمية للنشر مستشعرة عبء الأمانة وعظم المسؤولية والثقة الغالية التي قلدها لها الجامعة ممثلة في سعادة رئيس الجامعة الدكتور حسن راشد الدرهم، وسعادة الأستاذة الدكتورة مريم العلي المعاضيد، نائب الرئيس للبحث والدراسات العليا ورئيس المجلس الاستشاري للدار، اللذين آمنا برسالة الدار ورؤيتها وما فتئاً يقدمان لها كافة أنواع الدعم المعنوي واللوجستي حتى رأت النور في عهدهما الميمون على الدار وعلى الجامعة، فلهما من جميع العاملين معهم خالص الود والامتنان.

كما تتقدم الدار بالشكر أجزله والعرفان أكمله لكل من تواصل معها وكان شريكاً لها في نشر العلم والمعرفة من مؤلفين وباحثين وأكاديميين في كافة المجالات والتخصصات، آملة أن تقدم لجمهورها دائماً الجديد والمفيد في عالم النشر.

الدكتور طلال عبد الله العمادي

مدير دار نشر جامعة قطر



المقدمات العشر

المقدمات العشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، والصلاة والسلام على نبيِّه مُحَمَّدٍ المصطفى، وآله وأصحابه وأزواجه وذريَّاته، ومن سارَ على سُنَّته واقتفى.

أما بعد:

فبعدَ طولِ تردُّدٍ وتهيُّبٍ واستشارةٍ واستخارةٍ، بدأتُ هذه الليلة (ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان لسنة ١٤٣٥هـ) بكتابة تفسيرٍ جديدٍ للقرآن الكريم، وهي الليلة التي يغلب على الظنُّ أنها ليلة نزول القرآن، ولعلَّه استهلالٌ مُباركٌ، واقترانٌ لتدوين تدبُّره بيوم نزوله، فإنما التفسير تدبُّرُ العباد لكتاب ربِّهم، وهو - لا شك - من أغلى الواجبات، وأسمى القربات ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [محمد: ٢٤].

وهو - أي: التدبُّر - حلقة الوصل بين وجوب تلاوته ووجوب العمل به، وكلُّما كان العمل بالقرآن واجبًا كان تدبُّره واجبًا كذلك؛ إذ ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب. هذا وقد ارتأيتُ أن أقدم بهذه المقدمات والموجِّهات المنهجية التي اعتمدتها في هذا العمل من مُبتدئه إلى منتهاه؛ خدمةً للقارئ، ورجاء أن يطَّلِعَ على الإضافة المرجوة من هذا الجُهد الذي أسأله تعالى أن يكون مُسدِّدًا منه، ومقبولًا عنده.



المقدمة الأولى:

القرآن كلام الله، والتدبُّرُ فعلٌ بشري، وما يُدَوِّنه المُتدبِّرون هو التفسير، وعليه فالتفسير ليس معصومًا إلا إذا كان نقلًا عن المعصوم؛ كتفسير القرآن بالقرآن، أو تفسيره بالسنة

الصحيحة، والتفسيرُ اجتهادٌ يستحق المفسّر فيه ما يستحقه الفقيه، وشارح السنّة، والباحثون في العلوم الشرعية الأخرى أجرًا واحدًا إن أخطأ، وأجرين إن أصاب، شرط كونه من أهل الاستنباط، وإلا كان متلاعبًا في الدين يستحق الوزر واللوم أصاب أو أخطأ؛ لأنّ صوابه محض صدفة، وليس عن اجتهاد.

وقد جاء عن النبي ﷺ قوله: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١). ويشمل هذا التحذير كل من تجرّأ على تفسير القرآن بجهلٍ في قواعد التفسير وأدواته، أو بنزعة هوى تلوي النصوص لغرضٍ ما بعيدًا عن لغتها وسياقها ومقاصدها.

هذا إذن تمييز ضروري بين مساحة الوحي المقدّس وبين الفكر البشري، وإن كان هذا الفكر متصلًا بالوحي فهما واستنباطًا واستدلالًا، وينتج عن هذا جرأة علمية محمودة لنقد التراث التفسيري، وفتح المجال لقراءات جديدة تتناسب مع مسيرة الحياة الإنسانية، والكشوفات العلمية الصاعدة في مجالات هذا الكون الرحيب.

المقدمة الثانية:

الفارق بين التفسير الأصولي المقبول والتأويل المرفوض كالتأويلات الباطنية إنما هو في الالتزام بثواب النص، وثواب اللغة، وثواب العقل. أما النصّ فهو الأصل، وهو مدارُّ البحث والاجتهاد، والقرآن مقطوعٌ بصحة ورودّه، وإنما يقع الاجتهاد على ما احتمال أكثر من معنى من غير الخروج إلى معنى آخر لا يحتمله النص، أو في التقاط لطيفة تُوسّع مدلول المعنى الأول ولا ترفعه، أو تجمع بينه وبين نصٍّ أو نصوصٍ أخرى، مما يسمى اليوم بالقراءة التحليلية المركّبة، وكذلك البحث في مقتضيات التنزيل وموانعه، وناسخ النص ومنسوخه، وسُنّة التدرُّج فيه، ونحو هذا مما هو من صميم التدبّر المطلوب، والاستنباط الذي خصّ الله به أهل العلم.

(١) رواد الترمذي في «جامعه» (٢٩٥٠)، وقال: حسن صحيح، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٠٨٤)، وأحد في «مسنده» (٢٠٦٩).

أما اللغة؛ فهي - لا شك - وعاء القرآن، فالتضلّع فيها شرط التدبّر الصحيح، وكل تأويل لا تحتمله اللغة العربية فهو تأويل باطل مُنافٍ للأصول، وكل تأويل بضعيف اللغة وغريبها فهو ضعيف ومرجوح؛ لِمَا عَلِمَ أن القرآن قد تحدّى العرب ببيانه وفصاحته، واستعمال الغريب معيبٌ في لسان الأدباء والشعراء، فكيف بكلام ربّ العالمين؟!

أما العقل؛ فقد نصّ القرآن على شرطيّته في التدبّر، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١)، وأدّعاء التعارض بين العقل والنقل ادّعاء باطل، ويعود مآله قدحاً وتشكيكاً بالوحي نفسه، وليس المقصود بالعقل هنا تلك النظريات العلميّة، أو المباحث الفلسفيّة التي شاع الاختلاف بين أربابها، فضلاً عن غيرهم، وإنما المقصود: كل ما أقرّته العقول بديهيّتها واستنتاجاتها الثابتة والمُبرهنة، وما توصّلت إليه بحواسّها؛ كالمرئيات، والمسموعات، وسائر المُدركات التي لا يختلف فيها الناس، وهي أصلٌ من أصول الحياة الآدمية لا يُنكرها إلا مُكابِرٌ.

وأما ما شاع من جدل حول تقديم العقل على النقل وعكسه فهو جدل باطل، وهو كمن يتجادل في تقديم قواعد اللغة على قواعد الشرع أو عكسه؛ إذ العقل لا يُشرّع حكماً دينيّاً، وكذلك اللغة، وإنما هما وسيلتان لفهم النص، وترجيح المصدر على الوسيلة، أو ترجيح الوسيلة على المصدر لا معنى له، أما إذا كان المقصود منح العقل صلاحية التشريع بمعزل عن الوحي، فهذا باطل، أصاب العقل في تشريعه أو أخطأ.

وإذا سلّمنا لنا الأصول الثلاثة، فإن هناك مُوجّهات تُستمدُّ من روح التشريع، ومبادئه العامة، ومقاصده الكلّية، تجب مراعاتها في كل مسألة كبيرة أو صغيرة، فإذا كان المعنى الذي يحتمله النص أقرب لهذه المُوجّهات فهو الأقرب للأخذ به.

ومثال هذا: إذا كانت رحمة الله قد سبّقت غضبه، فليسبق إذن المعنى الذي هو أقرب للرحمة، والذي تتحقّق فيه مصالح العباد، وهكذا.

(١) تكرر هذا النص الكريم ثلاث مرات في القرآن الكريم: سورة الرعد / ٤، وسورة النحل / ١٢، وسورة الروم / ٢٤.

المناهج التفسيرية على اختلافها وتنوعها تتكامل ولا تتعارض ما دامت تدور في مساحة الاجتهاد المشروع؛ فالتفسير الأثري الذي يعتمد جمع الروايات التفسيرية من الأحاديث الصحيحة، وأقوال الصحابة والتابعين وسلف الأمة الصالحين، يُعطينا صورةً لتدبر القرآن في ذلك العصر الذي هو أفضل العصور، والذي امتاز بمخرجاته التربوية الرائدة، والتي لا يمكن إلا أن تكون نتاجاً لذلك الفهم والتدبر الصحيح والسليم للقرآن الكريم. ومن اعتنى بهذا النهج: الإمام ابن جرير الطبري، ثم الإمام ابن كثير، وللأول مِيزة السبق والجمع، وللثاني مِيزة التمهيص والاختصار، مما سهّل انتشاره واعتماده لدى عامة العلماء والباحثين.

وأما التفسير اللغوي، فقد تكفّل بتمتين الصلة بين كتاب الله واللغة العربية التي نزل بها صرفاً ونحواً وبلاغةً، ومن اشتهر بهذا النهج: العلامة الزخشري في كتابه «الكشاف»، وهذا النهج في التفسير يُحقّق واجباً شرعياً نصّ عليه القرآن بقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، ففهم القرآن مبنيٌّ على فهم العربية ولا ينفك عنها.

وأما التفسير العلمي الموضوعي عقيدة وفقهاً وأخلاقاً وتاريخاً وإعجازاً، فيمّن ألف فيه تأليفاً واسعاً وشاملاً: الإمام القرطبي، والإمام الرازي.

وهناك من اقتصر على بابٍ واحدٍ من أبواب العلم، كأخلاق القرآن، وإعجاز القرآن، وهذا شائع في هذا العصر أكثر مما سبق، وهذا كله واجبٌ شرعيٌّ بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

فكل صاحب اختصاص في أي علم من العلوم عليه أن ينهل من القرآن الكريم، فهو المصدر الأول للتشريع، وهو مصدر المصادر؛ إذ حُجِّية السُّنة، ثم الإجماع والقياس

والمصلحة إنما استُمدَّت من القرآن الكريم، والاستنباط هذا هو غاية المنهجين السابقين الأثري واللغوي، فجمع الروايات التفسيرية للآية الواحدة، أو جمع القواعد الصرفية والنحوية ودقائق البيان والبلاغة، إنما يُقصد من كل ذلك استنباط الحكم، والوصول إلى مقصود الآية، وهذا هو الاستنباط.

هذا وقد تراوحت جهود المفسرين بين هذه المناهج الثلاث: تلخيصًا، أو تهذيبًا، أو تحقيقًا، حتى أطلَّت بواذر الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة حركات التغريب والغزو الثقافي، فانبرى المُفسِّرون الجُدُّ لقراءة القرآن قراءةً تنسجم مع حاجة الأمة ومشاعرها، وحركتها الدؤوب لاستعادة التوازن المطلوب، بعد سلسلة النكسات التي أدَّت في النهاية إلى سقوط الخلافة، وضياع الخيط الناظم لوحدة الأمة.

وقد أضاف التفسيرُ في هذه المرحلة طرائق جديدة في التفسير، تتناسب مع متطلبات العصر، منها:

- طريقة راحت تكشف ما في القرآن من مَعِينٍ لا ينضب من القواعد والمبادئ، إضافةً إلى الأحكام التفصيلية القادرة على مواكبة العصر، ووضع الحلول المناسبة لمشاكله، وهو ما عُرف بالتفسير المقاصدي.

وهذا المنهج إنما يسعى لاسترداد الثقة بعقيدة الأمة وتراثها، وأنه عندها ما يُغنيها عن المنتجات الحضارية والثقافية القادمة من الخارج، ومن خير مَنْ جسَّدوا هذا المنحَى: الطاهر ابن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير»، وكذلك الشيخ محمد رشيد رضا في تفسيره «المنار».

- بينما استعلت الطريقة الثانية على هذا الواقع، وراحت تستوحي منهج القرآن في تأسيس الأمة وتكوينها، ولا أعلم أحدًا من المُفسِّرين سبق الأستاذ سيد قطب في هذا، ولعلَّ انخراط سيد في عملٍ جماعيٍّ ذي طبيعة حركية شاملة، قد دفعه لقراءة القرآن قراءةً يدفعها العطش لاستنباط (المنهج الحركي)، الذي يُواكبُ حاجة (الجماعة)، وهي الفكرة المحورية

للظلال، تأسيسًا وتكوينًا وتميُّزًا، وولاءً وبراءً، وكان هذا على حساب المجالات الأصولية والفقهية والتشريعية التي تحتاج إليها الجماعة نفسها.

وربما تنبّه الشيخ سعيد حوى لهذا، فأردفه بكتابه الأساس لمعالجة المساحات التفصيلية التي يعالجها الظلال، وهذه هي طبيعة العمل البشري مهما بلغ من النضج والإتقان.

المقدمة الرابعة:

الإسلام بناء متكامل، وقد ورد هذا المعنى بقوله ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»^(١)، وهذه صورةٌ كليةٌ تنتظم فيها كلُّ معاني الإسلام كاللبنات المتناسكة.

وكم هو البون الشاسع بين من يرى الإسلام لبنات متناثرة لا يربطها رابط، ولا يجمعها جامع، وبين من يراه وحدة بنائية كاملة، فتلك لا تقي من حرٍّ ولا من قُرٍّ، ولا تقوى على مقاومة العوادي والبوادي، فمصيرها التفتُّ والتلف.

وأما هذه فهي البيت الذي يأوي إليه الناس طلبًا للسكن والطمأنينة، والوقاية والحماية. هذا وقد تكفل القرآن بوضع الخارطة الأساس لهذا البناء، ولم يُوكَل هذه المهمة لغيره؛ إذ مهمة السُّنة البيان بعد التأسيس، والتفصيل بعد الإجمال؛ ولذلك ترى أحاديث الطهارة مثلاً، وهيئات الصلاة تأخذ مساحة واسعة من السُّنة على خلاف القرآن، بينما تجد القصص النبوي الذي يؤسس للمناهج الإصلاحية، وطرائق التحرك بهذه العقيدة أوسع في القرآن بكثير عما هو في السُّنة.

ومن ثمَّ فمن أخذ الصورة الكلية للإسلام عن السُّنة، سيكون بالضرورة مخالفًا لمن يأخذها عن القرآن، وهذه واحدة من مشاكل الفهم التي زلّت بها الأقدام وتباينت بها الأفهام.

(١) رواه البخاري (٨، ٤٥١٥)، ومسلم (١٦).

وجديرٌ بالتنويه هنا أن الذي يقرأ القرآن أيضًا بغير هذه المنهجية - أقصد: منهجية البناء المتكامل - فإنه سيقع فيما وقع فيه مُقدِّمُ السنة على القرآن في أخذ الصورة الكلية عن الإسلام.

المقدمة الخامسة:

كما أن القرآن قد تكفل بوضع الخارطة الكلية للبناء الإسلامي المتناسك والمتكامل (الملة)، فإنه تكفل أيضًا بوضع الخارطة الكلية لبناء المجتمع (الأمة)؛ إذ القرآن ليس كتابًا نظريًا، ولا قانونًا تشريعيًا مجردًا، ولا عقيدة فلسفية تضع المقدمات المنطقية، أو تحلل الظواهر الكونية، إنه منهج حياة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ومن ثم فالإسلام رسالة سماوية مقدسة (الملة)، وصورة ماثلة في الأرض (الأمة)، فهاتان هما قوام الدين والدنيا، لا تنفك إحداها عن الأخرى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، ﴿وَإِنَّ هَذِهِ ءُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

فالتمسك بالأمة لا يقل أهمية وضرورة عن التمسك بالملة، مع ملاحظة الفارق بين الرسالة المقدسة المعصومة من الخطأ، وبين الواقع البشري للأمة المعرض للزلل والشطط ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

فالقرآن لم يأت ليؤسس أمة ملائكية أو سماوية، إنه يعمل في هذه الأرض وبين هؤلاء البشر، ومن ثم تجد القرآن بقدر ما يؤكد أسس البناء في الأمة من مبادئ إيمانية، ومنظومة قيمية، وأنظمة تشريعية يؤكد أيضًا معاني التوبة والإنابة، والتناصح والتسامح؛ فما يذكره القرآن استحقاقًا على الإثم والخطيئة، ربما يرفعه واقعًا وتطبيقًا.

وهذا من رحمة الله الغالبة، وحكمته الماضية، وعلمه بأحوال خلقه، ومن لم يدرك هذه المنهجية القرآنية في بناء المجتمعات والأمم، فإنه سيضطرب فهمه لآيات الله، ويقع في التناقض أو التضاد، والقراءة الناقصة والمقطعة لتجارب النبيين السابقين، ولسيرة أكرم المرسلين عليه وعلى إخوانه الصلاة والتسليم، مما يصعب معه التقاط المنهج الصالح للتأسي والافتداء والاعتبار.

المقدمة السادسة،

ثم بعد ذلك - أي: بعد بناء الخارطة الكلية لمفهوم الملة، ثم لمفهوم الأمة - لا يُغفل القرآن البُعد الثالث، وهو البُعد الإنساني الأوسع، والذي جعله القرآن غايته الكبرى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، فالقرآن ما جاء أبدًا لعزل المؤمنين به عن هذا العالم الفسيح، بل هم أدواته البشرية للوصول إلى هذا الإنسان حيثما كان.

ومن ثمَّ جاء الخطاب القرآني: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، ﴿يَبْنَیْ عَادَمَ﴾^(١) مخاطبهم أينما كانوا في الزمان، وأينما كانوا في المكان، في التاريخ والجغرافيا، من آدم وحواء، وقصة الخلق الأولى إلى أشراط الساعة وإعلان النهاية الحتمية لهذه الحياة.

إنه يتحدث عن الأرض كل الأرض ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. لا يتحدث عن الحواجز والفواصل، لا عن الدولة القديمة، ولا عن الدولة الحديثة، لا عن جزيرة العرب، ولا عن جزائر العجم، يخاطب الإنسان رضيعًا وطفلاً، شابًا وشيخًا، رجلًا وامرأة، ويجعل الاحترام قاعدة التواصل الأولى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي عَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

(١) هذه النصوص الكريمة تكررت في مواضع عديدة من كتاب الله تعالى.

مُثَنِّيًا بِالْقِسْطِ وَالْعَدْلِ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ؕ اَعْدِلُوا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ؕ اِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

مُثَلِّثًا بِالتَّسَامُحِ، وَالْإِيثَارِ، وَمِبَادِي الْأَخْلَاقِ: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].
 مُنَدِّدًا بِالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ مِنْ أَيِّ طَرَفٍ عَلَىٰ أَيِّ طَرَفٍ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعَدُّوْا اِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وَلَوْ كَانَ هَذَا الْعُدْوَانُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ: ﴿وَلَا تَقْصُوْهُمْ لِيُدْهَبُوا بَبْعِضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُمْ﴾ [النساء: ١٩]، أَوْ بَيْنَ الشَّرِيكِ وَشَرِيكِهِ: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ - ٣]، أَوْ اسْتِغْلَالًا لِلضَّعْفَاءِ: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

أَمَّا مَا نَرَاهُ الْيَوْمَ مِنْ تَغْلِيْبٍ لِمَفْهُومِ الْوَلَاءِ، وَجَعَلِهِ فَيُفَصِّلُ التَّعَامُلَ مَعَ النَّاسِ، فَهَذَا مَرْدُهُ الْجَهْلُ بِفَقْهِ الْعِلَاقَاتِ الَّذِي فَتَحَ الْقُرْآنُ آفَاقَهُ، وَأَكَّدَهُ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ فِي سِيرَتِهِ الْعَظِيمَةِ، بَلْ وَجْهٌ بِعَقِيدَةِ الْوَلَاءِ وَالْبِرَاءِ نَفْسَهَا؛ فَالْتِمَازُ فِي الْهُوِيَّةِ وَالنَّظَرَةُ الْكَلِيَّةُ لِلدِّينِ وَالْكَوْنِ وَالْحَيَاةِ شَيْءٌ، وَالتَّقَاطُعُ وَالتَّدَابُرُ وَالتَّخَاصُمُ شَيْءٌ آخَرُ.

أَمَّا رَأْيَتِ كَيْفَ قَاطَعَتْ قَرِيْشُ الْمُسْلِمِينَ وَمَعَهُمُ بَنُو هَاشِمٍ، ثُمَّ نَقَضَ اللَّهُ وَثِيْقَةَ الْمَقَاطَعَةِ بِأَمْرِ مِنْ عِنْدِهِ؟ فَكَانَ فِي هَذَا الْفَرْجِ وَالْخَيْرِ لِلْمُسْلِمِينَ، فَكَيْفَ تَنْعَكُسُ الصُّوْرَةُ فَيَسْعَى الْمُسْلِمُونَ إِلَىٰ عَزْلِ أَنْفُسِهِمْ وَمَقَاطَعَةِ الْعَالَمِ لَهُمْ؟

القرآن إنما جاء لإصلاح هذه الحياة، وتحقيق السعادة لأهلها، ونشر الرحمة في ربوعها، والحياة ليست لونا واحداً، ولا وترًا ثابتاً، ومن ثمَّ كان من شروط التدبُّر السليم مُراعاة الدوائر المختلفة في هذه الحياة، وخصوصية الخطاب القرآني لكل دائرة، فالخطاب الموجَّه للدعاة وهم يجوبون الأرض لنشر هذا النور لا يمكن أن يكون هو عين الخطاب الموجَّه للجنود وهم في ثكناتهم وخنادقهم، والخطاب الموجَّه لإعداد القضاة الذين يحكمون بالعدل ليس هو الخطاب الموجَّه للمعلِّمين الذين يأخذون بأيدي طلابهم في مراقبي التعلُّم والتربية، والخلط بين هذه الدوائر يُنتج غبشاً ثقيلاً، واختلاطاً مؤذياً.

وهذه إحدى مشكلات العصر، فكم ترى من دعاة يكثرون من الاستشهاد بقصة طالوت مثلاً، وكأنهم سائرون إلى الحرب، فتتخرَّج أجيال عندهم لا تحسن التعامل مع المؤسسات المدنية، ولا توطيد العلاقات الاجتماعية.

والحقُّ أن قصة طالوت ومنعه لجنده من شرب الماء إنما جاءت نموذجاً للتربية العسكرية وليست للتربية الدعوية، فالانضباط العسكري شرط في الجندية، بينما الحلم والتسامح والتغافل شروط التربية الدعوية، ومثل هذا قُلٌّ في الفارق بين إعداد القاضي وإعداد المعلم. وقد ترى في القرآن النبي الذي يدعو على قومه والنبي الذي يدعو لهم، فيظنُّ الظانُّون أن هذا نابعٌ من اختلافٍ في طبائعهم عليهم الصلاة والسلام، فترى فينا من يُفاضلُ بين هذا النبي وذاك، وأخطر من هذا الاستشهادُ الانتقائي بحسب طبيعة المستدل أو المستشهد، وهذا كثير وشائع في زماننا، ومردُّه الأساس غياب المنهجية السليمة في تدبُّر القرآن، وإدراك طرائقه في إصلاح هذه الحياة بكل دوائرها ومساراتها، ولو كان القرآن كما توهَّموا لضاعت قاعدة التأسي، وأصبحت مدعاةً للتشتُّت مكان التجمُّع، وللتفرُّق مكان التوحُّد، كيف والله

يقول: ﴿فِيهِدْنَهُمْ أَقْتَدَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ويقول: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

المقدمة الثامنة:

اليوم إذا أرادت الأمة أن تتجاوز مرحلة الصدمة وردة الفعل، فستواجهها أسئلة كبيرة في مختلف مجالات الحياة، من بينها: صورة المجتمع الإنساني، والعلاقات البينية بين أفرادها ومكوناته، وصورة الدولة الحديثة وعلاقاتها بالمجتمع الدولي، وآليات النهضة والتنمية المطلوبة، والموقف من المقولات القيمية السائدة؛ كالحرية، والمواطنة، وحقوق الإنسان، والتعددية السياسية، والتداول السلمي للسلطة، والتي أصبحت ركناً ركيناً في ثقافة العصر، وهي تنمو ولا تتوقف عند حد، ومن ثم فلا بُدَّ من الاستجابة لها بالتدبر النامي والمستمر أيضاً.

لقد جرّبت الجماعات الإسلامية والحركات الجهادية حظّها في الاشتباك السلمي أو العنفي مع هذه المقولات ومن يقف وراءها، وكانت النتائج لحدّ الآن ليست بصالحها، وكان التعذّر دائماً بفارق القوّة وفارق الإمكانيات والخبرات المتراكمة، وكأنّه كان على الآخر أن يتنازل عن مكتسباته وإنجازاته، لكي يتيح لنا فرصة تجربة الحل الإسلامي الذي نراه! لقد كانت نظرية (الحل الإسلامي) أشبه بصندوق ورثه الأبناء عن أجدادهم، وكانوا يعتقدون أنهم حينما تأتي الفرصة المناسبة، فإنهم سيجدّون في هذا الصندوق كل ما يحتاجون إليه، وحينما جاءت الفرصة وفتحوا الصندوق لم يجدوا فيه إلا ورقة واحدة مكتوباً عليها: (الحل هو في الرجوع إلى الإسلام)!

إن الإسلام الذي نتواصى دائماً بالرجوع إليه خاصة في أيام الفتن والمحن يتطلّب أن نرتقي نحن إلى مستواه؛ لتدبره ونفهمه، ونستخرج الدواء الناجع منه، ولو كان الإسلام يحل مشكلاتنا بنفسه لما قال الله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]،

فالذين يستنبطونه هم صنفٌ من المؤمنين تميّزوا بالعلم حتى وصلوا إلى مقام الإرث النبوي: «العلماء ورثة الأنبياء»^(١)، وهم الذين يقومون بعملية الاستنباط التي لا يتقنها غيرهم.

نعم قد تمكّن كثيرٌ من العلماء من استنباط الحلول الإسلامية لكثيرٍ من مشكلات العصر، خاصةً في مجال الاقتصاد، وبعض المستجدات الطبيّة والصناعيّة، لكنها لا تعدّو كونها حلولاً جزئيةً لا تُعين المسلم على بناء تصور كامل عن مشروع الحل الإسلامي، والإجابة الشافية عن الأسئلة الكبرى، وليس أدلّ على هذا من الاضطراب الحادّ في نمط التجارب الإسلاميّة، خاصةً تلك المتعلقة بإدارة الدولة، أو المشاركة فيها، أو الدفاع عنها، وكذا في إدارة المجتمعات، وبناء العلاقات الداخلية والخارجية.

المقدمة التاسعة:

الذي دفعني لهذا المرتقى الصعب، وحملني على المسير في هذا الدرب رغم قلّة المؤنة والزاد، وضعف العدّة والعتاد - إضافةً إلى كل ما تقدّم - ما وجدته من اضطرابٍ في فهم الآيات وتنزيلها، خاصّةً في أيام الفتن والنوازل؛ حيث تكون كأنها أسلحة بأيدي مختصمين غاضبين، يتخاصمون عليها، ويتنازّون بها، وكلٌّ يراها في صفّه ومع أهله وحزبه.

وزاد من حالة الإرباك والارتباك ضعفُ اللغة المعينة على فهم المفردات والسياقات، إن كان في قراءة الآيات، أو كتب التفسير المطوّلات والمختصرات؛ مما جعل المتدبّر - فضلاً عن غيره - يأخذ تصوراتهِ الأولى عن الحلول ومناهج العمل من بيئته الخاصّة، وحاضنته القريبة فكريّةً، أو سياسيّةً، أو تنظيميّةً، ثم يذهب إلى القرآن ليعضد رأيه، وهذه طريقة معكوسة لا تُبرئ الذمّة في الأخرى، ولا تُقربُ الحلّ في الدنيا.

من هنا توجّهتُ - وأرجو أن يكون هذا من توفيق ربّي - لسدّ هذه الثغرة، مُحاولاً تقريب القرآن للغة العصر، بمنهج عمليّ، ونظرة شموليّة بنائيّة، مُضمّناً الأجوبة التي يشيع التساؤل عنها هذه الأوقات في مظانّها من الآيات، تاركاً تفاصيل الاستنباطات الفقهيّة، والإشارات

(١) رواه أبو داود : ٣ / ٣٥٤ والترمذي : ٤٨ / ٥ وابن ماجه : ٨١ / ١.

البلاغية، والمسائل الإعجازية، ونحو ذلك إلى الثروة الهائلة التي سطرها المفسرون قديماً وحديثاً، ففي ذلك غنى لطالب العلم الراغب في التدقيق والتوسع والازدياد.

إن هذه الإضافة لن تكون تكراراً لما سبق، ولن تكون بديلاً عنه، بل هي إضافة تُمليها طبيعة العصر الذي نعيش فيه اليوم بخصوصياته وتحدياته، تجمع ما يحتاجه اللاحقون إلى ما قاله السابقون، بطريقة تراكمية وبنائية.

وهذه صفة الاجتهاد المقبول في كل باب من أبواب العلم أصولها وفروعها، الاجتهاد الذي يبني ولا يهدم، ويوصل ولا يقطع، فكل كلمة في تراثنا العزيز هي محل الاحترام وإن كانت بحد ذاتها مرجوحة أو خاطئة، فالمعرفة النامية لا تؤسسها الأفكار الصائبة فقط، وإنما المراجعة والترحيل والتصويب هي التي تُكوّن الذاكرة العلمية، والخبرة المعرفية القادرة على التصحيح وضبط المسار المأمون نحو المستقبل الأفضل، وهكذا يكون كل اجتهاد بصوابه وخطئه إنما هو حلقة في هذه السلسلة المديدة، ولبنة في هذا البناء الشامخ.

هذا وقد اقتضت طبيعة هذا الجهد والغاية المتوخاة منه مع مراعاة المقدمات السابقة، اعتماد منهج علمي مُحَدَّد يُمكن تلخيص ركائزه في الآتي:

أولاً: الانطلاق من تشخيص دقيق لحاجة هذا الجيل إلى ما يُمكنه من فهم القرآن فهماً يُعينه على بناء شخصيته الإسلامية، وتجديد هويته ونظرته إلى الكون والحياة، وإلى هذا العالم المتحرّك من حوله، وامتلاك الأجوبة المناسبة للأسئلة والتحديات الداخلية والخارجية، والتي باتت تلاحقه في كل شأن من شؤون حياته.

ثانياً: الانطلاق من فرضية السياق الموضوعي الموحد للسورة، واتساق المسائل التي تُعالجها، ومن ثم اختيار العنوان الموحد لكل مجلس، ثم ربط كل مجلس بما قبله وبما بعده بحسب ما يقتضيه السياق.

ثالثاً: اعتماد الرؤية الشاملة لمحكّمات القرآن، وقيمه ومبادئه ومقاصده الكلية؛ لتجنب الوقوع في أي تدبر أو تفسير جزئي يُصادم رسالة القرآن وغاياته الكبرى، فكل مُتشابه ينبغي أن يُردّ إلى المحكم، وكل فرعي ينبغي أن يُردّ إلى أصله الكلي.

رابعًا: الاعتمادُ أولاً على فهم القرآن بالقرآن؛ إذ القرآن يُكَمِّلُ بعضُه بعضًا، ويُفسِّرُ بعضُه بعضًا بقواعده الكلية، أو بآياته التفصيلية، مع مُراعاة التطبيق النبوي والسياق التاريخي المُستند أساسًا إلى فهم السيرة النبوية الشريفة، وما يُميِّزُ كلَّ مرحلةٍ فيها عن مراحلها الأخرى؛ إذ إنَّ نزول القرآن الكريم مُنْجَبًا ومُفَرَّقًا إنما كان بالأساس ليُواكِِبَ حاجةً مُتجددةً ومُتغيِّرةً بحسب تغَيُّر الظروف المحيطة بهذه الدعوة المباركة.

خامسًا: الاستهداءُ العلميُّ والموضوعيُّ بأقوال المفسِّرين على اختلاف مناهجهم، من دون ذكر هذه الأقوال ولا مُقارنتها؛ إذ إنَّ هذا - على أهميته - من شأنه أن يُخْرِجَ الكتابَ عن خصوصيَّته المنهجية والموجهات التي ينطلق منها، فالكتاب ليس كتابًا مُوسَّعًا، ولا كتابًا مُقارنًا، كما إنه ليس كتابًا تَخْصُصِيًّا يُلبِّي حاجة الباحثين المتخصصين في هذا العلم، أو العلوم المُلاصقة والمُصاحبة.

وبناءً عليه وعلى ما تمَّ تأكيده أيضًا في المقدمات الموجهة، فإنه ليس مُتوقَّعًا من هذا الكتاب أن يتوسَّع في الدلالات اللغوية والبيانية، ولا في الاستنباطات الفقهية التفصيلية، ولا في مسائل الإعجاز العلميِّ ونحوه، ولا في مسائل الناسِخ والمنسوخ، وروايات أسباب النزول وغيرها، إلا بالقدر الذي يُناسِبُ خصوصية هذا الكتاب، مع التنبُّه إلى أنَّ هذا لا يعني التسطيحَ في البحث والمعالجة، والاتِّكاء على المنهج الوعظي أو العاطفي المجرَّد، فإنَّ مُعالجة التحديات التي تُواجهها الأمم في ميادينها المختلفة والإجابة عن أسئلتها الكبرى في الحياة، ودراسة أسباب نكستها ومقوِّمات نهضتها، كل ذلك يتطلَّبُ منهجًا علميًّا رصينًا، ونظرةً شاملةً كليةً مع بحثٍ في غاية العمق والدقة، وجُهدًا مُركَّزًا ومُتواصلًا لا يقلُّ عن الجهد الذي تتطلَّبه المعالجات العلمية التخصصية والتفصيلية.

والواقع الذي تعيشُه أُمَّتُنَا اليوم يشهد بهذه الحقيقة، ويشهدُ كذلك بالفراغ الكبير والخطير الذي تُعاني منه أُمَّتُنَا في هذا المجال، رغم ضخامة المصادر العلمية التخصصية، وكثرة المؤلفات والبحوث المختلفة فيها.

سادسًا: بناءً على ما تقدّم، فإنّ المتوقّع من هذا الكتاب:

- تقديم تدبّر علميٍّ وعمليٍّ مُيسّر وسهل الفهم بالنسبة لعامة القراء، يُعينهم على تصحيح حياتهم، وبناء شخصياتهم بما ينسجم مع رسالة القرآن ومقاصده الكلية.
- إبراز منهج القرآن في بناء الأمة والمجتمع المسلم، وطريقته في إدارة المجتمعات، وحلّ مشكلاتها، ورسم معالم النهوض لها.
- رسم الخارطة الكلية لمنظومة القيم الإسلامية، وبيان دورها في بناء الفرد والأسرة والمجتمع، وعلاقة هذه المنظومة بأركان الإيمان، وأحكام الشريعة التفصيلية، في تصوّر بنائيٍّ مُتكامل بعيدًا عن القراءات المجزأة، والاستدلالات المقطّعة.
- معالجة القضايا المعاصرة في ضوء المقاصد الكلية والمنظومة القيمية، والتجارب الدعوية الثريّة في القصص النبوي وغيره، إضافةً إلى الأدلة التفصيليّة المباشرة.
- تيسير التدبّر التفصيليٍّ لكل آية أو كلمة تحتاج إلى تفسير، وذلك في الفصل الملحق بكل مجلس، والذي يأتي تحت عنوان (دقائق التفسير)، مع ملاحظة أن هذه الدقائق إنما هي خلاصة ما تتبّع المؤلف - غفر الله له - في كتب التفسير، بما يراه راجحًا ومُتناسبًا مع منهجية هذا الكتاب، وجمهور المخاطبين به.

المقدمة العاشرة:

وقد كان من نِعَمِ الله على كاتب هذه الكلمات أن هياّ الله له صحبةً طيّبةً، ومشاركةً طويلةً في مجالس القرآن العامرة والمنتشرة في دولة قطر المحروسة، والتي تضمّ حلقات دوريّة أسبوعيّة، كلما انتهت ختمةٌ بدأت ختمةٌ ثانية وهكذا، وقد قدّحت في ذهني هذه المجالس فكرة (مجالس التدبّر)؛ لتكون صنوًا ورديفًا لمجالس التلاوة.

فجاء هذا الجهد مُقسّمًا للآيات على مقاطع، لكلّ مجلس مقطع، مُراعياً - قدر المستطاع - الوحدة الموضوعيّة للمقطع؛ بحيث يتم المعنى دون توقف أو انتظار، وبما يقتضيه وقت المجلس المعتاد، ففي كلّ مجلس هناك موضوع محوري يربط بين مجموعة الآيات هذه وبين

التساؤلات الكبيرة المطروحة في مجتمعاتنا اليوم، ثم يتم التعرّيج في كلّ مجلس على دقائق التفسير وما فيها من لطائف وفوائد.

وكما يصلح هذا التقسيم للمجالس المعروفة، فإنه يصلح كذلك للرجل مع أهل بيته، وللأُمّ مع أولادها، وللأصدقاء فيما بينهم، بمعنى: أن هذا الجهد قد راعى الجانب التربوي العملي، مع مُراعاته لحاجة التدبّر العلمي الهادف.

وفي الختام:

فإذا كان التفسير - كما أسلفنا - نوعاً من الاجتهاد؛ فإن المجتهد لا تبرأ ذمته بعد إحصار النية الصالحة إلا بشرطين: بذل الوسع من الجهد، وتوخي الأمانة في النقل والتحليل والاستنتاج، مع التنزه عن شبهة التحيز، ولوثة التعصب.

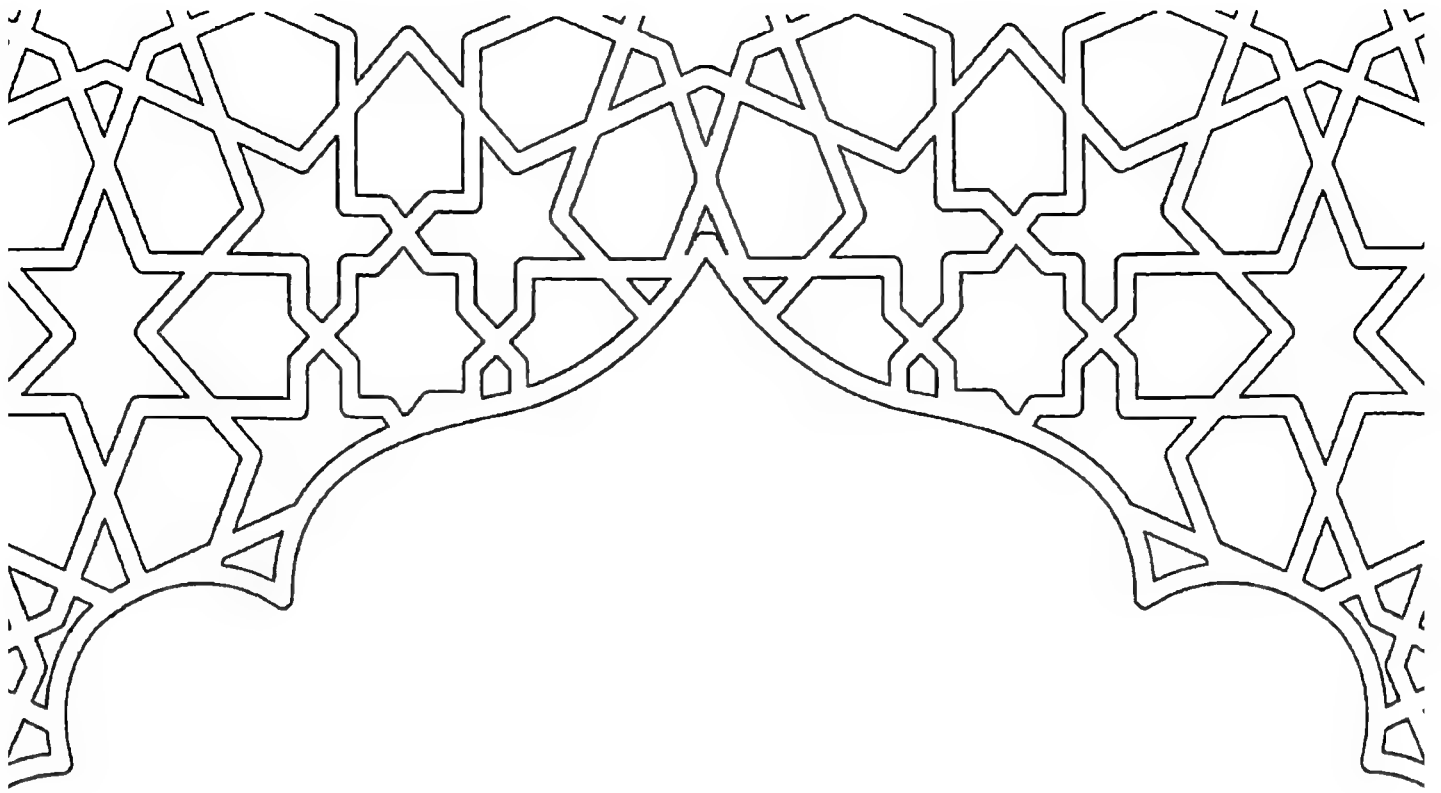
وهذا كله بيني وبين ربّي، ويا ويل كاتب هذه الكلمات إن ردّ الله عليه تعبّه ونصبّه لشهوة نفسية، أو نغرة عصبية، جعلته يحرف كلمات الله عن معانيها، ويشطّ بها عن سياقها.

هذا وقد هياّ الله لي مَنْ ساعدني في بناء المنهجية، والتنبيه على القواعد المرعية، ثم المراجعة الأخيرة والشاملة الشيخين الفاضلين: الشيخ الدكتور إبراهيم الأنصاري، سليل العلماء الصلحاء، وصاحب الفقه الواسع، والنظر الثاقب والناقد، والشيخ الدكتور محمد المصلح ابن بيت القرآن، وصاحب العقل المنهجي المتميز.

أما الذي تولّى المراجعة الدقيقة مضموناً وأسلوباً ولغة فهو الشيخ الألمي الدكتور وليد فائق الحسيني السامرائي، خريج المدارس الأصيلة، وصاحب الإجازات الجليلة.

جزاهم الله خيراً على ما نصّحوا وقدموا.

أما الذي يتحمّل المسؤولية كاملة عن كل خطأ، أو سهوة، أو غفلة، فإنما هو العبدُ الفقيرُ، وإخواني هؤلاء منه برّاء، وتبقى حاجتي قائمة لهم ولغيرهم من المحبّين والناصحين للتذكير والدعاء؛ فإنما العلم رَحِمٌ بين أهله، والله يغفر لنا ولهم ولجميع المسلمين.



سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

المجلس الأول: المنظومة القيمية

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٤﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٥﴾

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٦﴾ ﴿٧﴾

المنظومة القيمية

ذكر العلماء خصائص كثيرة لهذه السورة المباركة مبسوبة في مظانها من علوم القرآن والتفسير، بيد أن ميزتها الكبرى والأظهر إنما هي وجوب قراءتها في كل ركعة، يقول ﷺ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»^(١)، وهذا يستلزم وجوب حفظها على كل مصلٍّ، وتكرارها في اليوم الواحد سبع عشرة مرة، عدا قراءتها في النوافل والأذكار الراتبة ونحوها، وإذا قام المسلمون بهذه الواجبات الجليلة فإن قاعدة إيمانية وقيمية صلبة سيلتقون عليها تتجاوز الحدود السياسية والعرقية والطبقية.

إن هذا الدور الكبير الذي خصّ الله به سورة الفاتحة لا بد أنه مستند إلى خصوصية ذاتية في هذه السورة، ومعانٍ نفيسة لا توجد في غيرها من سور القرآن، كما ورد في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال - وقرأ عليه أبي أمّ القرآن - فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أُنْزِلَ فِي التَّوْرَةِ، وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ، وَلَا فِي الزَّبُورِ، وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا، إِنَّهَا السَّبْعُ الْمُثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيَ»^(٢).

(١) متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، ينظر: صحيح البخاري (١/٢٦٣) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ -

(١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (١/٢٩٥) دار الجليل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

(٢) رواه بهذا اللفظ أحمد في «مسنده» (٢/٣٥٧) المطبعة الميمنية، ط. ١٣١٣ هـ، تصحيح محمد الزهري الغمراوي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح غير سليمان بن داود فقد روى له أصحاب السنن، وهو ثقة جليل =

وهذا ما ينبغي البحث فيه، والتأني في تدبره، واستجلاء أسرارهِ.

إن مفتاح الجواب يكمنُ في وصفه ﷺ لهذه السورة بأنها (أُمُّ الْقُرْآنِ)، أخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ»^(١)، ولا شك أن أُمَّ الشَّيْءِ أصله، فالفاتحة هي أصل القرآن، وقد استنبط ابن عاشور معاني نفيسة لتأكيد هذا المعنى، فأرجع كل مواضع القرآن إلى معاني موجودة في سورة الفاتحة؛ من التوحيد، والعبادة، والشرعة، والأخلاق، ونحوها، وهو ما يمكن أن نُجمله فيما بات يُعرف اليوم بـ (المنظومة القيمية):

القيمة: هي المعيار الذي نزنُ به الأفكار والسلوكيات الفردية والجماعية، والمنظومة تعني: تلك القيم المترابطة والتي تشكل بمجموعها معيارًا كليًا تستند إليه الأمة في بناء تصوراتها وأحكامها الكلية، ومنطلقاتها الثقافية والأخلاقية.

إن المنظومة القيمية تعني: هُويَّة الأمة، وإنما تتمايز الأمم والمجتمعات البشرية على وفق تمايزها في منظوماتها القيمية، وأما الحاجات الحياتية للإنسان، وكذا الرغبة في تحصيل العلوم وأسباب الغنى والقوة، ووسائل الرفاه والرَّغادة والحضارة، فهذه كلها مشتركات إنسانية لا تُتميَّز أُمَّة عن أُمَّة، ولا مجتمعا عن مجتمع إلا كما يتميز الغني عن الفقير، والصحيح عن السقيم.

إن صناعة الهوية يعني: صناعة الأمة، بهذا المستوى وتحت هذا العنوان ينبغي أن ننظر إلى خصوصية (الفاتحة).

إن القيم الكبرى التي جاءت بها سورة الفاتحة من شأنها أن تؤسس لأمة جديدة بهوية جديدة؛ من أجل ذلك كانت الفاتحة هي السورة الوحيدة التي يجب على كل فرد في هذه الأمة أن يحفظها ويكررها، أما هذه القيم فيمكن تلخيصها في الآتي:

= كما رواه بنحوه الترمذي في «جامعه» (٥/ ١٥٥ / دار إحياء التراث العربي، تح أحمد شاكر) عن أبي هريرة أيضًا، وقال: حديث حسن صحيح، وله روايات بالفاظ تُقارِبُه في المعنى.

(١) ينظر: صحيح البخاري (٤/ ١٧٣٨ / دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م).

البسملة كلمة منحوتة تعني قول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وقد أشبعت هذه المقولة بحثاً من حيث دلالاتها العقدية والفقهية واللغوية، بيد أن الذي يعنينا هنا كونها قيمة أساساً في منظومة القيم التي عيّنت بصياغة هوية الأمة، فالأمة الإسلامية تستفتح كل أنشطتها الهامة العامة والخاصة بهذه المقولة، إنها لا تستفتح باسم السلطان الحاكم، ولا باسم الشعب المحكوم، ولا باسم الحزب أو القومية أو العشيرة، إن البسملة هنا هي كلمة السر في علاقة الإنسان بالغيب، وعلاقته بهذا الكون، وعلاقته بأخيه الإنسان الذي يشاركه في عقيدته وهويته.

ومعناها: إرادة الخير للآخر، وليست الرقة سوى وصف مُقترن بهذه الإرادة بحقّ البشر لكنها ليست لازمة، ولا واردة بحقّ الله، وتكرار المسلم لكلمة الرحمة أربع مراتٍ في كلّ ركعة من شأنه أن يجعل قلبه وضميره يتشرب هذه الصفة، فهي وإن جاءت في مقام الصفة الإلهية، إلا أن انعكاسها في نفس التالي حاصل بالضرورة، وتكرار الرحمة بهذين الاسمين العظيمين ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ دون ذكرٍ لأسماء الله المقابلة مثل: (القهار)، و(شديد العقاب) في سورة الفاتحة يُوجي بتغليب صفة الرحمة، وأنها هي الأصل، وأن ما يُقابلها استثناء تقتضيه حالات استثنائية؛ ولذلك ورد في الحديث القدسي: «سَبَقْتُ رَحْمَتِي غَضَبِي» إنَّ غرس هذه القيمة في وجدان الأمة المسلمة يجعل هذه الأمة صاحبة رسالة إنسانية وكونية، وأن استعمالها للقوة ليس إلا استثناء كذلك بحسب طبيعة التحدي وقسوة المعتدي، كما أن نزولها إلى المستويات المعتادة للأمم والشعوب الأخرى في حلّ مشاكلها وحسم صراعاتها إنما هو تحلُّ عن هذه الرسالة.

(١) رواه مسلم (٤/٢١٠٧) دار الجليل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين) بهذا اللفظ عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأصله في البخاري عن أبي هريرة أيضاً، وفيه زيادة، ينظر: صحيح البخاري (٦/٢٧٤٥) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧-١٩٨٧ م.

إن قيمة الرحمة هي القيمة المحورية للرسالة الإسلامية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فهذا الاستثناء بعد النفي يفيد الحصر، وهو بمثابة قولك: ما الإسلام إلا رحمة، وعليه فإن الخيط الناظم لمفردات الرسالة وأحكامها التفصيلية إنما هو الرحمة، وهذا ما ينبغي ملاحظته لكل مجتهد ومُستنبط ومُتدبر.

(٣) التوحيد:

وهو القيمة الإيمانية الكبرى، فهو أصل الإيمان، وباب الإسلام، وهو دعوة الأنبياء جميعاً، وهو اليوم مِيزة لهذه الأمة بعد أن دخل الشرك في الملل الأخرى، وأسهم التحريف المتعمد للكتب السماوية السابقة في ضياع التوحيد واختلاطه بكثير من المعتقدات الوثنية.

لقد جاء التوحيد في سورة الفاتحة بأكثر من صيغة؛ فالبسملة هي توحيدٌ مُحضٌ، وكذا الإقرار بربوبية الله المطلقة ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم في العهد العملي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ولا يخفى هنا ما يعنيه تقديم المفعول على الفاعل وفعله من إعلان الاختصاص والتفرد، وقد تضمنت الفاتحة أيضاً الإقرار بأسمائه وصفاته تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

(٤) الإيمان باليوم الآخر:

وهي القيمة الإيمانية الأخرى المتعلقة بتكوين الدافعية الذاتية للعمل الصالح، فالإيمان باليوم الآخر ليس إيماناً فلسفياً بوجود الحياة الأخرى، وإنما هو عقيدة جزائية، فما يفعله الناس هنا يلقونه هناك خيراً بخير، وشرّاً بشرّاً، ومن هنا جاءت تسميته هنا باسم: ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: يوم الحساب، وكل ما ورد في القرآن من وصف البعث والحشر، والجنة والنار، إنما هو تفسير وتفصيل لما ورد هنا في أم الكتاب.

(٥) الهداية:

ومعناها: العلم النافع المؤدّي إلى العمل الصالح، وهذا التخصيص مقصود لربط المعرفة بالسلوك، فقولته تعالى: ﴿أَهْدِنَا﴾ فيه إضافة دقيقة وجميلة على ما لو قال: (علّمنّا)، ويدرك أهمية هذه الإضافة من نَظَرَ إلى حال العالم اليوم وشقائه بسبب صنوف من العلم استُعِمِلَتْ في صناعة الأسلحة التدميرية الشاملة؛ كالأسلحة النووية، والبيولوجية، والكيميائية، وكذلك استخدام الخبرات السياسية والإدارية

المتراكمة في استعمار الشعوب وقهرها وتفكيكها، حتى اقترنت السياسة بالكذب، واقرن الاقتصاد بالظلم، واقرن الذكاء بالشيطنة، فعاد العلم سبباً في شقاء البشرية كما كان سبباً في سعادتها، بينما مقصود الهداية تهذيب العلم وتوجيهه لتحقيق السعادة العامة.

(٦) العدل:

وهو المقصود بـ: ﴿الْصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وهو العدل الشامل في كل علاقات الإنسان، بينه وبين خالقه، وبينه وبين أخيه الإنسان، وبينه وبين كل الكائنات في هذا الكون الرحيب، وكل أحكام العلاقات التي وردت في القرآن الكريم إنما هي تفسير وتفصيل للصراط المستقيم.

(٧) المساواة:

وهي غير العدل، فالعدل هو الحق، والناس متفاوتون في استحقاقاتهم؛ ولذلك نفى القرآن المساواة في كل ما يتفاوت فيه الناس علماً وعملاً، فقال: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥]، بيد أن المساواة الواجبة إنما تكون في الحق الإنساني العام، فلا يتعالى أصل على أصل، ولا لون على لون، وهذا هو المُستنبط من قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والذي فصله القرآن في مثل قوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ [الحجرات: ١٣]، فالناس كلهم واحد من حيث وحدة المصدر، ووحدة الخلق، ووحدة المصير.

(٨) العمل الجماعي:

فكل الأفعال الواردة في هذه السورة إنما جاءت بصيغة الجمع: (نعبد، نستعين، اهْدِنَا)، وهي إشارة لطيفة للتعاون على الخير، حتى في الدعاء والعبادة، ومن ثمَّ تأكَّدت صلاة الجماعة، ووحدة الصيام والفطر، ووحدة المناسك في الحج، والتواصل بين الفقراء والأغنياء في الزكاة، ثم تأكَّدت هذه المعاني في الآداب الإسلامية التواصلية مع الجار، والصديق، والرحم، وهكذا.

(٩) الولاء لأهل الحق:

وهم أهل الصراط المستقيم، الذين أنعم الله عليهم بالهداية، فالإسلام لم يأت لبناء علاقة ثنائية بين العبد وخالقه فحسب، بل لبناء العلاقة بين العباد أنفسهم؛ فالمؤمن السائر على الصراط المستقيم عليه أن يتذكر أنه لا يسير لوحده، بل معه إخوان وأخوات عن يمينه وشماله، ومن أمامه ومن خلفه، وقد جاء تفصيل هذا المعنى الجميل في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ومن الخطأ الفادح أن يظنَّ ظانُّ أن هذا الولاء هو انعزال عن البشرية، فضلاً عن إعلان الحرب عليها، كيف والله يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، والآية الأولى في هذه السورة بعد البسملة هي قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وإنما الربُّ هو المالك المدبِّر المُرَبِّي، فهل رأيتم مالكا يريد بملكه الخراب؟ وهل رأيتم رباً يريد بمربوبيه الشر؟! كيف، والله بعث موسى إلى فرعون على جبروته وطغيانه فقال: ﴿لَعَلَّكَ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

إن الولاء لأهل الحقِّ معناه تعزيز مقومات الخير في البشرية، وهذا ما نصَّ عليه القرآن بقوله: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فأمَّة الحقِّ تتعاون وتتناصر فيما بينها، وتتمايز عن الباطل؛ لتكون أقدر على هداية الآخرين وتقديم الخير لهم، وليس للانتقام منهم، أو سحق وجودهم وحقوقهم.

(١٠) التمايز عن أهل الباطل:

وهم الذين تنكبوا الصراط المستقيم، إما عن هوى، وعناد، وحسد، ومكابرة، وهم: ﴿الْمَفْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وإما لالتباس الأمور عليهم بسبب حملات التشويش، والتضليل، والتقليد الأعمى، وعدم الرغبة في التعلم، وهم: (الضالُّون)، وكلاهما يسير بعكس طريق الهداية، فالأولون امتلكوا العلم لكنهم كتموه وحرَّفوه لمرضٍ في قلوبهم، فاستحقوا غضبَ الله، والآخرون جهلوا الحقَّ وكسلوا عن البحث فيه، ورضوا بما هم عليه.

ولئن كان المُفسِّرون قد قَصَّروا الصنف الأوَّل على اليهود، وقَصَّروا الصنف الثاني على النصارى؛ فإن ذكر الوصف في هذه السورة دون ذكر الموصوفين يوحى بإمكانية القياس، فكلُّ عالم يتعمَّد مخالفة الحقِّ بلا عذرٍ، فهو مغضوبٌ عليه عند الله، وإن كان لليهود من ذلك النصيب الأوفر، وكلُّ جاهلٍ مُقيم على جهله، ولا يُكلِّف نفسه عناء البحث غرورًا بما عنده، أو تقليدًا لكُبرائه، أو تكبرًا على الآخرين، فهو ضالٌّ، وإن كان للنصارى من ذلك النصيب الأكبر، والله أعلم.

وهذان الصنفان يقفان حائلًا دون وصول الخير لعامة الناس، ومن هنا وجب التمايُز عنهم؛ ليكون الناس على بينة، ولا يعني هذا التمايُز حرمانهم من حقِّ النصح والتواصل الإيجابي، كيف والقرآن نصٌّ على هذا بقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وهل أهل الكتاب إلا اليهود والنصارى؟!

بقي أن نتنبَّه إلى حقيقة كبيرة، وهي: خُلُوُّ سورة الفاتحة من الإشارة إلى الشهادة الثانية، والركن الأهم بعد التوحيد: (الإيمان بمحمدٍ رسول الله)، وحينما تكون الفاتحة هي أمُّ القرآن، والمتكفلة بصناعة هويَّة الأمة وقاعدتها الصلبة، فإننا أمام تساؤلٍ يحتاج إلى نظرٍ وتدبُّرٍ عميق.

والأقرب في هذا: أن الإشارة قد وردت في القيِّمة السابعة، وهي الولاءُ لأهل الحقِّ؛ فقولُ المسلم في كلِّ ركعة: ﴿صِرْطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يُذكِّره بإمام هذا الجمع المبارك، والسبب الأساس في هدايته، وحصول النعمة له، وهو الرسولُ الأكرم ﷺ.

وقد اكتفَّت الفاتحة بهذه الإشارة؛ تأكيدًا لبراءة القرآن عن كلِّ نزعة بشرية، فلو صحَّت شبهة المكابرين بنسبة هذا القرآن لمحمدٍ، فلماذا يتعمَّد محمدٌ أن يحذف اسمَه من أمِّ القرآن، وهي التي يقرؤها كلُّ المسلمين صباح مساء؟! ولماذا يحرم نفسه من هذا الذكر وهذا المجد الذي ما بعده مجد؟!

لقد استبانَ في هذه القيم العشر أن مهمَّة الفاتحة إنما هي صياغة الخطوط العريضة، والمعالم الرئيسة لهويَّة الأمة وخصوصيَّتها، وطبيعة الرسالة التي تحملها لهذا العالم.

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ معموله لفعل محذوف تقديره هنا (أقرأ)، وهذا هو المتسق مع قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي

خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وقد جرى حذف الفعل في البسملة لسببين:

الأول: تخفيفاً لكثرة التكرار، ولأنه معلومٌ بقريضة الحال.

والثاني: أن البسملة تُستعمل لغير القرآن في أحوال كثيرة، ولكلِّ حالٍ فعله اللائق به، فأنت تأكل بسم الله، وتشرب بسم الله، وهكذا، ومن ثَمَّ اقْتَضَى حذف الفعل؛ ليصحَّ تقديره لكلِّ حال بما يناسبه، والله أعلم.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تقرير حقيقة أن الله يستحق الثناء والتمجيد دائماً وأبداً بحكم ربوبيته، بغض النظر عن حال الذاكر الذي قد يكون في نعمة، وقد يكون في مصيبة، وذلك بخلاف الشكر الذي لا يكون إلا في حال النعمة.

وقد جاء تقرير الحقيقة هنا بصيغة الجملة الاسمية، بينما ورد في خطبه ﷺ تقريرها بصيغة الفعل، والظاهر أن حمد العباد لربهم يتخذ طابع التكرار والتجدد، فكان الفعل به أليق، بينما حمدُ الله لنفسه يتخذ طابع الثبوت واللزوم، فكان الاسم به أليق.

هذا وقد يُراد بالاسم طلب الفعل، كما يراد بالخبر الأمر، فالفصل بينهما ليس فصلاً تاماً، وإنما لحصول معانٍ دقيقة ورقيقة، وفيه أن الحمد لله ذِكْرٌ مناسبٌ لخواتيم الأعمال، كما أن البسملة ذِكْرٌ يناسب فواتحها، فالمسلم يذكر الله في بداية عمله، ويذكره في خاتمته، والله أعلم.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تقديم صفة الرحمة على يوم الجزاء مُشْعِرٌ بالأنس، وذلك على خلاف عادة البشر في قرنهم الوعيد والتهديد بالحساب، ومصادق هذه الالتفاتة حديث: «إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحُمُونَ، وَبِهَا تَعَطَّفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

(١) رواه مسلم (٢١٠٨/٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَدَّمَ العبادة على الاستعانة، وهذا من حُسن التدبُّن والتعبُّد، وحُسن الأدب مع الخالق، فالعبد الصالح يُقدِّم الطاعة أولاً ثم يسأل حاجته.

وهنا إشارة بمظنَّة استجابة الدعاء إذا جاء بعد تقديم الطاعة.

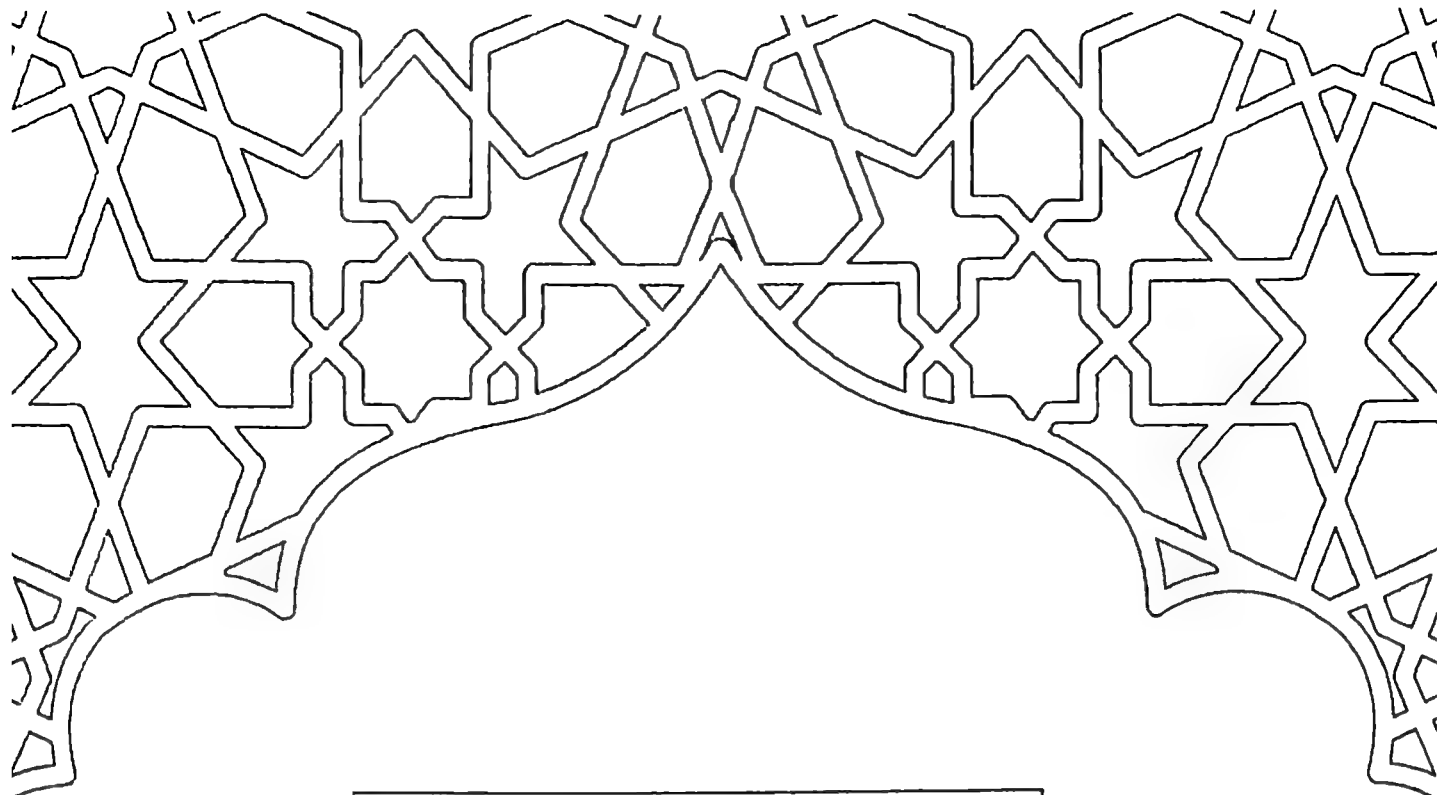
﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أول طلب المؤمن إنها هو (الهداية) حتى لو كان محتاجاً إلى غيرها؛ كالصحة، والمال، والمأوى، وذلك من حُسن الفقه، وحسن التعبُّد أيضاً.

وفيه التبرُّي من حول العبد وقوَّته إلى حول الله وقوَّته، فالهداية لا يدركها بعلمه وذكائه المجرَّد إن لم يكن عنده من الاستعداد الإيماني والروحي ما يؤهِّله لهذا اللطف.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فيه حُسن الأدب مع المؤمنين، والسابقين منهم خاصَّة، فأنت تدعو الله أن يُلحِقَكَ بهم ويعُمَّكَ بفضله معهم، وهذا تأديبٌ قرآني لطيف يُبعدُ العبدَ عن شوائب الغرور والتعالي على الآخرين، وفي العبارة إشارةً أخرى، فحذف النعمة ونوعها والاكتفاء بقوله عزَّ من قائل: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يُوجِي بأن النعمة الحقَّ إنها هي الهداية، حتى لو كان معها الفقر والنقص من حظوظ الدنيا، فعاقبة ذلك كله إلى خيرٍ ونعمة، كما ورد في الحديث الصحيح: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١).

وأما المغضوب عليهم والضالُّون فهم ليسوا على نعمةٍ مهما أوتوا من نعيم الدنيا ولذائذها، فإنها العبرةُ بعواقبها ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

(١) رواه مسلم (٢٢٩٥/٤) عن صهيب الرومي رضي الله عنه.



سُورَةُ الْبَقَرَةِ

المجلس الثاني: بناء المجتمع المسلم وتمييزه عن المجتمعات الأخرى

المجلس الثالث: استخلاف الإنسان على هذه الأرض

المجلس الرابع: العهد الإلهي لبني إسرائيل

المجلس الخامس: بنو إسرائيل في خضم التجربة

المجلس السادس: محاكمة ومحاجة

المجلس السابع: دروس ومسائل من وحي التجربة

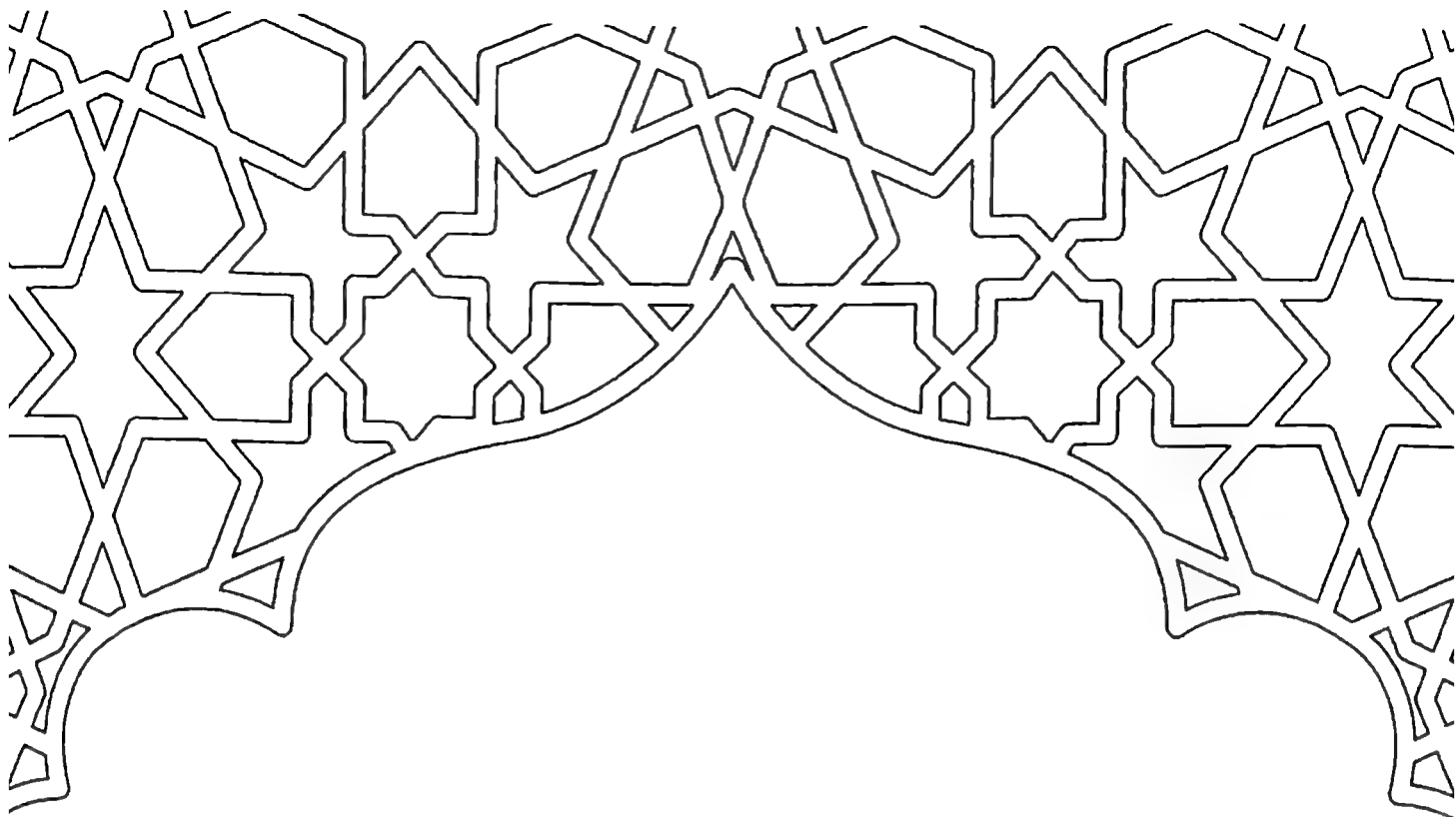
المجلس الثامن: معالم في هوية الأمة الجديدة

المجلس التاسع: تمييز الهوية

المجلس العاشر: أسباب الضلال

المجلس الحادي عشر: بناء المجتمع

المجلس الثاني عشر: رسالة الصوم



المجلس الثالث عشر: رسالة الجهاد

المجلس الرابع عشر: رسالة الحج

المجلس الخامس عشر: جبهة النفاق

المجلس السادس عشر: يسألونك

المجلس السابع عشر: فقه الطلاق

المجلس الثامن عشر: التربية العسكرية

المجلس التاسع عشر: مجادلات في مسائل الإيمان

المجلس العشرون: فقه الإنفاق

المجلس الحادي والعشرون: فقه العلاقات المالية

المجلس الثاني والعشرون: موجهات ختامية

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿الذِّكْرُ﴾ (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءَ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامِنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحَتِ بَعْضُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرٌّ يُجْعَلُونَ أَسْنِعُومٌ فِي ءَاذَانِهِمْ مِنَ الصُّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يَأْتِيهَا النَّاسُ عِبْدُهُمْ أَلْزَى خَلْقِكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارُ أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِمْ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥) إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ آمِنًا فَأَخِيبِكُمْ ثُمَّ يُبَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

إذا كانت سورة الفاتحة قد أسست لهوية المجتمع المسلم وقيمه ومبادئه الكبرى، فإن سورة البقرة جاءت لتبسط القول في تلك الأسس، ولتبدأ في عملية البناء المتواصل لهذا المجتمع، وهكذا جاءت فواتح هذه السورة لشرح معاني الإيمان، وبيان مرجعية المؤمنين، وصفاتهم وخصائصهم في مقارنة طويلة ومفصلة مع المجتمعات الأخرى المحيطة بهم، وكما يأتي:

أولاً: تقسيم المجتمع:

في سورة الفاتحة كانت الإشارة إلى ﴿الْمُتَّقِينَ﴾، و﴿الْمُهْتَدِينَ﴾ و﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، و﴿الضَّالِّينَ﴾ فالعالمون هم الخلق قبل تصنيفهم بحسب مواقفهم من ﴿الضَّرَاطِ الْمُنْتَقِمِ﴾، والمُهْتَدُونَ هم السائرون على هذا الصراط، والمغضوب عليهم هم الذين تنكبوا الصراط وحادوا عنه عنادًا واستكبارًا، والضالون هم التائهون بسبب الجهل والتقليد الأعمى للآباء والكبراء.

في مقدمات البقرة جاء التصنيف بطريقتين أخرى، والذين تناولوا هذا التصنيف حصروه في ثلاثة: (المؤمنين، والكافرين، والمنافقين)، والذي رأيته أنه تصنيف رباعي أيضًا، ذكر الله فيه المؤمنين، الكافرين، والمنافقين، ثم رجع إلى ما بدأت به الفاتحة، فهناك قال: ﴿رَبِّ الْمُنِيبِينَ﴾، وهنا قال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾.

إن التصنيف الأقرب للعدل وللواقع هو التصنيف الرباعي؛ ذلك لأن عامة الناس ممن لم تبلغهم الدعوة، أو بلغتهم بصورة ناقصة ومشوهة وغير مقنعة لا يمكن حشرهم في خانة الكافرين، خاصة بالأوصاف التي حدّتها الآيتان السادسة والسابعة في وصف الكافرين.

إِنَّ الْقُرْآنَ حِينَما يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، أو ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التحریم: ٧]، إنما يعني أولئك الذين سمعوا القرآن ووعوه، وقامت عليهم الحجة به لكنهم رفضوه واتخذوا منه موقفَ الحربِ والعداوة.

أما سائرُ الناس فلا زال القرآن يُخاطِبُهُم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، و﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ يُخاطِبُهُم بالقواسم المشتركة بينهم وبين المؤمنين، ومثل هذا خطاب الأنبياء: ﴿وَيَقَوْمُ﴾.

إِنَّ هذا التصنيف ليس تصنيفاً اعتبارياً أو أدبياً مجرداً، بل هو تصنيفٌ بُنِيَ عليه أحكام شرعيةٌ دقيقة كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَنِّلُواكُم فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُم فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المتحنة: ٨، ٩].

أما التصنيف الثلاثي إلى مؤمنين وكافرين ومنافقين فهو تصنيفٌ بحسب المواقف الحادة من القرآن الكريم، والقسمة العقلية لا تحتل غير ذلك؛ فالمرء إما مؤمن به، وإما كافر، وإما مظهر للإيمان مبطن للكفر، لكن لماذا اعتمد القرآن هذا التصنيف المختلف نوعاً ما عن سورة الفاتحة؟

الأقرب - والله أعلم - : أن تصنيف الفاتحة اعتمد التصنيف بحسب الأسباب والدوافع الرئيسة؛ فالهداية للمؤمنين، والجهل للضالين، والعناد للمغضوب عليهم.

بينما في سورة البقرة اعتمد المواقف الكلية (الإيمان، والكفر، والنفاق)، وهذا الفارق يتناسب مع خصوصية السورتين، فالفاتحة - وهي سورة مكية - كانت أقرب لتقرير الحقائق وليست لبيان الأحكام، بخلاف البقرة والتي هي سورة مدنية؛ حيث إن حقيقة المنافقين لا تختلف عند الله عن حقيقة الكافرين، بينما التفريق بينهما ضروري في التعامل اليومي، وفي الأحكام الفقهية المتعلقة به، وهذا هو الذي بدأت بتفصيله سورة البقرة.

وأخيرًا: فإن المنافقين لم يَظهروا إلا في المدينة؛ وبما أن الفاتحة نزلت في مكة فقد اكتفى القرآن ببيان أسباب الانحراف إلى الكفر، وهي الأسباب التي تشمل كل الكافرين إلى قيام الساعة.

تجدر الإشارة هنا أن هذا التصنيف إنما جاء بحسب المواقف الكلية من الإيمان، ولكن القرآن له تصنيفات أخرى للمجتمعات الإنسانية وباعتبارات أخرى كثيرة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿فَعِنَهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢] وهناك أيضًا المهاجرون والأنصار، والأعراب والمعاهدون، والمحاربون والمسلمون وغيرهم.

ثانيًا: بيان معالم الهدى:

في سورة الفاتحة اكتفى القرآن بقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وهنا شرع بتوصيف طريق الهدى وبيان معالمه:

١ - التقوى:

وهي القلق الإيجابي، والخوف من الوقوع في الخطأ أو الخطيئة هي الدافع الأول للنظر والتفكير الجاد للتمييز بين الحق والباطل والبحث عن طريق الخلاص، وهذه صفة ذاتية لا تقود صاحبها إلا للخير؛ ولذلك قَدَّمَهَا القرآن.

٢ - الإيمان بالغيب:

وهي أولى ثمار التقوى الذاتية وما تَسْتَبِغُهُ من صدق في البحث، وشعور بجديّة الأمر، فالكون الذي يحيط بهذا الإنسان لا يمثل الحقيقة كلّها، فالفطرة الصافية والتفكير الجاد يقودان بالضرورة إلى الإيمان بالغيب، الغيب الذي هو مصدر هذا الخلق، والغيب الذي هو مآل هذا الخلق.

فأثر القصد والحكمة ظاهر في كل جزئية من جزئيات هذا الكون، بين الذكر والأنثى، وبين الناظر والمنظور، والسماع والمسموع، وبين الإنسان والحيوان والنبات والماء والهواء والضوء والطاقة.

حتى قيل إن حاجة الإنسان للشيء دليل على وجوده، وكذا حاجة سائر الكائنات، فمن الذي لبى هذه الحاجات؟ ومن الذي نسق كل هذا التنسيق بين هذه الموجودات؟ وهذا ما سنرى تفصيله في كثير من سور القرآن.

٣- إقامة الصلاة:

وهي الدلالة الأولى على أن الإيمان بالغيب هو إيمان عملي ودود وليس مجرد فلسفة أنتجها النظر العقلي المجرد، فالله الذي أنزل علينا نعمه لا بد أن يصعد إليه منا الشكر والدعاء والثناء الحسن، وتلك هي حقيقة الصلاة في بعدها الأول.

٤- إيتاء الزكاة:

وهي ثمرة الإيمان الأولى في البعد الإنساني، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، لسد حاجة الفقير والمسكين، وهي العلامة على أن الإيمان بالغيب ما جاء ليعزل الإنسان عن محيطه في عالم الشهادة، فالأخذ والعطاء والرزق والنفقة ستستمر بأبهى صورها ﴿وَمَا رَزَقْنَهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

٥- وحدة الرسالات:

وهي البعد التاريخي للإيمان ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فالأخِر لا يكفر بالأول، والحاضر لا ينفصل عن الماضي، والرسُل جميعًا إنما يؤدُّون رسالة واحدة، ومن مصدر واحد، وإن كانت بفصول متعددة وآماد مختلفة.

ومن اللطيف هنا أنك تجد في القرآن أسماء النبيين السابقين من آدم ونوح إلى موسى وعيسى أكثر مما تجد اسم محمد عليه وعليهم أزكى الصلوات والتسليمات.

٦- الإيمان باليوم الآخر:

وهو البعد المستقبلي الغائي، فحياة الإنسان مديدة أكثر بكثير من عمره المحدود على هذه الأرض، بل إن عمره هنا ليس إلا مقدمة اختبارية لنوعية الحياة الباقية التي سيعيشها في ذلك العالم الآخر.

٧- الفلاح:

وهو النجاح الملازم لمن تمسك بالصفات الست واستقام عليها، إنه طمأنينة الدنيا وسعادة الآخرة.

ثالثاً: بيان أسباب الكفر:

الكفر غطاء يضربه الإنسان بنفسه على عقله وفطرته، ليجحد به ما هو من ضرورات العقل ولوازم الفطرة، فينكر آيات الله في خلقه، ومعجزاته لأنبيائه، والنور المنبثق من وحيه ورسالاته، ولشدة وضوح هذا الصنف بصلفه وعنايه لم يشأ القرآن أن يطيل في وصف حالهم، وإنما اكتفى بذكر الأسباب الرئيسة لهذا الضلال الظاهر والمكشوف:

١- العناد:

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إنه الموقف المسبق الذي يتخذه المرء لأسباب ليس لها صلة بالفكرة المطروحة، فالكبر والحسد والحقد والتعصب ونحوها كلها دافعات لتبني الحكم المسبق والذي لا يدع مجالاً للحوار أو الجدل، ولا حتى للتفكير والتأمل.

٢- تعطيل الفكر:

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ وهو من لوازم التكبر والمكابرة، ونسبة الختم إلى الله إنما كان بحكم إرادة الله المطلقة التي لا تنفصل عن عدله وحكمته، والله لا يظلم أحداً، لكنها الأسباب والسنن التي وضعها الله في هذا الكون؛ فمن طلب الهدى هداه الله، ومن تكبر أضله الله، تماماً كالذي يأخذ الدواء فيشفي، ويأخذ السم فيردى.

٣- تعطيل السمع:

﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ وقد ورد تأكيد هذا في مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْفَوَ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]؛ ولذلك يهربون من مجالس الذكر وجَلَقِ العلم، ويملأون آذانهم باللهو والعبث.

٤- تعطيل البصر:

﴿وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةٌ﴾ وليست الغشاوة سوى غَبَشِ الكبر والعناد، فالعين ترى الظواهر لكنها لا ترى الحقائق الكامنة فيها، وترى النور لكنها تُعرض عنه، إنها محجوبة بالهوى والأنانية والمصالح الآنيّة، إنها باختصار لا تريد أن ترى الحق، ولا تريد أن ترى الواقع، وإنما تريد أن ترى ما تشتهي.

وقد قيل لأحد الصالحين: كيف رأت قريش رسول الله ثم لم يؤمنوا به؟ قال: إنهم لم يروا رسول الله، وإنما رأوا يتيم أبي طالب!

إن ثلاثيّة القلب والسمع والبصر أكّدها القرآن في غير هذا الموضع في مثل قوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]؛ تنبيهًا لمسؤولية الإنسان في فتح كل منافذ المعرفة عنده ليصل إلى الحقيقة، هذا هو واجبه الأول وتلك هي مسؤوليته.

رابعًا: بيان صفات المنافقين:

النفاق هو الطريق الخفيّ الباطنيّ المظلم، ومنه النفاق؛ لأنّ المنافق يبطن الكفر ويتظاهر بالإيمان، فإن بدا شيء من كفره بزلّة لسان وغيبة جنان عاد ليحلف الأيمان ﴿أَتَّخِذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٢].

ولقابلية هذا الصنف للتخفي والتلون راح القرآن يتلو أوصافهم ويُجَلِّسها ويضرب لها الأمثال:

١ - إبطان الكفر وإظهار الإيمان:

ولذلك فهم داخلون في مسمى الكفر حقيقة، وإظهارهم للإيمان لا يُغَيِّرُ من حقيقتهم عند الله، ولكنه يُؤَثِّرُ في أحكامهم الدنيوية، وهذا ما ستوسَّعُ فيه عند تدبُّر سورة (المنافقون).

٢ - المخادعة:

وهي صفة مناسبة للنفاق وملازمة له، وهي ليست بعيدة عن معنى النفاق في إخفاء الحقيقة، وتزويد عليه في المكر والكيد.

٣ - ضعف الشخصية:

والذي عبّر القرآن عنه بقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ والظاهر هنا أنه غير الحسد والكبر ونحوهما لأنها صفات الكافرين أيضًا، لكن الذي يفرق هؤلاء عن بقية الكافرين؛ أنهم ضعاف خائفون متردّدون، يلهثون خلف شهواتهم القريبة، ولا تليق بهم صفات القوة والرجولة وإن كانت باطلة كالعناد والتكبر والشجاعة والاستعداد للتضحية.

٤ - الكذب:

وهو من لوازم ضعف الشخصية بخلاف القوي ولو كان كافرًا، وهي هنا وإن جاءت بمعنى الكذب في ادعائهم الإيمان، إلا أن من استساغ الكذب في معتقده هان عليه الكذب فيما سواه؛ ولذلك ورد في الحديث عن علامات المنافق: «وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ»^(١).

(١) جزء من حديث متفق عليه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، وعنهما: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النَّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا أُوْمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»، مع اختلاف بسيط بين الشيخين، وما أثبتناه لفظ البخاري، ينظر: صحيح البخاري (١/ ٢١) / دار ابن كثير، تح د. مصطفى البنا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ م)، وصحيح مسلم (١/ ٧٨) / دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٢٤، تح مجموعة من المحققين).

٥ - الفساد بدعوى الصلاح:

فالمنافق مفسدٌ في الأرض، ولا يمكن إلا أن يكون مفسداً، لكنه يقرن الإفساد بالتبرير على خلاف الكافر الذي لا يحتاج إلى هذا التبرير، وأوّل ما يفسده المنافق هو بيته، فالمنافق لا يتأتّى له أن يُعلّم أولاده الصدق والكرامة والمروءة، بل سيزيّن لهم الباطل لتحسين موقفه وتلبيع صورته.

وقد رأينا من مُنافقي (التقيّة) ما يُثبت ذلك، حيث يُشجّعون أتباعهم على الكذب والخداع تحقيقاً لمصلحة الدين أو المذهب بزعمهم.

٦ - ازدراء المؤمنين والاستهزاء بهم:

وهذه الصفة وإن كانت تبدو كأنها مشتركة مع الكافرين غير أن الظاهر أن رمي هؤلاء للمؤمنين مختلف، فأولئك يطعنون في الدين وأهله، وهؤلاء يعظّمون الدين وينتقصون من أهله، كما تعظّم بعض الفرق محمّداً ﷺ وتشتّم صحابته، ومثلهم من يعظّم القرآن ويطعن في القراء والمفسّرين، ويمجّد الحديث النبويّ ويطعن في المحدثين، ويُقرّر الصلاة والزكاة ثم ينتقص من المصلّين والمزكّين، ومقصودهم تجريد الدين من أهله، وتحويله إلى شعارات وعبارات تضمّمها الأوراق والجدران لا القلوب والوجدان.

٧ - موالاة الكافرين:

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ وهو مثل قوله تعالى في سورة الحشر: ﴿...﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١] وهو ما يثبت كفرهم وعداءهم للمؤمنين.

٨ - غلق منافذ المعرفة عندهم:

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ وهذه صفات الكافرين أيضاً، غير أن الدافع لها مختلف، فذلك يغلقها عنادا وتكبّراً، وهذا يغلقها بمعنى: أنه يخفي الحقائق التي وصلته ويكتُمها ويحرّفها،

فهو يحرص على السمع والنظر تجسُّسًا ومراقبة، لكنه لا ينتفع بذلك.

وحين يُستشهد لا يشهد بما رأى وسمع، ولذلك فهو (أبكم) مع نطقه؛ لأنه أبكم عن قول الحق.

وهو أيضًا يسمع صواعق الحق لكنه لا يطيقها، فيضع أصابعه في آذانه خوفا من أن تصل كلمة الحق إلى قلبه، وذلك هو صممهم.

٩ - التردد:

﴿كَلَّمَآ أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْآ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ والتردد هنا لا يعني التردد بين الإيمان والكفر، ولا بين المؤمنين والكافرين، فالقرآن نفى عنهم الإيمان جملة وأثبت لهم الكفر جملة.

وإنما المقصود التملُّق لهؤلاء أو لهؤلاء بحسب المكاسب والمغانم بلا ثوابت من دين ولا مروءة من خلق، وهم يعدُّون كل ذلك من السياسة والكياسة.

خامسًا: دعوة الآخرين ومحاجتهم:

الآخرون هنا هم الناس غير المصنِّفين، ممَّن لم تبلغهم الدعوة ولم تقم عليهم الحجَّة، ولم يتخذوا موقفًا واضحًا من الإسلام، وهؤلاء هم الذين يوجَّه القرآن إليهم خطابه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.

وفي الآيات المتبقية من هذا المقطع توجيهات لدعوتهم ومناقشتهم نلخصها في الآتي:

١ - الخطاب بالاسم الجامع المشترك:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَنُ﴾ ﴿وَيَقَوْمُ﴾، وأما مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا

الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] فإنَّما يوجَّه لمن بلغتهم الدعوة فرفضوها واتخذوا منها موقفًا عدائيًا واضحًا.

٢ - التذكير بوحدة الخلق والنشأة:

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فلا مفاضلة ولا تمييز في أصل الخلق.

٣ - التذكير بنعم الله العامة والشاملة لكل الناس:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

٤ - تقديم الدليل البين الواضح:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وأنه لا حياء في العلم، واستخدام الوسائل المناسبة لإيصال الفكرة الصحيحة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

٥ - التحذير من عاقبة الكفر ومعاندة الحق:

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ والتحذير كذلك من النكوص عن الحق بعد معرفته ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾
﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

٦ - البشارة بالخير لكل من اختار طريق الحق وتمسك به:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

دقائق التفسير

﴿الْم﴾ دَابَّ كثير من المفسرين عند وصولهم إلى هذه الأحرف أن يقولوا: (الله أعلم بمُراده) وهو إدخال لها في مسمى المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله على نظرهم. ويرد على هذا إشكال يصعب دفعه، يتلخص في قبول العرب لهذه الأحرف وسكوتهم عنها دون نكير من كافر أو منافق ولا سؤال من صحابيٍّ أو أعرابيٍّ، وإذا كان الصحابيُّ

يسكت تأدُّبًا، فما الذي جعل الأعراب يسكتون وهم يسمعون كلامًا لا يفهمونه؟ ثمَّ ما الذي جعل المشركين أيضًا يسكتون، والقرآن يُعجزهم ببلاغته وبيانه؟

الذي يترجَّح - والله أعلم - : أنَّ العربَ بمؤمنهم وكافرهم كانوا يفهمون شيئًا ما من هذه الأحرف، وإنما نحن الذين قصرنا عن الفهم بسبب فُشوِّ اللحن.

وأذكر منذ سنين زرتُ بادية عربية لا زال الناس يعيشون فيها ببيوت الشعَر والوَبَر، وقد اختصموا عندي في مسألة ماليَّة، فلمَّا كثر اللَّجَّاج قام أحدهم وجَّثًا أمام خصمه وصار يُبطِّئ بنطق الكلمات كلمةً كلمةً، وحرَفًا حرَفًا، ويقول: (ألف، باء، تاء ...، فهمت؟!)، والذي عرفته آنذاك أنَّه أرادَ أن يقول لخصمه: لقد فصلتُ لك ما فيه الكفاية، فلماذا لا تفهم؟

لقد كان هذا المعنى واضحًا وبسيطًا أدركته أنا وأدركه الحضور بلا تكلف، وكنت تلك الأيام أبحث في دلالة الحروف المقطعة وشعرتُ كأنَّ الله ساقني إلى هؤلاء لأتعلَّم منهم هذا الدرس.

ومن القرائن القرآنيَّة على هذا المعنى: أن القرآن قد ذكر التفصيل فعلاً في أكثر من موضع عقب هذه الحروف، مثل: ﴿حَمَّ ۝١ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ۚ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ١ - ٣]، و﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ ءَايَاتُهُ ۚ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

أما نعتُ القرآن بالبيان ونحوه عقب هذه الحروف فهو الأكثر والأظهر، وهناك أيضًا قرينة من اللسان العربي؛ حيث تشيع بعض الحروف والكلمات التي لا معنى لها سوى التنبيه على ما بعدها مثل (ألا، وها) كقولهم: (ألا كل شيء ما خلا الله باطل)، وقولهم: (ها أنا ذا) وقد اتصل بعضها بما بعدها حتى صارا كالكلمة الواحدة، مثل: (هذا، وهذان، وهاتان، وهؤلاء)، ف (ها) هنا زائدة وليست من أصل الكلمة، بدليل جواز حذفها دون أن ينقص المعنى.

إن هذا المعنى العام للحروف المقطّعة والذي أخذ به عدد من المفسّرين قديماً وحديثاً هو الأنسب لفهم الخطاب القرآني، وتقديم القرآن للعالمين رسالة واضحة ليس فيها طلاسـم خفيّة كما هو الشأن في الكتب الباطنيّة.

وإذا اتّفقنا على هذا المعنى فلا بأس بعد هذا بمحاولة التقاط الفوارق الدقيقة واللطيفة بين كل حرف وحرف بما يناسب السورة وموضوعها وصياغتها، والله أعلم.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ الإشارة للبعيد هنا للتنويه بعظمة القرآن ورفعة منزلته، مع أنه قريب من الناس تلاوةً وسماعاً وفهماً وتدبّراً، ولولا ذلك التنويه لكانت الإشارة بالقريب كما نقول: هذا الكتاب.

﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ الإيمان: هو ليس التصديق بوجود الشيء فحسب، وإنما التصديق بوجوده وبما يميّزه عن غيره، فالتصديق بوجود الماء وبوجود السمّ من دون تمييز بينهما لا ينفع شيئاً؛ ولذا فإن من آمن بوجود الخالق لتفسير حدوث الخلق فقط لا يُعدّ مؤمناً بالله، وكذا من يؤمن بوجود الحياة الثانية لتلبية الرغبة الذاتية في الخلود لا غير، مع أنّ هذا التفكير العقلي أو العاطفي قد يكون سبباً لتحقيق الإيمان المطلوب، فينبغي تشجيعه عند الآخرين ثم البناء عليه، أما الغيب فهو عالم الغيب الذي ليس للبشر سبيل إليه بوسائلهم المادّية الدنيويّة، أما ما غاب عن الإنسان بحائل أو ببعد مسافة فهذا غيب نسبي وهو جزء من عالم الشهادة، والذي يفرق المؤمن عن غيره إنما هو الإيمان بعالم الغيب.

﴿وَيُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ﴾ قال: يقيمون، ولم يقل: يصلّون؛ لما في الإقامة من معنى الاستمرار والثبات والمحافظة، ونسبها للجمع إشارة لفضيلة الجماعة.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُفْقُونَ﴾ ربط الرزق بالإنفاق لما فيه من طمأننة المنفق على رزقه الذي هو من الله ومن خزائنه التي لا تنقطع.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ هذه النتيجة جاءت بعد مقدمتين؛ طلب الهداية ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ والتمسك بدليل الهداية ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ المنافقون لا يؤمنون بالله، والمخادعة منهم إنما هي للمؤمنين، وتقديم اسم الله هنا إنما جاء لمؤانسة المؤمنين بالمعية الربانية، فالمؤمنون ليسوا وحدهم في مواجهة عداء الكافرين أو مكر المنافقين.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ﴾ وقد استحقوا هذا الوصف لتعطيلهم العقل والفكر، وبعدهم عن النظر فيما يصلح حالهم ومآلهم، وإذا كان المبدّر لماله قد استحق وصف السفه، فإن العاثر بنفسه وعقله ومستقبله أولى بذلك.

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ والشياطين هنا هم اليهود ونحوهم الذين كان يرجع إليهم هؤلاء المنافقون، وفي هذا دلالة على أن (الشیطان) اسم جامع للخبث والشر سواء كان من الإنس أو الجن وحتى الحيوان الذي لا يعقل، كما ورد في الحديث من وصف الكلب الأسود بأنه شيطان^(١)، مع أنه لم يخرج من جنس الكلاب بدليل أننا نغسل الإناء من ولوغه بالماء والتراب.

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ هو واقع حالهم، فمن يخادع الله يُرجع الخداع على نفسه، ومن يستهزئ بدين الله يرجع استهزاؤه عليه حينما يكتشف أن ثقته الزائدة بنفسه والتي دفعته

(١) حديث: «الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ»؛ رواه مسلم في «صحيحه» (١/٣٦٥) عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

للاستهزاء لم تكن سوى غرور باطل وزائل، وإنما نسب الله هذا الفعل لنفسه؛ لأن إرادة الله حاکمة على كل فعل.

فلك أن تقول لمن أحرَقَ نفسه: لقد أحرَقَه الله، فسنن الله في هذا الكون هي من أمر الله، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ثم قوله في آية أخرى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣]، ومثل هذا قوله على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي﴾ [الشعراء: ٧٩]، مع أن إبراهيم هو من يطعم نفسه ويسقيها.

وهذه النسبة تختلف عن نسبة الصفات الإلهية له سبحانه كالعلم والقدرة والرحمة بدليل صحة اشتقاق الأسماء الحسنى من هذه بخلاف تلك، والله أعلم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فيه معنيان:

الأول: أن كثرة العبادة تورث التقوى، وهي مطلب جميع السائرين إلى الله، وهي شرط من شروط الولاية الربانية.

والثاني: أن العبادة تقيكم ما تحذرون من الشقاء والعذاب، وهذا هو الأقرب للسياق، والله أعلم.

﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ وهذا غاية الإعجاز، ومع تعدد وجوه الإعجاز، فإن الإعجاز البياني هو المقصود بهذا التحدي، وذلك لسببين اثنين:

الأول: أن وجوه الإعجاز الأخرى لا تتوفر في كل سور القرآن.

والثاني: وهو الأهم؛ أن تحدي الناس إنما يكون بمعجزة حاضرة وقت التحدي، أما الإحالة إلى ما سيكتشفه الناس مستقبلاً فهذا يسمّى: (دلائل الصدق)، وهي تشترك مع الإعجاز في إثبات صدق الرسول والرسالة، وتفترق عنه في تحقق التحدي.

﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ فيه إشارة إلى أن اسم (الكافرين) لا يطلق إلا على من رفض الدعوة بعد أن بلغته بصورتها الصحيحة فهم وحدهم الذين يستحقون العقاب؛ لأن العقوبة لا تلحق غير المكلف بالشرع، ومن لم تبلغه الدعوة فقد سقط عنه التكليف أصلاً، والله أعلم.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ عطفُ العمل على الإيمان يقتضي المغايرة في الماهية، وإن كان العمل ثمرة الإيمان ولازمًا من لوازمه، وإطلاق اسم الإيمان على بعض الأعمال إنما هو من باب إطلاق اللازم وإرادة الملزوم، وهذا شائع في اللغة، ولو كان العمل داخلا في ماهية الإيمان لانتفى الإيمان بانتفائه، بينما نرى الإيمان ينتفي فعلاً بانتفاء شيء من ماهيته كالإيمان بالرسول أو الرسالة أو اليوم الآخر، ويظهر هذا في صورة من أنكر تحريم الربا فهو كافر إجماعاً لتكذيبه النص، بخلاف من اعتاد أكل الربا دون إنكار حرمة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ الآية، والحياء صفة محمودة لما فيها من معنى التنزه عن المعايب والنقائص؛ ولذلك ورد في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ كَرِيمٌ».

﴿بِعُوضَةٍ فَمَا فوقَهَا﴾ أي: فوقها في الصغر، بمعنى: أصغر منها، وهو كقولك: هذا أكثر فقراً، وأشدَّ ضعفًا، فالفقر منافٍ للكثرة، والضعف منافٍ للشدة، لكنهما باجتماعهما أعطيا معنى أدنى من الفقر وأوهن من الضعف، وقد ذكر بعض علماء الأحياء المعاصرين أن هناك حشرة تمتطي ظهر البعوضة وهي أصغر منها، والله أعلم.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ دليلٌ على الإباحة الأصلية لكل ما تنتجه الأرض، وما هو كائن على ظهرها، أو في باطنها، وهذا هو معنى القاعدة المعروفة (الأصل في الأشياء الإباحة ما لم يثبت دليل التحريم).

(١) رواه الترمذي وحسنه عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، بنظر «جامع الترمذي» (٥/٥٥٦) دار إحياء التراث العربي، تح أحد شاكر).

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ
نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ
فَقَالَ أُنَبِّئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ
﴿٢٢﴾ قَالَ يَتَّخِذُ أُنثِيَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا
يُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٢٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ
﴿٢٤﴾ وَقُلْنَا يَتَّخِذُ أَسْكَنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾
فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٦﴾
فَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٢٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ
هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾

استخلاف الناس على هذه الأرض

بعد أن تناولت فواتح هذه السورة المجتمع المسلم وهويته وخصائصه المميزة له عن غيره جاءت هذه الآيات لبيان أن هذا المجتمع المسلم هو النموذج العملي والواقعي المعبر عن رسالة الإنسان في هذه الأرض؛ حيث خلقه الله واستخلفه على هذه الأرض لغاية عظيمة وحكمة جليلة أكبر من تصورات الغافلين، واهتماماتهم المنحصرة في اللهو والعبث والتمتع الطائش.

ويمكن اختصار هذه المعاني في النقاط الآتية:

أولاً: خلق آدم ﷺ والإيدان باستخلافه:

الاستخلاف إنما هو تكليف لآدم وذريته بإدارة هذه الأرض، وإعمارها وتنظيمها بالمنهج

الذي يرضاه الخالق الكريم ﷻ، والآية التي قبل هذا المقطع مباشرة تقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

فالأرض خُلِقَتْ لآدم، وآدمُ خُلِقَ ليكون خليفة الله على هذه الأرض، وليس في هذا الاستخلاف ما يوحي بضعف المستخلف وعجزه عن إدارة ملكه - حاشا لله - وإنما هو الاختبار ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(١).

وهذا المعنى أكده القرآن في أكثر من موضع، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧]، وصرفه إلى معنى الخلافة عن خلق آخر كان قبل آدم كما يخلف اللاحق السابق فيه تكلف واستبعاد للغاية الجليلة التي بسطها القرآن في أكثر من موضع، والله أعلم.

ثانيًا: العلم شرط الاستخلاف الأول:

حينما قدّم الملائكة أنفسهم تقريبًا إلى بارئهم بما عندهم من حسن التعبّد: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، ردّ الله تعالى عليهم: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾؛ فالعلم الذي ميّز الله به آدم هو الذي يؤهّله لهذا الاستخلاف، وهي إشارة إلى أن هذه الأرض لن تُدار أو تُعمر بغير العلم.

ثالثًا: تكريمُ الله تعالى لآدم:

وقد تجسّد هنا بسجود الملائكة له بأمر من الله تعالى، فهذه هي القيمة الكبرى التي تُستنبط من ذلك السجود، أما الخوض في هيئة السجود وما ينبني عليه من تساؤلات وإشكالات فهو قول في الغيب بلا دليل، وقياس الغيب على عالم الشهادة لا يصح، واستنباط حكم فقهي من تلك الحادثة غير وارد، فالتكليف صدر للملائكة، وهذا لا يصح عليه قياس في

(١) تَكَرَّرَتْ هذه الآية الكريمة مرتين في القرآن الكريم: فذُكِرَتْ في سورة هود/ ٧، وفي سورة الملك/ ٢.

تكليف البشر، والله أعلم.

رابعًا: المرأة شريكة الرجل:

﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فمهمة الخلافة لا يقوم بها الرجل لوحده، ولا المرأة لوحدها؛ لما بينهما من تنوع وفوارق في الخلقة تتناسب مع تنوع المهمة، والفوارق الموجودة في طرائق إدارتها عقلاً وعاطفة وشدة ورقة وهكذا، والسعي لتقليص الفوارق بين النوعين يضر بهما وبالمهمة الملقاة على عاتقهما.

خامسًا: العبادة شرط السعادة:

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي: أزلهما الشيطان عن طاعة ربهما، فأخرجهما الله من جنته، وهذا من أجل الدرس لا غير؛ لأن الله قال في آدم قبل أن يدخله وزوجه الجنة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ﴾ وليس في الجنة، فمرورهما في الجنة إنما كان للتدريب على طبيعة المهمة ونوعية الصراع الذي سيدور على هذه الأرض مع الشيطان وحزبه.

سادسًا: التوبة طريق النجاة:

﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّٰثَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ فالخطأ والخطيئة ملازمان للإنسان بحكم طبيعته وتركيبته الخلقية، والله لا يريد لهذا الإنسان أن يخرج عن طبعه، يكفيه الاعتراف والاعتذار وإرجاع الحقوق لأصحابها.

سابعًا: التكبر طريق الكفر والهلاك:

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ فإبليس لم يكن ملحدًا ولا جاهلًا، وإنما منعه الكبر عن سلوك طريق الخير والحق، وهي إشارة لكل بني آدم أن التكبر طريق الغواية والهلاك؛ لأنه يصم الآذان عن سماع النصيح والمعلومة الصادقة، ويعمي العيون عن رؤية

العواقب والمآلات، ويُشوّش على الفكر فلا يحلل ولا يستنتج.

وإنما التكبر هو أن تعطي لنفسك أكبر مما تستحق، وتعطي لرأيك مقامًا فوق الآراء؛ لأنه صادر عنك وليس بما يستند إليه من حجة ودليل، أما حفظ المقامات وتمييز العالم عن الجاهل فهذا من صميم العدل الذي لا تستقيم الأرض بغيره ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمُنُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

ثامناً: فريق في الجنة وفريق في السعير:

هذه هي نتيجة (الاستخلاف)، فمن عمل في هذه الأرض بما أَرَادَهُ خالقها ومالكها الحق فهو من الناجين والفائزين، ومن تنكب الصراط المستقيم وتكبر على هُدى رب العالمين فهو من الخاسرين ﴿فَأَمَّا يَا تِئْتِكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. وفي قوله: ﴿فَأَمَّا يَا تِئْتِكُم﴾ إشارة إلى أن من لم يأت الهدى ولم تبلغه الدعوة فإنه بريء من هذا الخسران، والله أعلم بحاله.

دقائق التفسير

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ الآية، هذا الحوار بين الله وملائكته يفيدنا في قبول الحوار والسؤال مهما كان الفارق بين السائل والمسؤول، فالعالم لا يُغلق بابَه بوجه السائلين والمعترضين والمجادلين، وعليه أن يقدم حجته.

هذا هو جوهر القصد من تدوين هذه المحاور، أما الخوض في نوايا الملائكة من السؤال فهذا من عالم الغيب الذي لا يصح القول فيه بلا وحي.

﴿يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ فيها اقترانُ الفساد بسفك الدماء، وهذا محسوس ومشاهد. والفساد هنا الخراب والدمار وضياع القانون والنظام، وليس المعصية المجردة

والخطأ اللذين لا يتبرأ منهما إنسان ولا يخلو منهما مجتمع، وفيه أيضًا الإشارة إلى خُلُق من أخلاق الملائكة وهو الرحمة بالأرض وما عليها، وكراهيتهم للفساد وسفك الدماء.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ﴾ حين عرض الملائكة صورةً محتملة لهذا المخلوق الجديد (الفساد وسفك الدماء) قدم الله له الصورة المقابلة (العلم)، والإشارة هنا؛ أن الجهل طريق الفساد وسفك الدماء، وأن العلم طريق العمار والاطمئنان، وأن الإنسان إنما يسعد بالعلم ويشقى بالجهل.

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ وهو استثناء منقطع، لأن إبليس ليس من جنس الملائكة بدليل قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]، ولكنه كان مشمولاً بأمر السجود مع الملائكة، وإنما ذكر الملائكة وحدهم بالأمر لتغليب شأنهم، والله أعلم.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ فيه أن الإنسان يسعى إلى الممنوع بطبعه ولا يكتفي بالمسموح، وهذا وصف المبتلى بخلاف الطبع الملائكي ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦]، وفيه أن الله لم يحظر علينا شيئاً إلا وهو ضررٌ وشرٌّ لنا في ديانا وأخرانا.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ وهذه هي طبيعة الصراع بين الحق والباطل، بين من يلتزم بخط آدم في الرجوع والإنابة، وبين من يتمسك بخط الشيطان عنادًا واستكبارًا.

﴿فَلَقَىٰ ءَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَثَابَ عَلَيْهِ﴾ الظاهر أن هذه الكلمات هي كلمات التوبة والندم، وهذا من تعليم الله له، والظاهر أيضًا أن هذه الكلمات تلقاها آدم بعد هبوطه على الأرض إيدانًا ببدء النبوة، والله أعلم.

يَبْقَىٰ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنَّي فَأَرْزُقُوكُمْ ۖ وَأَن تَكُونُوا أَكْثَرًا عَلَيْهِمْ ۚ وَلَا تَشْرَوْا مِنِّي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنَّي فَأَتَّقُونَ ﴿١١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿١٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٦﴾ يَبْقَىٰ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٨﴾ وَإِذْ يَخْتَصِمُكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٢٠﴾

العهد الإلهي لبني إسرائيل

بعد ذكر الاستخلاف في قصة الخلق الأولى، عرّج القرآن على أبرز تجربة استخلافية خاضها المؤمنون بالله حتى مكّن الله لهم، وقد بدا الاستخلاف باختيار الله لقوم هم من ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، ويعقوب هو إسرائيل، وإليه نسب القوم الذين اصطفاهم الله لهذه التجربة الكبيرة، وتكاد تكون هذه التجربة هي المحور الأساس لهذه السورة (سورة البقرة)، وكان ما قبلها لم يكن سوى تمهيد لها، وما بعدها استنتاج ودروس.

ينصّ القرآن على هذا العهد بقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أما فحوى هذا العهد فتشريف الله لهؤلاء القوم بحمل رسالته، وتفضيله لهم بذلك على العالمين، يقابل هذا التفضيل والتشريف تكليف ثقيل ومسؤولية كبيرة، نقبس منها ما ورد في هذا المقطع في النقاط الآتية:

أولاً: الإيمان بالرسالة الخاتمة، ومناصرة الرسول الخاتم ﷺ: ﴿وَعَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾، وقد ورد هذا الميثاق في آية أخرى أصرح وأوضح: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

ثانياً: قول الحق وبيانه للناس: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

ثالثاً: العمل بالحق: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾.

رابعاً: حُسن التعبد: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، ﴿إِلَّا عَلَى الْخَائِشِينَ﴾.

خامساً: الثبات والصبر: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.

سادساً: موالاة المؤمنين ومُفاصلة الكافرين: ﴿وَأَزْكُوا مَعَ الزَّكَاةِ﴾، ﴿وَإِذْ بَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾.

سابعاً: استحضار عقيدة الحساب والجزاء: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾.

ثامناً: الحذر من المساومة على متطلبات هذا الميثاق: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

هذه البنود الواضحة تؤكد أن هذا الاصطفاء ليس اصطفاً عنصرياً بالمعنى الذي فهمه بعض بني إسرائيل فيما بعد، فحوّلوه من تكليف بنشر الرحمة والعدل بين الناس، ومسؤولية في تمثيل الحق والدعوة إليه إلى تشريف مجرد يدعو للتعالي على الآخرين وأكل حقوقهم على قاعدة: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥].

﴿نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ من غير تحديد؛ لأن اصطفاء الله لهم نعمة ما بعدها نعمة. فكانها معلومة من دون تخصيص، وهذا مثل قوله في سورة الفاتحة: ﴿صِرْطَ الدِّينِ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بالإيمان.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ تأكيد أن القرآن يصدق الكتب السماوية السابقة، فكلها تنبعث من مشكاة واحدة؛ ولذلك اشترط في طريق الهداية ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾. ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ هذا أشد من الدعوة للباطل الظاهر المجرد؛ لأن لبس الحق به يُعطيه رونقًا وغطاءً شرعيًا، وهو دَيْدَنُ الكَهَنَةِ ورجال الدين؛ حيث لا يحتاجهم أهل الباطل في التنظير لباطلهم، وإنما يحتاجونهم لتغريب الجماهير المتدنية بالفتاوى التي تزين الباطل وتقدمه بثوب الحق ولباسه، وذلك قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا﴾.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أمر الناس بالبر هو من البر، وإنما الإنكار على نسيان النفس وهي أولى بهذا الأمر، وقد عكس بعضهم فظنوا أن في الآية تحذيرًا للدعاة والعاملين للإسلام من الاستمرار في الدعوة إن هم وقعوا في المعصية، ومثل هذا من يقول: إن لم تصُم رمضان فلا تُزكَّ.

إن الدعوة واجبة وتركها إثم، فمن تركها وهو مقيم على معصية أخرى فقد ارتكب معصيتين، ولا تصح الثانية مبررًا للأولى، أو سببًا في إسقاط ذلك الواجب.

ولتقريب الصورة فمن واجب الطبيب أن ينصح المرضى، ومن واجبه أيضًا أن يلتزم بما نصح، ولا يصح تركه للالتزام أن يترك واجبه في نصح الآخرين وإلا كان غاشًا لهم ووقع في الإثمين، والله أعلم.

﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ تأكيد للربط الوثيق بين الوحي والعقل، فالوحي

لا يفهمه المجانين والأغبياء من الناس، وهذا متأكد في القرآن في كثير من الآيات ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١)، و﴿لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وإنما جرى تصوّر الخلاف بينهما على أصلٍ فاسدٍ، وهو التفريق بين المعرفة الدينية والمعرفة العلمية.

وحقيقة هذا الأصل إنما هي الإلحاد وإنكار الخالق، أو تكذيب الوحي؛ لأن المؤمن بالوحي وأنه من الله الخالق لهذا الكون لا يستطيع توهم الخلاف بين حقيقة وحي الله وحقيقة خلق الله، وهما من مصدر واحد.

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ فيه الإشارة إلى صلة الصبر بالصلاة، فالمصلي أقدر على الصبر من غيره؛ وما ذاك إلا لتذكّره المتواصل بحقيقة هذه الحياة وعاقبتها، وحين تجد مُصليًا قليل الصبر سريع الغضب والجزع فاعلم أنه لم يفقه من الصلاة ما أودعه الله فيها من حكمة وعظة.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ لأن الشفاعة إنما هي دعاء بالمغفرة للغير، وهو منهي عنه في حق المشرك في الدنيا قبل الآخرة؛ ولأنه تعالى حسم أمر المشركين بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾^(٢).

أما الشفاعة للمؤمنين فهذا ثابت في الدنيا بدعاء المسلم لأخيه، وفي الآخرة بالشفاعة العظمى لسيدنا محمد ﷺ ثم للأنبياء والشهداء والصالحين، وهذه الشفاعة هي من الثواب المناسب لما كان بين الشفيع والشفيع له من صلة وبرٍّ ومودة.

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ وهو الفداء؛ وذلك لأنه لا يملكه أصلاً، ولو ملكه فرضاً فهو من العمل وقد انتهى عمل الإنسان كله في دار العمل ولم يبق له إلا انتظار الجزاء.

(١) تَكَرَّرَت هذه الآية ثلاث مرات في سورة الرعد / ٤، والنحل / ١٢، والروم / ٢٤.

(٢) تَكَرَّرَت هذه الآية مرتين في سورة النساء / ٤٨، ١١٦.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ لأنه لم تعد لمخلوق قوّة لا على الحقيقة ولا على المجاز، تلك القوّة التي كان الناس يتناصرون بها بالحق والباطل، والقرآن هنا يؤكّد أنكم أيها البشر لم تعودوا تملكون شيئاً مما كنتم تملكونه في الدنيا ممّا تدفعون به الأخطار؛ كالجاه والقراية والمال والقوّة، لقد انتهى كلّ ذلك وتغيّر كل شيء.

﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ وهو تقطيع الأبناء واستحياء النساء، وهذه جرائم منكورة وبشعة كان يقوم بها فرعون بحقّ بني إسرائيل، وليس في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تزكية لهذه الجرائم، وإنما هي صورة من صور الصراع والابتلاء التي تدور على هذه الأرض بعلم الله وسمعه وبصره؛ لأنّ هذه هي متطلّبات الامتحان والاختبار لهذا الكائن المستخلف على هذه الأرض، وليس لأن الله يرضى بذلك، حاشا لله.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

من الآية

٥١ - ٧٤

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا الْعَجَلَ مِنَ بَعْدِهِ وَأَتَيْتُمْ ظَلْمُوتَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَقَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْنَاكُمُ الضُّعْفَةَ وَأَنْتُمْ تُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَارِعُوا إِلَىٰ الْحَسَنَاتِ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ قَادَعُ لَنَا رَبُّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهَيْطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءَ وَبَعْضُ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّبِيَّاتِ مِنَ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَحِدَنَا هَؤُلَاءِ قَالُوا أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرُءْهَا فِيهَا وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوه بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَرُبِّيكُمْ ءَاتِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

بنو إسرائيل في خضم التجربة

يعرض القرآن الكريم في هذا المقطع مداخلات متنوعة ومتراكمة من التجربة الإسرائيلية بعد العهد الذي أعطاه الله لهم وفق البنود التي مرّت معنا:

أولاً: حاجة الداعية إلى الخلوة والانقطاع للعبادة والمناجاة:

حيث تبدأ التجربة باصطفاء الله لنبيه وكليمه موسى ﷺ ليقود بني إسرائيل في هذه التجربة الطويلة والثقيلة، وقد بدأ الآيات بـ ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ ومعنى المواعدة هنا الانقطاع التام لله تبتلاً وعبادةً ومناجاةً.

ويبدو أن هذا دأب الأنبياء؛ تهيئة وإعداداً لهم قبل النزول إلى ميدان الدعوة وإصلاح المجتمع، فقد قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا الزَّيْلُ﴾ ① ﴿فَرَأَىٰ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ② نَضْفَهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ③ زِدْ عَلَيْهِ وَرَبِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ④ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ١ - ٥]، فالأمانة الثقيلة تحتاج إلى هذا العمق الروحي والاتصال الوثيق بالله تعالى.

ومعلوم أنه ﷺ كان قد حُبِّب إليه الاعتزال في غار حراء لشهور عدّة قبل البعثة، وقد أخذ من هذا بعض المربّين والموجهين ضرورة أن يمرّ الطالب أو السالك في هذه المرحلة، وليس في هذا حرج إذا كان مضمون الخلوة لا يخرج عن إطار الشريعة وأحكامها.

إنّ موسى ﷺ لم يكن له أن يصبر على تعقيدات قومه وتقلباتهم ونزقهم لولا هذا الإعداد الربّاني الفريد.

ثانياً: تأييد الله لنبيه بالمعجزات:

لقد حوى هذا المقطع عدداً من المعجزات تأييداً لمسيرة سيدنا موسى ﷺ مع قومه؛ منها: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ مَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾ وكان الله جعل لكل سبط أو قبيلة منهم عيناً.

ومنها: رفع الطور فوقهم؛ تخويفًا وإلزامًا وإشعارًا بجديّة الأمر: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾.

ومنها: إحياء القتيل ليشهد على قاتله: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾^١ ويقرب منه قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وهذه المعجزات وإن جاءت كل واحدة منها لغرض محدد، ولكنها يجمعها أصل واحد، وهو إظهار صدق النبي وتعزيز دوره في قيادة قومه.

والمعجزة: أمر خارق لما اعتاده الناس من نواميس الكون وقوانين الحياة الطبيعية يظهره الله على يد النبي تأييدًا له، مع تضمّنه لمعنى التحديّ بحيث يعجز الآخرون عن الإتيان بمثله.

وينبغي التأكيد هنا أن المعجزة لا تحرق القوانين العقلية؛ إذ العقل لا يمنع تغيير هذه النواميس في ظروف أخرى، كقانون الجاذبية الذي يختلف من كوكب لآخر.

ثالثًا: نعم الله الماديّة على بني إسرائيل:

في هذا المقطع امتنّ الله على بني إسرائيل بكثير من النعم الماديّة ﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ﴾^٢ و﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾^٣ و﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ﴾^٤.

رابعًا: السلوك الشائن لبني إسرائيل:

مع كل هذه النعم وكل تلك المعجزات فقد سجّل القرآن في هذا المقطع عددًا من المواقف والتصرفات الشائنة، والتي سنختصرها في النقاط الآتية:

أ - عبادة العجل:

وهو تمثال من ذهب على هيئة عجل صنعه لهم السامري فتعلقت به قلوب مجموعة ظاهرة منهم، بحيث لم يستطع الآخرون مقاومتهم في ظل غياب موسى عليه السلام، وهذه ظاهرة تعلّق

الناس بالمحسوس الذي يقع تحت مدركات الإنسان، ومن ثمَّ كانت عبادة الأصنام والأوثان والكواكب وغيرها.

وقد تسلَّلت هذه الظاهرة على بعض المنتسبين للديانات السماويَّة، فمالوا إلى تقديس أنبيائهم أو أوليائهم إلى درجة العبادة، ثمَّ بالغوا حتى عبدوا القبور كما يحصل الآن حول القبور المزعومة لأهل البيت من سجودٍ وطوافٍ ونذور.

ب - سوء الأدب مع الله:

وهذا سلوك شائع عند بني إسرائيل، وفي هذا المقطع يعرض القرآن نموذجاً لهذا السلوك ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾.

فرغم كثرة المعجزات التي رأوها بأعينهم، ورعاية الله لهم، إلا أنهم لا زالوا يضعون الشروط على نبيِّهم، فهم يريدون منه أن يريهم الله، ليس هذا فقط بل ينبغي أن تكون الرؤية بالطريقة التي يريدون ﴿جَهْرَةً﴾، وصدَّروا طلبهم هذا بقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ بمعنى: أنهم ليسوا مصدِّقين له، أو أنهم غير ملتزمين بالتسليم له؛ ولذلك عاقبهم الله ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ﴾.

وهذا العقاب لم يأت لمجرد طلبهم الرؤية، فموسى عليه السلام كان قد طلب ذلك: ﴿قَالَ رَبِّ ارِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وهذا يبطل استدلال المعتزلة بهذه العقوبة على استحالة الرؤية، والله أعلم.

ج - تبديل القول:

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ وهذا نوع من التلاعب والاستخفاف بالدين، وربَّما يكون هذا السلوك الشائن هو الذي جرَّ إلى الجرأة على تحريف الكتاب، كما سيأتي.

د - هـ - الكفر بآيات الله وقتل النبيين:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

و- قسوة القلب:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ وربما تكون هذه الصفة

هي مبعث كل ذلك السلوك وتلك الخطايا.

والذي ينبغي التنبيه له هنا أن هذه الخطايا أو الجرائم خاصة تلك التي تصل إلى حد الكفر لم تكن صفة المجتمع الإسرائيلي بشكل عام، وإنما جزء من حالة الصراع الداخلي بين قيم الخير وقيم الشر في المجتمع ذاته.

وقد ذكر القرآن في هذا المقطع نفسه التزامهم بذبح البقرة رغم ما شددوا على أنفسهم فيه، ويشهد لهذا أيضًا ورود عدد ليس بالقليل من أخبار صالحهم في الأحاديث الصحيحة، والله أعلم.

خامسًا: العفو الإلهي المتكرر:

فرغم كثرة جرائمهم وخطاياهم إلا أن عفو الله يتكرر معهم بعد كل خطيئة مهما كانت، ويكفي لهذا تدبر هذه الآيات ﴿ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعَجَلَ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ثم أكد هذا العفو بقوله: ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

ورغم ما اعتمده بعض المفسرين من روايات تفسيرية أو أخبار (إسرائيلية) في حصول مقتلة عامة وعظيمة بين بني إسرائيل بسبب حادثة العجل تنفيذًا لقوله تعالى: ﴿فَتَوْبُوا إِلَيَّ بَارِكْكُمْ فَأَقْلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ إلا أن سياق الآيات لا يؤيد هذا التوجه، فالله قد امتن عليهم بهذا العفو وهذه التوبة، وهذا لا يتناسب مع تلك الروايات.

كما أنَّ الذي صنع العجل - وهو السامريُّ - اكتفى موسى ﷺ بعزله عن المجتمع ﴿قَالَ فَأَذْهَبَ فَإِنَّكَ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه: ٩٧]، وقد اكتفى موسى ﷺ بتحريق التمثال ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ [طه: ٩٧].

وأما قوله: ﴿فَأَقْضُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فهو بيان حكم الله الأصلي في من ارتكب مثل هذه الجريمة قبل ورود العفو الإلهي، والله أعلم.

ثم تكرر العفو الإلهي الضمني عنهم بعد جرأتهم والإعراب عن استعدادهم للتمرد على موسى ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ومثل هذا قوله فيهم: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. إنَّ هذه الرحمة الإلهية التي شملت هؤلاء القساة العصاة لتلقي في نفس القارئ قدرًا كبيرًا من الطمأنينة والأنس الودود بعظيم كرم الله، مع قدر مماثل من الحياء والخشوع الدافع للطاعات واجتناب الموبقات والمخالفات.

سادسًا: قانون العدل الذي يحكم الجميع:

وقد نص هذا القانون على معيار الحكم العادل بلا محاباة ولا مداراة ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّبِيَّةَ مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وذكر هذا القانون في وسط المقطع المخصّص للحديث عن تجربة بني إسرائيل، إنما هو للتذكير أن هذه التجربة لا تختلف عن التجارب السابقة أو التجارب اللاحقة من حيث خضوعها لقانون العدل الإلهي.

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَلَ﴾ فيه إشارة إلى أن غياب القائد الموجه يدعُ الناس عُرضة للضلال والانحراف.

﴿فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ﴾ فيه لوم على تفضيلهم لعبادة العجل على عبادة الله الذي برأهم وخلقهم من العدم.

﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾ ٥٥ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ ثُمَّ لِلْعَظْفِ المؤخر، والأقرب هنا التنبيه إلى عظيم المنّة وليس التأخير الزمني، فهم لم يتعرضوا للموت المؤدي إلى تفسخ الأجساد وتحللها، بل هو الموت الخاطف الذي يكون بتوقف القلب الطارئ لهول الصدمة والصعقة، ثم أعاد الله إليهم حياتهم الطبيعيّة، أما ذلك الموت الذي تنفصل فيه الروح عن الجسد بحيث يبلى فلا يكون إلا مرة واحدة في الدنيا ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦].

وقد ذكر الأطباء المعاصرون كثيرًا من حالات توقف القلب وشعور الشخص كأنه قد انفصل عن جسده، وهو ما يمكن تسميته بالموت المؤقت الذي يزول بزوال أسبابه، والله أعلم.

﴿وَوَهَبْنَا لَكُمْ أَلْغَمًا وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ﴾ الغمام هو الغيم الذي كان يقيهم حرّ الشمس، والمنّ هو طعام يأتيهم بلا زراعة ولا صناعة، وقد ورد في الحديث الصحيح «الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ»^(١) لهذا المعنى.

أما تحديد المنّ الذي كان ينزل عليهم بالصَّمْغِ الحُلُو وما شابه فلا أعلم فيه دليلًا ثابتًا، والسَّلْوَى نوع من الطيور.

(١) متفق عليه من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه، ينظر: صحيح البخاري (٤/١٦٢٧)، وصحيح مسلم (٣/١٦١٩).

﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ إشارة إلى الجمع بين العبادة لله والرغادة في العيش، لا كما يظنه من توهم معنى للزهادة بترك الدنيا ومتاعها وزينتها.

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ إشارة إلى أن الرغادة مع الإيمان والعدل، وأن العذاب والضنك مع الكفر والظلم.

﴿قَالَ أَتَشْتَدُّونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ يَٰلَئِي هُوَ خَيْرٌ﴾ إشارة إلى أن نعم الله كلها خير، إلا أنها تتفاوت بخواصها وبمناسبتها للناس تبعًا لأحوالهم وحاجاتهم، فالبقل والقثاء والفوم والعدس والبصل من نعم الله التي لا يصح الاستهانة بها، لكنها ليست خيرًا من المنّ والسلوى والطيبات الأخرى من الطعام، وربما تكون هذه الطيبات أنسب لأجسادهم المرهقة في التيه لما فيها من طاقة أعلى من تلك التي طلبوها، وليست هذه نصًّا في تفضيل هذه على تلك في كل الأحوال، فهناك من يضره الحلو وهناك من يضره اللحم، فتكون تلك بالنسبة له أفضل، والله أعلم.

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ فيه إشارة لحاجة الحق إلى القوة لتحمله وتحميه، وحاجة القوة إلى الحق ليوصلها ويهذبها.

وقد وردت هذه الإشارة في أكثر من موضع مثل: ﴿يَخَيَّ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]، و﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ عقوبة لقوم يعيشون في قرية على البحر، حرّم الله عليهم الصيد يوم السبت فاعتدوا وعصوا وأكلوا الحرام، فعاقبهم الله بالمسخ الجسدي أو المعنوي، والجسدي أقرب لظاهر الآية، والمعنوي أقرب للسياق العام؛ حيث إنّ الله لم يُعاقب الذين عبدوا العجل وقتلوا النبيين بهذه العقوبة.

ومعنى المسخ المعنوي: أن نفوسهم أصبحت حقيرة ذليلة، وهمهم باتت وضیعة دنیئة؛ بحيث إنهم آثروا صید السمك على الوفاء بميثاقهم وعهدهم مع الله. وهذا الفهم أقرب للتاریخ أيضًا؛ إذ لو حصل مسخ جسدی لتناقله المؤرخون، ولذكروه ولو من باب الخلاف في وقوعه، وأيا كان المسخ فلا يجوز تعميمه على كل بني إسرائيل، ولا يجوز القول لليهود مهما بلغوا من الكفر والظلم: يا أولاد القردة والخنازير، فهذا حكم بلا دليل وهو مناف للحق والعدل.

﴿قَالُوا أَذُعْ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾، ثم ﴿أَذُعْ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾، ثم عادوا فقالوا: ﴿أَذُعْ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ فيه إشارة لنمط مختلف عن النمط السابق، النمط المتشدد المنطع، الذي ينظر للدين من ثقب إبرة، ويدفعه ورع الجاهل إلى الوسواس المفضي إلى تعطيل العقل وتضييق مساحة التدبُّر والاجتهاد، فهؤلاء أمرهم الله بذبح بقرة، وكان بإمكانهم ذبح أية بقرة، لكنهم راحوا يسألون نبيهم عن أوصافها وأحوالها تورعا واحتياطا بزعمهم، فشددوا فشدَّ الله عليهم، وهذه ظاهرة في المجتمعات الدينيَّة. وقد رأيت من الشباب المتدين من يقضي وقتًا طويلًا للمُباحثة والمجادلة في هيئة من هيئات الصلاة، حتى يوالي فيها ويعادي فيها، ثم يُقصر عن البحث في مقاصد الشريعة، ومنظومة القيم الكبرى التي جاء بها الإسلام لصقل النفوس وبناء الأمم.

إن هذا المعنى يتناسب مع النهج القرآني في تقديم الصورة المتكاملة عن التجربة، فحين قدّم هناك صورة الفاسقين المتهاونين في الأمر والنهي، عرّج هنا على الطرف الآخر. وأما مَنْ ذهب ليستوحي من القصّة هذه معالم الشخصية اليهوديّة في المراوغة والمماطلة، فهي وإن كانت حقًا من حيث الواقع، إلا أنّ الاستشهاد بهذه القصّة مُستبعد؛ فسَمْتُ التدين والتشدد واضح عند هؤلاء؛ بحيث إنهم فعلوا ما أمرهم الله به حرفيًا رغم أنّ ذلك كلّهم الكثير ممّا يملكونه من مال، حتى قال بعض المفسرين بأنّ صاحبها اشترط عليهم حشو جلدها ذهبًا لأنّ بقرته هي البقرة الوحيدة التي تنطبق عليها الصفة.

﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ أَلَأَنْهَارٌ﴾ الآية، هذه المقارنة بين القلوب القاسية وبين الحجارة فيها دقائق لطيفة؛ منها: أن الإنسان قاسي القلب يتحوّل إلى شرٍّ محض، بخلاف الحجارة التي قد تنفع في شأن من شؤون الحياة.

ومنها: أن النصيحة التي تخرج من إنسان لا يعمل بها قد تنفع الآخرين كالماء الذي يخرج من الحجارة فتنتفع الأرض به إلا تلك الحجارة.

ومنها: أن المؤمن عليه أن لا ييأس من هداية الناس مهما بلغوا من الغلظة والجفاء، فإن الحجارة قد يتفجر منها الماء وقد تهبط من خشية الله.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ فيه أكثر من وجه:

منها: أن الكون كله خاضع لإرادة الله في حركاته وسكناته، وعبر هنا عن الخضوع بالخشية، كما عبر عنه بالتسبيح في مواضع أخرى.

ومنها: أن هبوطها يسبب الخشية من الله في قلوب الناس خوفاً من عذابه.

ومنها: أن كل ذلك تشبيه لقلوب البشر؛ فمنها من يتفجر بالخير والعطاء، ومنها من يتشقق باليسير منه، ومنها من يتواضع ويستشعر مقام الذلّة والعبودية لله الكبير المتعال ﷻ، ولا تعارض أبداً بين هذه الوجوه، والله أعلم.

yy

محاكمة ومُحاجة

بعد عرض القرآن لمواقف مفصلية في تجربة بني إسرائيل، بدأ في هذا المقطع يحاكم هذه التجربة ويضعها في الميزان، ويردّد الخطاب بين مناقشة أصحاب التجربة الأولى (بني إسرائيل) وبين تقديم الموعظة والعبرة لأصحاب التجربة الجديدة (المسلمين):

أولاً: العدل في المحاكمة:

يظهر هذا في نسبة الخطأ لفاعله دون تعميمه على الجميع، وإن كان هذا الخطأ قد نشأ ونما في ظل هذه الحاضنة الاجتماعية الكبيرة، فتراه يقول: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾، ويقول: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾، ويقول: ﴿أَوْكَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾، ويقول: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾.

وعليه فالآيات التي تأتي بصيغة التعميم ينبغي صرفها بمقتضى السياق، مثل: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسُكُمْ﴾، و﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾، و﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾. فهذه الأفعال لم تقع من جميع بني إسرائيل، بل منهم من أنكرها وتبرأ منها؛ ولذلك حينما يُصدر القرآن أحكامه يؤكد هذه الحقيقة ﴿بِكُلِّ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾، و﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾.

ثانياً: التنبؤ بسلوك الأجيال اللاحقة:

الحكم يلحق الفاعل دون من يعلق به من أصوله أو فروعه ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]، بيد أن هذا لا يلغي التأثير

والتأثر المتبادل؛ ولذلك يمكن تصنيف المجتمعات البشرية وفق موروثها الثقافي الطويل، بحيث يمكن تسجيل العلامات الفارقة لكل مجتمع وكأنه يمتلك بمجموعه شخصية متميزة، ومن هنا تأتي دقة التشخيص القرآني في قوله تعالى: ﴿أَفَنظَمُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا ما حصل بالفعل، فأقل نسبة استجابة لهذا الدين كانت ولا زالت في المجتمعات اليهودية.

ثالثاً: تحريف الكتاب:

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ وهذه الآية نص في تحريفهم لنص الكتاب وليس في تفسيره أو تأويله، وواقع الكتاب (التوراة) فضلاً عن بقية الأسفار الملحق بها يشهد لهذا التحريف النصي؛ لما فيه من تناقض ومخالفات صريحة لقوانين العقل ولعقيدة التوحيد ومبادئ الدين الأصيلة.

رابعاً: تنكّرهم للميثاق الإلهي القاضي باتباع خاتم النبيين ومناصرته:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ وقد عزا القرآن هذا النكث إلى البغي ﴿بَغْيًا أَن يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وإلى ما عرف في تأريخهم من قتل للنبيين وكفر بهم ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ بل لقد ربط القرآن بين هذا النكث وانقلابهم على عقيدة التوحيد في غيبة موسى المؤقتة؛ حيث اتخذوا العجل إلهاً ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجَلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾.

خامسًا: محاکمتهم وفق بنود الميثاق التفصيليَّة:

وهي موضَّحة كما في الآيات (٨٣، ٨٤، ٨٥):

١ - عبادة الله وحده.

٢ - برُّ الوالدين والإحسان إليهما.

٣ - صلة الرحم (ذي القربى).

٤ - الإحسان إلى اليتامى.

٥ - الإحسان إلى المساكين.

٦ - التعامل الحسن مع كل الناس.

٧ - إقامة الصلاة.

٨ - إيتاء الزكاة.

٩ - تحريم سفك الدماء.

١٠ - تحريم اغتصاب المساكن وإخراج أهلها منها.

وهذه البنود قريبة مما ورد في (الوصايا العشر) المعروفة في الشريعة اليهوديَّة، لكنَّ القرآن يسجِّل مخالفة بني إسرائيل لهذه البنود، ولا يستثني إلا القليل منهم ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾ والملاحظ أنَّ هذه البنود مثَّلت القيم الدينيَّة الكبرى في توحيد الله وعبادته والإحسان إلى خلقه ونشر معالم الفضيلة والأخلاق الحسنة.

ويقرَّب من هذا ما ورد في سورة الأنعام (١٥١، ١٥٢، ١٥٣)، والتي جعلها القرآن تحت عنوان: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ﴾^(١)، بإشارة لمصطلح (الوصايا)، وليس في هذا غضاضة، بل هو ما يثبت أنَّ الرسالة الخاتمة جاءت مصدِّقةً ومكمِّلةً للرسالات السابقة، والله أعلم.

(١) تَكَرَّرَت هذه الآية الكريمة في سورة الأنعام ثلاث مرات: ١٥١، ١٥٢، ١٥٣.

سادساً: منهج الانتقائية مرفوض:

حينما يحاول الإنسان أن يجمع بين معتقداته ومبادئه من ناحية، وبين نزواته وشهواته من ناحية أخرى فإنه يلجأ إلى طريقة الانتقاء، فهو مُتَدَيِّنٌ في مكان، وغير مُتَدَيِّنٍ في مكان آخر. وقد سجّل القرآن هذا السلوك في التجربة الأولى للاستخلاف ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۖ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. وهذا السلوك نراه اليوم ظاهراً في محاولات التلفيق بين الإسلام وبين المناهج الوافدة والغازية، وكذلك نلاحظه في السلوك الفردي لكثير من المتدينين؛ حيث إنهم يحرصون على الشعائر كالصلاة والصيام والحج والعمرة، ثُمَّ يَسْتَهِينُونَ بحقوق الناس والضعفاء منهم خاصة، وقد ترى الشخص نفسه يحتكم في المسجد للشريعة، ويحتكم في السياسة للمقولات الوطنية أو القومية حتى لو كانت مخالفة للشريعة، وهذا قد يكون معذوراً إن كان بحكم إدارة الواقع، لكن الذي لا يشمل العذر هو تحويل هذه الازدواجية إلى ثقافة يُرَوِّج لها ويدافع عنها.

سابعاً: حبُّ الدنيا وكرهية الموت دليل فساد التدين:

فالمؤمن يعمل في الدنيا وقلبه معلق بالآخرة لما فيها من القربى والكرامة والنعيم الأبدي، فإذا رأيته متشبهاً بالدنيا زاهداً بالآخرة فهو لنقص في إيمانه وفساد في نيته وعمله، وهذا ما حاجج به القرآن بني إسرائيل ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ١٥ وَلَنَجْذِثَهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِّجِهِ ۚ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

وقد تأكّد الإلزام القرآني لهم لأنهم تجاوزوا التعلق الشرعي والعملي بالآخرة إلى الادّعاء أنهم أبناء الله وأحباؤه وأنَّ الله لن يُعَذِّبَهُمْ، بل سيجعل لهم الجنة خالصة لهم من دون الناس،

وقد ورد هذا الحِجَاج في آية أخرى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾^٤
 قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ^٥ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ^٦ [المائدة: ١٨]، فإن أنكروا
 استحقاقهم للعذاب على معاصيهم كان الردُّ بآية البقرة هذه.

ثامناً: اللجوء إلى السحر والشعوذة دليل الكفر والإفلاس:

السحر نوع من الدجل لا يجتمع مع الإيمان في قلب واحد ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرُ﴾^٧
 ويحمل دلائل بطلانه في ذاته، فالساحر يقلب الحجارة ذهباً ليعطيه الناس بضعة دراهم، ولو
 كان صادقاً لاستغنى بذهبه، ويدّعي علم الغيب، ولو كان كذلك لكان أمهر الساسة وأنجح
 المستثمرين، ولكن مجتمعات السحر يُعشَّعُ فيها الجهل والفقر والتخلف.

وقد صرَّح القرآن في سحرة فرعون أنّ سحرهم خيال وإيهام، فقال: ﴿يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ
 سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْعَى﴾ [طه: ٦٦]، و﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦].

فالسحر يتسلط على أعين الناس وليس على الأشياء، ومن السحر ما هو علم يُتعلَّم
 كالشي على الجمر بوجود واقٍ أسفل القدمين لا يتأثر بالنار، وهكذا.

والسحر لا يقارن بمعارف الوحي عقيدة وشريعة، فالوحي تُثبت صدقهُ الأيام، والسحر
 ينهار بأول امتحان، وبين الوحي والسحر تنافر، فكلما اقترب الإنسان من الوحي ابتعد عن
 السحر؛ ولذلك قرن القرآن بين نذ بني إسرائيل لكتاب الله وبين اتّباعهم لما تتلوه الشياطين
 من سحر وكفر.

دقائق التفسير

﴿أَفَنظَمُونَ﴾ إشارة إلى أن المسلمين كانوا يرجون قبول اليهود بالإسلام ما لا
 يرجونه للمشرّكين؛ وذلك لكثرة المشتركات معهم كالإيمان بالله وملائكته وأنبيائه واليوم
 الآخر، ولما كان يكرره القرآن من مدح لإبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وهارون

وغيرهم من الأنبياء الذين يعظمهم اليهود ويتسبون إليهم، بينما كان القرآن يندد بأصنام العرب وأوثانهم، فكان هذا داعيًا ومرجّحًا لذلك الرجاء، لكنّ واقع اليهود كان الأبعد عن كل رجاء بسبب حسدهم وكبرهم.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ هذا فعل المنافقين، ونسبته لليهود هنا تأكيد لصلتهم بالنفاق، ولوجود منافقين يهود أيضًا، ولا يبعد أيضًا أنهم يقولونها سخرية بالمسلمين، والسياق يؤيد هذا المعنى لحسم الرجاء بإيمانهم، والنفاق أمر خفي لا يحسم ذلك الرجاء، والله أعلم.

﴿وَأَخْطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ إشارة إلى أن الخطيئة التي تورد صاحبها الجحيم إنما هي الخطيئة المتلبسة به والملازمة له والمحيطة به من كل جانب فتحجبه عن كل خير، وهذا بخلاف الخطيئة العارضة التي تعقبها توبة أو تختلط بالصالحات، كما هو حال غالب المؤمنين، وهذه نسمة من رحمة الله، والله أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أنزل الآخر منزلة النفس، وذاك بتحريم العدوان عليه، ووجوب السعي للحفاظ على حياته وماله، وذلك لاعتبارات عديدة؛ فضياع العدل وغياب القانون وشيوع الجريمة إنما تغرق السفينة كلها، فمن يعتدي اليوم سيُعتدى عليه غدًا، مع ما في هذا الاعتداء من تهديم لمعاني الإيمان والصلاح، وضياعها أشدّ خسارة من ضياع الأنفس والأموال.

﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ بمعنى: تَشَرَّبَتْ قُلُوبُهُمْ حَبَّ الْعِجْلِ، وإلا فالعجل لا يدخل القلوب بذاته، وهذا تقدير مجازي شائع في لغة العرب، والقرآن إنما جاء بهذه اللغة، بل لقد ورد مثله في آيات الأحكام، ولولا التقدير لما استقام الحكم، انظر إلى قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، فهو إنما حرّم الأكل في الأولى والنكاح في الثانية، وكلاهما مقدّران.

﴿وَلَنَجْذِثَّهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوَةٍ﴾ جاءت مُنْكَرَةً على معنى أَنَّهُمْ يَحْرِصُونَ على آيَةِ حياةٍ ولو كانت ذليلة ومهينة، وهذا شأن اليائسين والقانطين من رحمة الله في الآخرة.

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ ليس هناك من مناسبة لإعلان العداوة لجبريل أو لأي من الملائكة سوى العداوة للدين نفسه، وإعلان التمرد على كل ما له صلة بهذا الدين، والعداوة هذه تُنَمُّ عن احتجاج على البعثة وضياع الرسالة منهم، وهو كما يشيع عند بعض غلاة الروافض من (خيانة الأمين) ويقصدون به جبريل؛ لأنه حوّل الرسالة - بزعمهم - من عليٍّ إلى محمد! حتى قال شاعرهم:

غَلِطَ الْأَمِينُ فَجَاوَزَهَا عَنْ حَيْدَرٍ وَاللَّهِ مَا كَانَ الْأَمِينُ أَمِينًا

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوَتَ﴾ بابل مدينة في سواد العراق، والآية تصرّح بوجودها من القدم، وتُشير إلى اشتهاها بالسحر في ذلك الوقت. أما الحديث عن هاروت وماروت فإن الروايات الصحيحة لا تسعفنا في إدراك حقيقتيهما، ودورهما في تلك المرحلة، وغاية ما صرّح به القرآن أَنَّهُما فتنة للناس، والفتنة هنا بمعنى اختبار عقيدة الناس وتمييز الصادق منهم عن الكاذب، والله أعلم.

﴿وَيَنْفَعُهُمْ﴾ إشارة للنهج القرآني في التعلم، وهو ربط التعلم ووزنه بالغاية منه، فالتعلم للعلم شعار مرفوض، بل التعلّم لأداء الوظائف النافعة في خدمة الإنسان وبناء المجتمع، وانحراف البشريّة عن هذا النهج أودى بها في مهاوي أسلحة التدمير الشامل، والخداع السياسي، والتطوّر المريع في وسائل الجريمة وأدواتها، وإشارة أخرى أن السحر ليس بخارق للعادة؛ لأن كل شيء يأتي بالتعلّم فهو معتاد وليس بخارق، والله أعلم.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ مَا يَوَدُّ
 الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ
 يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٢﴾ مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٤﴾ أَمْ
 تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٥﴾ وَذَ
 كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ
 الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا
 لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٠٧﴾ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى
 تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠٨﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ
 عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ
 وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٠﴾ وَمَنْ
 أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي
 الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١١﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِيعُ عَلِيمٌ
 ﴿١١٢﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَدِينٌ ﴿١١٣﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى
 أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٥﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ
 أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٦﴾ وَلَنْ رَضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي
 جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٧﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَتَّى تَلَوتَهُ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ
 هُمُ الْخَافِرُونَ ﴿١١٨﴾ يَتَّبِعِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١١٩﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا
 وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٠﴾

دروس ومسائل من وحي التجربة

أولاً: الحذر من لبس الحق بالباطل:

من الآيات الأولى في تجربة بني إسرائيل جاء قوله تعالى محذراً لهم: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، وفي هذا المقطع يخاطب الله الذين آمنوا: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا﴾. وكلمة (رَاعِنَا) تحمل حقاً وباطلاً، الحق بمعناها اللغوي: أن اسمع لنا وتأن بنا، والباطل في استخدام اليهود لها شتما وانتقاصا من المخاطب، ويعنون بها الرعونة والحقاقة، وحصول هذا الالتباس بين الاستعمالين جاء النهي الصريح عن توجيه الخطاب بها لنبيه ﷺ، وهذا نموذج عملي لا غير، والأصل فيه النهي عن كل قول أو فعل يؤدي إلى التباس الحق بالباطل عند المتلقي، والنية الحسنة لا تكفي هنا، لأن العبرة بما يفهمه السامعون لا بما يقصده المتكلمون.

ثانياً: الحسد طريق الضلال:

يؤكد القرآن الكريم في هذا المقطع على خطورة الحسد، ودور هذه الصفة الذميمة في صد الناس عن الصراط المستقيم، فيقول أولاً: ﴿مَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾. ثم يؤكد ويصرح أكثر: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾.

ثالثاً: الحكم للرسالة الخاتمة:

في قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ ذهب أغلب المفسرين إلى أن المقصود بالنسخ هنا النسخ في آيات القرآن الكريم نفسها، فالآية اللاحقة قد تنسخ السابقة لحكمة يقتضيها التدرج في التشريع.

لكنَّ السياق القرآني يوحى بمعنى آخر قد يكون هو الأقرب والأنسب؛ فالآيات تتحدث عن تجربة استخلافية سابقة وتجربة استخلافية لاحقة، ورسالة الأولى (التوراة)، ورسالة الثانية (القرآن)، وقد تنكَّر أصحاب التجربة السابقة لهذا القرآن حسداً من عند أنفسهم مع أنه جاء مصدّقاً لكتابهم التوراة.

وقد أثار اليهود تساؤلات كثيرة حول صلة القرآن بالتوراة، وكأَنَّهُم يقولون: إذا كان القرآن مصدّقاً تماماً للتوراة فلا حاجة لنا به، وإذا كان مخالفاً له فتركه من باب أولى، وقد تقدّم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ، وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ﴾.

وقد جاء ردّ القرآن أن الله جعل القرآن مُصَدِّقاً للتوراة، وهذا التصديق ليس معناه أن يكون القرآن نسخة من التوراة، فقد يكون النص التوراتي موجوداً فينسخه الله بنص القرآن لحكمة يقتضيها التدرج التشريعي المناسب للتطور البشري، وقد يكون النص التوراتي قد فُقد أو (نُسي) بسبب التحريف الذي تقدمت الإشارة إليه، فيأتي النص القرآني معوّضاً هذا النقص، وفي كلتا الحالتين سيكون النص القرآني مثل النص التوراتي في تحقيق غاية التشريع أو أفضل منه من حيث مناسبته لحياة الناس ومصالحهم.

إضافة إلى خصوصيّة القرآن في الإعجاز والبيان، والآية التي قبل آية النسخ مباشرة كانت تناقش بني إسرائيل في سبب رفضهم لرسالة محمد ﷺ، وبعد آية النسخ تكررت المناقشة ذاتها، وتقرير حال بني إسرائيل، ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ﴾ والبحث الأصولي المعروف لآية النسخ لا يتأتى إلا بقطعها من هذا السياق كله. أما المعنى الذي يَتَسَقُّ مع السياق فخلاصته: أن آيات القرآن قد نسخت ما خالفها من أحكام شرعية وردت في التوراة، وأنها أتمّت النقص والنسيان الذي حصل في التوراة بسبب طول الزمن والتدخل البشري في التحريف والتبديل.

وعليه فإن القرآن هو كلام الله الذي ختم به الرسالات، وجعله الله حاكمًا ومهيمنًا عليها، فالآية تتحدث عن محور جوهري في العلاقة بين التجربتين الاستخلافتين (تجربة بني إسرائيل)، و(تجربة المسلمين)، والله أعلم.

رابعًا: العبرة بالدليل لا بالأمان:

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ ۚ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، وهذه قاعدة قرآنية في الحوار والمجادلة.

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: قدموا دليلكم وحجتكم، فهذا هو الفصل بين الوهم والحقيقة، وكذاك هي قاعدة في البحث العلمي؛ فالباحث الحق يطلب الحقيقة ويسعى لها سواء كانت كما يتمنى أو لا.

وأهل الأرض يستخدمون هذه القاعدة في العلوم الطبيعية والتجريبية، فتوصلوا بالفعل إلى نتائج مبهرة في الطب والفلك والصناعات المختلفة، بينما قصرُوا في تطبيق هذه القاعدة على البحوث الدينية واعتمدوا طريقة التقليد باعتبار أن الدين يمثل تراثًا شعبيًا للأمم، وهو ركن في هوية كل أمة؛ كالجنس، واللون، واللغة، والتاريخ، ولا مجال لتغييره؛ ولذلك ترى بقاء ما كان على مكان دون الشعور بالحاجة إلى التغيير.

خامسًا: الإحسان قرين الإسلام:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ فالإسلام الحق هو الذي يثمر إحسانًا إلى الناس وإتقانًا في العمل، وتلك هي شروط النجاة.

سادسًا: البرهان منهج الصادقين، والعدوان منهج الظالمين:

بعد ما حكاه القرآن عن قول اليهود في النصارى وقول النصارى في اليهود، وكان قبل ذلك كان قد حكى موقف الفريقين من المسلمين، لفت الأنظار إلى سلوك مشين قد تقوم به الأطراف المتخاصمة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَاسْمُ أَبِيهِ فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَذَكِّرُ الْمُنَافِقِينَ﴾

خَرَابَهَا ﴿١٨﴾، وهذا السلوك يقابل السلوك الذي اختاره القرآن ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وقد اختلف المفسرون في تحديد الطرف المقصود بهذه الإدانة، لكن السياق يرجح أن القرآن بصدد وضع قواعد التعامل بين الفرقاء المختلفين، وليس للحكم على حدث معين، بقرينة تناوله في الآية السابقة للتخاصم بين اليهود والنصارى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾.

وليس هناك مناسبة للحديث عن مساجد المسلمين خاصة؛ إذ لم يكن لهم مساجد في ذلك الوقت قد اعتُدي عليها بالفعل، وأما قريش فقد كانت تفاخر بعمارة المسجد الحرام، حتى رذّهم الله بقوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩]، والله أعلم.

سابعاً: التمايز بين الحق والباطل:

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۖ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ وهو تأكيد لما جاء في سورة الفاتحة ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

وهنا إضافة معنى: أن الباطل لا يمكن أن يرضى بشيء من الحق، وهذه حقيقة قرآنية لا تتخلف، والواقع يشهد لها، فمحاولات التقريب بين الديانات والطوائف المختلفة كلها باءت بالفشل، والحل إنما يكون بالوضوح في التمايز بحيث يعرف كل طرف هويته التي تميزه، ثم بعد هذا نسلك مسلكين:

الأول: التحاور بالدليل والبرهان والمجادلة بالتي هي أحسن، وهذا هو ما تقتضيه الأمانة العلمية واحترام الحقيقة بلا تلبيس ولا تدليس.

والثاني: البحث في القضايا الحياتية سياسية واقتصادية وخدمية لوضع الصيغ الكفيلة بالتعاون وتحقيق التعايش السلمي، خاصة لمن كانوا يعيشون في بلد واحد وعلى أرض واحدة.

وهذان المسلكان مسلكان شرعيان أقرهما القرآن في آيتين صريحتين: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، و﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨].

دقائق التفسير

﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ الرحمة هنا: القرآن نفسه، وقد كان اليهود يتمنونونه فيهم، فلما نزل في غيرهم كفروا به، وهذا المعنى هو المتسق مع السياق.

﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ إشارة إلى الكتب السابقة التي نُسيت الكثير من أحكامها ونصوصها بالتحريف والإهمال، وإنما نسب الفعل لذاته العلية على معنى إرادته المطلقة، ففعل العباد لا يخرج عن دائرة الإرادة الإلهية، ولو شاء الله أن يحفظها لحفظت كما حفظ القرآن الكريم؛ حيث تعهد الله بحفظه.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ فيه تحذير للمسلمين أن يقلدوا بني إسرائيل في نمط الأسئلة التي كانوا يوجهونها لنبيهم موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وهي ذات طابع امتحاني كأنهم يمتحنون نبيهم كقولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ بخلاف الأسئلة العملية للتفقه في الدين، والبحث عن الحلول للمشكلات، فهذه محمودة ومطلوبة، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١].

﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ هذا الأمر موجّه للمسلمين بعد بيان حال بعض أهل الكتاب من الدعوة الإسلامية، ورغبتهم في إنهائها وإرجاع المسلمين إلى عهد الشرك والوثنية، وفي هذا الأمر بيان لسماحة الإسلام وطريقته في التعامل مع المخالفين.

والعفو: ترك العقاب عن مستحقّه، والصفح: ترك الخوض فيه أخذًا وردًا ولو ما وعتبًا وما إلى ذلك، وهو أبلغ وأوسع من العفو.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ تأكيد أن ما يُقدِّمه المسلم من خير وإحسان ونفقة إنما يُقدِّمه لنفسه؛ لأنه ينتظر ثوابه من مولاه الكريم، وهذا جمع بين الصفة الجيدة والدافع الذاتي إليها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ أصل الوعيد للمنع المرتبط بالعدوان وقصد الخراب؛ أما ما يحصل اليوم من غلق المساجد وتحديد أوقات الدخول والخروج ومضايقة المصلّين في المساجد بذرائع أمنية أو إدارية فهؤلاء يصيبهم نصيب من هذا الوعيد لاشتراكهم في مسمى المنع، وإن اختلفت أسبابه ودوافعه، ما لم يكن هناك ضرورة قاهرة، والله أعلم.

﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ الأقرب أن هؤلاء الظالمين المعتدين كان عليهم أن يستشعروا هيبة بيوت الله، وأنهم لو كانوا مؤمنين حقًا لارتعبوا فرقا وخوفا وهم يدخلونها من أجل التخريب.

وأما القول بأنّ الشأن أن الكافر لا يدخل المسجد إلا وهو خائف من سيوف المسلمين، فهذا تفسير مستغرب؛ فالمساجد لم تُبن لإثارة الرعب والخوف في قلوب الناس، بل هي منارات للعلم، وواحات للدعوة والإحسان.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ فَإِنَّمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ الأقرب للسياق: أن هذا خطاب للمختلفين والمتخاصمين في الدين؛ إذ لا زال الكلام فيهم أن الله هو مالك الملك، فله المشرق وله المغرب وما بينهما، وأنتم - أيها البشر - أينما توجهتم في معتقداتكم وعباداتكم وتصوّراتكم، فالله هو الذي يراقبكم ومطلّع على نواياكم وخفاياكم؛ ولذلك عبّ بقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ بمعنى: أن الله واسع فلا تخرجون عن ملكه، وعليم فلا تغيبون عن سمعه وبصره.

وهناك قرينة أخرى: أن الآية التالية مباشرة جاءت لتتقد توجُّهاً من هذه التوجُّهات ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وإقحام موضوع تغيير القبلة لا يناسب السياق، والله أعلم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ هو من نمط أسئلة بني إسرائيل لموسى، والتي نهانا الله عنها: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ ولذا قال بعدها: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ البشارة والندارة مرتبطة بالحق فقط، فمن أخذ به فله البشارة، ومن حاد عنه استحقَّ الندارة.

﴿وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ إشارة إلى أن الدعاة إلى الله إذا أدَّوا ما عليهم وقاموا بواجبهم على الوجه الذي أمر الله فليس عليهم إن أصرَّ أهل الباطل على باطلهم، فمسؤولية الداعية التبليغ، وأما الاستجابة فهي مسؤولية المبلِّغ.

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ إشارة إلى أن كل حكم أو منهج يخالف هدى الله فإنما هو هوى لا غير، سواء كان هذا الهوى لمصلحة شخص حاكم أو حزب أو قبيلة أو عصابة وما إلى ذلك.

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ إشارة إلى أن التلاوة الصحيحة والواعية للكتاب ستقود حتماً للإيمان، والتلاوة الصحيحة ليست في الوقوف على مخارج الحروف وصفاتها وتجويد القراءة بأحكامها المعروفة، بل هو قبل هذا الصدق في البحث عن مراد المتكلم بهذا الكلام؛ إذ إن الكلام وعاء المعنى، وتجويد النطق بالكلام من غير الحرص على فهم معناه إهمالٌ لمقصود الكلام أصلاً، وهذا لا يقود للإيمان.

﴿ وَإِذْ أُنذِرَ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَاتَمَّهِنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ۚ ۝١٢٤﴾
 وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ
 لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ۖ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ
 بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ
 الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ
 وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
 الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ
 اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٣١﴾
 وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئِي ۖ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ۝١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ
 إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
 وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۝١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ۝١٣٤﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۚ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا
 بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ
 النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۝١٣٦﴾ فَإِنِ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ۖ وَإِنِ
 تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً
 وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ۝١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ۝١٣٩﴾
 أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۚ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ
 وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ
 وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٤١﴾

معالم في هوية الأمة الجديدة

بعد بيان التجربة السابقة (تجربة بني إسرائيل) ومناقشتها في مختلف الجوانب العقدية والسلوكية، شرع القرآن في بيان معالم هوية الأمة الجديدة، بعد أن قدّم لها في سورة الفاتحة وفواتح هذه السورة، فهناك كان التركيز على الإيمان بالغيب، بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهنا شرع بالحديث عن جوانب أخرى لهذه الهوية:

الجانب الأول: الرمز التاريخي:

فإبراهيم هو الرمز البشري الأول، كما أن محمداً ﷺ هو الرمز الخاتم، والذي هو دعوة إبراهيم أيضاً: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ وكأن الأنبياء الذين جاءوا قبل إبراهيم ما جاءوا إلا ممهدين لإبراهيم، والأنبياء الذين جاءوا بعده كانوا مؤكدين لدعوته ومبشرين بحفيده الخاتم ﷺ.

إن الرسائل السماوية الكبرى (القرآن، والتوراة، والإنجيل) تتصل بدعوة إبراهيم اتصالاً وثيقاً، ولكن الإسلام أضاف بُعداً آخر وهو بُعد الهوية، فجعل من مقام إبراهيم مصلى، وجعل من البيت الذي رفع قواعده بيده قبلة؛ فالأمة كلها تتذكر إبراهيم في صلاتها وفي مناسك حجّها، وتذكره حتى حينما تصلي على نبيّها، فتقول: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»^(١)، وهذه هي الصلوات التامة.

ومعنى هذا: أن الإسلام لا يتعامل مع سيدنا إبراهيم باعتباره نبياً ورسولاً فحسب، بل هو حاضر في مناسكنا وصلواتنا وأذكارنا، والحضور المتكرّر هو البعد الأهم في كل هوية.

(١) حديث الصلاة الإبراهيمية ورد بصيغ متعددة، وهذا اللفظ في حديث متفق عليه عن كعب بن عُجرة رضى الله عنه، ينظر: صحيح البخاري (٣/ ١٢٣٣ / دار ابن كثير)، وصحيح مسلم (١/ ٣٠٥ / دار إحياء التراث العربي).

الجانب الثاني: الرمز المكاني:

حيث اختار الله الكعبة لتكون الرمز المكاني لهذه الهوية، وربط بها ركنين عظيمين من أركان الإسلام: (الصلاة والحج)، وجعل ما حولها حرماً آمناً للناس، وهما الركنان الظاهران من الأركان، بخلاف الأركان الأخرى، التي يغلب فيها عمل الباطن. وهذا يؤكد أن الكعبة ليست مكاناً للتعبد فحسب، بل هي رمزٌ ظاهرٌ وحاضرٌ في السلوك الفردي والجماعي لهذه الأمة.

الجانب الثالث: الصبغة الربانية:

ولأن صبغة الشيء هي ظاهره المرئي للناس، فإن صبغة هذه الأمة هي هويتها، وقد حدد الله مصدر هذه الهوية بقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾، فهي هوية ربانية. ومن هنا ندرك خطورة ما يقوم به بعض المنتسبين لهذا الدين من صناعة رموز بشرية ومكانية لم يأذن بها الله، فجعلوا من اسم الحسين عليه السلام رمزاً فوق رمزية محمد وإبراهيم عليهما السلام، وجعلوا من كربلاء رمزاً مكانياً فوق الكعبة، إن هذا مع أنه بدعة في الدين فهو سبب لتفريق الأمة وضياعتها، لأن كل أمة إنما تجتمع حول هويتها، والهوية ليست مسائل اجتهادية تحتمل الصواب والخطأ، إنها الصبغة التي ينبغي أن تغطي على كل رأي أو عاطفة أو اجتهاد.

دقائق التفسير

﴿وَإِذْ أُنْتَلَىٰ إِلَٰهَهُمْ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾: اختلف المفسرون في هذه الكلمات، والأظهر أنها متعلقة بالإمامة ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وهي الشروط والصفات والأعمال التي تستلزمها هذه الوظيفة العظيمة، وقوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: جاء بهنَّ على أتم وجه. ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا﴾ المثابة: المكان الذي يرجع إليه الناس ويجتمعون فيه، وهذا تأكيد لدور البيت في حفظ هوية الأمة، فهو المكان الذي يجتمعون فيه على

اختلاف أجناسهم وألوانهم، ولكي يصلح لهذه الغاية كان لا بد أن يكون آمنًا، والجعل هنا يحمل معنى التكليف؛ إذ يقضي على كل قادر أن يقصده ويعمره ويوفر فيه الأمن.

﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ فيه وجوب تطهير البيت وما حوله ماديًا ومعنويًا، ليكون المكان الأنسب لاجتماع الناس وهم يطوفون به ويركعون فيه ويسجدون، فالتطهير واجب، وإيذاء البيت وما حوله بالقذر ونحوه محرّم. وقد غفل عن هذا كثيرٌ من الحجاج في زماننا والمعتمرين، وظنوا هذا مسؤولية الدولة فقط.

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ وفي آية أخرى قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥]، إشارة للفارق الزمني، فزيارة إبراهيم الأولى للبيت دعا أن يكون حوله بلد آمن؛ لأنه لم يكن هنالك بلد فقال: ﴿اجْعَلْ هَذَا﴾ أي: اجعل هذا المكان بلدًا، وفي الزيارة الثانية بعدما أسكن ذريته وأنسهم الله ببعض الناس دعا أن يجعل الله هذا البلد الموجود آمنًا. ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ إشارة إلى أن أساس البيت كان موجودًا فرفعاه بالبناء عليه.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ تأكيد التكامل بين التعليم والتزكية، بين ما يغذي العقول والأفكار وبين ما يهذب القلوب والأخلاق.

وقد أخذ بعضهم أن الله استجاب لهما هذا الدعاء، لكنّه أعاد الترتيب فقدّم التزكية على التعليم ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، ومثلها في البقرة: ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾. وهذا معنى لطيف ومحمّل، لكنّ الأقرب منه: أنها مُتداخِلان، فهناك علمٌ أوّلٌ ينبغي أن يسبق التزكية، وهناك علمٌ تفصيلي ينبغي أن يأتي بعد التزكية.

ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول للناس: «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَقْلِحُوا»^(١). وهذا تعليم، وإشارة هذا التداخل واردة في آية الجمعة نفسها إذا قرأتها من أولها: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ والله أعلم.

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ تأكيد لاتصال الرسائل السماوية المعروفة بإبراهيم عليه السلام، وتأكيد أيضًا لرمزيته الكبيرة في هذه الهوية.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ^ط قَالَ أَسْلَمْتُ﴾ تكرر في هذه المجموعة لفظ (الإسلام) واشتقاقاته دعاء أو إخبارًا عن إبراهيم وبنيه عليه السلام؛ لتأكيد صلة الإسلام بهذه السلالة، وذلك التاريخ.

﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ إشارة إلى أن إسماعيل هو الابن الأكبر لإبراهيم عليه السلام، وهو ما تؤيده آيات أخر ستأتي في سياقها القرآني.

﴿تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ^ط لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ^ط وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ للتفريق بين الاشتراك في الهوية والافتراق في المسؤولية، فكل إنسان مسؤول عن عمله خيرًا أو شرًا، والاعتزاز بالأجداد الصالحين واجب لكنه لا يعفي الأحفاد من مسؤوليتهم.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا^ط قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا^ط وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لأن دعوتهم للدخول في اليهود والنصارى المعاصرين للبعثة المحمدية، وليس للدخول في ملة موسى وعيسى، فدعاهم القرآن للدخول في ملة إبراهيم والتي هي الأصل لرسالة موسى ورسالة عيسى عليه السلام، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بالبدع التي تصل إلى مستوى الشرك والتي ابتدعتها اليهود والنصارى.

(١) حديث صحيح؛ رواه أحمد، ينظر: «مسند أحمد» (٣/ ٤٩٢) / المطبعة الميمنية، ط. ١٣١٣هـ، تصحيح محمد الزهري الغمراوي).

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ تأكيد للسند التاريخي لهويّتنا الإسلامية، وأنها تجمع كل الرسائل السماوية، وترتبط بكل الأنبياء.

وأما الأسباط فهم أنبياء لا شك في نبوتهم، وإنما الخلاف في أعيانهم؛ إذ السبط وصف، بخلاف اسم العلم الذي لا يقع فيه خلاف؛ كإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وموسى، وعيسى؛ والأظهر أنهم أنبياء كثر، بعثهم الله في قبائل مختلفة؛ لصحة إطلاق السبط على القبيلة، والأظهر أنّها قبائل بني إسرائيل؛ لورود قوله تعالى فيهم: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠]، وإن كان هذا الإطلاق لا يمنع إطلاقه على غيرهم.

قلت: والخلاف في هذا لا يضر؛ لأن المطلوب هو الإيذان المجمل بنبوتهم، إذ ليس هناك رسالة أو شرع عنهم، مع استبعاد أن يكون المقصود إخوة يوسف عليه السلام؛ لشناعة الجرم الذي ارتكبه بحق أبيهم وأخيه، ولقول يوسف فيهم: ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾ [يوسف: ٧٧]، ولأن الله قال في الأنبياء: ﴿فِيهِدْنَاهُمْ أَقْتَدَةً﴾ [الأنعام: ٩٠]، وهؤلاء لم يذكر القرآن عنهم ما يصح به الاقتداء، والله أعلم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ الأظهر أنّ هذا التشنيع كان بسبب علمهم بكبر التحريف الذي اقترفوه في كتب الله السابقة، مما ينفي صلتهم بإبراهيم فضلاً عن كذبهم بنسبة إبراهيم لهم.

أما ما أنزله الله على موسى وعيسى فلا شك أنّه وما جاء به محمد وإبراهيم عليه السلام من مشكاة واحدة؛ ولذلك قال الله في سورة الأعلى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿[الأعلى: ١٨، ١٩].

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١١٢ ﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عِبَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ١١٣ ﴾ قَدْ زَرَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَلِّسَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١١٤ ﴾ وَلِئِن أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِن أَتَيْتَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ١١٥ ﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١١٦ ﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ١١٧ ﴾ وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مَوْلَاهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١١٨ ﴾ وَمِن حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١١٩ ﴾ وَمِن حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِيَنلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِنَّمْ يَفْتِنِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٢٠ ﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ١٢١ ﴾ فَأَذْكُرُوا أَنِ ادَّكُرْكُمُ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ١٢٢ ﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ١٢٣ ﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ١٢٤ ﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ١٢٥ ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ١٢٦ ﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ١٢٧ ﴾ ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٢٨ ﴾

تمييز الهوية

القضية المحورية في هذه الحلقة هي تمييز الهوية الإسلامية، وهي هوية الأمة الجديدة والمستخلقة بعد خسارة الأمة السابقة لهذا الدور الكبير.

وتظهر هنا أهمية تمييز هذه الهوية لتمييز الأمة نفسها؛ بحيث سفه القرآن تلك العقول التي لا تدرك قيمة هذا التمييز ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَيْهَا﴾ في مقابل هؤلاء كان رسول الله ﷺ مُدْرِكًا لخطورة الأمر، ومتعجلًا في حسمه ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ إن اختيار المسجد الحرام قبله للمسلمين هو أبعد من تفضيل مكانٍ على مكانٍ ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، وإنما لتمييز الأمة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

وقد أشار القرآن إلى إدراك أهل الكتاب لهذا الأمر وأهميته وتبعاته على خلاف السفهاء الذين لا يعلمون ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ إن الأمم على اختلاف ثقافتها لتسعى إلى هذا التمايز الذي يحفظ لها هويتها ووجودها، سواء أكانت على الحق أم كانت على الباطل، وهذا ما يؤكده القرآن في هذه الآيات، وإن الأمم الضائعة والتائهة والآيلة إلى الزوال هي تلك التي لا تعتزُّ بهويتها، ولا بما يميّزها عن غيرها.

ثم تناول القرآن قانونًا لا يتغيّر في حراك الأمم والمجتمعات الإنسانية، ألا وهو الصراع الحتمي، والذي يتخذ أكثر من طابع وأكثر من مبرر، لكن (صراع الهوية) هو السمة الغالبة على هذا الحراك؛ ومن هنا بدأ القرآن يُعِدُّ هذه الأمة لمواجهة هذا التحدي الحتمي، فبدأ بقوله: ﴿لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾، ثم

أضاف: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾.

إن مجيء هذه الآيات مباشرة بعد الحديث عن القبلة وما تمثله للأمة الوسط ليحمل دلالة قاطعة على حتمية المواجهة مع الباطل، فوجود راية الحق الواضحة في مكان ما على هذه الأرض يستفز الباطل لا محالة.

دقائق التفسير

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ الأقرب أن السفاهة هنا الجهل، والظاهر أنه أراد مُشركي العرب ومنافقيهم، وقد اعترضوا على تغيير القبلة؛ لأنهم لم يفهموا الغاية والحكمة منه، بخلاف أهل الكتاب الذين يعلمون الحق، ويعلمون جدية الأمر وخطورته، وإن كان فيهم من سَفِهٍ فهو سَفُهٌ القصد والنية، لا سفه الجهل والغفلة.

﴿أُمَّةٌ وَسَطًا﴾ الوسطية هي الاعتدال والتوازن، ومن فسرها بالأفضلية والشرف الأعلى فهو مُحَقٌّ للتلازم الذي بينهما، كما قيل: خير الأمور أوسطها.

والوسطية غير التوسط، والذي يطلق في الغالب على موقف بين موقفين متقابلين، وهذا لا يكون حقًا وعدلًا بالضرورة، فالتوحيد يقابله الشرك، والتوحيد هو الحق، وليس الحق بأن تتوسط بينهما.

ومن لطائف القدر أن تكون الجزيرة العربية - وهي مهبط الوحي - في وسط الكرة الأرضية العامرة، وبُعدها عن أقصى الشرق كبُعدها عن أقصى الغرب، وليست هذه لازمة لمعنى الوسطية القرآنية، مع ما فيها من حكمة ربّانية لا تخفى.

﴿لَنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ الشهادة عِلَّةٌ للوسطية، فخيرية الأمة وعدالتها سبب في استحقاقها لتكون شاهدة على الأمم الأخرى، والشهادة هنا الحُكم، بمعنى: أنها ملكت المعيار الصحيح الذي تحكم به على سلوك الأمم الأخرى استقامةً أو انحرافاً، ثباتاً أو تديلاً، والظاهر أن من يملك هذه الشهادة إنما هم العلماء العُدول، والأمة تَبَعُ لهم في ذلك، والله أعلم.

﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ إشارة إلى أن هذه الأمة محكومة بالمعيار نفسه الذي تحكم به على الآخرين، فالرسول ﷺ يحكم بنفسه على من كان معه من المؤمنين، ثم يحكم بهديه وسنته على الآخرين.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ الاختبار في اتباع الرسول ﷺ وارد هنا في الحالتين:

التوجهُ أولاً إلى بيت المقدس كان اختباراً للمؤمنين من العرب، والذين كانوا يعتزُّون بالكعبة.

والتوجهُ الثاني للكعبة كان اختباراً للمؤمنين من أهل الكتاب، الذين كانوا يعتزُّون ببيت المقدس، ويُنكرون استدباره في الصلاة.

وقوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ﴾ محمولٌ على الكناية؛ أي: لتعلموا، وهو شائع في اللغة، ولأن المقطوع به أن الله يعلم الحوادث قبل وقوعها، ولا يستجد له علم بحدوثها.

﴿شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أطلق المسجد وأراد الكعبة، فمن كان في المسجد أو خارجه، القريب والبعيد، المقيم والمسافر عليهم قصد الكعبة في الصلاة.

فإن قيل: هذا متعذرٌ على البعيد.

قلنا: إن الواجب تحقيق القصد، بأن ينوي المصلي التوجهَ إلى عين الكعبة، فإن لم يُصِبها فهو معذور وصلاته صحيحة، وهذا يفرق عن قول من قال: إن قصد العين فرض القريب،

وقصد الجهة فرض البعيد، فقبله المسلمين واحدة، واستحضرها في الصلاة على اختلاف بقاعهم يُعزّز في النفس الانتماء للهوية الواحدة، والله أعلم.

﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ بمعنى: أن كل جماعة متمسكة بوجهتها عن إيمان وصدق، أو عن تكبر وعصبية، والمطلوب هو البحث عن الخير والحق، وليس العيب أن يغيّر المرء ولائه إن تبين له الحق في الجهة المقابلة، وإنما العيب هو التعصب للجماعة أو القبيلة بلا بينة ولا دليل.

وهنا إشارة إلى أن الأمم حتى لو بقيت متمسكة بما عندها عليها أن تتنافس في تقديم الخير لهذه الحياة، فأبواب الخير واسعة، وكلما زادت مساحة الخير نقصت مساحة الشر، وتقارب الناس في قيم العدل والتعاون والتكافل والرحمة العامة، فهذه -بلا شك- تخفف من الآثار المؤذية للخلافات الدينية والفكرية.

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ إشارة إلى أن المسلم ينبغي أن يبقى على ذكر الله في كل أحواله، يشكر على النعمة، ويصبر على المصيبة، ويستغفر عند الذنب، ويقرأ القرآن، ويصلي على رسول الله ﷺ، ويذكر الموت والبلَى، فالذكر إنما هو إيقاظ لمعاني الإيمان كلها، ولذلك كان أفضل الأعمال عند الله.

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ الصلاة من الله: الرحمة، وجمعها لإفادة التنوع والكثرة والتكرار؛ إذ الرحمة تشمل العفو والمغفرة، ومضاعفة الحسنات، واستجابة الدعوات، ثم عطف عليها لفظ الرحمة؛ تأكيداً وترسيخاً وبياناً، والله أعلم.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ من شعائر الله أي: من العلامات الإيمانية الظاهرة، فهما إذن من معالم الهوية الإسلامية، وقد أشكل على بعض المسلمين التطواف بينهما لمحل الشبه بالمشركين في

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ
 اللَّعِينُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا
 وَلَهُمْ كُفَارًا أُولَٰئِكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾
 وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي
 تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ
 وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ
 اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
 اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ كَمَا تَبَرَّأْنَا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ
 ﴿١٦٧﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ
 بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا
 أُولَٰئِكَ كَانُوا مِنْكُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا
 دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّ بُكْمٌ عُمْىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن
 كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ
 بَآغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيُسْرَتُونَ بِهِ ءَمْنَا
 وَلَيْلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾
 أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ نَزَّلَ
 الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

أسباب الضلال

القضية الكبرى التي يعرضها القرآن في هذا المقطع هي أسباب الضلال والانحراف عن الصراط المستقيم، ومناسبتها أن القرآن كان قد عرض في المقطع السابق اختلاف التوجهات وتمسك كل أمة أو جماعة بما عندها ولو كان باطلاً.

وهنا شرع القرآن بأسباب هذا التمسك أو التعصب:

أولاً: كتمان العلم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ وقد استحق هؤلاء كل هذا الوعيد الشديد؛ لأن جريمتهم متعمدة إلى جمهور الناس، فهم المؤمنون على الوحي بعد الأنبياء، وقد خانوا هذه الأمانة بكتمانها عن عميد وقصد، والآية عامة تشمل كل كاتم للهدى الرباني، ولكنها تشمل أهل الكتاب الذين حرّفوا الكتاب من باب أولى، فالتحريف زيادة في الكتمان وقطع لسبيل الوصول إلى منبع الهدى.

وإذا كان الله قد تعهّد بحفظ القرآن فلا سبيل لتحريفه، فإن هناك من يرتكب تحريفاً آخر وهو التحريف الاستنباطي، وهذا واقع في أمة الإسلام؛ حيث يعتمد بعض من أعطاهم الله العلم إلى ليّ النصوص وصرفها عمداً عن معانيها لاستنباط معنى آخر، يتقرب به إلى ذي سلطان أو ذي جاه ومصلحة، وهؤلاء داخلون في هذا الوعيد.

ثانياً: تعطيل الفكر:

وهذه خطيئة العامّة، فهم لا يفكرون، ويُسلمون عقولهم وقلوبهم لغيرهم بلا وعي ولا تمييز، وقد أشار القرآن إلى هذا السبب عند عرضه لآيات الله الواضحات في هذا الكون الفسيح، ثم عبّ بقوله: ﴿لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وقد أكّد هذا المعنى بقوله: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وبقدر ما يعطل الإنسان مداركه المعرفية فإنه سيضطر للتقليد الأعمى لا محالة.

ثالثاً: غلبة العاطفة على العقل:

وهذا دافع آخر للتقليد الأعمى، فالتعلق العاطفي بالأسماء والصور والهيئات المتلبسة بلبوس الدين يُعمي القلب عن ملاحظة الأخطاء والخطايا التي كثيراً ما تُرتكب باسم الدين نفسه، وقد ربط القرآن بين هذه العاطفة الغافلة وبين اتباع دعاة الضلال ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾.

رابعاً: التقليد الأعمى:

وهذه نتيجة متوقعة للمقدمتين السابقتين؛ تعطيل الفكر وغلبة العاطفة، والتقليد قد يكون للمتبعين من أصحاب النفوذ والسلطان - كما مر -، وقد يكون تعصباً لما كان عليه الآباء والأجداد ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ وغالباً ما يكون الأول في الدول والمجتمعات المنظمة سياسياً واقتصادياً، بينما يكون الثاني في المجتمعات البدائية.

خامساً: الخصومة والعداوة:

وهي التي تحصل بين الأفراد والأحزاب والجماعات فتمنعهم من الاستماع لبعضهم، وتُغلق فيهم منافذ المعرفة، فيرفضون الحق لا لذاته، بل لأنه جاء على لسان من يخاصمونه ويعادونه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

والشقاق هنا هو النزاع والخصومة كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء: ٣٥]، وهذا ليس الاختلاف الاجتهادي الذي مبعثه عميق النظر في النص ودلالته، فهذا الاجتهاد يؤدي إلى الاختلاف لا محالة، لكنّه اختلاف تنوع وسعة ورحمة ومودة، ويستحق كلاهما الأجر أو الأجرين، كما هو معلوم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا﴾ دليل أن توبة العالم الكاتم لعلمه والمحرف لحكم ربه لا تصح دون تبين ما كتم وإصلاح ما أفسد، وهي مهمة ثقيلة لا تحملها الجبال لو فطن لها أولئك المبتلون بهذا المرض، والعياذ بالله.

﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ تفسير لقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ﴾ فالسما هو العلو ومنه السحاب، وليس المقصود به هنا الفلك الذي يقابل الأرض والذي هو سبع سماوات كما يخبر القرآن.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنْتَ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ هذا التلاوم بين الأتباع والمتبوعين حينما تنكشف الحقيقة الكاملة للطرفين في ذلك اليوم، فيتحوّل التقليد إلى ملامة وندم، ويتحوّل الحبُّ إلى حسرات، والجزاء من جنس العمل.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّمَا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، و﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لها مناسبة دقيقة هنا وهي: أن الله لا يريد العنت والمشقة لهذا الإنسان، فمن كان يتنكر لدين الله طمعاً في مصلحته العاجلة، وإيثاراً للدنيا على الآخرة فقد باء بشقاء الدارين، فخطوات الشيطان ستبعده عن طيبات الدنيا قبل طيبات الآخرة، كما قال في موضع آخر: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ [طه: ١٢٤].

وفي هذا السياق يأتي تحديد ما حرّمه الله من الطعام؛ الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهّل به لغير الله أي ما يُتقرّب به للأصنام، فهذه لا تُشكّل شيئاً بالنسبة لما خلقه الله من أنواع الرزق،

ومع هذا رخص للضرورة أكل هذه المحرّمات بما تندفع به الضرورة ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي: غير راغبٍ بأكل الحرام، ولا متجاوزًا لحدِّ الضرورة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ، ثُمَّ قَلِيلًا﴾ هذه الآية أضافت معنى جديدًا للآية الأولى، وهو بيان الدافع لهذا الكتمان، وهو إثارة المصالح الدنيوية على ما عندهم من الحق.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ هذه عقوبةٌ من جنس عملهم، فهم قد كتموا كلام الله في الدنيا بعد أن خصَّهم الله به، فحجب عنهم كلامه يوم القيامة.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿إِنسِرَ الْإِزَّ أَنْ تُؤَلُّوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْإِزَّ مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ
وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ
وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾
يَتْلُوهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدِ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَإِنْبَاعًا
بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءً إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ
حَيَوةٌ يَتَذَكَّرُ أَلَّا يَلْبَسَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ
مِنْ مُوسِرٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾

بناء المجتمع

قضية هذا المقطع الجوهرية هي بناء المجتمع وفق هوية متميزة ومنظومة قيمية واضحة، وهي أيضًا قضية المقاطع الآتية بشيء من التفصيل:

أولاً: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهي تفصيل لما بدأت به السورة ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ وهذه هي أركان الإيمان إلا القدر فإنه مضمَّن في الإيمان بالله؛ إذ هو إيمان بعلمه تعالى وإرادته وقدرته، والإيمان بالغيب بهذه الأركان هو أساس الهوية الإسلامية، وأساس التمايز بين المجتمع المسلم وغيره.

ثانياً: التكافل الاجتماعي: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ فالإيمان بالغيب يُنتج هذا التكافل والتراحم، وعكسه

صحيح أيضا، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ
الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يُحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [الماعون: ١ - ٣].

ثالثًا: عبادة الله وحده: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ وقرن الزكاة هنا بالصلاة إشارة
لمعناها التعبدي، إضافة لمعناها التكافلي الذي مر في النقطة الأولى، أما الصوم والحج فستأتي
أحكامهما مفصلة بعد هذا المقطع.

رابعًا: الأخلاق، وقد ذكر منها ثلاثة: الوفاء، والصبر، والصدق: ﴿وَالْمُؤْتُونَ
بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾.

وقد تضمن النص خلقًا رابعًا، وهو الشجاعة، وذلك في قوله: ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ والباءس
هو القتال والحرب، ولا شك أن هذه الأخلاق الأربعة هي أمهات الأخلاق، والله أعلم.

خامسًا: العدل في الدماء: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ والقصاص أشمل
من القتل وأدق: أشمل لأنه يتناول القتل والجراح والضرب، وأدق لأن القصاص مضمّن
معنى العدل ومقابلة العدوان، وهذا بخلاف قولهم: (الحكم بقتل القاتل)، أو (القتل أنفى
للقتل)؛ لأن القتل الأول قد يكون مشروعًا، كما في حالة الدفاع عن النفس ونحوه.

سادسًا: العدل في الأموال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ
لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (١٨٠) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ
يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾.

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ البرُّ هو الإحسان، وهو مقياس الخيرية في الأمم والمجتمعات والأفراد، وإنما يتحقق بالسلوك والعمل الصالح وما يُقدِّمه المرء لإخوانه، وهذا ما فصله القرآن في المقطع وفي غيره، أما المجادلة في التوجه جهة الشرق أو الغرب فهي لا تُثمر نتيجة في تقديم هذا المجتمع وتأخير ذاك.

وهي إشارة أيضًا للمسلمين أنَّ مقياس البرِّ إنما هو الأسس الإيمانية والعملية والأخلاقية، أما المنافسة في الشعائر الظاهرة؛ كإطالة اللحى، وتقصير الثياب، والإكثار من العمرة، فهذه لوحدها لا تصلح مقياسًا للتفاضل، والله أعلم.

﴿وَأَنَّى الْمَالُ عَلَى حُجَّتِهِ﴾ إشارة إلى أنَّ حبَّ المال ليس مُنكرًا، فهو مغروس في فطرة الخلق، إنما العبرة في الإنفاق منه مع حبه فهذا أقرب لتحقيق التقوى وقصد القربى، وذلك بخلاف من اعتاد تبذير ماله بوجه ومن غير وجه.

﴿ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ﴾ من دون اشتراط فقرهم إشارة أنَّ صلة الرحم ومواساة اليتامى مقصودة ومحبوبة بالصلة والهدية ونحوها، أما الزكاة فلا تصح لهما إلا مع الفقر والحاجة.

﴿وَأَنزِلِ السَّيْلَ﴾ هو المنقطع عن ماله وأهله لسفرٍ ونحوه؛ كمن انقطع بسبب حبس وحصار، فلا مانع من قياسه على من انقطع به السبيل، والله أعلم.

﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ إشارة إلى أنَّ السائل لا يُردُّ ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠]، لكنه إن عُرف غناه حُرِّم من الزكاة قطعًا، من غير توبيخ أو إهانة، ولا بأس بالنصح الشخصي دون إعلان أو غيبة.

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ إعتاق العبيد بإعانة المكاتب الذي يطلب حريته بفداء، وكذلك فكالك الأسرى، والله أعلم.

﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ صريحة في القصاص من الحرِّ إذا قُتل حُرًّا، وفي القصاص من العبد إذا قُتل عبداً، وفي القصاص من الأنثى إذا قُتلت أنثى، وهذا غاية العدل مهما كان الفارق بين القاتل والمقتول في كل هذه الصور، أما إذا اختلف الصَّنْفُ بأن قتل الرجل امرأة، أو الحرُّ عبداً فالنصُّ لا يتناوله صراحة لا بإيجابٍ ولا بسلبٍ، لكنَّ لفظ القصاص الوارد في مقدِّمة النصِّ وفي خاتمته يُوحى بشمول القصاص لكل هذه الحالات أيضاً.

يعضد هذا قوله تعالى في موضع آخر: ﴿النَّفْسُ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، فيكون ذكر الحرِّ بالحرِّ، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى تأكيداً للقصاص، وتفصيلاً له، وردّاً للمغالاة والتعدي بمجاوزة القاتل إلى أهله وعشيرته طلباً للأبهة والتعالي المحرَّم، والله أعلم.

﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ دلالة على أن خصومة القتل لا تنفي أخوة الإيمان، والتذكير بها هنا نافع للتشجيع على العفو، والله أعلم.

﴿فَأَنْبَأَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاكَ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ أي: عند الرجوع إلى الدية أو العوض المادي بالتنازل عن القصاص، فعلى وليِّ المقتول أن يطلب حقه بالمعروف والحسنى فلا يتعسف في تحصيل حقه، وعلى القاتل أن يؤدي ما ثبت عليه ديةً أو عوضاً بإحسانٍ بلا مماطلةٍ ولا نقصان.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ توزيع مال المتوفى على الوالدين والأقربين فصلته آيات الموارث، وهذه الآية ينبغي فهمها في ضوء تلك الآيات، ودعوى النسخ لا تقبل طالما أمكن الجمع، والجمعُ واردٌ هنا، فمن قرَّض الله له فريضة فلا يُوصى له بشيء، وغيره داخل في الوصية؛ مثل الوالد المختلف دينه عن ابنه المتوفى، ومثل الأقرباء والرحم الذين لا يرثون.

وهناك الوصية للوالدين والأقربين بالحقوق التي هي ليست إرثاً؛ إذ يكثر بين هؤلاء التداخل المالي في العقارات الموروثة سابقاً، والشراكات والذمم المختلفة من مهر، ونفقة،

وأجرة، وضمان تالف، ونحو هذا كثير، والله أعلم.

﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ دلالة على رفع الإثم عن الميت إذا وصى، وتحميله على من بدّل الوصية، وإشارة إلى أن الفرد لا يقدر على تبديل الوصية من دون توافق مع الكاتب والشهود؛ ولذا جاء بصيغة الجمع، والله أعلم.

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ خاف معناها هنا: الخوف المحقق أو الراجح من وجود الظلم في الوصية؛ إما بالجَنَف، وهو الخطأ والنسيان ونحوهما، وإما بالإثم، وهو تعمّد الظلم.

فالواجب على الحاضر أن يُذكر الموصي بالحق، ويحذّره من الظلم، وعلى القاضي أو وليّ الأمر إذا حصل نزاع بين الورثة وأصحاب الحقوق أن يحكم بالحق، وأن يُعطي لكل ذي حقّ حقه، وإن كان ذلك على خلاف الوصية، وقال: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ لرفع توهم الإثم بمخالفة الوصية، وليس فيه دلالة على التخيير؛ إذ الظلم محرّم، ورفع واجب على كل قادر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْتَنَ بَنِيْرُوْهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْاَيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوْهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِآلَاثِمٍ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ * يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْاَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

رسالة الصوم

بعد بيان دور العبادة في صناعة البرِّ والإحسانِ شَرَعَ القرآنُ في تفصيل رسالة الصوم، كونه ركنًا من أركان الإسلام، وعبادة من أهمِّ العبادات:

أولاً: غاية الصوم الكبرى، وهي تحقيق الولاية لله؛ ذاك لأن القرآن جمع في آية الصوم الإيمان والتقوى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وجعل الصوم جسراً واصلًا بين الإيمان والتقوى، وهذان هما شرطَا الولاية

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿[يونس: ٦٢، ٦٣].

ثانيًا: ربط الصوم بمصدر الإسلام الأول عقيدة وشرعية، ألا وهو القرآن ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ وهذا التذكير مقصود؛ ليكون رمضان هو شهر القرآن تلاوة وتدبرًا وتعمُّقًا.

وهذا جانب تربوي عظيم يستشعره المسلمون عامة في هذا الشهر الكريم، فتملاً بيوثهم ومساجدهم بدوي القرآن ليلاً ونهارًا، مما يصبغ هذا الشهر بصبغة خاصة، مع أن القرآن جاء لكل الأيام ولكل الشهور والدهور، ومن ناحية أخرى فالقرآن يمدُّ رمضان بأدوات تحقيق رسالته الكلية وهي تحقُّق الولاية الربَّانية، إذ لا يمكن للمسلم أن يحقق رسالة الصوم ما لم تتحقق فيه رسالة الإسلام الكلية.

ثالثًا: الصوم يحفظ حقوق الناس وأموالهم، وهذا أثرٌ من آثار التقوى، فقد جاءت آيات الصيام بين آيات المال، فقبلها كان الكلام عن الوصية وتدخّل المجتمع لرفع الخطأ والظلم فيها، وبعدها جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾.

وعلاقة الصوم بهذا أن الصوم يُقوِّي في نفس المسلم العزيمة على ترك الأكل الحلال الذي اعتاده في باقي الأيام فصبره عن أكل الحرام من باب أولى.

رابعًا: الصوم مظنة استجابة الدعاء، وهذا أثرٌ من آثار الولاية، فقد جعل الله آية الدعاء وسط آيات الصوم ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ إشارة إلى أن الصوم يجعل العبد قريبًا من ربه، وهو من عاجل جزائه على حسن تعبده.

خامسًا: الصوم فرصة للتزوّد من العبادات الأخرى ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُجَاسِدُوا فِيهِ وَأَنْتُمْ مَعَكَفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ إشارة إلى أن الاعتكاف يكون مع الصوم، وهو ما

أكدته السنّة؛ حيث كان ﷺ يعتكف في رمضان، وفي العشر الأواخر منه خاصّة^(١).

سادسًا: اليسر مع الصوم، فالمشقة مرفوعة ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ وإنما أكد هذا في آيات الصوم مع أنه قاعدة تشريعية عامّة؛ لمظنة حصول المشقة مع الصوم كما في حالتَي المرض والسفر، وقد اقترن هذا أيضًا بإباحة المعاشرة الزوجية في ليلة الصيام وكل ليالي رمضان؛ لحاجة الناس إلى ذلك، مع أنّ رمضان موسم للتبتّل والانقطاع للعبادة.

سابعًا: الشكر على أداء الصوم: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَنَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ دلالة على أن التوفيق لإتمام العبادة نعمة، وهي تستحقُّ الشكر، وفي هذا تربية للنفوس المؤمنة على استشعار الافتقار الدائم لرحمة الله ومدده حتى في حال العبادة، فلا يغترّ عابِدٌ بعبادته.

ثامنًا: التكبير: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَنَكُمْ﴾ هذا شعار العظيم الذي يميّز هذه الأمة عن غيرها تمييزًا يعلن عن هويّتها وقوّتها، وعنوان طريقها، إنه مع كونه ذكرًا لا يختلف عن التسبيح والتحميد والاستغفار والصلاة على رسول الله من حيث قصد القربى والتعبّد، واستحصال الخير والبركة، إلا أنه مع كل هذا هو شعار هذه الأمة في مجالات حياتها المختلفة، فهو الكلمة الأولى في الصلاة، وهو الصوت المسموع في الأذان، وهو هتاف المسلمين في مواجهة الخطوب والتحديات.

(١) حديث اعتكاف النبي ﷺ في العشر الأواخر من رمضان متفق عليه، ينظر: صحيح البخاري (٢/ ٧١٥) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م، وصحيح مسلم (٢/ ٨٣٠) دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: أهل الكتاب، والشَّبه حاصل في أصل الصوم ولا يشترط لتحقيقه التشابه في كل أحكامه وهيئاته، والله أعلم.

وفي الآية دلالة أيضًا على وحدة المصدر لكل الرسائل السماوية.

﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ وهي تسعة وعشرون أو ثلاثون يومًا بحسب الأهلَّة، وقد فسَّرت الآية التالية المقصود بهذه الأيام ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾، وإنما قدَّم الأيام المعدودات؛ لما فيها من التهوين والتخفيف.

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ هذه في أصحاب الأعذار، وقد قسَّمتهم الآية إلى قسمين:

- أصحاب العُذر الطارئ الذي يُتوقَّع زواله؛ كالسفر وبعض المرض، فهؤلاء عليهم القضاء بعد رمضان في أيام آخر.

- وأصحاب العُذر الدائم، وهم: ﴿الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ بمعنى: الاستطاعة مع الجهد وتوقُّع الضرر؛ كالشيخ الطاعن في السنِّ، والمريض الذي لا يُرجى بُرؤه، فهؤلاء ليس عليهم قضاء، وإنما عليهم إطعام مسكين واحد عن كل يوم، وفي هذا إشارة لارتباط الصوم بالإحسان، والله أعلم.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ إشارة لحكمة اختيار رمضان محلاً للصوم، وإشارة أيضًا لصلة الصوم بالقرآن وترغيب الصائمين بتلاوة القرآن وتدبُّره واستنباط الهدى والفرقان من آياته.

﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أمر بالصوم تأكيدًا لما ورد أولاً: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ وقال: شهد الشهر، ولم يقل: الهلال؛ إشارة إلى أنَّ المقصود إدراك الشهر نفسه،

وأما الهلال فهو علامة الشهر، ولا مانع من أن تجد علامة أخرى أكثر دقة من الرؤية البصرية للهلال، وهذا ليس فيه مخالفة لنصوص السنة الواردة في الرؤية؛ لأن الرؤية كانت الطريقة الوحيدة لإدراك الشهر.

ونظير هذا: ذكر القرآن لرباط الخيل في الجهاد، وما هو إلا وسيلة لتحقيق المقصود، وهذه الوسيلة تغيرت اليوم بوسائل أسرع وأشد وأمضى في العدو، وأقرب لتحقيق المقصود، والله أعلم.

﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ أي: الأيام المعدودات وهي أيام رمضان كاملة تسعة وعشرون أو ثلاثون لا فرق بينهما أداء أو قضاء.

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَنَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إشارة إلى أن التكبير شكر، وفيه أن الشكر يتأتى بالعبادات؛ من ذكر، ونافلة صلاة وصوم، والله أعلم.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ توجيه السائل إلى ما ينفعه، فالسؤال عن الله فيه جوانب كثيرة، واتجاه القرآن للجانب العملي مقصود في التربية بما ينفع، وترك المسائل النظرية والفلسفية التي لا تنتج عملاً.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ الإيمان مقدّم على الاستجابة، والاستجابة لا تصح من دون إيمان، ولكنه قدّمها هنا إيداناً بشرطيتها المباشرة في استجابة الدعاء، شرطية الاستحقاق، فالذي يستجيب لنداء ربه كلما ناداه في كل أمر وفريضة فإنه يستحق استجابة الله له، وأما من قصّر في ذلك فهو موكول إلى رحمة الله وعفوه وكرمه.

﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ أي: مباشرتهن، وهذا من التيسير بعد أن شقّ على المسلمين التنزه عنه كلّ رمضان ﴿أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا من التدرّج في التشريع، ومراعاة حال الناس، والتدرّج له صورتان:

تدرُّج من الأشدَّ إلى الأخف؛ لتعريف الناس برحمة الله، وأنه لا يريد العنتَ بهم، كما في هذه الآية.

وتدرُّج من الأخف نحو الأشد، كما في قصَّة تحريم الخمر؛ وهذا لأن منع الخمر مقصود أساسًا، وجرى التلطُّف والتدرُّج لتمكُّن الخمر من نفوس الناس، بحيث يشقُّ عليهم تركه جملةً واحدةً.

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ تعليل لذلك التخفيف؛ فإن شدة الاحتكاك والتلبُّس بينهما طيلة الليل توقعهما في حرج التنزُّه عن المباشرة، وفيه إشارة أن الرجل يستر المرأة ويُغنيها عن الحرام وهي كذلك، وفيه تذكير وترغيب بخُلُقِ الستر، وكنتم ما بينهما من أمور خاصة، والله أعلم.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ تأكيد أن الإمساك يبدأ بتبيُّن الفجر بيانا لا شكَّ فيه تحرُّزا من الوسواس والاختلاف، فالتقوى امتثال للأمر، والاحتياط في المشتبهات فقط، وليس هنا أمر مشتبَّه، فإذا انشَقَّ الفجر وحن وقت الصلاة وجب الإمساك، ولا حاجة للاحتياط، والله أعلم.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ إشارة إلى أن قضاء الحاكم بما تيسر عنده من أدلَّةٍ وبيِّناتٍ لا يُحِلُّ حرامًا ولا يجرِّمُ حلالًا، ولا تَبَرُّأ به الذمَّة أمام الله، وإن وجب الالتزام به فهو التزامٌ لحَسَمِ الخُصُومة واحترام النظام العام، والقاضي معذور إن لم يتعمَّد الإثم والمحاباة لقراءة أو رشوة، وإلا فإن إثمَه أكبر من الطرف الآكل لمال غيره.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ فالهلال علامة دخول الشهر، والتوقيات الشرعية مستندة إلى ذلك في الصوم والحج والعِدَّة ونحوها، وقد اتخذها المسلمون شعارًا لهم، وهو من التعبير السائغ عن اعتزاز الأمة بهويتها، كما تواطؤوا على ستارة الكعبة بالوانها وزخرفتها، حتى غَدَت صورة الكعبة في ضمير المسلمين هي هذه، وليس في هذا حرج؛ إذ هو ليس تشريعًا مضافًا، ولا بدعة بقصد القربى، والله أعلم.

﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ إشارة لاتباع الحكمة، والأخذ بالأسباب، ووضع كل شيء في مكانه، وإنزال الناس منازلهم، وتقدير الأمور ومعرفة مداخلها ومخارجها، وفيه أمر بدخول البيوت من أبوابها استئناساً واستئذاناً، والله أعلم.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (١٩٠) وَقَاتِلُوهُمْ حَيْثُ نَفَقْتَهُمْ
وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا نَقَاتِلُهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوا فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ
الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أُنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أُنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾
الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَانْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

رسالة الجهاد

القتال أحد أخطر وجوه العلاقة بين المجتمعات البشرية من فجر التاريخ وإلى اليوم، فهو وسيلة لفرض الهيمنة والحصول على المغنم والمكاسب، أو لردّ العدوان والحفاظ على النفس والأهل والأرض والمال.

والمجتمع في حالة العدوان أو في حالة الرد بحاجة إلى القوة، ومن ثمّ كان تشكيل الجيوش سمة مقترنة بوجود المجتمعات البشرية، ترعاه قيادة المجتمع المتمثلة بالدولة، أو بشيخ القبيلة، ويُنْفَقُ عليه أكثر مما ينفق على المؤسسات والضرورات أو الحاجات الأخرى، إلا أن هذه القوّة في الإسلام تختلف عنها في المجتمعات الأخرى البعيدة عن شريعة الله نظريةً أو تطبيقاً.

وفي هذا المقطع بيان لهذه السمات المميّزة :

أولاً: أنّه قتالٌ في سبيل الله، ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فهو ليس كالقتال الذي يعرفه البشر نزاعاً على الملك، وطلباً للماء والكالا والنفط، إنه قتال موصول بالله مصدراً وغاية وسلوكاً،

ومنبثق من رسالة الرحمة العالمية، لتقوية جانب الحق والعدل والأخلاق، ومحاصرة الظلم والباطل والرديلة.

إن القتال في الإسلام ينبغي أن يفهم في ضوء الغاية الكلية للإسلام ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وطالما أن هناك مجالا لتحقيق هذه الرحمة بالدعوة والحوار والتوافق فإن القتال سيبقى حالة استثنائية، وهذا ما تؤكد هذه الآيات.

ثانياً: أنه قتال بلا عدوان ﴿وَلَا تَعْدُواْ إِيَّاهُ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ لا تعتدوا ابتداء، ولا تعتدوا في مجاوزة الحق في الردّ ﴿فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ وهذا تأكيد صريح أن القتال ليس أصلا في العلاقة مع الآخرين، وإنما هو استثناء، يؤكد أيضا قوله تعالى: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْاْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثالثاً: أنه قتال لدفع الفتنة ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ والفتنة هنا هي الردّة عن الدين، حيث كان المشركون يستخدمون القوة لإجبار المسلمين والضعفاء منهم خاصة على ترك دينهم، ويلحق بالفتنة كل اضطراب عام يصيب المجتمع بسبب استخدام السلاح بطريقة ظالمة وغير مشروعة، مما يعرض حياة الناس وأمنهم واستقرارهم للخطر، فهذه الفتنة بمعناها الأول والثاني هي أشد من القتل نفسه ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

رابعاً: أنه قتال لا يتجاوز الحرمات ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ ويُقاس عليه كل مكان يأوي إليه الناس للعبادة أو طلب الأمان، وكذا المدارس والمستشفيات وملاجئ الأيتام والأحياء السكنية ونحوها، والله أعلم.

وهناك حرمات الأزمنة، وهنّ الأشهر الحرم، ثلاثة هنّ أشهر الحج، والرابع منفرد عنهنّ، وهو شهر رجب، ويقال: إن العرب كانت تخصّصه بالعمرة، وقد أقرّ القرآن حرمة هذه الأشهر؛ لما فيها من حقن للدماء، وصناعة هدنة أو فرصة للسلام.

هذه الضوابط والموجّهات تتعاقد وتتكامّل مع آيات الجهاد الأخرى، وينبغي فهمهما بهذه المنهجية البنائية المترابطة، والجنوح إلى فكرة النسخ لا تقتضيه ضرورة ولا تدفع إليه حاجة، وسيأتي كل هذا مفصّلاً في مظانّه.

دقائق التفسير

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ أصل في فقه القتال، وحصر لمسوّغه وهو وصف المقابل بأنّه مقاتل، فإن لم يكن كذلك فلا تجوز مُقاتلته، فعامة الناس لا يدخلون في القتال وإن كانوا يشتركون مع المقاتلين في الدين والرأي والقربة ونحوها، وكذا الإعلاميون والأطباء والذين يقدّمون الخدمات الإنسانية إلا إذا كانوا جزءاً من الجيش المقاتل وصنفاً من صنوفه؛ لأنّ المنتسب للجيش هو مقاتلٌ حمل السلاح أو لم يحمل.

وأما ما يفعله بعض أدعياء الجهاد من استهداف عامّة النصارى في كنائسهم أو أسواقهم لأنهم يشتركون مع الغزاة بمسمّى الدين، فهذا باطل، ومن المعلوم أنّ رسول الله ﷺ فرّق بين بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة ولم يُعاملهم معاملةً واحدةً مع انتسابهم لدين واحد، وكذا تعامله مع مشركي العرب.

﴿كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ الألف واللام هنا للعهد وليست للاستغراق، بمعنى: هذا هو جزاء الكافرين المعتدين الذين تقدّم ذكرهم.

﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ لِلَّهِ﴾ ليس معناه إكراه الناس على الدخول في دين الله، فهذا منتقض بقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ثمّ إن الإكراه ينافي بالإيمان بالضرورة؛ إذ الإيمان لا يكون إلا عن عقيدة ذاتية وتصديق جازم، وإنما المقصود دفع الظلم ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ فإذا رُفع الظلم وتحقّق العدل تُرك الناس وما يختارون، وهذا ما فعله الصحابة الفاتحون في مصر والشام والعراق وغيرها.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ فسرّه ما بعده: ﴿وَالْحُرْمَتُ قِصَاصٌ﴾، وهذا مثل قوله في حرمة المكان: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَتِّلُوكُمْ فِيهِ﴾ والحكمة في هذا ظاهرة؛ فالحرمة مكانية أو زمانية إنما جعلت لحفظ الأمن، وصناعة فرصة وواحة للسلام، فإن قصدها العدو بالاعتداء صار ردّه من تمام صونها، وتحقيق مقصدها.

﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ سمّي القصاص والمعاملة بالمثل اعتداء من باب المشاكلة والمقابلة، وإلا فأصل الاعتداء هو في البادئ وليس في المدافع عن نفسه، ثم إنه جاء بصيغة الأمر والمقصود الإباحة، فلولي الأمر أن يختار بالشورى مع المسلمين الطريقة الأنسب للردّ، ولا يلزمه القتال إلا إذا تعيّن طريقاً لدفع العدوان، ودَرْء الفتنة، واسترداد الحقوق، والله أعلم.

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الإنفاق هنا جهاد المال، لمناسبة السياق؛ فالقتال بحاجة إلى نفقة ولا تكفيه الشجاعة، يؤكّده قوله تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

﴿وَلَا تُقْفُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى الْتِهْلُكَةِ﴾ التهلكة هنا كل عمل يؤدي إلى الهلاك وخسارة الحرب، مثل التهور في الإقدام وترك الاحتياط والحذر، وكذا البخل عن تقديم المال لسدّ حاجة المقاتلين، أو تبذيره في غير حاجته، والله أعلم.

﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ بهذا التوجيه ختم الله آيات القتال، ليُعلم أن القتال في الإسلام مرتبط بالإحسان قولاً وعملاً وخُلُقاً، والإحسان هو قصد الخير على وجه الإتيان، والله أعلم.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿وَأَيُّمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ۚ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ ۖ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنِ تَمَنَعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِصْيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ ۚ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ۚ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝١١٧﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۚ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ۚ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ۝١١٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفْضَيْتُمْ مِّنْ عَرَفَتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ۝١١٩﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّكَاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٠﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۚ فَمِنَ النَّكَاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ۝١٢١﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١٢٢﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۖ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝١٢٣﴾ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝١٢٤﴾

رسالة الحج

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام بعد الشهادتين والصلاة والزكاة والصوم، وقد تنقلت الآيات وهي ترسم منهجها في بناء المجتمع الجديد من العدل في الدماء فالعدل في الأموال ثم الصيام والجهاد، والآن شرع في الحديث عن الحج، وكل هذا تحت عنوان (البر) الذي هو عنوان المجتمع المسلم.

وهذه الانتقالات تؤكد أن هذه العبادات والتوجيهات ليست أحكاماً مقطعة، بل هي منظومةٌ آخذٌ بعضها بأعناق بعض، وكما وضع القرآن سماته المميزة في التوجيهات السابقة

يأتي هنا ليضع سمات الحج التي تميزه عما عرفه الآخرون في زياراتهم ومناسباتهم الدينية:

أولاً: الحج لله وحده ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وهكذا هي كل العبادات، وفي هذا دفع لشبهة الشرك بعبادة الرموز البشرية أو المكانية والتي تنتشر في الديانات الأخرى، وهذا ما تؤكدُه مناسك الحج العملية، فليس هناك في الطواف أو السعي أو الوقوف بعرفات دعاء لغير الله، فاسم الله وحده هو الذي يُقصد بالعبادة صلاةً وطوافاً وذكرًا ودعاءً، والحاجُّ يقدم بالتلبية: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ ...»^(١)، ويختم بتكبير الأضحى: (الله أكبر، الله أكبر)، وهما وكلُّ ما بينهما من أذكار ليس فيها سوى التوحيد الخالص.

ثانيًا: للتكافل مكانه في الحج ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ والهديُّ هو ما يُقدَّم للحجِّ من نَعَمٍ لتنحر هناك ويأكل منها الناس، وكذا النُسْكُ، والصدقة إطعام من غير الذبح، وجعلهما في الحج دليل على العبادة الخالصة لله ﷻ لا تفصل عن البرِّ والإحسان إلى الآخرين.

ثالثًا: الحج مدرسة الأخلاق ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أصل الرفث الكلام الفاحش والغزل الماجن، وقد استعمل هنا بمعنى: مباشرة الجماع، إشارة للنهي عن الجماع ومقدماته، وكل ما يثير الشهوة من نظر وكلام وفكر.

والفُسُوقُ: اسمٌ جامعٌ لكلِّ خروجٍ عن الدين والشرع، وأما الجدال فهو جدال الخصومة وليس حوارات العلم وسؤالاته، والنهي عن كلِّ ذلك إنما كان لتنقية الحجِّ من كدورات الفسق والخصومة وسوء الخلق، وتعويد على ضبط النفس وإلزامها حدود الأدب والشرع، والله أعلم.

رابعًا: الحجُّ دعوةٌ للوحدة ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّكَاسُ﴾ فالناس جميعهم يتفنون جميعًا في وقتٍ واحد، وفي مكانٍ واحد، ولباسٍ واحد، ونداءٍ واحد، ثم يتحركون

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ينظر: صحيح البخاري (٥٦١ / ٢)، وصحيح مسلم (٨٤١ / ٢).

سوية إلى مناسكهم من غير تقدّم ولا تأخر، ومن غير تمييز لأمير، أو خفير، أو غني، أو فقير، أو ذكر، أو أنثى، فالكل أمام خالقهم سواء.

خامساً: الحجّ تعميقٌ لصلة العبد بربه ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ وقد تكرر الترغيب الصريح بالذكر في هذا المقطع خمس مرّات، وكأنّ الحجّ لم يشرع إلا لذكر الله ﷻ.

سادساً: وفي الحجّ تخفيف ورحمة، وهذا منهج الإسلام في كلّ العبادات، كما قال في الصوم: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، قال هنا: ﴿فَنَ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾، وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وقال: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾. وقد ورد عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح أنه: «مَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ قُدِّمَ وَلَا أُخِّرَ إِلَّا قَالَ: افْعَلْ وَلَا حَرَجَ»^(١).

دقائق التفسير

﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ دفعاً لتوهم التخيير بين الثلاثة في الحجّ والسبعة بعده؛ إذ المطلوب الجمع بينهما لا التخيير.

﴿وَتَكَزَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ هو غاية الحجّ كما هو غاية الصوم، فهذه العبادات إنما يُقصد منها تحقيق التقوى، وهي منزلة إيمانيّة وتربويّة رفيعة تمنح صاحبها محبة الخير والصلاح والطاعة، وكرهية الشر والفساد والمعصية مع طول صبر وثباتٍ وتسليمٍ لكلّ ما يتقدّره المولى الجليل.

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ينظر: صحيح البخاري (٤٣/١)، وصحيح مسلم (٩٤٨/٢).

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ليس عليكم حرج أن تطلبوا التجارة بيعًا وشراءً وشراكةً وحسابًا، وما إلى ذلك، وفي هذا مصلحةٌ للحجيج ومصلحةٌ لأهل مكة، ودفعٌ لتوهم النفرة بين مصلحة الدين ومصلحة الدنيا.

وقد جاءت هذه الآية بعد النهي عن الفسوق والجدال؛ لأن التجارة مظنة المجادلة، فقد يتطرق إليها النهي تبعًا، فجاء البيان برفع الحرج، والله أعلم.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ دلالة على أن وقت الإفاضة وقت استغفار، فهو الذكر المستحب هنا، وفيه إشارة أن العبد ينبغي أن يتهم نفسه بالذنوب والتقصير حتى لو كان في وسط الطاعة، فليس هناك من يوم أرجى للعفو ومغفرة الذنوب من يوم عرفة، ومع هذا يُستحب للحاج بعد إفاضته من عرفات إلى المشعر الحرام ثم إلى منى أن يكثّر من الاستغفار.

﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ﴾ دلالة على أن الإسلام يجمع بين خيري الدنيا والآخرة، ويدعو لهما، ويحث العبد على تحقيق السعادة فيهما. وفي هذا ردٌّ على من جعل هدم الدنيا شرطًا لعمران الآخرة، فالدنيا دار خلقها الله وكذا الآخرة، وابن آدم ينتقل من بيت الله إلى بيت الله، ويتقلب بين نعمه هنا ونعمه هناك، بيد أن نعم الأخرى تُنال بأسباب غير هذه الأسباب التي نال بها نعم الدنيا.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ الأيام المحدودات هي أيام منى، والذكر المستحب فيها هو التكبير عند رمي الجمار وعقب الصلوات، والأخيرة مندوبة لغير الحاج أيضًا، وهذا شبه بالصوم، فإتمام الصوم عيد وتكبير، وإتمام الحج كذلك.

﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أيام التشريق ثلاثة بعد يوم النحر، والآية أباحت التعجل، بمعنى الاقتصار على يومين فقط بعد النحر، والتأخر وهو البقاء إلى اليوم الثالث، والتأخر أفضل؛ لما فيه من زيادة في النسك والذكر، والله أعلم.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

من الآية

٢٠٤ - ٢١٤

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۖ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ۖ﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ ۖ جَهَنَّمُ وَلِئْسَ الْيَمَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا آذْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ آتٌ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۖ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَهُم مِّنْ ءَايَمٍ يَبِينُ ۖ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ۖ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۖ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ ۖ مَسْتَهْمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَرَزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِن نَّصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾

جبهة النفاق

ضمن تصنيف القرآن للمجتمعات البشرية عرض القرآن في أوائل هذه السورة لصنف المنافقين، وحدد كثيرًا من صفاتهم وأساليبهم وعلاقاتهم، وفي هذا المقطع تأكيد لما مر، وكما يأتي:

أولاً: القدرة على الخداع والتضليل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾
والإعجاب هو الاستحسان، وهذا يعني: أن المنافقين كانوا يقولون للمسلمين كلامًا يحظى

باستحسانهم، وهذا الكلام لا شك أنه متعلق بقضايا الإيمان والتقرب من المؤمنين ومدحهم وموالاتهم، والتبرّي من خصومهم، فهذا هو الكلام الذي يُعجب رسول الله ﷺ ومن معه من المهاجرين والأنصار.

ثانيًا: أنهم الأشد خصومة مع المسلمين: ﴿وَهُوَ الَّذِي الْخَصَامُ﴾ وهذا كشف من الله لحقيقتهم المختلفة تمامًا مع أقوالهم.

ثالثًا: أنهم أهل فسادٍ وخرابٍ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ وهذه كناية عن الفساد الشامل، وإن كان اللفظ يتناول الزرع وما في بطون الأنعام خاصّة.

ووجه الكناية: أن الإنسان السويّ يسعى للحفاظ على الثمار والزروع وصغار النعم بفطرته وسجيته، فإن رأيتَه يسعى في إتلافها فإنه على إتلاف غيرها أسرع وأجرأ، والله أعلم. رابعًا: أنهم يرفضون النصح ويأنفون التذكير: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ مع أن هذه الكلمة أو النصيحة تُوجّه للمؤمن الصالح فلا يُنكرها، فكل مؤمن مهما بلغ فهو بحاجة إلى التذكير والنصح، لكنّ المنافق ينكرها لمرضٍ في قلبه، وكفر بأصلها ومؤدّاها.

خامسًا: أنهم يتبعون خطوات الشيطان: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وهذه الجملة وإن جاءت في سياق توجيه المؤمنين وتحذيرهم، إلا أن التعريض بالمنافقين فيها ظاهر، والشيطان هنا قد يكون شيطان الجنّ، وقد يكون شيطان اليهود، كما جاء في أوائل هذه السورة: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾.

وهنا قرينتان: ذكر بني إسرائيل في هذا السياق: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وذكر الاستهزاء بالمؤمنين ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

سادسًا: أن هذه الظاهرة ليست جديدة: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ ءَايَةٍ يُنْبِئُوْنَ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فالنعمة هي آيات الله التي تنزلت عليهم،

وقد كفر بها واستهزأ بها كثير من بني إسرائيل مع ادّعائهم الإيمان، وهو ما يفعله المنافقون في هذه الأمة.

سابعًا: أن أصل هذا الفساد حبّ الدنيا والتحاسد والتباغض بسببها ﴿رَبِّ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ بمعنى: يُكثِرُ الحلف بالله على أنه صادق في دعواه إمعانًا في التضييل، وقد أكد هذا قوله تعالى في موضع آخر: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾^(١).

﴿الَّذُ الْخِصَامِ﴾ اللُّدود هو المُخَاصِم، وقد قرَنَ القرآن بين اللفظتين تأكيدًا لشدة الخصومة، كما في قوله: ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤]، ولا تعتوا معناها: لا تُفْسِدُوا، فأكدَ هذا المعنى بلفظ الفساد، والله أعلم.

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ إشارة أنهم لا يفسدون علانية بل حينما يدبرون ويختفون عنك، أما معك فهم يقولون ما تستحسُّه من القول.

﴿مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي: يبيع نفسه في سبيل الله طلبًا لمرضاته تعالى، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة: ١١]، وإيراد هذا في خضم الحديث عن المنافقين جاء للتعريض بهم أنّهم آثروا هوى النفوس على مرضات الله، فكان هذا سببًا في ضلالهم.

(١) تكرّرت هذه الآية مرتين في القرآن الكريم: إحداها في سورة المجادلة/ ١٦، والثانية في سورة المنافقون/ ٢.

﴿أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ السِّلْمُ هنا هو الإسلام كاملاً شاملاً، وهي دعوة شاملة لكافة المسلمين أن يلتزموا بكل أحكام الشرع، على خلاف المنافقين الذين يأتون ببعض الشرع من صلاة ونسك على سبيل الرياء والخذاع وليس على سبيل الاستسلام والخضوع.

وهنا قرينة أخرى على هذا المعنى، وهي قوله بعد هذه الآية مباشرة: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ فالزَّلُّ هنا إنما يكون عن حكم الشرع، واختيار كلمة: ﴿السِّلْمِ﴾ للتعبير بها عن الإسلام إشارة إلى أن التمسك بالإسلام يُفْضِي إلى صناعة السلام بين المؤمنين كافة، وهذا من باب إطلاق المشترك على معنیه جملة واحدة؛ إذ السلم مشترك بين الإسلام والمسالمة واشتقاقهما من جذر واحد ظاهر، والله أعلم.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ بمعنى: أن كل الآيات القاطعة على صدق الدعوة قد جاءت ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ وهم مُصِرُّونَ على كفرهم ونفاقهم، فلم يَبْقَ إلا أن يحلَّ عليهم يوم القيامة بما فيه من رهبة وهول، وهذا كناية عن شدة عنادهم وصدوفهم عن الحق.

وأما إتيان الله والملائكة فهو صورة من صور اليوم الآخر لا مجال لإدراك كُنْهه، والإيمان به واجب لأنه خبر الوحي، وتحصيل الخشية والرهبة في القلب واستشعار عظمة الله كل ذلك مقصود أصالة، فإذا تحَصَّلَ المقصود مع الإيمان بأصل الخبر فإنَّ البحث عن الكيف بدعة وتكلف وتغريب بالعقل، والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ إشارة إلى أن المفاضلة إنما تكون بالتقوى، واقتران الإيمان بالعمل، أما ادّعاء الإيمان بلا عمل فهو سِمةُ النفاق، والله أعلم.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: على التوحيد وملة آدم ﷺ، ثم اختلفوا فبعث الله النبيين لبيان الحق في هذا الخلاف ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ ثم تتابع نزول الأنبياء،

وتتابع اختلاف الناس أيضًا، ثم ختم الله تلك الرسالات برسالة الإسلام التي هدى الله بها الذين آمنوا، وبيّن لهم ما اختلف فيه الناس على أنبيائهم، والله أعلم.

وأما قول من قال: إنّ الناس كانوا أمة واحدة على الباطل ثم تفرّقوا ببعثة النبيين، فهو مستبعد؛ إذ الكفر أدعى للخلاف، وقد ذكر الله في هذه الآية أنّ بعثة الأنبياء إنما كانت للحكم فيما اختلف فيه الناس، فالخلاف سابق على البعثة لا محالة.

﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اُخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۖ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تأكيدٌ لآخر سورة الفاتحة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿[الفاتحة: ٦، ٧] فهؤلاء هم الذين اختلفوا على الحق وحادوا عن الصراط، وأولئك المؤمنون هم الذين استجاب الله لهم فهداهم إلى الصراط المستقيم.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ دلالة على أنّ هذه الخصومة بين أهل الحق وأهل الباطل لها تبعاتها الثقيلة من البأساء والضراء، فالخلاف لن يبقى محصورًا في الفكر والنظر؛ لأن الصراع بين الحق والباطل صراع وجود لا صراع حدود، وأن أهل الإيمان يتعرضون في كل مرة إلى ما يشبه أثر الزلزال في قلوبهم وأجسادهم حتى يطول الظلم والظلام فيقول الرسول والذين معه: متى نصر الله؟ كناية عن استبطاء النصر مع الحاجة إليه، كالصائم الظمآن يسأل: متى تغيب الشمس؟ وليس فيه اعتراض على قدر الله أو شك في وعده، والله أعلم.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالسَّكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُنْفِقُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلِ إِصْلَاحُ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَكُمْ إِنْ اللَّهُ غَرَضٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نَسَاؤُكُمْ حَرْتُ لَكُمْ فَأَتُوا نَحْرَكُمْ أَلَى شَيْئٍ قَدْ مَوَّاهُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَأَتَعَفُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْكُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

يسألونك

في هذا المقطع تكررَت كلمة ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ ستَّ مرات، وهذا يعني أننا في درس (فقه السؤال)، والذي نُلخِّصه في النقاط الآتية:

أولاً: الاهتمام بالعلم والتعلم، والتفاعل مع مصدر التلقِّي فهما وتدبراً واستزادة من العلم؛ إذ السؤال هو علامة ونتيجة لكل ذلك.

ثانيًا: جاء السؤال مسندًا إلى الجمع، وفي هذا إشارة إلى التفاعل الجماعي، فكأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتدارسون القرآن، فتنشق من هذه المدارس الجماعية أسئلة، فلا يتجرؤون على الإجابة عنها بغير علم، فيتوجهون بالسؤال إلى مصدر الوحي نفسه.

ثالثًا: توجيه السؤال إلى مصدر المعرفة، فيه دلالات وإشارات كثيرة، ففيه تأكيد التسليم المطلق لله والإيمان بما أنزل، وفيه التصديق الجازم بصدق الرسول ﷺ وهو المبلغ عن الله، وفيه تحري السند الأعلى للخبر، وفيه الصلة والانفتاح بين الداعية المصلح وبين عامة الخلق، والله أعلم.

رابعًا: تنوع الأسئلة الواردة يؤكد شمولية الإسلام ومرجعيتها في توجيه المجتمع وحل مشكلاته؛ حيث شملت الأسئلة: مسائل المال، والقتال، والمشروبات، والألعاب، وحقوق الأيتام، والمعاشرة الزوجية.

فالصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يسألون رسول الله ﷺ عن الأمور التعبدية ثم يتجهون في أمور حياتهم الأخرى لمصدر آخر، بل كان الإسلام عندهم يعني: الاستسلام الكامل لأمر الله في الدين والدنيا.

خامسًا: طبيعة الأسئلة الواردة في هذا المقطع كلها ذات طابع عملي، وهذا هو النهج الذي تربى عليه المسلمون الأوائل، فالعلم للعمل، وليس للفلسفة المجردة، أو المتعة العقلية والمحاكة اللفظية، إنه مجتمع يبني نفسه ويصنع حياته، وهو بحاجة إلى العلم الذي يعينه في ذلك ويجنبه الشطط والزلل.

دقائق التفسير

﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾، ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ تكرار كلمة (الخير) في آية الإنفاق إشارة إلى تحرير قصد المنفق، وصيغة أدائه لهذه العبادة؛ بحيث تكون النفقة خيراً من كل وجه، ليس فيها أذى للفقير، ولا امتهان لكرامته أو تسخيره في شؤون المنفق ومصالحه الخاصة.

وفيه جواب لسؤالهم: ﴿مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ وكأن الجواب: أنفقوا الخير، وهذا تأكيد آخر لضرورة توخي كل معاني الخير في النفقة، والله أعلم.

﴿فَاللَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ هذا جواب ليس له سؤال، وهو أسلوب في التربية القرآنية مقتضاه إرشاد السائل إلى ما ينفعه وإن لم يرد في سؤاله، وهذه من صدقة المسؤول على السائل، وقد نبّه القرآن إلى صنفين من أقرباء المتصدق؛ ليرسخ بهذا صلة الرحم والتواصل الاجتماعي المطلوب، والمحتاجين من عامة المسلمين لتأكيد وحدة الأمة، وتحقيق التكافل بين المجتمعات الغنية، والمجتمعات الفقيرة.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ إشارة بتقديم العذر للمكلفين ليعينهم على تحمل مسؤولية التكليف، ثم ثنى بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ليعطي آفاقاً رحبةً ومريحةً، وهذا بُعد آخر ودافع للإقدام رغم ما في القتال من ثقل وكراهة.

﴿وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ هذا جواب ليس له سؤال؛ إذ السؤال كان عن القتال في الأشهر الحرم، ولكن القرآن استطرد لبيان أحكام أخرى لحكم كثيرة؛ منها: توجيه السائل إلى ما ينفعه ولو لم يرد في سؤاله كما تقدّم في آية النفقة.

ومنها: مجادلة الآخرين، وبيان الحق كاملاً، وعدم الوقوع في فخّ الدفاع السلبي، فقد ورد أن المشركين قد عابوا على المسلمين قتلهم لمشرك في الأول من رجب؛ ظناً منهم أنه آخر جمادى، فلم يشأ القرآن أن يعطيهم ما يريدون فيجئ جرائمهم الواضحة والمتكررة في الصدّ

عن التوحيد وإخراج المهاجرين من ديارهم، وهذه أكبر إثماً من ذلك الخطأ الذي وقع فيه المسلمون لا عن علم ولا عن قصد.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ تقرير لطبيعة الصراع بين الحق والباطل، وأنه صراع هويّة ووجود، لا صراع مصالح وحدود.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا﴾ تقرير لتاريخ الدعوة ومراحلها الأساس: الإيمان ثم الهجرة ثم الجهاد، وفيه إشارة أن الجهاد لا يكون قبل التمكين والاستقرار في أرض ودولة وراية وإمام، والله أعلم.

﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ الآية تفيد تحريم الخمر والميسر، وذكر المنافع لا يقلل من هذا التحريم، إذ المنافع خبر لا يمكن نسخه، وقد قرنه القرآن بالتحريم، بمعنى: أنه مع وجود هذه المنافع فهما إثم كبير، وهو ما يسمّيه الأصوليون بالمصالح الملغاة، وعليه فالآية صيغة من صيغ التحريم تأكدت بآية المائدة: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠].

وفي ذكر المنافع إشارة للأدب القرآني بذكر الحقيقة كاملة، وهو ما يطلق عليه اليوم بالموضوعيّة، وإطلاق المنافع وتنكيرها إشارة إلى أنها منافع ثابتة وليست مُتوهّمة، وقد تكون جسدية أو نفسية أو مالية، لكنها لا ترتقي لنفي التحريم.

ولهذا نظائر كثيرة في الشرع، فلحم الخنزير قد يكون فيه من المواد النافعة للجسم كالبروتينات والدهنيّات وغيرها، وكذلك لبس الحرير المحرّم على الرجال؛ إذ لا يستبعد وجود بعض المنافع فيه، لكنها منافع مغمورة في الإثم الأكبر، والذي لم يكن إلا بعلم الله العليم الحكيم الرحيم.

﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ إشارة لسبب التحريم، وكأنّه ذكر الإثم وأراد الضرر من باب ذكر الملزوم وإرادة اللازم، ولا مانع من إرادة المعنيين معاً، والله أعلم.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ تكرر السؤال دليل على عظم الاهتمام بالموضوع من قبل ذلك الجليل الرباني، بيد أن الجواب جاء مختلفاً ليُضيف معنى جديداً، فالإنفاق يكون من المال الزائد عن الحاجة الذاتية ﴿الْعَفْوَ﴾.

والظاهر أن السؤال كان عن صدقة التطوع، إذ الفريضة قد حددتها أنصبة الزكاة ومقاديرها، وكذا النفقات الواجبة الأخرى كالنفقة على الزوجة ومن تلزمه إعالتهم، وعليه فالآية لا تنهض دليلاً على وجوب إنفاق الزائد، إذ التطوع ينافي الإلزام أصلاً، والله أعلم.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ لم يحدد نوع السؤال ليمهد للجواب العام الذي يريده وهو (الإصلاح)، فمسؤولية المجتمع تجاه اليتامى هو تحري الإصلاح لهم في كل شأن من شؤونهم المادية والمعنوية والتربوية وكل ما يدخل في مسمى الإصلاح.

﴿وَلِنْ تَخْلَطُوهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ﴾ مخالطة اليتامى بالاهتمام والزيارة والكفالة والتعاون والنصح والتربية لسد نقص اليتيم واجب، وهو من مقتضيات الإصلاح؛ إذ لا إصلاح بلا مخالطة، والتذكير بحق الإخوة هنا فيه معانٍ جميلة، فالأخ يأنس بأخيه ويستنصر به ويبوح له بما عنده، ويعطيه بلا منة ولا تكبر أو تعالٍ، فالأخوة من مقتضيات المساواة، وهي هنا تحمّل دلالة نفسية ومعنوية أكبر من سدّ النقص المادي بالكفالة أو الصدقة.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ تحذير لمن يخالطهم ابتغاء الفساد، والفساد اسم جامع لكل ما هو بخلاف الإصلاح مادياً ومعنوياً، وترغيب للمصلح وتنويه بثوابه الكبير الذي أعدّه له الله.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَاكُمْ﴾ أي: لمنعكم من مخالطة اليتامى تورعاً واحتراراً عن إصابة شيء من ماله بقصد أو بغير قصد، وفي المنع مشقة على الطرفين، فالأيتام بحاجة إلى التواصل مع المجتمع، وفي المجتمع من الأقرباء من تدعوه شفقتهم إلى التواصل أيضاً، وقد يكون اليتيم غنياً، والمال الذي بين يديه له وظيفة اجتماعية أيضاً عملاً ونهياً وزكاة، والله أعلم.

﴿وَلَا أَمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ أي: الأمة المملوكة خير من المشركة ولو كانت حرّة، فالتفاضل ليس بموازن الدنيا والجاه والحسب والمال، إنما التفاضل بالإيمان والتقوى، وأكد هذا المعنى بقوله في الآية نفسها: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ ثم علّل هذه الخيرية بقوله: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾. ولا مانع من حمل الأمة على مطلق المرأة، وحمل العبد على مطلق الرجل، فالناس كلهم عبيد لله، إلا أن السياق جاء لبيان خيرية الإيمان وتفضيله على كل المعايير الدنيوية، كأنه يقول: إن الإنسان المؤمن الذي لا يملك من معايير الدنيا شيئاً هو أفضل من المشرك الذي يملك كل شيء، والله أعلم.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ أي: عن الأحكام المتعلقة به، وذلك بدلالة الاقتضاء، إذ يعد السؤال عن الماهية، والسؤال عن الأحكام أولى من الاختصار على الوقاع؛ لأنّ السائل لا علم له قبل نزول الوحي بالذي يحرم والذي لا يحرم، خاصّة أن اليهود كانوا يبالغون في عزل المرأة عن كثير من شؤون حياتها فترة الحيض، وربما كان المسلمون يسمعون هذا منهم، والله أعلم.

﴿قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ قدّم علّة الحكم تمهيداً له، والأذى هو نوع من الضرر وأطلقه ليشمل الزوجين ويشمل الجانب النفسي والجسدي، واعتزال النساء معناه الابتعاد عن مباشرة الجماع وما يؤدي إليه، أما المخالطة في شؤون الحياة الأخرى فتبقى على أصل الإباحة والاستحباب.

﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ يطهرن، أي: الطهر الطبيعي الذي يحصل بانقطاع الدم، وتطهرن فعل يقتضي القيام بالتطهر وهو الغسل، وقد جاء الفعل بهذه الصيغة تأكيداً للتنقية وإشارة للتطيب والتزّين.

﴿فَأَتَوْهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ الأمر هنا للإباحة؛ لأنه مسبوق بنهي، و﴿حَيْثُ﴾ ظرف مكاني، والمقصود به قُبُلُ المرأة، وهو محلُّ الحرث الذي ذكره القرآن في الآية التالية: ﴿فَسَأَوْكُمُ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ تشبيهاً لمحل النسل بغراس الأرض، فالإباحة تتجّه لهذا المحل دون غيره.

وقول مَنْ قال مِنَ الشيعة ونحوهم بجواز إتيان الدُّبُر مخالفاً للشرع والعُرف والطبيعة البشرية والحيوانية أيضاً، وهو نوعٌ من الشذوذ في الفكر والسلوك، ولو صحَّ قولهم هذا، لما طُلِبَ اعتزال النساء فترة الحيض؛ إذ الحيض لا يكون إلا في محل الحرث.

﴿وَقَدِمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ دلالة على أَنَّ الامتثال لأمره سبحانه فيه مصلحة المكلف، فهو يدخِرُ هذا الخير لنفسه.

وإشارة إلى أن المعاشرة الزوجية وابتغاء النسل فيه خيرٌ قادم إذا اقترن بالتقوى وحسن التربية للأولاد.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿٢٢٤٥﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤٦﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفَهْمِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٤٧﴾ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٤٨﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤٩﴾ وَالْمُطَلَّقَتُ يَتَرَبَّصُ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتَسِبْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيُؤْتِيَنَّ أَهْلَهُنَّ أَنْفُسَهُنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٥٠﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِنْ مَسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسَرَّعَ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مَتَاءً اتَّخَذْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٥١﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا حِلَّ لَهَا مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٢٥٢﴾ وَإِذَا طَلَّقَ الْمَرْءُ النِّسَاءَ فَلْيُفَنِّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُنْكِحُوهُنَّ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَمَنْ يَعْمَلْ فُلُوحًا فَلْيَفْعَلْ وَلَا تَتَّخِذُوا عَدُوَّكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ وَلَكُمْ عَدُوٌّ لِلَّهِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٥٣﴾ وَإِذَا طَلَّقَ الْمَرْءُ النِّسَاءَ فَلْيُفَنِّ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ لَكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٢٥٤﴾ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ إِمَّا أَنْ يُتِمَّ الرِّضَاعُ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعُهَا لَا تُضَارَّ وَلَدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسَرِّعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَوْلُ اللَّهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٢٥٥﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٢٥٦﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمُ اللَّهِ أَنَّكُمْ سَتَذَكَّرُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥٧﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى التَّوْبِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرَهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢٥٨﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوا أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بَيْنَهُمَا عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٢٥٩﴾ حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٢٦٠﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ رِجَالَ أَوْ رُكْبَانًا فَلَمَّا أَتَيْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مِمَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢٦١﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةٌ لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ قَدْ خَرَجْنَا عَنْكُمْ فِي مَا قَالَتْ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٦٢﴾ وَلِلْمُطَلَّقَتِ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٢٦٣﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٢٦٤﴾

فقه الطلاق

الطلاق هو محور هذا المقطع، والمقصود به فسخ عقد الزوجية، وقد شرَّعه الإسلام؛ استجابةً لحاجة مجتمعية لا يُنكرها إلا مكابر، فالزواج عقدٌ بين رجلٍ وامرأةٍ لتأسيس حياة مشتركة، وهذه الحياة قوامها المودة والرحمة، فإن فشل الزوجان في تحصيلها فإن إكراههما على الاستمرار لا يحقق الغاية من الزواج أصلاً، ثم هو ينافي حرية الفرد في اختيار حياته وعلاقاته.

ومن الغريب أن ترى الغرب يُعلي من شأن الحرية حتى جعلها محور منظومته القيمية، ثم يستنكر الطلاق ويُلزم الزوجين بالحفاظ على علاقتهما الزوجية مع الكراهة، وقلة الانسجام. ونحن مع تأكيدنا أن في الطلاق ضرراً يلحق الطرفين ويلحق الأولاد أيضاً، والدائرة الاجتماعية للطرفين، وأن هناك توسُّعاً لا مبرر له في استعمال هذا الحق، والذي هو استثناء وليس أصلاً، والاستثناء يدور مع سببه وجوداً وعدمًا؛ بيد أن تنكُّر الاستثناء تعسف آخر، فإكراه الزوجين على علاقة لا يريدانها قد يكون فيه من الضرر ما يفوق الضرر المترتب على الطلاق.

وقد قدّم القرآن في هذا المقطع صورة لهذه الحالة الاستثنائية وملابساتها وما يترتب عليها من حقوق والتزامات وأحكام، مع التنبيه إلى أن هذا المقطع ليس فيه كل الأحكام أو الحالات المتفرعة عن الطلاق:

أولاً: الدعوة للإصلاح وإزالة كل العقبات التي تحول دون ذلك حتى لو كانت ذات طابع ديني وتعبدي، وهذا هو المقصود العملي من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ بمعنى: لا تجعلوا تعظيمكم للحلف بالله عارضا بينكم وبين البرّ والإصلاح، وإذا كان هذا بحق الله، فتجاوزوا الالتزامات والعهود الأخرى إذا كانت تصدُّ عن الإصلاح من باب أولى، كمن أعلن أنه سيطلق زوجته

إن هي فعلت كذا أو كذا، فلما فعلت أصبح مُلزمًا نفسيًا ومجتمعياً بالطلاق، لكنّ هذا الإلزام لا عبرة به إن كان هناك طريق للإصلاح.

وفي الآية إشارة أخرى تقضي بتجنب هذه الأيمان والتي غالباً ما تكون في حالة الغضب والانفعال النفسي، وإذا كان هذا في الأيمان المقصودة والمؤكدّة، فإنّ تجاوز الأيمان التي تجري على اللسان من غير قصد أولى: ﴿لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾.

وقد جاءت هذه التوجيهات القرآنيّة ممهّدة لأحكام الطلاق وقد بدأها بحكم الإيلاء وهو الطلاق المقترن باليمين، بأن يحلف بالله أن لا يقرب زوجته، ونحن نقصد بالطلاق هنا معناه العام الذي هو فسخ العقد بأية صيغة جاء.

ثانياً: تشريع التوقيات المناسبة للمراجعة والبحث عن الحلول، ففي الإيلاء أعطى القرآن للرجل مهلة أربعة أشهر ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فالذي حلف بالله لأي سبب كان أن لا يقرب امرأته، فإن له حق التراجع خلال أربعة أشهر، فإن تراجع فليس عليه سوى كفارة اليمين، وإن أصرّ كان ذاك دليلاً على أن الإيلاء لم يكن زلةً غاضبةً، أو حالة انفعاليّة طارئة.

وفي الطلاق أعطى القرآن للمرأة أن تتربّص ثلاثة قروء ﴿وَالْمُطَلَّقَتُ يَتَرَبَّصُ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ أي: ثلاث دورات شهرية، وهي فترة كافية كذلك للتأكد من وجود قرار مدروس بالطلاق.

ثالثاً: التنفير من الطلاق أصلاً، ودفعه ما كان إلى ذلك سبيل، وهو مظنة الإثم والخرج لما يترتب عليه من ضرر بحق الزوجة وأولادها، بل وبحق الزوج أيضاً ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ إشارة إلى مظنة الجناح، وهو هنا الإثم في حالة تأكيد العقد بتسمية المهر أو بالجماع.

ولذا قال الإمام الغزالي رحمه الله في معنى نفيس له في هذا المقام: (وإنما يكون مباحًا إذا لم يكن فيه إيذاء بالباطل، ومهما طلقها فقد آذاها، ولا يُباح إيذاء الغير إلا بجناية من جانبها، أو بضرورة من جانبها) ١.

رابعًا: تقسيم الطلاق على مراحل ﴿الطَّلَقُ مَرَّتَانٍ﴾ وكلُّ مرّة لها شروطها وعدّتها الزمنية الكاملة: ﴿ثَلَاثَةٌ قُرُوءٌ﴾ أما جمعها في لفظة واحدة فلا شك أنّه بدعة مخالفة لنهج القرآن؛ كمن يقول لامرأته: أنتِ طالق، أنتِ طالق، أو أنتِ طالق بالثلاث، وخلاف الفقهاء في إمضائه معروف.

بيد أنّ تعبير القرآن: ﴿الطَّلَقُ مَرَّتَانٍ﴾ فيه متنفس لمن يرى عدم إمضائه؛ إذ العبرة بالمرّة وليس بالعدد المجرد، والله أعلم.

ولا شك أنّ هذه المراحل تصنع فرصةً للمراجعة واستمرار العلاقة الزوجية، وهو ما يؤكد حرص القرآن على صون الأسرة من التفكك طالما بقي في القوس منزع.

خامسًا: الطلاق حقٌّ للرجل وهو حقٌّ للمرأة أيضًا، لكنّ الرجل إذا طلق تنازل عن المهر الذي ألزم به نفسه في العقد، وعليه نفقة الزوجة خلال العدة، أما المرأة فهي تطلب الطلاق لرفع الضرر عنها أمام القضاء وهو ما يسمّى بالتطليق القضائي، وإذا لم يكن هناك ضرر بل هو عدم الرغبة الذاتية بالاستمرار فعليها أن تعوّض الرجل ما دفعه إليها وهذه الحالة هي حالة الخلع ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾.

سادسًا: ضمان الحقوق الكاملة للطرفين وللأولاد أيضًا، ومنها:

- ضمان حماية النسب: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾.

- ضمان حقّ المطلقة في كامل مهرها: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ إلا

في حالة الخلع، أو في حالة طلاقها قبل الدخول، فلها نصف المهر.

(١) «إحياء علوم الدين» كتاب آداب النكاح، الباب الثالث، (٢/ ٥٥ / دار المعرفة، ٢٠٠٤م).

- تحريم التعسف المضر بالمرأة: ﴿وَلَا تُمَسِّكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّلْعَدُوِّ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ وهذا تشنيع على كل من يُسخر أحكام الله في الطلاق والعدة والمراجعة للإضرار بامرأته، كأن يراجعها في اليوم الأخير من العدة ثم يطلقها مرة ثانية ليزيد فترة انتظارها لا بقصد الإصلاح بل لإيذائها وإبقائها كالمعلقة.

- النهي عن منع الزوجة من العودة إلى زوجها بعد انقضاء العدة بعد الطلاق الأول والثاني ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ والخطاب موجه لولي المرأة ثم للمجتمع الذي قد يمارس هذا العضل من خلال العادات والتقاليد، والعودة هنا لا تكون إلا بعقد جديد واتفق بينهما ليتجاوزا مشكلات التجربة السابقة، والعودة تكون بالتراضي بينهما وهو حق آخر للزوجة، وفحواه أن لا يجوز إكراهها على العودة كما لا يجوز منعها إذا رأت ذلك.

- حق الولد في الرضاعة من أمه المطلقة حولين كاملين: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ وهو حق للوالدة أيضًا إلا أن تتنازل عنه، فيجب على الوالد البحث عن مرضعة أخرى، وفترة العامين أصل إلا إذا رأى الوالدان الفصال - أي: الفطام - قبل ذلك بالتشاور والتراضي ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾

- حق الوالدة المطلقة التي اختارت إرضاع ولدها في النفقة: ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾، وذلك واجب في مال الوالد.

- حق النسب للوالد، فالولد يُدعى لأبيه: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ أي: الأب.

- النهي عن جعل الولد سببًا في الضرر للأب أو للأم: ﴿لَا تُضَارُّ وَلِدَهُ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهَا﴾ وهذا له صور كثيرة؛ منها: ترك الوالد للولد ليلزمها بحضانتها وإرضاعه، أو قبولها أو لا ثم لما تعلق بها دفعته إليه بقصد إضراره، وقصد الإضرار من الطرفين يكون الولد فيه هو الضحية.

- كُلُّ حَقٍّ لِلوَلَدِ عَلَى وَالِدِهِ يَكُونُ عَلَى ﴿الْوَارِثِ﴾ أَيْضًا فِي حَالَةِ غِيَابِ الْأَبِ بِمَوْتِ وَنَحْوِهِ ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ وَالْوَارِثُ هُنَا عَصْبَةُ الْوَلَدِ الَّتِي يَرِثُهَا فِي حَالِ وَفَاتِهِ، وَالتَّذْكِيرُ بِمَسْئُولِيَّتِهِ هُنَا لِحُطُورَةِ الْأَمْرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

سَابِعًا: الطَّلَاقُ قَدْ يَكُونُ قَبْلَ الدَّخُولِ، وَهَذَا لَهُ أَحْكَامُهُ الْخَاصَّةُ وَمِنْهَا: أَنَّهَا تَسْتَحِقُّ نِصْفَ الْمَهْرِ الْمَتَّفَقِ عَلَيْهِ: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ثَامِنًا: وَانْتِهَاءُ الْعِلَاقَةِ قَدْ يَكُونُ بِسَبَبِ الْمَوْتِ، وَهَذَا لَهُ أَحْكَامُهُ أَيْضًا؛ وَمِنْهَا: وَجُوبُ الْعِدَّةِ عَلَى الزَّوْجَةِ ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ وَفِي هَذِهِ الْعِدَّةِ تَبَرُّءٌ لِلرَّحِمِ وَتَسْكِينٌ لَهَا بَعْدَ صَدْمَةِ الْمَوْتِ لِتَكُونَ أَقْدَرُ عَلَى اتِّخَاذِ الْقَرَارِ الصَّحِيحِ فِي مُسْتَقْبَلِ أَمْرِهَا؛ إِذْ إِنْ الْمَرْأَةُ أَكْثَرَ عَاطِفَةً وَقَلَقًا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَاتِ وَلَا يَنْكَرُ ذَلِكَ إِلَّا مُكَابِرٌ.

وَمِنْهَا: حَقُّهَا فِي الْبَقَاءِ فِي بَيْتِ الزَّوْجِ حَوْلًا كَامِلًا مَهْمَا كَانَ مُصِيرُ الْبَيْتِ بِالنِّسْبَةِ لِلْوَرِثَةِ، أَيْ: تَعْتَدُّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ثُمَّ تَمْكُثُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا حَتَّى إِتِمَامِ الْحَوْلِ، وَلَا تَلْزَمُ بَيْنَ انْتِهَاءِ الْعِدَّةِ وَإِخْرَاجِهَا مِنْ سَكْنِهَا الَّذِي كَانَتْ فِيهِ، فَالْجَمْعُ بَيْنَ الْحُكْمَيْنِ وَارِدٌ، وَهُوَ أَوْلَى مِنَ الْقَوْلِ بِالنِّسْخِ، سَيِّمًا أَنَّ مَدَّةَ الْعِدَّةِ هِيَ مَدَّةُ حَزَنِ وَحْدَانٍ لَا يَصِحُّ فِيهَا بَحْثُ الزَّوْاجِ قَبُولًا أَوْ رَفْضًا؛ وَعَلَيْهِ فَهِيَ بِحَاجَةٍ إِلَى مَدَّةٍ أُخْرَى لِتَتَّخِذَ قَرَارَهَا، فَقَدْ يَكْتُبُ اللَّهُ لَهَا الزَّوْاجَ فَتَنْتَقِلُ إِلَى بَيْتٍ آخَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

تَاسِعًا: أَنَّ الْعَفْوَ وَالتَّسَامُحَ وَالتَّرَاضِيَّ مِنْ أَخْلَاقِ الْأُسْرَةِ الْكَرِيمَةِ حَتَّى لَوْ حَصَلَ الطَّلَاقُ، وَقَدْ كَرَّرَ الْقُرْآنُ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي هَذَا الْمَقْطَعِ كَثِيرًا تَنْبِيْهُهَا إِلَى أَنَّ الْأَحْكَامَ الْفَقْهِيَّةَ وَالْقَضَائِيَّةَ لَا تَكْفِي وَحْدَهَا لِحُلِّ كُلِّ الْمَشَاكِلِ مِنْ دُونِ وَجُودِ هَذَا الْبُعْدِ الْأَخْلَاقِيِّ اللَّطِيفِ. فَقَدْ وَرَدَ: ﴿أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾، وَ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾، وَ﴿فَإِنْ مَسَاكُكُمْ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَنٍ﴾، وَ﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾، وَ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا﴾

وَتَشَاوُرُكُمْ، ﴿١٠﴾ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١١﴾.

ويكفي أن نعلم هنا أن الوصية بالمعروف لوحدها قد تكررت في هذا المقطع أكثر من عشر مرّات.

عاشراً: أن المحافظة على الصلاة وذكر الله على كلّ حال من شأنه أن يعين المسلم على الالتزام بتلك الأحكام والآداب؛ ولذلك أدخل القرآن آيتين اثنتين في الصلاة والذكر في هذا المقطع: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

فالله هو الذي علّمنا تلك الأحكام والآداب وإنما نقرب منها بذكر الله والخشية منه، وهذا تأكيد لما تكرّر في المقطع كلّ من التذكير بالتقوى والخوف من الله السميع العليم سبحانه.

وهذه هي طريقة القرآن في الدمج بين معاني الإيمان ومعاني الأخلاق والأحكام التشريعية، وهي طريقة تربويّة عمليّة، على خلاف الفصل الذي تلتزم به مناهج التربية المعاصرة والذي أفقد الفقه روحه وجاذبيته وقدرته الذاتية على الإلزام.

دقائق التفسير

﴿لَا يُوَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ سَمَاهُ لَغْوًا؛ ترغيبًا في تجنبه، فتكرار الحلف بغير قصد هو من اللغو، وهو منافٍ لتعظيم اسم الله في قلب المؤمن، والله أعلم.

﴿فَإِنْ قَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إشارة إلى أن العودة إلى الوفاق بين الزوجين والتراجع عن الإيلاء يقربهما من رحمة الله ومغفرته، بينما عقّب على الخيار الثاني ﴿وَلِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وفيه إشارة لا تخفى من التحذير والتخويف.

﴿وَلَمْ يَنْ يَنْشَأْ مِنَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْمَعْرِفَةَ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ هذه قاعدة في الجمع بين قيمة

(المساواة)، وقيمة (العدل)، فكلّ مختلفين في الجنس أو الطبع أو الجهد يشتركان في أصل جامع ويختلفان فيما فوقه، فما اجتمعوا فيه كان أهلاً للمساواة، وما اختلفوا فيه كان أهلاً للتمايز وتحقيق العدل، فالمرأة تجتمع مع الرجل في كل معاني الإنسانية، وهي هنا تستحق ما يستحقه الرجل تمامًا، ثم تفرق عنه في معاني أخرى في بنيتها الجسدية والنفسية والعقلية والعاطفية، وهذا من التنوع الذي هو أصل الحياة وقوامها، والمساواة في هذا الجانب ظلم للطرفين، وإنما المطلوب توزيع الوظائف والأدوار وإعطاء كل ذي حق حقه.

فلما كانت المرأة أقدر على رعاية الولد وتحقيق السكينة في البيت أعطيت هذا الدور، في مقابل أن الرجل يعمل ويكدّ من أجل النفقة عليها وعلى ولدها، وتوفير متطلبات استقرار الأسرة وهيبتها وحمايتها، وهذه هي الدرجة التي يستحقها الرجل وهي مسؤولية كبيرة تتناسب مع ما ميّزه الله به من قوّة وجلّد، والله أعلم.

﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ الطلاق هنا هو الطلاق الثالث، وهو الذي يُسمّى البائن بينونة كبرى، والذي يقطع عليها طريق المراجعة إلا أن تتزوّج من آخر، فإن طلّقت منه جاز لها العودة إلى زوجها الأوّل.

وقد وهم بعض المحدثين بمن لم يتفقوا في الدين أن الزوج الثاني جيء به بقصد التحليل، وهذا وهمٌ وباطلٌ، فالإسلام لما منح الزوجين فرصًا كثيرة للمراجعة في الإيلاء والخلع والطلاق الأوّل ثمّ الثاني، كان لا بدّ أن تكون لهذه التجارب نهاية، فكان الطلاق البائن هذا وبه تنقَطُ المراجعة.

وعلى المرأة أن تبحث عن زوج آخر إن رغبت بالزواج، وهذا الزواج دائم وفيه كل غايات الزواج وأحكامه التي تهدف إلى الاستقرار والسكينة والمودة والرحمة ونحو ذلك. فإن حصل الفراق بسبب الموت، أو بطلاق بائن، جاز لها أن تتزوّج مرّةً ثالثةً من أي رجل يحلّ لها بمن فيهم زوجها الأوّل، فإن اختارته كان لها تجربة سابقة معه وتجربة لاحقة، ولما اختارته بعد تجربتها الثانية كان هذا الخيار بعد مقارنة محسوبة وهو أقرب للوفاق.

ولذلك عقب القرآن على هذا الخيار بقوله: ﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ بمعنى أنه قد غلب على ظنهما أنهما قد استفادا من التجربة، ويتأكد هذا الخيار على غيره في حال وجود الولد، والله أعلم.

﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ تثبت وتأكيد لحق الولد في الرضاعة حولين كاملين، ولحق المرضعة أيضًا في النفقة، وأنّ النقص عن الحولين لا يكون إلا بتشاورٍ واتفاقٍ للتأكد من مصلحة الولد، وقد قال: ﴿حَوْلَيْنِ﴾ ولم يقل: (سنتين)، أو (عامين)؛ دفعًا للخطأ في حساب بداية المدة ونهايتها؛ فالسنة والعام لهما بداية ثابتة وهي اليوم الأول من الشهر الأول، بينما الحول بدايته مختلفة باختلاف الأشخاص والأحوال، فقد يبدأ الحول في منتصف السنة لينتهي في منتصف السنة الأخرى، وهكذا.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَا فِي أَنْفُسِنَا بِالْمَعْرُوفِ﴾ دلالة أن المرأة المتوفى عنها زوجها هي صاحبة القرار بعد انقضاء عدتها فيما تختاره لنفسها.

﴿فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ التعريض عكس التصريح، والمقصود هنا: أن الذي يرغب بالزواج من المرأة المتوفى عنها زوجها، لا يجوز له التصريح لها بما في نفسه؛ إذ هذا جرح لمشاعرها، واستعجال قد تضطر المرأة لردّه إظهارًا لوفائها وإن كانت راغبة فيه. أما التعريض فقد أجازته الشارع؛ لأنّه يوصل المعلومة دون حرج ودون انتظار للرد، وهذا من الآداب الإسلامية في إدارة شؤون المجتمع ومراعاة الجوانب النفسية والعاطفية فيه.

﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُوا أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ تعفو المرأة عن حقها وهو نصف المهر إن رغبت هي في ذلك، أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وهو الزوج، وليس ولي المرأة؛ لأنّ الولي لا يملك التنازل عن حقها.

وأما تنازل الزوج فصورته أن يكون الزوج قد دفع إليها كامل المهر قبل حصول الطلاق،

وقد تكون قد تصرّفت به، فالقرآن يرغب الزوج بالعتفو عن حقّه في استرجاع نصف المهر، والعتفو خلق حميد للطرفين، وهذا من آداب القرآن الاجتماعية.

﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ عطف للخاص على العام؛ تنبيهًا لشرف الصلاة الوسطى، وتحذيرًا من تفويتها أو التفريط فيها، وقد اختُلف في تحديدها؛ فقال الجمهور: إنّها صلاة العصر؛ لورود أحاديث في هذا، منها: حديث: «شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى صَلَاةِ الْعَصْرِ»^(١).

وقال آخرون: إنّها الفجر؛ وذلك لقرائن كثيرة، منها:

أنّ اليوم الشرعي يبدأ بمغيب الشمس، وعليه فالصلاة الأولى هي المغرب، والثانية هي العشاء، والثالثة هي الفجر، والرابعة الظهر، والخامسة العصر، فالفجر هي الوسطى من حيث وقتها، وإذا كانت الوسطى بمعنى الشرف والمكانة، فلا شك أنّ الفجر هي الأولى بذلك: «وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا» [الإسراء: ٧٨].

وهناك قرينة ثانية: وهي أنّ مظنة تفويت صلاة الفجر أقوى من مظنتها في غيرها من الصلوات، وهذا هو واقع الناس إلى اليوم، فكان ذلك أدعى لتأكيد المحافظة عليها وعدم التفريط بها.

وقرينة ثالثة: أنّ القرآن عبّ بعد الصلاة الوسطى بقوله: «وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ»، والصلاة التي يُرغَّب فيها بالقيام الطويل والقنوت بمعنييه اللغوي والاصطلاحي إنّما هي صلاة الفجر، أما الحديث المتقدّم فهو ليس الحديث الوحيد في هذه المسألة؛ إذ أورد المفسّرون أحاديث وروايات عن الصحابة رضي الله عنهم تُعارض هذا الحديث، وليس هنا محلّ مُناقشة هذه الروايات، والله أعلم.

(١) حديث صحيح من حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ينظر: صحيح مسلم (٢/ ١١٢) / دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ بعد ذكر القيام والقنوت في الصلاة وما يقتضيانه من سكينة وخشوع، استثنى القرآن حالة الفرع والخوف بملاحقة عدو أو خطر داهم مما يقتضي الحركة والاضطراب، فهنا تكون الأولوية للمحافظة على النفس، وتكون الصلاة بالطريقة التي تنسجم مع الحركة والحذر.

﴿ فَرِجَالًا ﴾ أي: مشيًا على الأقدام، أو ﴿ رُكْبَانًا ﴾ أي: ركوبًا على وسائل النقل، وبهذا يعفى المصلي عن الأركان العملية؛ كالقيام، والركوع، والسجود، واستقبال القبلة بقدر معارضتها للحفاظ على النفس هيئة وحركة، والله أعلم.

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ ﴾ المقصود به: مَنْ حَضَرَتْهُ الوفاة؛ لأن المتوفى ليس أهلاً للوصية، وهذا من مجاز اعتبار ما يكون، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا لِلْوَثَاكِ كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٧]، فالمولود لا يكون فاجرًا كفارًا عند ولادته بل يقتضي بلوغه سن التكليف، والله أعلم.

﴿ وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ متاع المطلقة ما يعينها على العيش الكريم ويعوضها عن النقص الذي حصل بسبب الفراق، وهذا حكم عام يشمل كل مطلقة من دون تفصيل، وقد جاء بصيغة الخبر إشارة إلى أن المجتمع الكريم من شأنه أن يسد هذه الحاجة وفق أحكام الشريعة، ثم بمراعاة حال المطلقة وقدرة الزوج.

فمن المتاع ما يحصل بالصدّاق مسمّى أو مقدّراً، ومنه ما يحصل بالنفقة التي تستحقّها المطلقة طلاقاً رجعيّاً، وكذا التي تستحقّها الوالدة بإرضاع ولدها، فإن لم يكن لها من ذلك شيء كان لها على الزوج ما يطيب خاطرها بحسب قدرته، فعدم التحديد في الآية مقصود لمراعاة كلّ هذه الحالات المختلفة، والله أعلم.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَخْلَبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى
 النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ مَن ذَا الَّذِي
 يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَرَى إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي
 إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ
 الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ
 تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٢٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا
 أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ
 بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ
 مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَى وَءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ
 الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ
 بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا
 جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلْكُوا اللَّهَ
 كَم مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ يَّا ذَنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٢٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا
 رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٣٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ يَلْذِبُ اللَّهُ وَقَتَلَ
 دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ
 لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٣١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ
 وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٣٢﴾ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى
 ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنْ
 اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٣٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا
 رَزَقْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣٤﴾

يخاطب القرآن الجيش كما يخاطب مؤسسات الدولة و المجتمع الأخرى كالتضاء والتعليم والاقتصاد والصناعة والزراعة والصحة، ولكل جهة خطابها الذي يناسبها، وربما وقع بعض الناس في وهم بسبب الخلط ووضع الخطاب في غير موضعه وتوجيهه غير الوجهة التي نزل فيها، فتراهم يأخذون آيات التربية العسكرية ويضعونها في مجالات الدعوة والسياسة والعلاقات المجتمعية أو التنظيمية.

في هذا المقطع تركيز على جوانب رئيسة في الإعداد العسكري وصياغة العلاقة بين الجندي والقائد، وبناء المنظومة العسكرية:

أولاً: الإعداد المعنوي وبناء المقاتل الشجاع القادر على مواجهة الخطر وتحمل تبعاته، وقد جاء هذا في النموذج الذي طرحه القرآن عن قوم تركوا بلادهم هلعاً وخوفاً من الموت وقد كانوا أوفاء، فكتب الله عليهم الموت من حيث أرادوا النجاة، ليرسخ بهذا النموذج عقيدة القدر في الموت والحياة، وأن النفس لا تقبض قبل انتهاء أجلها، وهذا هو فحوى قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَخَذَهُمْ ﴾.

ثانياً: أن القتال أمرٌ حتميٌّ قدرًا وشرعًا؛ أما القدر فبحكم الطبيعة البشرية وقوانين التدافع وحقائق التاريخ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اٰخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اَللّٰهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾.

وقد جاء الأمر منسجماً مع هذه الحقيقة: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ﴿فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ وأما الذين يحلمون بسلام من دون قوة فأولئك يُصادمون حقائق التاريخ والجغرافيا والطبيعة البشرية.

ولذا تجد الدول مهما اختلفت دياناتها وثقافتها تتسلح بالقوة، وتستعد للمواجهة وتطور من قدراتها القتالية حتى لو كانت ترغب بالسلام، وليست الأمة المسلمة استثناء من هذا، وتقرير هذه الحقيقة من شأنه أن يرفع الجانب المعنوي أيضًا.

ثالثًا: أن القتال في الإسلام مرتبط برسالة سامية ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فهو ليس للمناصب والمكاسب الدنيوية، وليس ليعلو عنصر على عنصر، أو تطغى دولة على أخرى، ومن متطلبات ذلك منع الظلم والفساد: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾

رابعًا: أن ثواب المقاتل أخروي؛ فهو لا يسعى لمغنم أو هروبًا من مغرم ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ﴾ فكل ما يقدمه المقاتل في سبيل الله من جهد ومال ودم فإنما هو أشبه بالقرض الذي ينتظره مضاعفًا في وقت الحاجة التي ما بعدها حاجة.

خامسًا: السمع والطاعة أساس في الجندية: ﴿قَالَ ابْنُ اللَّهِ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ ومحل النهي حلال في أصله، فكيف بالمحرّم؟

سادسًا: الإنفاق المادي ركن في المعركة وجزء من الإعداد، وقد مهد له القرآن في مقدمة هذا المقطع بقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ثم ختم به فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، وهنا إشارة إلى أن هذا الإنفاق يقصد به دفع كفر الكافرين وظلم الظالمين، والسياق كله يؤكد ذلك.

سابعًا: العلم والقوة أساس في القيادة: ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾.

ثامناً: الكثرة ليست شرطاً في النصر: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَهُمُ الْوُفَّ﴾ إشارة إلى أنه ما كان لهم أن يتركوا بلادهم وهم بهذه الكثرة، لكنه الملح والجنب والخوف من الموت الذي يشل حركة الشعوب.

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾ إشارة إلى أن الدفاع عن النفس والأهل والمال هو في سبيل الله أيضاً، فكل قتال حق فهو في سبيل الله، وكل قتال باطل هو في غير سبيل الله، مهما كانت الشعارات والرايات.

﴿وَلَمْ يُوْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ دلالة على اضطراب المعايير، فما علاقة المال بالقيادة! سوى أن صاحب المال قد يستعمل ماله لكسب التأيد، وهو مظهر من مظاهر فساد المجتمعات؛ حيث تتقدم الرشوة، وتراجع الكفاءة.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إشارة لأهمية تعزيز ثقة الجنود بقائدهم.

﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ إشارة إلى أن الذي يحقق التوازن مع كثرة العدو إنما هو الثبات والصبر.

﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ اختفى اسم طالوت مؤسس الجيش وقائده الأول، ولكن المعركة بقيت مستمرة بقيادة جديدة، وهذا شرط في النصر أن لا يرتبط مصير الجيش بشخص ما ولو كان القائد، فالجيش الذي يعجز عن تهيئة القادة وإعدادهم دفعة بعد دفعة فإنه سينشل وينتهي.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّكَ أَنْتَ بِالسَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

مجادلات في مسائل الإيمان

يعرض القرآن في هذا المقطع جانباً آخر من جوانب الصراع بين الحق والباطل، وهو الجانب الفكري الذي يعتمد الحجّة والبرهان بدلاً عن السيف والسنان، وهذه أهم النقاط التي عرضها القرآن في هذا الجانب:

أولاً: عرض الحقائق الإيمانية كما هي من غير لبس أو مُداراة لطرف أو جهة ما، وهذا الوضوح هو أساس لكل حوار أو مجادلة، وهذه هي منهجية الإسلام، وقد جاءت آية

الكرسي لبيان هذه الحقائق الكلية عن الإيمان، ومن ثمَّ كان لهذه الآية المكانة الأسمى من بين آيات القرآن الكريم، وقد صحَّح في صحيح مسلم^(١) عن النبي ﷺ أنها أعظم آية. والحقائق التي عرضها القرآن في هذا المقطع هي:

- لا إله إلا الله ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهذه كلمة التوحيد التي هي أساس الإسلام، وقاعدته الكبرى، ومدخل السائرين إليه، وكلِّ فكرٍ أو عملٍ من دونها مهما كان مردود. - أن الله متصفٌ بصفات الكمال ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ﴿أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

- أن الله مالكُ الملك وهو يفعل في ملكه ما يشاء ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، ﴿وَلَا يُؤْذُهُ حِفْظُهُمَا﴾، ﴿الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾، ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾، ﴿وَأَنْظَرْنَا إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾. - أن الآخرة حقٌّ، وأن الله سيُحيي الموتى، وأنَّ الناس هناك سيفترقون إلى مؤمن وكافر، فالؤمن في نور الله وهو على العروة الوثقى، والكافر عبدٌ للطاغوت وهو يعيش في الظلمات ومأواه النار: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

- أن الشفاعة لا تكون في ذلك اليوم إلا بإذن الله ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾. ثانيًا: حرية الاختيار مكفولة للجميع ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، وليس معنى هذا المساواة بين التوحيد والشرك، والحقِّ والباطل، والعدل والجور، كيف والله قد عقَّب مباشرة: ﴿قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ﴾؟ فهناك رشد وهناك غيٌّ، والمرء مختارٌ بينهما، وهو يتحمَّل نتائج اختياره.

(١) ينظر: صحيح مسلم (١/ ٥٥٦) دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

ثالثًا: الحوار مع المخالف في الدين مفتوح بلا حدود، فله أن يقول كل ما عنده، إذ هذا هو طريق الهداية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحَىِّ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحَىِّ وَأُمِيتُ ۖ﴾ ومع شناعة هذه المقولة إلا أن إبراهيم ﷺ لم يُسنَّعها عليه، ولم يُقفل باب الحوار بعدها.

رابعًا: البحث الذاتي عن الحقيقة مطلوب ومشروع مهما كان محل البحث ﴿قَالَ أَنَّى يُحَىِّ هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ﴾، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِى كَيْفَ تُحَىِّ الْمَوْتَى ۖ﴾.

دقائق التفسير

﴿الْحَىُّ الْقَيُّومُ﴾ صفتان من صفات الله تعالى واسمان من أسمائه الحسنى، وفي ذكر صفة الحى إشارة وتنبية على بطلان عبادة الأصنام، وهي أصنام جامدة لا حياة فيها، ثم ذكر صفة القيوم أي الذي يقوم وحده بتدبير شؤون الخلق، وهذه الصفة لا تكون لغير الحى.

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ نفى لصفتين من صفات النقص، والصحيح أنهما مثالان يصح القياس عليهما، فكل صفة مُشْعِرَةٌ بالنقص الواضح فهي منفية عن الله كالمرض والجوع والعطش، فالنفي ليس توقيفياً بخلاف الإثبات، والله أعلم.

﴿مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ إثبات للشفاعة المشروطة بإذن الله، وهي تجل من تجليات الرحمة والمغفرة في ذلك اليوم العصيب، وإنما تميَّزت بتكريم الشفيع نبياً وصديقاً وشهيداً، وهذا التكريم وجه من وجوه الثواب، وليس في الشفاعة ما يشغب على مبدأ العدل الإلهي؛ وهنا إشارة لبطلان شفاعة الأصنام التي يتشبث بها المشركون، وكذا بطلان شفاعة الأنبياء لمن أشركهم مع الله واستحالتها أصلاً؛ لأنهم ﷺ لا يشفعون لمن توعدده الله

بعدم المغفرة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(١).

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الكرسيُّ خَلْقٌ عظيمٌ وردت صفته في الأحاديث الصحيحة، وتأويله بالعلم حمل له على خلاف الظاهر والمتبادر عند الإطلاق، وذكره يفتح الآفاق الواسعة في تصوّر سعة الكون وعظمة الخالق، وإن كنا لا نستطيع التوصل إلى كنهه وحقيقته، مع ملاحظة أن معنى الكرسي في اللغة لا يبعد عن معنى العرش، والله أعلم.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ نهي بصيغة الخبر، ولا مانع من إرادة المعنيين، فالدين هو الخضوع الذاتي عن إيمان وتسليم، والإكراه ينافي هذا، فمن آمن تحت السيف كيف يكون مؤمناً، وهل الإيمان سوى التصديق الجازم وما يبنى عليه من تسليم وعمل؟

﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ استعمال مجازي، فالظلمات جمع ظلمة، والظلمة إنما تكون بانعدام الضوء، بيد أنها هنا استعملت اسماً جامعاً لكل شرٍّ، مع أن الظلمة لا تستلزم الشر بل قد تكون مطلوبة للسكن والراحة، ومثل هذا القول في النور، إذ استعمله القرآن اسماً جامعاً لكل خيرٍ عقيدةً وعبادةً وخلقاً، والله أعلم.

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴿ قول إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ كأنه وقع جواباً لسؤالٍ محذوف تقديره: من ربك؟

وقد ترك إبراهيم ﷺ الاستدلال الأول لسببين:

الأول: أن خصمه قد نحا به إلى مجال تخرج به المحاجة عن جوهر الموضوع، وهذا أسلوب من أساليب الباطل، ولو استجاب له إبراهيم ﷺ لصار الجدال يدور حول التفريق الثاني: أن خصمه قد قام بإحضار اثنين من السجن، فأبقى الأول وقتل الثاني، كما ورد في بعض الروايات، وقد كان من الحكمة حَرَف مجرى الحوار بعيداً عن ملابسات الواقع؛ تجنباً

(١) تكرر هذا المقطع من الآية مرتين في سورة النساء / ٤٨، ١١٦.

لهذا الضرر والسلوك المشين، والذي قد يصدر عنه بصورة أو طريقة أخرى.

نعم، ولقد كان لإبراهيم أن يخرجه أكثر فيقول له: أعد الحياة لهذا الذي قتلته إن كنت تُحيي وتُحيي، لكنّه اختار دليلاً لا يحتمل تلك المأحكات، ولا تلك السلوكيات، والله أعلم.

﴿لَمْ يَتَسَنَّهٗ﴾ أي: لم يتغير، وهذه معجزة لا شك؛ لأن الطعام لا يبقى في العادة كل هذه السنين، والقصة كلها معجزة لنبي من الأنبياء السابقين، وهي مثال على قدرة الله في إحياء الموتى؛ حيث جعله الله ينظر إلى رفات حمارة الميت كيف دبّت فيها الحياة مبتدئة بظهور العظام وتكاملها ثم ببناء اللحم عليها، ومثلها الآية التالية في إبراهيم عليه السلام والله أعلم.

﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ سؤال إبراهيم عليه السلام كان عن الكيفية وليس عن أصل الإحياء، بدلالة قوله: ﴿قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى﴾ والعلم بالكيفية وتصورها ينقل المعرفة من معرفة استدلالية إلى معرفة حسية، وهذه أكد في اليقين والطمأنينة.

﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾ دلالة على استعمال الطير في الجمع كما يستعمل في المفرد.

﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ اجمعهنّ عندك.

﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾ فيه مقدّر وهو: فاذبحهنّ، ثم اجعل على كل جبلٍ منهنّ جزءاً أي: اذبحهنّ ثمّ قطعهنّ، والله أعلم.

﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ ربط الإتيان بدعوتهن من قبل إبراهيم؛ تأكيداً لحقيقة الإحياء وحضور إبراهيم فيه، بخلاف ما لو أحيّاها الله في وقتٍ آخر، والله أعلم.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

من الآية

﴿٢٦١ - ٢٧٤﴾

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٦١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (٢٦٣) يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتٍ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَمٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَمَاتَتْ أَكْطُلُهَا ضَعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيْوَدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ فَاصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طِبَقَاتٍ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغِصُّوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِنْ بُدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (٢٧٢) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَنْزِلِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ مِنْهُنَّ زَبَابٌ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

التكافل الاجتماعي أساس من أسس الحياة الكريمة وبناء المجتمع المتناسك والأمة القويّة، والحاجة إلى التكافل حاجة مجتمعيّة عامّة بسبب طبيعة الحياة البشريّة وعوارض المرض والعوز وفقدان المعيل وقلة الموارد، والإنفاق الذي أكّده القرآن في هذا المقطع وفي آيات أخرى كثيرة إنما يقصد به الوصول إلى تحقيق هذا التكافل.

يَدَّ أن القرآن له منهجه الخاص في تحقيق هذه الغاية، وفي هذا المقطع عرض لمعالم هذا المنهج:

أولاً: الإنفاق في سبيل الله؛ فالله هو مالِكُ الملِك، وهو الذي ابتلى الغنيّ بالفقر، والفقرَ بالغنيّ، والغنيّ مأموراً أمراً بأن يؤدّي للفقر ما أوجبه الله في ماله من حقّ، وهذا من لوازم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ و﴿أَبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ وبالتالي فالغنيّ لا يُنْفِقُ ماله مُتَفَضِّلاً على الفقراء، بل مؤدّياً لحقهم.

وفي هذا من معاني الأخوة والتكافل المعنوي ما فيه، إضافة إلى المحافظة على حياء الفقراء وكرامتهم وهيبتهم في المجتمع.

وفيه أيضاً: حمايتهم من استغلال المتصدّقين وامتهانهم لهم في العمل والخدمة، أو المنّ والتسلّط والتعالي.

ثانياً: تأكيد الثواب الأخروي الذي لا حدود له ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾، ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾، ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتِلِ وَالتَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وهذا الثواب متضمن - لا شك - للثواب الدنيوي؛ من تحقيق الأمن، والسمعة الطيبة، وفتح أبواب الرزق، وكل هذه المعاني يحشدّها القرآن ليحفّز أصحاب الأموال، ويحرّرهم من أغلال الشحّ والبخل؛ لعلمه تعالى أن المال شقيق الروح، وأن الإنسان بطبعه يحبّ ماله ويعزّ عليه مفارقتة إلا لما هو أعزّ منه وأطيب.

ثالثاً: اقتران الإنفاق بالأخلاق؛ فلا منّة ولا تكبر ولا أذى، وقد نوع القرآن أساليبه لتأكيد هذه المعاني وترسيخها في الوجدان بما يعكس خطورتها وأهميتها في السلوك الاجتماعي، فتراه يشترط في الثواب الكبير الذي يرجوه المتصدّق أن لا تقترن صدقته بالمنّ والأذى ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنْنًا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

ثم ينذر ببطلان الصدقة من أصلها: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾؛ لأنّ هذا ليس بخلق المؤمن: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، ثم يبيّن أنّ الكلمة الطيبة أولى من الصدقة المؤذية: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذًى﴾.

ثم ذكر القرآن مثلين للصدقات المؤذيات، مثل الصفوان الذي عليه شيء من التراب، فإذا جاء موسم الخير وسقط الغيث انزاح التراب عن الصفوان وتركه صليداً لا يصلح للإنبات؛ لأن التراب لم يرسخ ولم يثبت، وهو مثل الصدقة التي تزول بسبب المنّ والأذى الذي يلحقه المتصدّق بالفقراء.

والمثال الثاني: رجل بنى حديقة كبيرة ووارفة فيها نخل وعنب وأنهار تجري، فلما كبر وأصبح محتاجاً إلى ثمرها له ولعياله القاصرين ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾، وهكذا تحترق الصدقة بالمنّ والأذى في الوقت الذي يكون المتصدّق بأشدّ الحاجة إلى ريعها

وثوابها، يقابل هذين المثلين مثال ثالث: ﴿كَمْثَلِ جَنَّتِ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَكَانَتْ أَكْلَهَا ضَعْفَيْنِ﴾.

رابعاً: اختيار المال الطيب للنفقة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ واختيار المال الطيب ينم عن محبة للطاعة، ومحبة للفقراء وإيثار لهم، وهو من النبل والكرم إضافة إلى حسن التدبُّن، وهو علامة أن النفقة لم تخرج عن كره وحسرة بل عن رضا ومحبة وطيب خاطر.

خامساً: قطع الطريق المؤدية إلى الشح وهي الخوف من الفقر ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ و﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ ولا شك أن الخائف من الفقر والحاجة عند تقلب الأيام يكون الأبعد عن النفقة والأقرب إلى مسك اليد.

سادساً: فتح باب التنوع في الصدقة والتنوع في الأداء بما تقتضيه المصلحة وحال المنفق والمنفق عليه ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِّنْ نَّكَرٍ فَأِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾.

والنفقة أداء الحق وجوباً أو تطوعاً، والنذر تعليق النفقة بخيرٍ قادمٍ من شفاءٍ عليلٍ أو قدوم حبيبٍ أو نجاح طالبٍ أو ربح تجارةٍ ونحو ذلك، وهذا كله تحبيب للصدقة وتنويع أسبابها ومحفزاتها.

ثم نوع في طريقة الأداء ووقته فقال: ﴿إِنْ بُدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾، وقال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِالْإِتِلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

ولا شك أن صدقة السرّ أولى من حيث المبدأ فهي أصلح للفقير وأبعد عن الرياء، لكن الإنفاق في المشاريع العامة قد يقتضي المنافسة وتشجيع الضعيف المتردد، بتقديم النموذج

الواضح والقذوة الراقية، كما فعل سيدنا الصديق عليه السلام: (أَبَقَيْتُ لِمَنْ أَمَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) ^(١)، وكما فعل سيدنا عثمان رضي الله عنه، حتى أعلن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ» ^(٢).
 سابعاً: تحري الجهات الأولى بالصدقة: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾.

وقد جمع القرآن هنا ثلاث صفات: الفقر، ووجود الحاجة، وهذه أصل في استحقاق الصدقة، ثم أضاف صفة تشرح سبب الفقر، وهي الإحصار في سبيل الله، فهؤلاء قوم تعرضوا للأذى بسبب ثباتهم على دينهم وقد كان بإمكانهم أن يكسبوا وينافسوا أقرانهم في جمع المال لو تخلّوا عن رسالتهم.

ويلحق بهذا كل عامل للإسلام تفقّها أو دعوة أو جهاداً إن كان من أهل الفقر والحاجة. ثم أضاف صفة ثالثة تنم عن نبلهم، وطيب أصلهم، وورعهم، وتعففهم عن السؤال، وهؤلاء أجدر بالتنبّه لحالهم لصعوبة التعرّف على حاجتهم، وكذاك لمحل الأمانة فيهم؛ لأنهم لن يأخذوا ما يزيد عن حاجتهم، بخلاف الذين يجوبون الطرقات، ويطوفون على الناس، والله أعلم.

(١) جزء من حديث، وتماه: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ مَا أَنْ تَصَدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَا لِي عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَبَقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟». قُلْتُ: مِثْلَهُ، قَالَ: وَآتَى أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَبَقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟». قَالَ: أَبَقَيْتُ لِمَنْ أَمَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. قُلْتُ: لَا أَسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٢/٥٤) دَارُ الْفِكْرِ، تَحْ مُحَمَّدٌ مَحْبِي الدِّينَ عَبْدِ الْحَمِيدِ، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ» (٥/٦١٤) دَارُ إِحْيَاءِ التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ، تَحْ أَحْمَدُ شَاكِرٌ، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) جزء من حديث، وتماه: عن عبد الرحمن بن سُمُرَةَ قَالَ: جَاءَ عُثْمَانُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَلْفِ دِينَارٍ، قَالَ الْحَسَنُ بْنُ وَاقِعٍ: وَكَانَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ كِتَابِي: فِي كُفِّهِ حِينَ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ، فَيُسْرُهَا فِي حَجَرِهِ. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَلِّبُهَا فِي حَجَرِهِ وَيَقُولُ: «مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ» مَرَّتَيْنِ، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ (٥/٦٢٦) دَارُ إِحْيَاءِ التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ، تَحْ أَحْمَدُ شَاكِرٌ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (٣/١١٠) دَارُ الْمَعْرِفَةِ، بِإِشْرَافِ د. يَوْسُفِ الْمَرْعَشَلِيِّ، مَصَوَّرَةٌ عَنِ الطَّبَعَةِ الْهِنْدِيَّةِ.

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ دلالة على كثرة الثواب ومضاعفته، وإشارة النماء والرخاء في كل مجتمع متكافل متراحم.

﴿ثُمَّ لَا يُلَبِّسُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ هو من عطف العام على الخاص؛ إذ المن من الأذى، لكنه أقرب أنواع الأذى وأكثره ممارسة ولذلك بدأ به.

﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ هذه نتيجة الإنفاق المقترن بالرياء والمن والأذى، دلالته بطلان الأجر، وإشارته بطلان ما يرجوه من السمعة والموقع الاجتماعي؛ فالناس لا يحبون المنان ولو أعطاهم ما يريدون، ولو جاؤوه حاجة واضطراراً فسينفضون عنه بتغير الحال عنده أو عندهم.

﴿وَلَسْتُمْ بِأَخِيذِهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ فيه توبيخ لمن يقصد الخبيث من ماله فيدفعه زكاة أو صدقة، والمعنى: أنك لا ترضاه لنفسك لو أذاه أحد لك من حقك الذي في ذمته، إلا أن تتغافل عنه كراهية له، فكيف تُقدِّمه لله وأنت ترجو ثوابه ومغفرته؟!

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ هو إتمام لتوبيخ من قصد الخبيث في صدقته، والمعنى: كيف تقدِّمون أخبث ما عندكم لله، وهو الغنيُّ المُستحقُّ للحمد والثناء، وهو الذي رزقكم ومكنكم في ما عندكم؟!

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ إشارة لصلة الفقر بالفحشاء، فإذا كان الخوف من الفقر مدعاة للشح والقطيعة، فكيف به إذا كان واقعاً؟ وهذا مظهرٌ مرئيٌّ ومحسوسٌ من مظاهر المجتمعات البشريّة، فالمجتمع الأكثر فقراً هو الأكثر جريمة والأجرأ على الرشوة والفساد والقتل والسرقة وأنواع الموبقات والدناءات.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ إشارة إلى أن المجتمع المتعلّم والواعي يكون أهلاً للنهوض وتجاوز حالات الإخفاق والفقر والتخلف؛

فالخير الكثير مرتبط بالحكمة، ومفهوم المخالفة أن الجهل سبب للفقر والشر، ومجيء هذه الآية وسط الحديث عن الإنفاق يؤكد هذه الإشارة، والله أعلم.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿ إشارة إلى أن الذي لا يتصدق ولا يُنفق هو من الظالمين، وفي الآية تهديد لا يخفى لهؤلاء، والله أعلم.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ الهداية هنا هداية التوفيق، وليست هداية الإرشاد والتوجيه، فالأولى لله وحده، والثانية من وظائف الرسل وأتباعهم إلى يوم الدين، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتِّمَاعِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ إشارة لاستمرار عمل الخير وسعة أبواب الصدقة، فهي لا تنقطع بأداء الزكاة، بل هناك حقوق أخرى، وأبواب من النوافل لا تحصى، والسعيد من فهم هذا ووفقه الله لاغتنامه ومنافسة الصالحين فيه.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إشارة إلى أن الكثير من الصدقة والمستمر على فعلها هو في مقام الولاية لله؛ لأن الله قال في أوليائه: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ
 مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ
 فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
 يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ
 مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ
 إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ
 مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَإِلَىٰ أَعْمَالِهِمْ لَمْ يَأْتِ
 كَاتِبٌ وَلَا يَمْدُلٌ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلِيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلِيَتَمَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ
 وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُمْلَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ
 وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ
 إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْب الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ
 ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ
 عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ
 وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنْ
 مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضٌ فليُؤَدِّ الَّذِي أُوْتِيَ ائْتَمَتَهُ وَلِيَتَمَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُبُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا
 فَإِنَّهُ ءِثْمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

يعرض القرآن الكريم في هذا المقطع جانباً من فقه العلاقات المالية التي تشيع في المجتمعات البشرية، والتي يكثر فيها الظلم والسُّحت وأكل حقوق الآخرين، وهي الصفات المقابلة للصفات التي قررها القرآن في المجتمع المسلم القائم على التكافل والتعاون والمحبة.

وإذا كان القرآن قد نهى بشدة عن المن والأذى في الصدقة، فإنَّ نهيه عن غمط الحقوق وأكل الحرام سيكون أكّد وأشدّ، كما أنّه سيعمد إلى وضع الأحكام والضوابط القادرة على منع هذا الظلم وحماية حقوق الناس، وكما يأتي:

أولاً: تحريم الربا، وقد ورد هذا التحريم بطريقة قاطعة وحاسمة لا تحتمل التأويل أو الاجتهاد، قال: ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾، وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾، وقد شنع على آكلي الربا تشنيعاً عظيماً: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾، ثمّ جمع له من الوعيد ما لم يجمعه في غيره فقال: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾، وقال: ﴿فَازِنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

وقبل كل ذلك وأشدّ منه قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وهذا الوعيد لا يناسب إلا الكافرين المشركين، وكأنّه جعل الربا علامة للكفر والشرك، وقد أكّد تعالى هذا بقوله: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ وبقوله: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ فأصبح ترك الربا علامة الإيثار، والعودة إليه علامة الكفر والعياذ بالله، وليس فوق هذا الوعيد من وعيد.

ثانياً: الربا ينافي العدل، وهو صورة من صور الظلم: ﴿وَإِنْ تُبْتَغُوا فَلََكُمْ رُدُّهُنَّ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

ثالثاً: في ثنايا الحديث عن الربا أخذ القرآن يُذكر بالإيمان والعمل الصالح وأداء الزكاة والصدقات، وهو هنا يضع الربا في مقابلة هذا كله، وهذا يعني أن القرآن يعدّ الربا معول هدم لكلّ تلك المعاني، فما يبيّنه الإيمان والعمل الصالح والتكافل الاجتماعي من معاني الخير، والرحمة، والمحبة في المجتمع يهدمه الربا.

وهذه حقيقة ينبغي الوقوف عندها طويلاً؛ فالقرآن لا ينظر إلى الربا من خلال حلقة الأخيرة، وهي أن طرفاً ما قد استطاع في ظرف ما أن يأكل مالا لا يستحقّه وإن كان برضا صاحب المال نفسه، فهذا لوحده قد لا يستحق كلّ هذا التشنيع وذلك الوعيد، فهو لا يتعدّى حالة الاختلاس أو السرقة من مال شخصي غير مُحَرَّز، أو حالة من حالات النصب والاحتيال، بل القرآن يتعامل مع الربا كنظام متكامل له فلسفته وعمقه المنافيان لمنهج الإسلام كلّهُ، ونظرته للحياة والمال والعلاقات الإنسانية العامة والأصول التي ينبغي أن تقوم عليها المجتمعات.

إنّ (النظام الربوي) ليس جريمة فردية، ولا نزوة أو شهوة طارئة، بل هو نظام متكامل، وهذا النظام لا يمكن له أن يلتقي مع الإسلام لا في منطلقاته ومبادئه ولا في آثاره وتداعياته.

أمّا الحالات الجزئية والمستجدّات المالية، والتي قد يختلف في تقديرها المجتهدون المعاصرون، فينبغي أن تُخرج من دائرة (التحريم القطعي للربا) وما يبيّن عليه من تشنيع ووعيد إلى دائرة (الاجتهاد الفقهي) القابل لتعدد الآراء والفتاوى بالضوابط الأصولية المعروفة، والله أعلم.

رابعاً: إباحة البيع: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ والبيع وإن جاء هنا في الصورة التي يزعم المرابون أنها شبيهة بالربا، لكنّ الظاهر إباحة البيع في كلّ صورته المعروفة في التبادلات المالية: بيعاً، وإجارة، وشركة، ومضاربة، وما إلى ذلك، فكل تبادل تجاري الأصل فيه الإباحة، والتحريم استثناء يحتاج إلى دليل.

خامسًا: إباحة الدين بكلِّ صورته وأشكاله، سواء أكان لسد فاقة كدَّين الفقير الذي يستدين لقضاء حاجاته في الأكل والملبس ونحوهما، أم كان دينًا للاستثمار والعمل التجاري، وهو عادة ما يكون بين الأغنياء، أو مع المؤسسات الماليَّة والشركات والبنوك، فالأصل في كل هذا الإباحة.

وفَرَّقَهُ عن البيع: أَنَّ البيع تَبَادُلٌ بِعَوَضٍ بقصد الزيادة والنماء ويَحْتَمِلُ الغَنَمَ والغُرْمَ، والدَّيْنُ قَرْضٌ واستيفاء بلا زيادة مشروطة ولا نقصان، ويلحق به: (دَيْنُ الأعيان)، وهو المسمَّى بالعارية، والله أعلم.

سادسًا: وضع الضوابط الكفيلة بحماية الحقوق، ومن ذلك:

- الأمر بكتابة الدين وتوثيقه: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَآكُتُبُوهُ وَلْيَكُتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ﴾ الآية، فهذه أوامر صريحة ومكررة تؤكد إلزام الطرفين بالكتابة، وإذا كانت الروايات عن السلف تفيد تساهلهم في الكتابة، فهذا يعود لفهمهم أَنَّ الكتابة ليست أمرًا تعبدِيًّا، بل هي وسيلة لحفظ الحقوق، فإن تيسَّرت وسيلة أخرى تتناسب مع عُرف المجتمع وحالته العامة ومنظومته القيمية فلا بأس.

أما الاستدلال بتلك الروايات على نفي الإلزام مطلقًا حتى في حالة عدم القدرة على حفظ الحقوق نتيجة لتغير العُرف واضطراب المنظومة القيمية وفساد الدَّمم، فهذا بعيدٌ عن روح التشريع وفحوى هذه الآيات المشددة على ضمان الحقوق وحمايتها، والله أعلم.

- أَنَّ الشهادة مطلوبة في التوثيق: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ﴾، وهذا تأكيد آخر على إلزامية الكتابة.

- أَنَّ الكتابة أقرب لتحقيق العدل وترسيخ الثقة: ﴿وَلَا تَسْمُؤْا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾.

- أن الاستثناء من الكتابة إنما هو في التجارة الحاضرة التي لا تتعلق بالذمم: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ ودلالة هذا على وجوب التوثيق في غير التجارة الحاضرة لا تخفى.

- تحريم كل تصرف يؤدى إلى تغيير الوثائق وتحريفها: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ قُضِيَ بَيْنَكُمْ﴾ ومثاله: الضغط على الكاتب أو الشهود ترغيباً أو ترهيباً، أو مبادرة الكاتب والشهود محاباةً لطرف دون آخر.

- تحريم كتمان الشهادة: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ فالشاهد يتحمل مسؤوليته كاملة في أداء شهادته مهما كانت الضغوط.

- في حالة عدم القدرة على الكتابة يوجهنا القرآن لصيغة أخرى، وهي: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً﴾ والرهان معمولٌ بها اليوم في كثير من البنوك التي تتعامل بالقرض؛ حيث تقوم برهن عقار ثابت للمدين وتمنعه من بيعه حتى تستوفي منه الدين.

وهذه التفريعات والاستثناءات والتفصيلات كلها تؤكد خطورة الدين وحرص الإسلام على حماية حقوق الناس، والعبرة إنما هي في تحقيق هذه الغاية وليست في تحديد الوسيلة التي قد تتغير صورتها وكيفية بحسب تطور المجتمعات وأدواتهم التوثيقية والتحصيلية، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ تشبيه يقصد منه التنفير وليس

القياس على صورة المشبه به، وهو مثل قوله: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصفات: ٦٥]، فرؤوس الشياطين لا نعلمها، وكذا حالة المس.

وأما ما يتناقله الناس من أحوالٍ للممّسوس فهي أخبارٌ بشريةٌ لا صلة لها بأمور الدين، فلك أن تصدّقها وأن تكذبها كأَيِّ خيرٍ دُنْيَوِيٍّ، فعالم الغيب لا يصح الجزم فيه بلا دليلٍ من الوحي، والناس الذين يعالجون الممسوس أو يخالطونه لا يطلعون على الغيب، وإنما يرون ظواهر مادية دُنْيَوِيَّةَ، وربط هذه الظواهر بالجن وعالم الغيب لا دليل عليه، والله أعلم.

وفي قوله: ﴿يَتَخَبَّطُهُ﴾ إشارة لحالة المراهي النفسية وتأثره بتخويف الشيطان له من الفقر وزوال الملك، فهو قلقٌ مضطربٌ متطلعٌ إلى ما في أيدي الناس بجشعٍ وطمعٍ وأنانيةٍ مفرطة، والله أعلم.

﴿يَمَحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَتِ﴾ وعيدٌ ووعد، والأصلُ فيهما يوم الجزاء، فالمتصدّق يرى صدقاته مُضَاعَفَةً فيسعد بها، والمُراهي يرى ماله قد زال عنه ولم يبقَ منه سوى الإثم والحسرة وذلك هو المحقّ المتيقّن.

أما في الدنيا فإنَّ الله يبارك في مال المتصدّق ويجعل له القبول بين الناس، بينما يعيش المراهي منبوذًا قلقًا شقيًّا زاد ماله أو قلّ، وليست الآية نصًّا في زوال الأموال الربويّة ومحقّ أعيانها كما توهم بعضهم.

والواقع: أن اليهود المراهين لا زالوا يمتلكون رؤوس الأموال ويحرّكون السياسات الخفية بنفوذهم المالي، والله أعلم.

﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ هذا أصلٌ في استيفاء الأموال المتعلقة بالذمة، سواء كانت بدين أو نفقة واجبة أو مهر مؤخّر أو استرجاعاً لزيادة ربويّة استحقتها المدين بعد توبة الدائن، وهذا الأخير هو الأوّل بالسياق، والله أعلم.

﴿وَلِيُمْلِلِ الَّذِينَ عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ أي: المدين، فالمدين هو الذي عليه أن يُملي صيغة التوثيق فهذا أتقى لله وأطيب لخاطر الدائن وأدعى لطمأنته وتعزيز الثقة معه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ تعليمُ الله هنا ليس متعلقًا بحصول التقوى كما يظنُّ

بعض الوُعَاظ؛ إذ الجملة الثانية لم تأت جوابًا للطلب، ولو كانت لاقتضى تغيير العبارة وجزم الفعل المضارع (يُعلمكم)، والصواب أنها جملة خبرية جديدة؛ فالله قد أوصانا بسلسلة من الوصايا والأوامر افتتحها بكتابة الدين واختتمها بفعل التقوى.

ثم عَقَّبَ على ذلك بأن هذا التعليم الذي سبق والذي يلحق كلُّه وحيٌّ من الله؛ تذكيرًا بالعهد، ودعوة للخضوع والاستسلام.

أما علاقة العلم بالتقوى فلا تَخْفَى على أحد والاستدلال عليها بغير هذه الآية كثير مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، والله أعلم.

﴿فَإِنْ آمَنَ بِبَعْضِكُمْ بَعْضًا فَلَْيُوَدِّ الَّذِي أُؤْتِنَ آمَنَتُهُ﴾ اختار بعض المفسرين أن هذه الآية ناسخة لآية الدين، والظاهر لا يساعدهم، فالنسخ لا يكون إلا عند تعذر الجمع بين النصين، والجمع هنا أظهر وأقرب، فإن كتابة الدين أو الرهان في حال تعذر الكتابة من شأنه أن يورث الطمأنينة.

فكأن القرآن يقول لنا: بعد حصول هذا التوثيق والاطمئنان لم يبق إلا الوفاء ﴿فَلَْيُوَدِّ الَّذِي أُؤْتِنَ آمَنَتُهُ﴾ ولذا عَقَّبَ بعد هذا النص مكرَّرًا ومؤكَّدًا: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ وليست الشهادة إلا على التوثيق، فكيف تكون الآية ناسخة لما قبلها وناسخة لخاتمها؟ ثم أين المعنى الذي يستحيل أو يصعب جمعه مع آية الكتابة؟

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحْسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

موجّهات ختامية

في خاتمة السورة الأطول في القرآن الكريم لحّص القرآن ما ينبغي على المسلم استذكاره وحفظه وجعله نصب عينيه أينما توجه، وكل هذا متّصل بموضوع السورة ومستوحى من آياتها:

أولاً: أَنَّ الله هو مالِكُ الملِك: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وهذا تذكير بأن استخلاف الأئمة البديلة هو كاستخلاف من قبلهم، استخلاف لا ينقل الملك عن مالِكه، فالملك لله وحده وإنما الناس مُستخلفون فيه ابتلاءً وامتحاناً، وقد غلب القرآن المبهّم في خلقه: ﴿مَا﴾ ولم يقل: (مَنْ)؛ تأكيداً للتعميم، ودخول كل مخلوق مهما كان في ملكه تعالى.

ثانياً: تحرير القصد، وإحضار النية الصالحة، وتنظيف القلب من الآثام الباطنة، فهذا كله

أساس السلوك والعمل الظاهر ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحْسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾.

ومن قال بنسخ هذه الآية إنّها قاله ظناً منه أنّ ما نُخفيه في أنفسنا إنّها هي الوسواس، وأنّ

هذا لا يتنزّه عنه أحد، ومن ثمّ فالله قد نسخه بآيات أخرى.

والحقيقة أنَّ الإثم الباطن لا يقتصر على الوسواس، فالنفاق والرياء والحقْد والحسد وسوء الظن والحبُّ والكراهة كلها أعمال باطنة، وقد يستطيع الناس كتمانها وإظهار ما يخالفها، وهؤلاء لا شك أنَّهم محاسبون عليها أظهرُوها أو كتموها، والله أعلم.

ثالثاً: التذكير بأركان الإيمان ومعانيه الكلية: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾.

رابعاً: اقتران الإيمان بالعمل: ﴿وَكَلَّوْا سَمْعَكُمْ وَأَطَعُوا﴾.

خامساً: استشعار التقصير، وطلب العفو والمغفرة والرحمة: ﴿عُفْرَانِكَ رَبَّنَا﴾، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، ﴿وَاَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ﴾ فالصحيح حملة على ما ينسجم مع عدل الله وحكمته، فالله يغفر لمن يطلب المغفرة إيماناً وعبوديةً ورفقاً، ويعذب من يتكبر على الاعتراف، ويصرُّ على المعصية عناداً واستخفافاً، والله أعلم.

سادساً: التكليف بقدر الاستطاعة: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ﴿وَلَا تُحِثُّنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ وهذا دعاء يُعلمه الله للمؤمنين، فهو دعاء مطلوب ومشروع، وقد قدَّم الله الاستجابة عليه، وفي هذا من دقائق اللطف ما لا يُدرِّكه إلا المتدبِّرون.

سابعاً: تحمُّل المسؤولية، فكل مكلفٍ مسؤولٌ عن سلوكه وتصرفاته ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾.

ثامناً: التمكين وتحقيق معاني الاستخلاف بدخُر الباطل، وظهور الحق: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

سُورَةُ الْعَمَّانِ

المجلس الثالث والعشرون: المحكم والمتشابه

المجلس الرابع والعشرون: التمايز بين أهل الحق وأهل الباطل

المجلس الخامس والعشرون: التجربة الإصلاحية الكبرى في تاريخ الأنبياء

المجلس السادس والعشرون: حوارات مع أهل الكتاب

المجلس السابع والعشرون: حقيقة العلاقة بين الرسالات السماوية

المجلس الثامن والعشرون: مقومات بناء الأمة الإسلامية

المجلس التاسع والعشرون: في الطريق إلى أحد

المجلس الثلاثون: بيان المعركة

المجلس الحادي والثلاثون: دروس المعركة

المجلس الثاني والثلاثون: الرد السريع

المجلس الثالث والثلاثون: العلاقة بأهل الكتاب

سُورَةُ الْعَمَّارَاتِ

﴿الْأَلَمْ ١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكَ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَةٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿٩﴾

المحكم والمتشابه

القرآن الكريم كله مُحْكَم؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُخْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: ١]، وهو أيضًا كله

مُتَشَابِه؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣].

والإحكام والتشابه وصفان متعاضان؛ إذ المحكم هو المتقن، والمتشابه هو الذي ليس

فيه اختلاف، فأيات القرآن كلها محكمة؛ ولذلك فهي متشابهة وليست متناقضة أو مختلفة.

في هذه السورة جاء وصف القرآن بالإحكام والتشابه بطريقة مختلفة؛ حيث وُصِفَتْ

بعض الآيات بالإحكام وبعضها الآخر بالتشابه ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ

مُتَشَابِهَاتٌ﴾.

وهذا استعمال مغاير لما ورد في الآيتين السابقتين بإضافة معنى دقيق للمحكم وآخر

للمتشابه، فالمحكم في هذه الآية هو المتقن مع إضافة كونه أصولاً للآيات الأخرى.

وأما المتشابه فهو المتماثل الذي ليس فيه اختلاف وتناقض مع إضافة كونه فروعاً للآيات

الأولى (المحكمات).

إن الكلمة المفتاحية لإدراك معنى هذه الآية هي: (أُمُّ الْكِتَابِ) فَأُمُّ الشَّيْءِ أَصْلُهُ؛ وعلى هذا فالقرآن فيه أصول، وفيه فروع، وكلُّ فرع متصل بأصل، وهذه المنظومة المتكاملة التي تضمُّ كلَّ آيات القرآن الكريم هي في غاية الإحكام والإتقان، وفي غاية التشابه والتماثل، فليس في القرآن آية واحدة تستعصي على الفهم، كيف؟ والله يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾^١، ويقول: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، ويقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢].

فالقرآن كله ميسر للذكر، وكلُّه نور مبين، وكلُّه واجب التدبُّر من غير استثناء، كلُّ هذا لمن أراد الوصول إلى الحقِّ، وكان صادقاً مع نفسه في سلوك المنهج السليم لمعرفة مراد الله في بيانه للمحكمات والمتشابهات، فيبدأ بفهم أصول القرآن ومبادئه وأحكامه الكلية، ثم يأتي بعد ذلك إلى الفروع فيربطها بأصولها ويفهمها بما يتسق مع تلك المبادئ والقواعد. أما المكابر المعاند فإنه سيقطع الآيات ويفصل الفروع منها عن أصولها ليتاح له حرف اللفظ عن سياقه إلى معنى قد تحتمله اللغة في أصلها لكن السياق لا يحتمله، وهذا إنما يكون في كلِّ لفظٍ يحتمل أكثر من معنى، وهؤلاء هم المقصودون بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾^٢ فهم يهتمون بالفروع دون الأصول، وهذا الفصل ليس عن جهل وغفلة بل بقصد الفتنة وحرف المعنى عن سياقه.

إنَّه لو كان في القرآن آيات تستعصي على الفهم أو لا يجوز تتبعها وتفسيرها - كما يظنُّ بعضهم - لكان من اللازم بيان الشارع لهذه الآيات، حتى لا يقع الناس في الإثم، ولكان الاستثناء مطلوباً من عموم التدبُّر، ومن عموم وصف القرآن أنه هدى وبيان، وفرقان ونور مبين.

ومن الغريب قولٌ من يقول: إن التشابه الذي لا يعلمه إلا الله هو أحد وجوه الإعجاز، كأنه يُسمِّي عجز الناس عن فهم القول إعجازاً، ولو كان كذلك لكان قول العاجز عن

(١) تَكَرَّرَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِي سُورَةِ الْقَمَرِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠.

البيان معجزاً، وهو أمر متيسر للجميع، فباستطاعة كل واحد أن يُركّب من الحروف والكلمات ما يتعدّر فهمه.

أما قول بعض السلف في التحذير من التشابه، فإنما المقصود غير التدبّر الذي هو واجب المكلف، كأن يتكلّف في البحث عن الكيفيّات والهيئات التي لا يمكن إدراكها باللفظ المجرّد؛ إذ اللفظ يستدعي الصورة الموجودة أصلاً في الذهن بحسّ أو مشاهدة.

فحين تسمع مثلاً كلمة (رجل)، أو (امرأة)، أو (شمس)، أو (قمر)، فإنك تستدعي المعنى المخزون في ذاكرتك، أما حينما تسمع لفظاً ليس له صورة مسبقة في الذهن، فإنه يستحيل عليك تصوّر المعنى بالحقيقة التي أرادها المتكلم، ليس لنقص في فصاحته، بل لنقص في سابق معرفتك.

ومثل هذا في القرآن قوله تعالى: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]، فشبه المجهول بالنسبة لنا وهو الطلع بمجهول آخر وهو رؤوس الشياطين، ولا ريب أن الوصول إلى كُنه الطلع أو الرؤوس متعذّر.

بيد أن مقصود النصّ ليس في تمييز هذا الطلع عن غيره ولا تحصيل صورة الشياطين كما هي، بل المقصود التنفير من جهنّم وما فيها من أهوال، وهذا المقصود حاصل، والعبارة الحاملة له عبارة فصيحة بليغة بيّنة.

ولا شك أن السلف كانوا يدركون هذا المقصود، وإنما توقفوا عن بحث الصورة والكيفيّة، وهذا هو الحقّ الذي لا غُبار عليه، ومن هنا نفهم أيضاً أن من اختار الوقف على ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ كان مغزاه أن هذه الغيبيّات لا يُدرِكُها على حقيقتها ومآلها إلا الله وحده.

وأما الراسخون فلهم مقام آخر في المعرفة يُدِينُهُم من الإيمان والهدى ومعرفة المقصود العملي من الخبر، وإن قصرُوا بطبعهم البشري عن إدراك الكُنه والهيئة والكيفيّة على ما هي عليه في عالم الغيب، وهذا نهج الراسخين بحكم رسوخهم في العلم ومعرفتهم بمحدوديّة الأدوات المعرفيّة عندهم، أما الزائغون فهم الذين يبحثون في كلّ ما يؤدّي إلى الضلال

والجدل الباطل المفضي إلى تعطيل المحكمات.

وربما يتَّضح المقال بالمثال، فهذا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ﴾ [الزخرف: ٤٤]، فإن وصلتها بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ۖ﴾ [سبأ: ٢٨]، دخل القوم في مسئى الناس بالضرورة، فقوم النبي ﷺ - وهم العرب - جزءٌ من الناس، والرسالة تشملهم مع الناس ولا تخصُّهم، وإن قطعتها كانت الرسالة للنبي وقومه خاصة، وهذا من الفتنة والزيغ بلا رب.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] فإن وصلتها بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، كان المعنى: إعلان التمايز في العقيدة والهوية مع وجوب الدعوة والإصلاح، وإن قطعتها كان المعنى: الانعزال عن الناس وتكريس السلبية عند المسلمين.


إنَّ التوحيد والنبوة والعدل وحسن الخلق والعمل الصالح والدعوة إلى الله والرحمة بالخلق ونحو هذا هي أصول الإسلام، وهي أمّهات القرآن ومحكماته، وكلُّ حكمٍ فرعي لابد أن يأتي متسقاً مع هذه الأصول، فإن خالفها فاعلم أن هناك مشكلة في الفهم والاستنباط وليس في أصل الحكم، وهذا هو معنى قول العلماء: إنما يُعرفُ المشابه برده إلى المحكم، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿الْعَر﴾ تقدّم تفسيره في سورة البقرة.

﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ تأكيد وحدة الرسالات السماوية، وأنها جميعاً من الله وحده، وأن الإيمان بها كلها واجب ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤].

﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ تمهيدٌ احترازيٌّ لما قد يرد من فهمٍ خاطئٍ عند الحديث عن المتشابهات.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾  هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ تمهيدٌ آخر فيه تحذير ووعيد خفيٌّ للذين في قلوبهم زيغ، الذين يُخْفُونَ مآربهم الأخرى ويتظاهرون بالتدقيق العلمي والعمق الفكري، لكنّه تدقيق في كلّ ما يحتمله اللفظ بعيدًا عن السياق، وعمق في البحث عن التأويلات الفاسدة المخالفة لأصول الإسلام ومبادئه القاطعات الواضحات.

﴿أَبْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَأَبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ أما الفتنة فهي الكفر بآيات الله وما يقربُ إليه من لبس الحقِّ بالباطل، وإثارة الفوضى الفكرية بالعدول عن المنهج العلميِّ الصحيح، وأما التأويل فالمقصود به هنا صرف اللفظ القرآني عن سياقه العام وفهمه فهما ينحرف به عن مُحْكَمَات القرآن وأصوله الثابتات.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ التأويل هنا ممدوحٌ، بخلاف الأول؛ إذ معناه هنا: العلم بالمعنى الحق الذي أراده الله في آياته، فلا شك أن الله أعلم بما يريد، وهذا العلم المتعلق بالآيات لم يستأثر الله به، بل بيّنه غايةً البيان فجعل القرآن كله نورًا وهدًى للناس. وهذه المشاكلة واردة في القرآن وفي السنة كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقوله ﷺ في الحديث القدسي فيما يرويه عن ربّه: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنِّي أَنَا الدَّهْرُ»^(١)، فالاعتداء الثاني غير الاعتداء الأول.

ومعنى الدهر الذي وصفَ الله به نفسه غير معناه عند أولئك الذين يسبُّون الدهر؛ وعلى هذا يكون معنى الآية: إن هؤلاء الزائغين يدعون تأويل القرآن، وهم إنما يَبْغُونَ الفتنة

(١) رواه هذا اللفظ: مسلم في «صحيحه» (٤/ ١٧٦٢ / دار الجليل) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وروي بألفاظ أخرى.

والزيف والانحراف، أما التأويل الحق فهو الذي يعلمه الله في كتابه، وقد بيّنه للناس غاية البيان، وهو بخلاف ما أراده أولئك الزائغون.

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ الرسوخ هو التمكن والثبات وعمق البصيرة، وهذا هو طريق الفهم ومعرفة الحق، وقد جاء الاشتراك في مسمى العلم بين علم الله ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ وعلم الراسخين؛ إيداناً بأن علم الله الذي أودعه في كتابه هو متيسر لمن طلبه من أهل العلم، وإشارة إلى أن الزائعين لم يسلكوا طريق العلم ولم يرسخوا فيه؛ ولذلك ضلّوا وأضلّوا.

﴿ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ إشارة أن العلم الراسخ يقود للإيمان بخلاف الجهل، وأن العلماء أولى بالإيمان من غيرهم وبقية الناس لهم تبع، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فالعالم أولى بالخشية وإن كانت الخشية مطلوبة من العالم وغيره.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ الهداية هي العلم النافع، وهي عكس الزيف، وهنا تعريض لا يخفى بأولئك الزائعين الذين يتبعون ما تشابه من القرآن بعيداً عن محكماته ابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل الباطل.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وعيد آخر للزائعين ختم به كما مهّد به، والله أعلم.

سُورَةُ الْعَمْرَانِ

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُنْفِكَ عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۝١٠﴾ كَذَابٌ عَالِي فَهْمُونَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَهَابٌ مُمْسِكٌ وَلَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَهَادُ ۝١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ اللَّتَانِ فِتْنَةٌ تَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصِيرَتَهُ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَعِزَّةٌ لِأُولِي الْأَبْصَارِ ۝١٣﴾ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِئْصَةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ۝١٤﴾ قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِحَيْثُ بَدَأْتُكُمْ لِلَّذِينَ آتَقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْرَسْنَا دُخَانًا وَقَنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١٦﴾ الصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقَاتِ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ۝١٧﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأَسْلَمُوا وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْفُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَقِيَّتًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ إِلَهَهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أَوْفُوا الْكِتَابَ وَالْأُمَمِينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝٢١﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْفُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فِرْقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ۝٢٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً وَعَرَّهَمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ۝٢٣﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٤﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلَائِكَةِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلَائِكَةَ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِإِذْنِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٥﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢٦﴾ لَا يَتَّبِعُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَخَفُوا مِنْهُمْ تَقَةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۝٢٧﴾ قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْشِرُوكُمْ بِعِلْمِ اللَّهِ وَتَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٨﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخْتَصَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ۝٢٩﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٣٠﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ۝٣١﴾ إِنَّ اللَّهَ أَسْطَفَىٰ مَادَمَ وَتَوَخَّاهُ آلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝٣٢﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٣٣﴾

التمايز بين أهل الحق وأهل الباطل

إن القضية المحورية التي يتناولها هذا المقطع إنما هي الصراع المستمر بين أهل الحق وأهل الباطل، وقد عرض القرآن الكريم في هذا المقطع معالم واضحة لهذا الصراع وطبيعته ومآلاته مما لا غنى عنه لكل جيل من أجيال المؤمنين، وفي كل حلقة من حلقات هذا الصراع.

أولاً: فيصل التفرقة بين الفريقين إنما هو الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾.

ثانياً: يتميز المؤمنون بكل عمل صالح ونافع للبشرية ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾.

ثالثاً: يقابل أولئك المؤمنين الكافرون ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بَغْيٍ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

رابعاً: ينتمي المؤمنون إلى عمق تاريخي يضم خيرة البشر في كل جيل ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وهذا الانتماء إنما هو انتماء للحق أينما كان زماناً ومكاناً وحالاً، بغض النظر عن الانتماءات الثانوية والجانبية، كالانتماء للنسب والأرض واللون والطبقة الاجتماعية.

خامساً: والكافرون أيضاً لهم سندهم التاريخي، ولهم أسلافهم في الكفر والظلم والضلال ﴿كَذَّابٌ آءَالٍ فِرْعَوْنُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

سادساً: وبين الفريقين تمايز في الفكر وصراع حتمي على الأرض ﴿فِيئَةُ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾، ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾.

سابعًا: وأن الدافع للتمسك بالباطل والتقاعس عن نصره الحق إنما هو شهوة الدنيا ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ ذلك متعمد الحيوَّة الدُّنيا، أما دافع المؤمنين وحاديهم إلى البذل والتضحية فإنما هو الرضوان من الله والجنة ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾.

دقائق التفسير

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ﴾ ليس هذا قانونًا لازمًا لكل كافر، وإنما هو خبرٌ مخصوصٌ بزمانه ومكانه وأشخاصه بعد توفر مستلزمات النصر والتمكين للأمة المسلمة، أما بفقدائها فإنَّ سُنن الله في انتصار القوي الآخذ بالأسباب وإن كان كافرًا لن تتخلف، ومثاله: ضياع الأندلس وخروج المسلمين منها، وكذا ضياع فلسطين والكثير من بلاد المسلمين مع أن الطرف المتغلب لا شك في كفره.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ أسند الفعل لمجهول؛ لتسيع العبارة لأكثر من فاعل، ولأكثر من غرض، فالله ركب في الناس هذه الشهوة وجعلها أصلًا في جوهر الإنسان وخلقته؛ امتحانًا لهم، ودفعًا لإعمار الأرض والمنافسة فيها، والشيطان يُزَيِّن هذه الشهوات بطريقة أخرى ليدفعهم نحو الفساد وارتكاب المحرمات، وأهل الباطل يقدمون هذه الشهوات إغراءً للناس، وطلبًا لودَّهم وتأيدهم.

ولأن هذه الشهوات ليست شرًا محضًا، بل هي بحسب التزيين والمزينة له، جاء تعقيب القرآن: ﴿قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ﴾ فالخير موجودٌ في هذه الشهوات، وهو مُتمتِّجٌ بالشر، أما خيرُ الآخرة فهو خيرٌ خالصٌ ليس فيه من دخن الباطل شيء.

﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ إشارة إلى أن العدل لا يكون بغير العلم، فمن ولي من أمور

الناس شيئاً وهو جاهل فقد وقع في الظلم لا محالة.

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِيكَ أَتُؤْثَرُ الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ وهذا نوع آخر من الظلم لا يكون بسبب الجهل، وإنما بسبب البغي، وهو الشهوة الداخلية للتجاوز على حقوق الآخرين مع سابق علمه وتقصده.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ إشارة إلى أن الداعية لا يُكَلَّف بتغيير قلوب الناس، ولا يُحاسب على النتائج، فمهمته البلاغ لا غير، وهنا زلت الأقدام في تصوّرين خاطئين: مَنْ جعل هذا ذريعةً للغلظة في البلاغ، وهذا مُنافٍ لقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وهناك من ظنَّ أن المسلم لا يُحاسب على نتائج تصرفاته في السياسات والإدارات قياساً على مسألة التبليغ، وهذا مُنافٍ لكلِّ مبادئ العدل وقواعد الشرع، فالجاهل في الصنعة ضامن ومحاسب حتى في الطبخ والخياطة ودقائق الأعمال والوظائف، فكيف بمصير الأمم والجماعات وما يتعلق بها من دماء وأموال وجهود؟

وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»، والمسؤولية لا تنحصر في حسن النية، بل هي أوسع وأكبر من ذلك.

﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ نسب كل ذلك لمشيئته المطلقة سبحانه من غير تحديد للجهة التي تقع عليها هذه المشيئة؛ لكي لا يظنَّ ظانُّ أنه بانتسابه لهذا الدين قد ضَمِنَ الملك والعزة، فسُنن الله غَلَّابةً، وهي لا تُحايي ولا تُجاري أحداً، وإطلاق المشيئة ليس معناه الفوضى - حاشا لله -، وإنما هي السنن الإلهية

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ينظر: صحيح البخاري (٥ / ١٩٩٦ / دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (٣ / ١٤٥٩ / دار الجليل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

والنظام الكوني الذي أودعه الله في هذا الكون، والذي لا يتخلف أبداً إلا ما شاء الله تعالى.

﴿إِلَّا أَنْ تَكْفُوا مِنْهُمْ نَفَةً﴾ هذا استثناء من وجوب التمايز عن أهل الباطل، أباح الله فيه موافقتهم ظاهراً اتقاء لشرهم، ولهذا الاستثناء ضوابط معروفة في مظانها، فليس كل إكراه يسوغ الحرام، فالإكراه على القتل، أو انتهاك العرض، أو معاونة العدو بكشف عورات المسلمين ونقل أخبارهم، كل هذا ونحوه لا يدخل في الاستثناء؛ إذ الاستثناء جاء لدفع الضرر، والضرر المتوقع هنا أشد، فيعود الحكم إلى الأصل، والله أعلم.

﴿قُلْ إِنْ تَخْشَوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ يُبْدَوْهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ هذه تتمّة للاستثناء، فالاستثناء الوارد لا يُعفي المسلم من مراقبة نفسه وتنقية نيته، ومقتضى التّمّة هذه أن موافقة الباطل ينبغي أن لا تكون برغبة ورضا نفسي، ولا تكون ذريعة للتقرب من أهل الباطل طمعاً بما عندهم من مالٍ وجاهٍ، بل هي ضرورة، والضرورة إنما تُقدّر بقدرها.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ دلالة أن العلاقة بين العبد وربّه ليست علاقة الطاعة المجردة، والعبودية النابعة من خضوع الضعيف للقوي، كما ينحضع العبيد لأسيادهم، والجنود لقادتهم، بل هي علاقة قائمة على المحبة، وما العبادة إلا وسيلة للربط بين المحبتين: محبة العبد لربه، ومحبة الرب لعبده، فالعبد يحبُّ الله فيهرع للصلاة؛ لأنّها صلته بمحبوبه، والله يقبلُ على عبده في الصلاة فيسمع له، ويستجيب دُعاءه، وهذه العبادة لا تصح إلا باتباع رسول الله ﷺ؛ إذ هو المبلغ عن الله، فطاعته إنما هي طاعة الله، وهكذا يكون اتباع النبي ﷺ واسطة العقد بين المحبتين.

سُورَةُ الْعَمْرَانِ

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا
 أَنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا
 رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُكَ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا
 قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ
 الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ
 الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ
 اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّعْشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ
 الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُكَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرُؤُكَ أَفْنَىٰ لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَآزْكِي مَعَ
 الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمْ أَنْهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ
 يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُكَ إِنَّ اللَّهَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنْ
 الْمَعْرُوبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ
 يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي
 إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ
 الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ
 ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَجَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ
 وَأَطِيعُوايَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴿ فَلَمَّا أَحْسَسَ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى
 اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ ﴾ (٥٢) رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَرْسَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ
 فَاكْتُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ
 إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ
 فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ

دعوة الأنبياء ﷺ كلها إصلاحية بالمعنى العام للإصلاح ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، بيد أن رسالة نبي الله عيسى ﷺ كانت تهدف للإصلاح بمعناه الخاص، وهو: إعادة صياغة الرسالة الموسوية بما يتناسب مع تطور الحياة ومستجداتها، ثم معالجة الأخطاء المتراكمة في سلوك بني إسرائيل وهم المؤمنون على حمل الرسالة وتحقيق معنى الاستخلاف على هذه الأرض، وقد ضم هذا المقطع قواعد الإصلاح ومعاله الكلية، وهي:

أولاً: التربية الأسرية؛ حيث استهل القرآن قصة الإصلاح هذه بقوله: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ فالإصلاح إنما يبدأ من رحم الأمهات، فأم مريم لم تنتظر وليدها لكي تبحث في مصيره وما يصلح له، بل عقدت العزم والنية الصادقة على اختيار الطريق الأقوم لوليدها قبل أن يُولد، وهذا العزم المبكر لا شك أنه اقترن بمستوى عالٍ من الورع؛ بحيث لا يمكن معه أن تُدخل في جوفها شيئاً من الحرام؛ ولذلك كافأها الله تعالى بقوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾.

وفي الإنبات الحسن من معاني الرعاية والحماية ما لا يخفى، وكان من ذلك أن سخر لها نبياً من الأنبياء ليقوم بكفالتها والعناية بها، ولم يغفل القرآن هنا الجانب الجسدي في التربية ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ وفي هذا إشارة إلى اهتمام القرآن بتوفير الغذاء المناسب للجسد خاصة في مرحلة النمو.

وهكذا تكون التربية القرآنية تربية شاملة ومتوازنة لا يطغى فيها جانب على جانب، وقد كان هذا النموذج الصالح المكلل بالرعاية الإلهية مشجعاً لتكرار التجربة، وهكذا ينتقل الخير ويتشعّر ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.

فكان الجواب: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا
بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

ثانيًا: التراحم والتكافل الاجتماعي والذي وصل إلى حد المنافسة الحادة والمخاصمة!
﴿إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

ثالثًا: في تلك البيئة الصالحة ولد النبي الصالح المصلح ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ
يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وهذه إشارة بأهمية البيئة في التنشئة والتربية،
ودور الأسرة ثم المجتمع في تكوين المخرجات الصالحة، مع التنبيه على أن النبوة اصطفاء
ربّاني خالص، ولكن هذا الاصطفاء يأتي متناغمًا دائمًا مع الإنبات الحسن، والإعداد السليم،
فكلُّ نبيٍّ إنما كان من أوسط قومه وخيارهم.

رابعًا: العلم شرط الإصلاح ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ وعبثًا
تحاول الجماعات الإصلاحية أن تستند في اختيار قياداتها إلى آلية التصويت والانتخاب دون
اشتراط المؤهلات المعرفية والعلمية في المرشّح، فالقيادة علم، والشورى علم، وتحجيم دور
العلم لصالح حرية الاختيار المجردة أضّر كثيرًا بالتجارب الإصلاحية المعاصرة.

خامسًا: التوازن الديني الدنيوي ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ
وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ والوجاهة إنما تكون بالعمل الناجح والمثمر والمراعاة
الدقيقة لشروط الحياة السليمة والعلاقات المتوازنة مع مفرداتها الواسعة والمتنوعة في الذات
والأسرة والمجتمع، في السياسة والاقتصاد والقوة والمنعة .. الخ.

سادسًا: الرحمة بالخلق والتيسير على الناس ﴿وَلَا جُدْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.
﴿وَأُزْهِتِ الْأَكْمَامُ وَالْأَبْرَصَ﴾.

سابعًا: البناء التراكمي والاعتراف بحلقات الدعوة والإصلاح السابقة ﴿وَمُصَرِّقًا لِّمَا
بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ فدعوة الأنبياء واحدة، ومصدرهم واحد، وهكذا كلُّ داعية

وهو تفاوت وظيفي؛ فللذكر دوره في هذه الحياة، وللأنثى دورها، والتفاوت سمة في هذا الخلق وأحد مقومات وجوده واستمرار الحياة فيه، والله أعلم.

﴿أَعِذُّهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾ تأكيد لحرص الأم الصالحة ليس على أولادها فقط؛ بل وذرياتهم بإطلاق ومن دون تحديد؛ ليشمل كل جيل آتٍ إلى يوم الدين، وهذه رغبة تعبّر عن قلب موصول بالله واليوم الآخر، ومملوء بمحبة الخير لكل الناس.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ وهذا من تداخل القدر الإلهي بالفعل البشري؛ حيث ذكر القرآن فيما بعد أنهم تخاصموا واقتربوا في كفالتها حتى خرج سهم زكريا، فتحصّل هنا صورتان: صورة الخلق وهم يتنافسون ويقترعون، وصورة القدر المحتوم باختيار زكريا، والصورتان ممزوجتان لا تنفك إحداها عن الأخرى، وهذا كثير في القرآن، ومثله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكَرَّ اللَّهُ رَمِيًّا﴾ [الأنفال: ١٧]، والله أعلم.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ إشارة لصلاحها وكثرة تعبّدها، فوجودها المتكرر في المحراب لا يحمل إلا هذا، وأما الرزق فهو من الله سواء كان بواسطة أو بغير واسطة.

وسؤال زكريا لها فيه استغراب، وهو ما يشير إلى ما نقله بعض أهل التفسير من وجود الطعام عندها في غير أوانه المعهود، ولا يمنع أيضًا أن يكون بعض هذا الطعام من النفر الذين كانوا حريصين على كفالتها، ويكون سؤال زكريا عن المصدر احتفاظًا بفضله، واطمئنًا على مكفولته، وكل ذلك يصدّق فيه قولها: ﴿رَزَقُكَ مِنْ إِشَاءٍ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، والله أعلم.

﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ شهادة للكفيل، كما شهد للمكفولة بحسن التبذل وطول التعبد، وفيه إشارة أن ذلك التبذل والتعبّد مظنة استجابة الدعاء، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِغُيُوبٍ مُّصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أما الكلمة فهي إشارة لمجيء عيسى عليه السلام، وهما من عائلة واحدة؛ فيحيى ابن الكفيل، وعيسى ابن المكفولة، والسيد: الشريف في قومه المتقدم عليهم بكل خصال الخير والريادة.

وأما الحضور فالسياق للمدح، وما ذكره بعض المفسرين من منعه خلقه عن مقاربة النساء ليس فيه مدح، والأظهر أنه محفوظ من الوقوع بما يخالف مقام النبوة والسيادة، فليس في اللفظة دلالة على غير الحفظ والصيانة، والله أعلم.

﴿قَالَ أَيْتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَادَّكُرَ رَبُّكَ كَثِيرًا﴾ لقد طلب زكريا آية من ربه على قرب تحقق ما وعده الله به من رزقه بيحيى بعد أن شاخ وكبر، فكانت العلامة بانقطاعه عن كلام الناس وتفرغه لذكر الله ثلاثة أيام تامة ومتوالية، والانقطاع لا يكون علامة إلا بسلب قدرته على الكلام، وهي خارقة أيضا.

وفيها إشارة أن التوجه إلى الله وحده والتوكل عليه والثقة به مظنة استجابة الدعاء، ولا بأس بالتفرغ لذلك لبعض الوقت، كما هي سنة النبيين في الاعتكاف، والله أعلم.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ الظاهر أن الملائكة كلّموها شفاها، وهذا هو الأصل، وتأويله بالإلهام أو المنام تحرّزا عن القول بنبوة النساء لا يخلو من التكلف، ولا أعلم نصّا صريحا في المنع يقتضي هذا التأويل خاصّة عند من يفرّق بين معنى النبي ومعنى الرسول، فيرى التبليغ لازما للرسالة دون النبوة، فهذا التفريق متنفس قوي لمن يقول بنبوة المرأة؛ إذ لم يرد اختصاص الرجال إلا بالرسالة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ [يوسف: ١٠٩]، والله أعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الكلمة هي الأمر الإلهي بخلق عيسى من دون مباشرة الأسباب المعهودة، فعيسى هو كلمة الله، أي: أنه كان بكلمة الله وليس هو الكلمة، وقدّم الكلمة على الاسم؛ لما فيها من تنزيه مريم وتقديم براءتها على

بشارتها، وهذا هو الأول بكل امرأة صالحة، فكيف بمريم؟ والبشارة لها تقتضي أنه ابنها، ثم نسبه إليها صراحة تشريفاً وتكريماً لها.

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ التكليم في المهد على غير المعهود معجزة له وكرامة لأُمّه؛ لأنه الدليل على براءتها، وتكليمه كهلاً هو التبليغ برسالة الله، وخصّهما بالذكر لأهميتهما وعظم قدرهما، وإلا فهو قادرٌ على الكلام في كل أيّامه ومراحل عمره كسائر الناس.

﴿وَعَلَّمَهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ عطف التوراة والإنجيل على الكتاب والحكمة يحتمل أنه من إضافة الخاص على العام، فالله قد أعطى عيسى ﷺ العلم بما هو مكتوب من علوم الأولين، ثم أعطاه القدرة على الاختيار، وتمييز الصحيح من السقيم، ثم علّمه التوراة، وأوحى إليه بالإنجيل.

﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ دلالة على خصوصية الرسالة المسيحية في بني إسرائيل، وما طرأ من تعميم الرسالة إنما أحدثه بعض المنتسبين إليه، وفي رسائل بولص تصريح بهذا، وهو من جملة التحريفات التي تعرّضت لها الرسالة.

﴿إِنِّي أَخَلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الخالق هو الله، ونسبة الفعل إلى عيسى ﷺ من باب نسبة الحدث إلى سببه، كما تقول: هذا الدواء يشفي، وهذا القارب ينجي، واختصاصه بهذا السبب على خلاف العادة هو المعجزات الخاصة بالنبين وقد تقدّم مثله في سورة البقرة عن إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وقوله: ﴿يَأْتِيهِمْ مِنْ رَبِّكَمُ﴾، و﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فيه تأكيد لجانب التوحيد وتبرئة السيد المسيح من صفات الألوهية التي يلصقها به النصارى ظلماً وكفراً.

﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ دليل أن دين الله واحد، فحواريو عيسى وأصحاب محمد وكل متّبع لنبي هم أمة واحدة، ويتنسبون إلى دين واحد مهما اختلفت أجناسهم وأزمانهم.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الأصل في التوفي عند إطلاقه الموت، وهو الشائع عند العرب والمعروف في لغتهم بحيث لا تنصرف الأفهام إلا إليه بادي الأمر، وإنما تأوَّله هنا من تأوَّله بالنوم والوفاء وغيرهما من التأويلات؛ لورود الأخبار الصحيحة بنزوله ﷺ في آخر الزمان، فصار الناس إلى واحدٍ من التأويلين؛ إما تأويل الوفاة، وإما تأويل النزول، والأولى الجمع بينهما من غير تأويل، فالله ذكر أنه يتوفاه ويرفعه ويطهره، فهذه أفعال عطفَت بالواو، والواو يقتضي العطف ولا يقتضي الترتيب. وربما قدَّم التوفي دفعا لتوهم الاستثناء بالخلود، وتقريرًا للحقيقة التي يخضع لها الخلق كافة، فبدأ بها ثم عرَّج على ما خصَّه الله به من رفعه إلى السماء وهو حيٌّ، وبقائه فيها إلى يوم أن يبعثه الله إلى الأرض، كما أخبر رسولنا الصادق المصدوق عليه وعلى سائر النبيين الصلاة والتسليم^(١).

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ ذكرهم بوصف الاتباع وليس بالجنس واللون والانتساب المجرد، فالأنبياء ليسوا أبطالاً قوميين أو وطنيين، بل هم حملة رسالة، من اتبعها كان معهم، ومن حاد عنها كان في الخندق الآخر، والمسلمون إن صدقوا الاتباع كانوا أولى بهذا الوعد؛ لأنهم الأقرب إليه ممن يؤلَّه اليوم ويعبده من دون الله.

(١) حديث نزول عيسى ابن مريم ﷺ في آخر الزمان متفق عليه؛ ينظر: صحيح البخاري (٥ / ٤٧١ / دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ م)، وصحيح مسلم (١ / ١٣٥ / دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٨﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٥٩﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَحْيِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَابْنَاتَنَا وَنِسَاءَنَا وَنَفْسَنَا وَنَفْسَكُمْ ثُمَّ نَعْبُدْ فَتَنْجَعِلْ لَكُم مِّنْهُ عَلَى الْكُذِبِ ﴿٦٠﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٣﴾ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٤﴾ هَتَانِمْ هَتُولَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٥﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ حَنِيفًا مِّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ أَوَّلِي النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَذَاتَ طَائِفَةٍ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٨﴾ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تُشْهَدُونَ ﴿٦٩﴾ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلِيْسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفُّوا أَعْيُنَهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧١﴾ وَلَا تَوَدُّونَ إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٣﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوَنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾ مَا كَانَ لِشَرٍّ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ

تَتَّخِذُوا الْمَالِيَّةَ وَالنَّيِّعَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

المسألة الأولى: القول في عيسى عليه السلام:

اختلف أهل الكتاب في عيسى عليه السلام على قولين ضدّين؛ فقالت اليهود بتكذيبه والطعن في نبوته ونسبه، وقالت النصارى بألوهيته وأنه ثالث ثلاثة وأنه ابن الله، ومنشأ الخلاف بينهما إنما هو في قصّة خلقه ﷺ؛ لأنه وُلد من غير أب، كما هو متفق عليه بين الديانات الثلاث، فكان هذا مدخلاً للطعن فيه وفي أمه عند اليهود، وهو بذاته مدخلٌ لرفعه إلى مقام الألوهية، وادّعاء أنه ابن الله عند النصارى؛ حيث إن الوليد لا بُدَّ له من والدٍ (أب وأم)، هكذا جرّت سنّة الله في خلقه، وغيابُ الأب في قصّة عيسى عليه السلام بحاجةٍ إلى تفسير، ولم يهتدِ أهل الكتاب إلا إلى هذين التفسيرين الضّدين.

جاء القرآن لينبّه الطرفين إلى تفسير ثالث ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ فآدمُ خُلِقَ من دون أبٍ ولا أم، وهذا محلُّ اتفاق الديانات الثلاث، وهو مثال يصحُّ القياس عليه من حيث تصوّر العقلي وليس من حيث السنّة المعتادة؛ إذ إن خلق آدم كان استثناءً، وهذا الاستثناء وارد في النص ومتصوّر في العقل، وهو التفسير الأقرب للعقل من كلّ التفسيرات والنظريات الأخرى التي تُحاول الوصول إلى نقطة البداية في هذا الخلق.

إن وجود ولد من دون أب من شأنه أن يثير الريبة - بلا شك -، والإسلام لا يدعو إلى نقض هذه الحقيقة؛ لأنه يُقرّ النواميس الكونية، ويدعو إلى احترامها، وتفسير الأحداث على ضوءها، لكنه في الوقت ذاته يفتح باباً ضيقاً للاستثناء وباحتياطات مشدّدة، وهو بابُ المعجزات وخوارق العادات، فما ثبت منها بالدليل القاطع فهو حقٌّ، وما كان بخلافه فهو مرفوض ولا يُقام عليه حكم، وإلا وقع الخللُ في حياة الناس ونظامهم، والتبسَ الحق بالباطل.

ومن هنا لو ادّعت امرأة أنها حملت من غير زوج، واحتجّت بقصة آدم أو بقصة عيسى عليه السلام، فادّعاؤها مرفوض واحتجاجها باطل، أما في قصة عيسى عليه السلام فقد تضافرت الأدلة

القاطعة على صدق مريم فيما ادّعت، ويكفيها شهادة وليدها ونطقه بالحق في أيامه الأولى، وهي معجزة وبرهان إلهي لا يتكرر غيرها في مثل دعواها، إضافة إلى الأجواء العامة التي أحيطت بها مريم ﷺ من ولادتها وكفالتها إلى حملها ولجئها إلى الجذع، وكذا ولادة ابن كفيها يحيى بن زكريا ﷺ، وهذا كله استثناءٌ قدرّي من أصل السنة المعتادة.

وهذه المُحَاجَجَة موجّهة في الظاهر إلى اليهود الذين غلبوا هنا جانب السنة المعتادة، فاقْتَضَى تنبيههم بقصة آدم أن الاستثناء وارد حتى في عقيدتهم، والاستثناء في خلق آدم أقوى؛ لأنه خُلِقَ من غير أبٍ ولا أم.

أما مُحَاجَجَة النصارى فهي تعتمد على تنبيههم أن وجود الوليد من دون والد لا تعني أنه ابن للإله، ولو كان كذلك لكان آدم أحقّ بالألوهية أو بالبنوة لله من عيسى؛ لأن عيسى فاقد الأب فقط، وآدم فاقد الأب والأم.

المسألة الثانية: التوحيد:

وقد اقْتَضَى التطرّق لهذه المسألة في هذا المقطع استرسالاً في محاوره النصارى بعد قولهم في عيسى ﷺ، ورفعهم له إلى مقام الألوهية، وهذا شركٌ أكبر، وهو شرٌّ مما وقعت فيه اليهود من الطعن والقذف.

وقد ربط القرآن بين المسألتين بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾، ثم وجّه لهم الدعوة للتراجع عما وقعوا فيه: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، ثم نزه القرآن عيسى ﷺ عن هذه المقولة الكافرة الظالمة: ﴿مَا كَانَ لِلْبَشَرِ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧١﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلتَّحِيكَةِ وَالتَّبَيُّنِ أَرْبَابًا أَيَّامُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

والقرآن هنا يتعرّض لعقيدة النصارى بشيء من التفصيل؛ حيث ندّد باتخاذ الملائكة أرباباً، وليس النبيّن فقط، وهو ما عليه (التثليث المسيحي) الأب والابن وروح القدس. إن عجز النصارى عن تفسير معجزة ولادة السيد المسيح قد أوقعهم في المستحيلات العقلية والدينية، وجاءوا بعقيدة مركّبة تركيباً عبثياً؛ ليحلّوا بها سرّ تلك الولادة، ثم ذهبوا ليقيموا عليها أصل تصورهم للدين والحياة، وعالمّي الغيب والشهادة، وقد كان الأمر أهون من ذلك بكثير.

المسألة الثالثة: تحريف الكتاب:

وهو اتهامٌ يوجهه القرآن صراحة لأهل الكتاب في هذا الموضع وفي غيره ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤْنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ويقول: ﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَلِيْسُوكَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وتحريف الكتاب الذي بين أيدينا اليوم بعهديه (القديم والجديد) وبملحقاته وشروحاته حقيقة واقعة لا ينكرها إلا مكابر، ليس لما تحويه من شركٍ ظاهر، ومخالفات لثوابت التوحيد والإيمان فحسب، بل لما تحويه أيضاً من تناقضات صارخة بين سِفِرٍ وسِفِرٍ، ونسخةٍ ونسخةٍ، وقد تابعتُ الكثير من هذا بنفسِي، وليس هنا محلُّ التفصيل.

المسألة الرابعة: حقيقة الإبراهيمية:

الرسالات السماوية واحدة، وقد جاءت من مصدر واحد، ولغاية واحدة؛ ولذا نجد القصص النبوي يأخذ المساحة الأوسع من آيات القرآن الكريم، ويصرّح باتّباعهم والاقْتِدَاءَ بهم جميعاً ﴿فِيْهْدِيْهِمْ أَقْدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠].

والخلاف بين الديانات السماوية ليس مرده اختلاف الرسالات، بل التحريف الذي تعرّضت له الديانات السابقة (اليهودية والنصرانية) وكتبهم الموجودة بين أيدينا اليوم تؤكّد هذا التحريف، إلا أن اليهود وكذا النصارى يُصرّون على صحة انتسابهم للإبراهيمية وهي

ديانة إبراهيم ﷺ، بل وانتساب إبراهيم لهم! لمآرب كثيرة، منها: أن سيدنا إبراهيم هو القاسم المشترك الأقرب بين الديانات الثلاث، فإثباتهم ليهوديته أو لنصرانيته يعطيهم دليلاً مضافاً، ومصدقية أكثر لصحة ديانتهم، ثم يتخذون هذا قاعدةً لإبطال كل ديانة تُخالفهم؛ لأنها ستخالف بالضرورة القاسم المشترك لهذه الديانات، من هنا يأتي اهتمام القرآن بهذه المسألة.

يبدأ القرآن مجادلته معهم بقوله: ﴿يَتَأَهَّلَ آلُكَتَبٍ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وهذه المحاجة ليست على طريقة القرآن المعهودة؛ حيث إن الأصل في القرآن الكريم أنه يتكلم عن كل الأنبياء بسياق واحد، فهم كلهم يحملون وحي الله إلى عباد الله من أولهم إلى آخرهم، فاليهودية حق، والنصرانية حق، كما كانت الإبراهيمية حقاً، وسبق الإبراهيمية لهما لا يستلزم بطلانها، ولو صحَّ لانجر هذا الحكم إلى الرسالة المحمدية أيضاً ومن باب أولى لتأخرها في الزمن عنهما.

الحقيقة: أن القرآن هنا يُحاجُّ كل قوم على وفق منهجهم وطريقتهم في التفكير، فاليهود - والنصارى في هذا تبع لهم - إنما يتكلمون عن الانتساب السُّلاليِّ الوريثيِّ، ونصوص العهد القديم التي بين أيدينا لا تذكر إبراهيم إلا أنه جدُّ لسلسة (العهد الإلهي)، وهنا يردُّ القرآن عليهم ويؤكد الانتساب الديني العقدي، والتشابه الواضح بين ما كان عليه إبراهيم وكل الأنبياء من بعده وبين ما جاء به النبي الخاتم ﷺ.

إن القرآن يقول لليهود: إن كنتم تنتسبون لإبراهيم فأظهروا عقيدة إبراهيم؛ لكي تصحَّ أصلاً للحكم والقياس والمحااجة، وإن لم يكن عندكم منها شيء ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾، أما إن كان مُستندكم السند السُّلاليِّ الوريثيِّ المجرد فهذا لا يصلح دليلاً لانتسابكم له، فكيف بانتسابه لكم؟ ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ وهذا هو الذي استوجب النكير المشدَّد ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ومن هنا نجد القرآن يؤكد دعوة إبراهيم للتوحيد، ومحاربة الأصنام، وبناء الكعبة إبرازاً لعناصر الالتقاء بين الدعوة في عنوانها الإبراهيمي وبين الدعوة في عنوانها المحمدي، وفي هذا تأكيداً أيضاً لمنهجية القرآن في التقويم على أساس فحوى الرسالة ومضمونها وليس على مقولات النسب والسلالة والوراثية، والقرآن يؤكد في موضع آخر أن إبراهيم ﴿هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨]، وهذا يفسر المقصود بقوله هنا: ﴿وَلَكِنْ كَانَتْ خَافِئًا مُسْلِمًا﴾ فأصل التسمية منه ونحن له تبع.

وقد صرح القرآن بهذه التبعية: ﴿أَنْ أَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [النحل: ١٢٣]، و﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ [المتحنة: ٤]، والقرآن هنا لا يعزل اليهودية والنصرانية عن هذا السياق، فهو يقول: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمُ إِن كُنْتُمْ بِآلِهَتِكُمْ أَشَدَّ حُبًّا فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، ويقول: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وفي هذا تتضح الصورة الكاملة، ويتبين موضع الخطأ الدقيق في دعوى اليهود والنصارى، والله أعلم.

المسألة الخامسة: قواعد الحوار:

في ثنايا هذه الحوارات يعرض القرآن لجملة من قواعد الحوار المتبع وأدابه، فهو يجمع بين الأسلوب العلمي والقياس العقلي، وبين الأسلوب العاطفي الوجداني، فتراه مرة يقول: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ ويقول: ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ﴾ وفي مكان آخر يقول: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾، ويقول: ﴿لَمْ تَحَاجُّوهُ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وهو في كل هذا إنما يخاطبهم بنداثة المتكرر: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ وهو نداء الاحترام والتذكير بالمشركات.

وحيثما ينتقد القرآن سلوكًا ما فإنه لا يُعمَّم، بل يحتاط لكي لا يصل النقدُ لبريء ولو كان يهوديًا أو نصرانيًا، فتراه يقول: ﴿وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾، ويقول: ﴿وَقَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، ويقول: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِن تَأْمَنهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ﴾، وهذا هو العدل الذي جاء به الإسلام، والإنصاف الذي أمرنا أن نحتكم إليه حتى مع المخالفين.

دقائق التفسير

﴿إِن مَثَلٌ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ في قصة الخلق ذكر القرآن أربع طرائق، ثلاثًا منها استثنائية لا يقاس عليها، وهي خَلَقَ آدَمَ بِلَا أَبٍ وَلَا أُمٍّ، وَخَلَقَ حَوَاءَ مِنْ آدَمَ فَقَطْ بِلَا أُمٍّ، وَخَلَقَ عِيسَى مِنْ أُمٍّ بِلَا أَبٍ، والرابعة وهي السُّنَّةُ المعتادة المعروفة أن يُولَدَ المرء من أَبٍ وَأُمٍّ، وهذه هي الطريقة التي تنبني عليها الأحكام الشرعية؛ إذ الشريعة جاءت لتنظيم شؤون الناس في حياتهم المعهودة، وأما المعجزات وخوارق العادات فلها شأنٌ آخر، ويكفي فيها التصديق وأخذ العبرة، والله أعلم.

﴿فَقُلْ نَعَالُوا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ وهذه هي آيةُ المَبَاهِلَةِ، وهي نوع من أنواع المحاجَّة التي تهدف إلى استخراج ما في النفوس من حقٍّ كامنٍ بعد أن تغلَّفَ بالعناد والمكابرة، وتقديم الشهوة على المعرفة، وجمع النساء والأبناء أدعى للرغبة ورقة القلب وكسر تلك الأغلفة الغليظة. وينبغي التنبيه هنا أن هذه الطريقة لا تصح إلا في الأمور القطعية وما عُلِمَ من الدين بالضرورة، بخلاف المسائل الاجتهادية؛ فكريَّة أو فقهية أو سياسية ونحو ذلك، كما أنها لا تصح قبل المحاجة العلمية بالبراهين والأدلة، والتأكد من وجود حاجز من الكبر والمكابرة لا تنفع معه المحاجة؛ لأن الأصل في الدعوة إرادة الرحمة والخير وليس استنزال العقوبة واللعنة.

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهُ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ﴾
أسلوب غير معهود في محاربة الحق وأهله، يُسلمون أول النهار ثم يرتدون عنه، وكأنهم قد كشفوا من داخله عن أدلة بطلانه، وهذا من شأنه أن يثير الشكوك ويلبس الأمر على الضعفاء والبسطاء من الناس.

ولا يبعد أن يكون المقصود إعلان الإسلام في النهار؛ حيث الحركة والمصلحة والرزق، والرجوع إلى الكفر ليلاً؛ لأنه وقت التخفي والسبات، وهذا هو أسلوب المنافقين، ويحتمل بهذا أن يكون من أهل الكتاب من دخلوا في النفاق فعلاً، ويحتمل أنهم اكتفوا بتوجيه غيرهم وهم المنافقون المعروفون.

وقوله: ﴿وَجَهُ النَّهَارِ﴾ استعمال للوجه بمعناه المجازي وهو هنا (أول النهار)، وفي هذا ردٌّ على من اشترط في المجاز اتصاف محله به على الحقيقة أولاً، فاليد عندهم تصح مجازاً في القدرة لصاحب اليد المعروفة دون سواه، وهو تحكُّم لا تشهد له اللغة، والله أعلم.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنُهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ إِن تَأْمَنُهُ بدينَارٍ لَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ﴾ القنطار يستعمل في المال الكثير ويقابله هنا الدينار، وأنصف القرآن أهل الكتاب في ذكر هذين الصنفين فيهم: صنف يؤدِّي الأمانة ولو كانت مالا كثيراً يثير الطمع في العادة، وصنف يطمع بالمال ولا يؤدِّي لأصحابه ولو كان قليلاً، وهذا التصنيف موجود في غالب المجتمعات البشرية، ومقتضى ذكره هنا أن أهل الدين (الكتاب) ينبغي أن يتميزوا بالأمانة والحرص عليها، فلما تساووا مع غيرهم دل ذلك على نقص في الدين، أو ضعف في التدبُّن، وهو ما سيبيِّنه القرآن في آخر الآية.

﴿لَا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ كناية عن الإلحاح والمواظبة وتكرار المطالبة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتِينَ﴾ تعليل لسلوك من يأكل أموال الناس ويطمع بأمانتهم عنده وهو مُدَّعٍ للتدبُّن، وهو تعليل ذو طابع ديني؛ حيث يرى بعض المتدينين أنهم

فوق الآخرين، وأنه لا حرج ﴿سَكِيلٌ﴾ في أخذ أموالهم إذا كانوا من المخالفين أو ﴿الْأُمَيَّتَنَ﴾.

والحقيقة أن هذا التبرير لم يعد حِكْمًا على أهل الكتاب، فبعض المتدينين اليوم من المسلمين يستحلُّون أموال (الكافرين)، ويتهرَّبون من أداء ما بذمَّتْهم من حقٍّ ودين، ومنهم من يستسيغُ الغيبة والنميمة والكذب إذا كانت في غير جماعته وحزبه، وهذا نذْكُرُه إنصافًا لأهل الكتاب، ونُصحًا لأهل الإسلام؛ فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ يعني: أن الذين يبيعون دينهم وأمانتهم بعَرَض الدنيا الزائل لا نصيبَ لهم من خير الآخرة ونعيمها.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ تقريرٌ عن قُدرة هذا الفريق من أهل الكتاب أن يصوغوا العبارات الموهمة لفظًا ولحنًا وأداءً لخلط الحقِّ بالباطل، والتدليس على الناس حتى يُحَيَّلَ لهم أنها من الدين وما هي كذلك، وهي طريقةٌ معتادةٌ عند أهل البدعة في كلِّ دين.

سُورَةُ الْعَمَّارَاتِ

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْعُوثُ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ إِلَّا رَضِيَ ذَهَبًا وَلَوْ أَفْتَدَىٰ بِهِ ؕ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ؕ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تُصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ ءَامَنَ تَبَعُونَهَا عَوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ؕ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

حقيقة العلاقة بين الرسالات السماوية

يُجَدِّدُ الْقُرْآنُ بِشَكْلٍ وَاضِحٍ وَحَاسِمٍ طَبِيعَةَ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ وَالرِّسَالَاتِ السَّابِقَةِ فِي هَذِهِ النِّقَاطِ الَّتِي جَاءَتْ مُرَكَّزَةً فِي هَذَا الْمَقْطَعِ:
أولاً: الميثاق:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ

لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴿١﴾ هذا الميثاق يؤكد وحدة الرسالات، ويؤكد أن الرسالة الخاتمة هي الصورة الأكمل لتدرج الرسالات بحسب تطوّر المجتمع البشري؛ ولذا كان الخضوع لها واجباً، وهو جزء من متطلبات الإيمان بالرسالات السابقة.

ثانياً: الإيمان لا يتجزأ:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، وهذا من لوازم الميثاق والإيمان بوحدة الرسالات، فالأنبياء كلهم إنما جاءوا بدين واحد، فمن كفر بموسى فقد كفر بمحمد، ومن كفر بمحمد فقد كفر بموسى، وهكذا في جميع الأنبياء، والدين الذي جاء به الأنبياء إنما هو الإسلام بمعناه العام والشامل ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾. وتنزل الوحي على مراحل بحسب التطور البشري لا يعني التناقض أو التضاد، ولا يعني أن هناك أكثر من دين، ما دام أن الرب واحد فالدين لا بُدَّ أن يكون واحداً، وقد أكد القرآن هذا المفهوم بقوله: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

ثالثاً: مكانة الرسالة الإبراهيمية:

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ من حيث المبدأ لا تختلف الرسالة الإبراهيمية عن بقية الرسالات السماوية في مصدرها وأصولها وأهدافها، بيد أنها من حيث الواقع حظيت بخصوصيات ميّزتها عن الرسالات السابقة، ومنها:

١ - أنها تُشكّل القاسم المشترك الأبرز بين الرسالات الثلاث، والاسم الذي يحظى بالمقبولية المطلقة لدى المتتبعين لهذه الرسالات إلى اليوم.

٢ - أن اسم إبراهيم لم يتعرّض للغلو كما حصل لعيسى ﷺ، وأن رسالته لم تتعرّض

للتحريف المثير للجدل كما حصل للتوراة والإنجيل؛ حيث بقيت القيم الكبرى والمبادئ العامة لرسالته تُشكّل قيم الوحي الكُليّة، بينما اختفت التفاصيل من دون تغيير أو تحريف، وهذا لا شك ساعد في نزع الخلاف المحتمل أو المتوقع حولها.

٣- التشابه بينها وبين الرسالة الخاتمة ليس في أصل الوحي فقط؛ فهذا حاصلٌ بين كلّ الرسالات، لكن من حيث التفاعل والحركة على هذه الأرض، والقرآن يذكر هنا نموذجًا ظاهرًا: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ فَبِئَاءَ الْكِعْبَةِ وَاتَّخَذَهَا قِبْلَةً لِلْحِجِّ وَالصَّلَاةِ لَمْ يُعْرِفْ إِلَّا فِي هَاتَيْنِ الرِّسَالَتَيْنِ. وهناك تشابه آخر يعرضه القرآن في مواضع أخرى، وهو طبيعة التحدي الذي واجهته الرسالتان وهو (عبادة الأصنام)، بينما واجه كلّ من موسى وعيسى تحديات أخرى مختلفة.

دقائق التفسير

﴿لَتَوْمِنَنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ رُكنا الميثاق: الإيمان ثم النصر، وفيه إشارة إلى أن الصراع بين الإيمان والكفر صراعٌ حتميٌّ، وأن مستقبل الإيمان على هذه الأرض مرهونٌ بحماية أهله له ودفاعهم عنه.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ إشارة إلى أن الإسلام يُحقّق الانسجام بين الإنسان والكون المحيط به؛ ذلك لأن الكون كله خاضع في حركته كلها للنواميس الإلهية خضوعًا قدرّيًا، فخضوع الإنسان للأحكام الإلهية يُحقّق هذا الانسجام، ويشعر معه الإنسان أنه أصبح صديقًا لهذا الكون ومفرداته التي سخرها الله بالأصل لخدمته وتحقيق سعادته.

وفي قوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ اختصار لمجادلة قرآنية أن الناس قد يَخْتَلِفُونَ هنا على هذه الأرض على مناهج ومشارب، فالأولى بهذا الإنسان أن يسلك النهج الذي يضمن له

سعادته في حياته الثانية، وعلى هذا ينبغي عليه استبعاد المشارب الأرضية والدينيّة البحتة؛ لأنها لو حققت له بعض مصالحه هنا، فكيف بحياته الأبدية هناك؟ مع أن الإسلام هو الأقدر على تحقيق المصلحتين.

﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ الخلاف في كون المقصود بالإسلام هنا الدين الجامع لكل الرسالات السماوية، أو الرسالة المحمدية خاصة خلاف لا يُنتج؛ فالإسلام بمعناه الأول يتحقق في كل عصر بالرسالة التي تمثله، والكفر بالرسالة اللاحقة ينقض الإيمان بالرسالة السابقة، فالذين آمنوا بالتوراة ثم لم يؤمنوا بالإنجيل قد كفروا بالتوراة أيضًا، وإن ادّعوا الإيمان بها، وهكذا من آمن بالإنجيل ثم كفر بالقرآن، أما بمعناه الثاني فهو حكم للمخاطبين الموجودين فعلاً أثناء البعثة المحمدية وما بعدها حتى قيام الساعة، وبهذا تكون النتيجة واحدة على المعنيين، والله أعلم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ الإصلاح شرط التوبة المقبولة عند الله؛ لأنه الكفيل بتحويل الندم إلى فعلٍ إيجابيٍّ مؤثّرٍ، أما بدونه فقد تكون مجرد حالة نفسية تتتابُ المرة بعد ضعف شهوته الدافعة له نحو الظلم والخطيئة.

﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلٌّ أَرْضٍ ذَهَبًا وَلَوْ آفَتْدَى بِهِ﴾ إشارة أن الطاعة إنما تقبل في وقتها، أما بعد غلق الصحف وانتهاء مرحلة التكليف والاختبار فلا عبرة لها. وفيه إشارة أن الله غنيٌّ عن العالمين، وهو قادرٌ أن يسدَّ حاجة عياله الفقراء دون صدقة ولا زكاة، وإنما فتح لأهل الخير هذا الباب رحمةً بهم، وابتلاءً لصدق إيمانهم.

﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ لأن المتصدق إنما يتصدق لله امثالاً لأمره، وطمعاً برضاه وقربه، ومصداق هذا القصد إنما هو إثارة ما يُقدّمه الله على ما يُقدّمه لنفسه، وهذا يشمل كل ما يُقدّمه المسلم من مالٍ وجهدٍ ووقتٍ، فمن جعل الله الفضلة من ذلك كله كان أبعد ما يكون عن البرِّ بالله، وهو الاجتهاد في محبته ﷻ، والتحبُّب إليه بكلِّ ما يُحبُّ من الصالحات.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ إسرائيل هو نبيُّ الله يعقوب، والتحريم معناه هنا: الامتناع عن المباح، كما حصل لرسولنا الكريم في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحریم: ۱]، وهذا الامتناع ليس تشريعاً؛ إذ ليس لأي نبي أن يشرع من نفسه.

وقد ورد في المأثور^(۱) أن هذه الآية جاءت في أجواء المنازعة في حقيقة الرسالة الإبراهيمية والمنتسبين إليها؛ حيث عاب اليهود على المسلمين أكلهم للحوم الإبل مع أنها محرمة في الإبراهيمية؛ فبيّنت الآية بطلان هذه الدعوى، وحاكمتهم إلى التوراة نفسها إن كان فيها هذا التحريم.

﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ المقام هو أثر القدمين الشريقتين على تلك الصخرة المرتفعة والقريبة من الكعبة المشرفة، وذكر المقام هنا جاء تأكيداً للصلة الوثيقة بين دعوة النبي الخاتم ودعوة أبيه وأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام؛ ولكي لا يتوهم متوهم أن هذه الصلة هي في تعظيم ذلك الأثر الإبراهيمي، جاء قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ﴾، فالحج - وهو الركن الخامس في الرسالة المحمدية - هو أيضاً نسك إبراهيم ودعوته التي وجهها للعالمين.

وفي الآية إشارة إلى أن الإسلام مع حرصه الشديد على صفاء التوحيد وحمايته من كل شائبة، لم يمانع من الاحتفاظ بآثار الأنبياء؛ بل ولفت الأنظار إليها حباً واحتراماً واعتزازاً، بل لقد اختار الله من هذه الآثار معالم للهوية الإسلامية تهوي إليها أفئدة المسلمين أينما كانوا في هذه الأرض.

إن الإنسان بطبعه يميل للمحسوس؛ ولذلك يشتط نحو عبادة المجسمات والكائنات التي هي أضعف منه، وأقل منه شأنًا، وعلاج هذا الشطط ليس بقمع طبعه بل بتوجيهه

(۱) يعني: الحديث الذي سأل فيه اليهود رسول الله ﷺ عن بعض الأسئلة، ومنها: سؤلهم عما حرم إسرائيل عليه السلام على نفسه، رواه الإمام أحمد، ينظر: مسند أحمد (۱/ ۲۷۴) / المطبعة الميمنية، ط. ۱۳۱۳هـ، تصحيح محمد الزهري الغمراوي).

الوجهة الصحيحة، فتعلق القلب بالمسجد والبيت والمقام مشروع لما يُحقِّقه من سدِّ حاجة الإنسان الفطريَّة، وهذه الأماكن والآثار تُعزِّز جانب التوحيد كما هو ظاهرٌ ومعروفٌ، ولا تُشوشُ عليه، والله أعلم.

﴿وَمَنْ دَخَلَهُ، كَانَ ءَامِنًا﴾ هو خبرٌ على معنى الهيبة التي منحها الله لهذا البيت؛ بحيث لا يتجرأ أحد على انتهاك حرمة، ويعضد هذا المعنى ردُّ الله لجيش أبرهة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، وهذا المعنى لا يلغي المعنى التكليفي، وهو أنه يجب عليكم - أيها المسلمون - أن تُوفِّروا الأمن لهذا الحرم، فهو أمرٌ بصيغة الخبر، ومن قصر في ذلك مع قدرته فقد ارتكب إثماً، والله أعلم.

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ تهديدٌ ووعدٌ شديدٌ لمن استهان بالحج جُحودًا أو استخفافًا، أما عند عدم القدرة مع وجود النية والرغبة فقد بيَّته الآية نفسها ﴿مَنْ أَسْطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

غير أن الاستطاعة التي هي شرط التكليف قد تُعدم بتقصيرٍ من الإنسان نفسه؛ كضيق المكان عن استيعاب الحجيج، وقلة الخبرة الإدارية، وضعف الاستعداد، فهذه مسؤوليات يتحمَّلها المسلمون كلٌّ بحسب صلاحياته وإمكانياته، والتقصير فيها إثمٌ؛ إذ إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فالحرم المكي وُضِعَ للناس كافةً ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ وهذا يتطلب أن يكون من السعة والإعداد بحيث يكفي لأداء النسك، واستقبال الزائرين وفق خطة جادة ومدروسة لا تستثني أحدًا من المكلفين، والله أعلم.

سُورَةُ الْعَمَّارَاتِ

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا أَفْرَقًا مِّنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ، وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ ففِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرَّوكُم إِلَّا أَذًى وَإِن يَفْتُلُوكُم يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُصْرُونَ ﴿١١١﴾ ضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبِلَ مِنَ النَّاسِ وَبَآءُ وَبَقِصَ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْآيِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ * لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَابِئَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَهُ أَتِيلُ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُفْتِرِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلٰكِن أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰأَنْتُمْ أَوْلَاءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَٰلِيَكُمْ أَلَا نَأْمِلُ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصِيرُوا تَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

بعد عرض القرآن لنقاط الخلاف والتمايز مع أهل الكتاب، وتثبيته لمعنى الإسلام الحق وصلته بالرسالات السماوية شرع في بيان المقومات والأسس التي ينبغي أن تتشكل عليها هذه الأمة المنوط بها حمل هذه الرسالة لكل العالمين.

أولاً: الإيمان هو الأساس الذي تتكون حوله وتحت ساريته هذه الأمة، فليس الإيمان هنا ذلك التصور الذي يتشكل في العقول والضمائر، ولا تلك الممارسات الشعائرية المنبثقة منها، إنه قبل كل هذا هوية جامعة تنبثق من رؤية موحدة لعالمي الغيب والشهادة، وهو كذلك مشروع تنصهر فيه كل طاقات الأمة وإمكاناتها؛ ولذلك يأتي الخطاب القرآني دائماً: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بصيغة الجمع، وهي صيغة مقصودة وكل ما بعدها مبنئ عليها. ثانياً: الاعتصام بحبل الله والانصيهار في مفهوم (الأمة) والوحدة الإسلامية الجامعة ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾، ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

ثالثاً: حمل الرسالة الإلهية للعالمين، وهي رسالة الرحمة والخير والمحبة ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ ﴿وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾، ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ فالخير سمة هذه الأمة ومسؤوليتها، وبه تستحق وصف الخيرية، والخير مفهوم جامع لكل معاني البر والإحسان؛ ولذلك أطلقه القرآن ليتناول جملة واحدة كل تلك المعاني.

رابعاً: الإصلاح، وهي مسؤولية مستمرة تبدأ بالذات أولاً ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ والتتوى إنما هي محاسبة ومراقبة ذاتية، وحسٌ مرهف، يتتبع خلجات النفس ونوازعها الداخلية، ويسجل السلوكيات المختلفة صغيرها وكبيرها، ويوزنها جميعاً بميزان الشريعة.

ثم بعد هذا تنتقل المسؤولية لمساعدة الآخرين في تصحيح أخطائهم، وتقويم سلوكهم ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهذه الإيجابية مظهر من مظاهر الخير المغروسة في كل

نفس مؤمنة بالله واليوم الآخر ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وهذا الربط بين الخيرات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقطع ذلك السلوك الجاف والمؤذي لمشاعر الناس ومكانتهم وكرامتهم باسم النصيح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

خامساً: التمايز عن الباطل وأهله، والحذر من مشاريعهم الهدامة وأساليبهم الملتوية في التضليل والتلبس ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾، ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾، ﴿صُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ﴾ وهؤلاء استثناء من عموم العالمين اقتضاه موقفهم المعادي للحق وأهله، أما عموم الناس ممن لم يتخذوا مثل هذا الموقف، فإرادة الخير لهم والتعامل معهم بالحسنى أصل في ديننا.

وهنا تزل بعض الأقدام، وتخلط بين مقامات الناس؛ ظناً منهم أن كل من ليس بمسلم فهو عدو للمسلمين، وهذا خطأ فاحش لا يستقيم مع مبادئ الإسلام ونظرته للكون والحياة والإنسان.

دقائق التفسير

﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أي: التفرق المذموم الناتج عن العصبية القبلية والحزبية، والولاءات القاصرة، أما الخلاف الاجتهادي والتنوع في الاختصاصات والاهتمامات فهذا من لوازم المعرفة، والتطور الحضاري، وقد صار كثير من الناس اليوم يخلط بين التفرق المذموم والاجتهاد المحمود، وإذا كان الاجتهاد مطلوباً، فالتعدد والخلاف من لوازمه، وأما من

يدعو للاجتهاد ويحذر من الخلاف، فقد وقع في التضاد والاضطراب.

﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ أي: كونوا أمة، فـ (مِنْ) هنا للتكوين والتحويل، كما تقول: جعلتُ

مِنَ العجين خُبْزًا، وتدل عليه الآية الآتية: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ

بِاللَّهِ﴾ قدّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان على غير عادة القرآن في تقديم

الإيمان على العمل؛ وذلك لاعتبارين:

الأول: أن مناط الخيرية على الناس إنما هو بما تقدّمه من خير لهم، فقدّم المناط وعلة

التخير على الإيمان، مع أن الإيمان أصل لكل خير، ويكون هذا كقولك للسقيم: أتيناك

بالطبيب المسلم، فتقدّم الطب على الإسلام؛ لارتباطه المباشر بحاجة السقيم.

والثاني: أن الدعوة إلى الله - أمرًا ونهيًا - هي السبب في وصول الإيمان إلى الناس،

ولولاها لما عرف الناس الإيمان أصلًا، ولما بقي في قلوب الناس؛ إذ إن معاول الهدم

والتجهيل والتنفير كثيرة، وإنما تُردُّ كلها بهذه الفريضة الربانية.

﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى ط﴾ المقصود لن يضروكم الضرر الذي يريدونه لكم،

كاستئصالكم وذهاب دينكم، أما الأذى فهو ما دون ذلك من الضرر مهما كان كبيرًا،

والواقع يؤيد هذا المعنى؛ فالمسلمون يتعرضون للقتل والحبس والتشريد والحصار من بدء

الدعوة وإلى اليوم، وحتى في المعارك التي انتصر فيها المسلمون حصل لهم من الضرر الشيء

الكثير، قتلاً وجرحاً وأسراً، فكيف بالمعارك التي خسرُوا فيها؟

﴿وَإِنْ يُقَاتِلُواكُمْ يُولُوكُمْ الَّا ذَبَارًا﴾ خبرٌ مخصوصٌ لقومٍ مخصوصين ومرحلة مخصوصة،

وليس قاعدة مطبّدة، يدلُّ عليه قوله تعالى في غير هذا الموضع: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ط﴾

[التوبة: ١١١]، وقوله في يوم أُحُد: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ﴾ [آل عمران:

١٥٢].

وواقع المسلمين في ماضيهم وحاضرهم يشهد لهذا السُّجال، وخضوع الجميع لسنن الله الغالبة، والقوانين السببية التي وضعها الله في هذه الحياة، فَمَنْ أَخَذَ بِهَا مَعَ الْإِيمَانِ كَانَ أَوْلَىٰ بِالنَّصْرِ، وَمَنْ قَصَّرَ فِيهَا لِحَقَّتْهُ الْهَزِيمَةُ مَهْمَا كَانَ إِيْمَانُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿لَا يَجْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحْبَلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ حبل الله هنا: عهد الأمان الذي يمنحه المسلمون لليهود صلحاً، أو عهداً، أو ذمّةً، كما حصل في وثيقة المدينة، وفي اتفاق خيبر، ثم في عقد الذمّة الذي وفّر الحماية الكاملة لليهود في كل بلد إسلامي يتواجدون فيه.

وحبلٌ من الناس: هو التحالفات التي يبنها اليهود مع الدول الأخرى، وفحوى الآية: أن اليهود سيبقون أقلية غير قادرة على حماية نفسها أو تحقيق أهدافها إلا بهذه العقود والتحالفات، وهذا هو حال اليهود منذ البعثة وإلى اليوم.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ نهي عن اتخاذ أحد من الأعداء ولياً مهما كانت الصلة والقرابة والمصلحة الشخصية، وقال: ﴿مِن دُونِكُمْ﴾ أي: من خارج الصفِّ المؤمن، مَن يُعَادُونَ هذا الصف، ويعملون على تفكيكه واستئصاله ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي: لا يقصّرون ولا يتردّدون في رميكم بالفساد والشرّ، وكلّ أذى ونقيصة.

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يودّون لكم العنتَ والمشقّة، وقوله: ﴿بَطَانَةً﴾ إشارة إلى العلاقات الخفية، وهي المتوقّعة أيام الحروب والصراعات، والآية لا تُحرّم العلاقات الإنسانية والمجتمعيّة المعروفة، وإنما الحديث فيها عن الأعداء المحاربين ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾.

﴿هَآئِنُكُمْ أَوْلَاءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ هذا أصلٌ في خلق المسلم؛ أنه يحبُّ الخير لكل الناس مؤمنهم وكافرهم، وليس في هذا شائبة، إنما الشائبة في محبة من لا يحبُّ المسلمين، ويضمير لهم الشرّ، ويعمل على استئصالهم ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْفَيْظِ﴾، ﴿إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ فتكون المحبة لهم سداًجّة أو خيانة.

وكثرة الاحتراقات الواردة هنا، وذكر تفاصيل أوصافهم وما يُبطنون وما يُعلنون دليل قاطع أن المقصود بالنهي إنما هم هؤلاء بأوصافهم هذه، وليس ذلك عامًّا في كلِّ الكافرين، والله أعلم.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي: الكتب السماوية جميعها، إجمالًا بالنسبة للكتب السابقة، وتفصيلًا بالنسبة للقرآن؛ إذ الكتب السابقة قد تعرّضت للتحريف، فلا يصحُّ الإيمان بها هي عليه اليوم، بخلاف القرآن الذي تعهّد الله بحفظه إلى يوم القيامة.

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ ۖ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَلِيفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۖ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَاتَّخَذَ اللَّهُ لَكُمْ تَحْتَهُ مَقْعِدَ الْقِتَالِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَ رَبُّكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ أَيَّامٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٣٧﴾ ۞

في الطريق إلى أحد

تناولت سورة آل عمران معركة أحد وما جرى فيها من انتكاسة وأذى للمسلمين بسبب الأخطاء التي ارتكبوها باهتمام وتفصيل أكثر من كل المعارك الأخرى؛ تأكيداً للنهج القرآني في تشجيع المراجعة والتقويم الذاتي، والاستفادة من الأخطاء رغم مرارتها، ومرارة تذكُّرها، وللمساحة الكبيرة التي أخذتها هذه المعركة من هذه السورة ارتأيت أن أقسمها على أكثر من مجلس، والله المستعان.

في هذا المقطع تطرقت السورة لعدد من النقاط قبل التحام الجيشين، وهي:

أولاً: مهّد القرآن للحديث عن معركة أحد ببيان حال اليهود والمنافقين ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تَصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ وقد حصل مصداق هذا في الطريق إلى أحد بنكوص المنافقين، ثم بعد النكسة بشماتة اليهود وتشفّيفهم بمُصاب المسلمين، مع أنهم أهل الوثيقة التي تنصّ على وجوب الدفاع المشترك عن المدينة.

ثانياً: إن المعركة كانت معركة دفاعية ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ فمقاعد القتال تشير بوضوح إلى أنهم كانوا ينتظرون الغزاة ليصدّوهم، كما أن الخروج من الأهل يدلّ على قُرب المقاعد هذه من مساكن الناس، وهذا هو ما حصل بالفعل؛ حيث إن جبل أحد هو في ضواحي المدينة، وقد قطع المشركون مسافةً طويلةً من مكة قد تستغرق أياماً ليصلوا إلى أحد، بل وقد ذكر أهل السير أن الرسول ﷺ كان من رأيه البقاء في المدينة والدفاع عنها، لكنه تنازّل لرأي أغلبية الشباب، خاصة أولئك الذين لم يشهدوا بدراً.

ثالثاً: استحضار التاريخ القريب، والمواجهة التي حصّلت بين الفريقين في معركة بدر ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وهو توجيه ربّاني بأخذ العبرة من التاريخ، وقد أكّده في الآية الأخيرة في هذا المقطع: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ وأمره بالتقوى بعد امتنانه عليهم بالنصر يُوجي بأنها شرط في تحقيق النصر.

رابعاً: الأمر بالطاعة، وهي من أسس التربية العسكرية ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أما طاعة الله فهي أصل الإسلام، وطاعة الرسول هي طاعة الله؛ لأنه المبلّغ عن الله، وفي الحرب يُضاف إلى هذا المعنى معنى آخر، وهو: طاعته باعتباره قائداً لا يستقيم أمر الجيش بغير طاعته.

خامسًا: التجرد لله في النية والعمل، والبعد عن الأثرة والتنافس المادي، والذي غالبًا ما يكون سببًا في إضعاف الصف، وظهور الشحناء والبغضاء بين جنوده؛ ولذا أمر بالإتفاق ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ وهنا الإشارة للإتفاق في الحرب (الضراء)، وحذر من الربا، والذي هو مظهر من مظاهر الجشع والطمع الذي يفت في عضد الأمة، ويُضعف مقاومتها ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ والفلاح مُستلزم للنصر.

سادسًا: ذكر القرآن حالة من التردد وضعف العزيمة اعترت مجموعتين من المؤمنين لكن الله ثبتهم ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾ وهنا إشارة أن المؤمن قد يضعف ولو كان وليًا لله ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ فلا ينبغي تنزيههم عن النقص لمكان الولاية، ولا التشكيك بولايتهم لوجود النقص.

سابعًا: إن هذا المقطع جاء بمسحة من السماح والعفو والمغفرة، وكأنه يمهد للموقف المطلوب من أولئك الرماة الذين خالفوا أمر رسول الله ﷺ فتركوا مواقعهم؛ فكانت النكسة ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْفَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. ﴿فَأَسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٣٥) ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ الْقِتَالِ ۖ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: خرجت مبكرًا مع إشراقة النهار لتختار مواقع الجند، والمكان الأصح للدفاع عن المدينة، وفيه مسؤولية القائد في المبادرة وإن كان الأمر على خلاف ما يراه؛ حيث كان رأيهُ ﷺ المكوث في المدينة، ومناجزة المشركين فيها، لكنه استجاب للشورى كما هو معلوم في كتب السيرة.

﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ﴾ الطائفة مجموعة من الناس يتفقون على شيء، لكنها في عصرنا الحالي تستعمل في معنى أخطر، وهو الانعزال عن الأمة بولاء قاصر وهوية مخالفة، والسلوك الطائفي يقصد به اليوم: تغليب مصلحة الطائفة بهذا المعنى على مصلحة الأمة والدولة، وغالبًا ما يؤدي هذا السلوك إلى صراعات دموية مريعة وطويلة.

﴿أَنْ يُمَدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلَيْنِ﴾ الإيمان بالملائكة هو نوع من الإيمان بالغيب، وهو الأصل في العقائد الدينية، والعقل لا يمنع من وجود كائنات لا تقع تحت الحسّ البشري، وقد رأينا العقل يكتشف بأدواته المادية مخلوقات لم تكن معروفة فيما سبق؛ كأنواع الأشعة، والموجات الصوتية، وكثير من الكائنات الحيّة؛ كالبكتيريا، والجراثيم، والفيروسات، وربما يكتشف العلم كائنات أخرى هي بالنسبة لنا اليوم غيبٌ محضٌ، فالجهل بالشيء لا يعني عدم وجوده، مع ملاحظة أن المنهج القرآني في الغيبات أنه لا يذكرها إلا إذا كانت متصلة بحياة الناس، وهنا يذكر القرآن الملائكة؛ لما لهم من دور في مساندة المؤمنين.

﴿لَا تَأْكُلُوا أَرْبَابًا أَضْعَفًا مِّنْكُمْ﴾ الوصف بالأضعاف المضاعفة وصف لزيادة التنفير، وبيان جشع المرابي وطمعه وأنانيته، وليس وصفًا احترازيًا، فقليل الربا وكثيره حرام.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ لبيان سعتها وسعة رحمة الله فيها، والخوض في حقيقة الطول والعرض لا طائل من ورائه، وهو من التكلف، فنحن نجهل المشبه به، فكيف بالمشبه، فعرض السموات والأرض نوعٌ من الغيب بالنسبة لنا، والجنة غيبٌ أبعد. وقد شبه القرآن الغيب بالغيب ليس للتحقق من الهيئة والمسافة، بل لحصول الاطمئنان على أصل السعة، وكبير عفو الله ورحمته، وهذا هو مقصود النص، وهو كافٍ لمن تدبّر.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ ترغيب بمبادرة الذنب بالاستغفار، وترك التسويف، فالؤمن يُذنب، والفاجر يُذنب، والفرق بينهما

الأوبة والتوبة، فمن استشعر الذنب واستثقله رجع سريعاً، وهذا دليل القلب الحي النابض بالإيمان.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ البحث في عواقب الأمم يقود إلى نتائج كلية؛ أن الله لا يرضى بالكفر، ولا يرضى بالظلم، وأن هؤلاء مُعَرَّضُونَ لعقاب الله في الدنيا قبل الآخرة، أما مجاوزة هذا إلى حالة من التنبؤ بمصير الأمم والدول الظالمة في كل مواجهة فهو نوعٌ من التغرير الباطل، فالقدر بيد الله وحده، وآجال الأمم والدول والحضارات كآجال الناس، بل هي أعقد وأبعد في الغيب. إنَّ هناك من يحلف على نصر المسلمين في هذه المعركة المعينة مع الكافرين بناءً على أن الله مع الحق، والله لا ينصر الكافرين والظالمين، وهذا الحلف مجازفةٌ لا دليل عليها، وسُنَنُ الله تقضي بهلاك الظالمين دون تحديد الآماد والآجال، ثم هناك سُنَنٌ أخرى قد نُدرِكها وقد لا نُدرِكها؛ كسُنَنِ الله في التمكين، وسُنَنِهِ في تسليط الظالمين على الظالمين، والله أعلم.

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَذِيرٌ لِّهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيَمِخَصَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَصُرَ أَنتَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كُنَّا مُوَجَّلَاءُ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِيثِيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَتْلُوهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُزِدُواكُمْ عَلَى أَغْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوًى لِّلظَالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ عَمَّا كُنْتُمْ لِكَيِّدٍ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدْرٍ أَلْفٍ مِائَةٍ نَفَاسًا يَنْشَأُ مِنْكُمْ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ أَمَرَ اللَّهُ لَأَمْرًا كَلَّا اللَّهُ يَخْشَوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا مِنْهُمْ قُرْءَانًا فِي يُبُورِكُمْ لَوَيْدَ الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ إِلَّا مَضَاجِعَهُمْ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيَمِخَصَّ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَ-

تَمَامُ بِلَادِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

استهّل هذا المقطع بقوله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ وكأنه يسترعي انتباه الناس لأمر عظيم، وهو كذلك؛ حيث كان المسلمون يتطلّعون إلى تقويم دقيق من الوحي لذلك اليوم العصيب الذي مرّ عليهم، ولتلك التجربة الاستثنائية وتبعاتها الثقيلة على كواهلهم، ما الذي جرى؟ وكيف ينتصر الكافرون على المؤمنين، والكافرون هم المعتدون، والمؤمنون هم المدافعون؟ كيف ينهزم صفّ يقوده نبيٌّ؟ وقد تكفل هذا المقطع القرآني بالإجابة عن هذه الأسئلة ونحوها:

أولاً: المعيار الحقُّ:

يُصحّح القرآن في هذا المقطع المعيار الذي يزن فيه الناس مستوى النجاح والفشل؛ حيث يتنافس الناس من أجل تحقيق الغلبة والتفوق وفق معايير تحقيق الرغبات، والوصول إلى الأهداف المرسومة ولو كان بمنهج خاطئ، وسياسة ظالمة.

القرآن هنا يضع المعيار الحقَّ ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وهي حالة ثابتة ومستقرة مع ثبات الإيمان في القلب واستقراره، فالعلوّ الصحيح هو علوّ المبدأ والمنهج والخلق، أما علوّ الكافرين والظالمين فهو علوّ مغشوش، وعاقبته إلى زوالٍ - لا محالة - بزوال الغلبة أو زوال القدرة على الاستمتاع بها.

أما علوّ المؤمنين فهو علوّ ذاتي موصولٌ بالله ولو كانوا فقراء أو ضعفاء، فقد كان جُلُّ الأنبياء على هذه الحال، ولم يُمكن إلا للقليل منهم، فالتمكنُ بالحكم والسلطان مسؤولية كبيرة، ولها شروطها ومتطلباتها، قد تتحقّق وقد لا تتحقّق، وقد يكون ذلك بتقصير من المؤمنين وقد لا يكون، لكنّ هذا كله ليس هو معيار النجاح والفشل، فليس كلّ غالبٍ ناجحاً، وليس كلّ مغلوبٍ فاشلاً.

ثانياً: مداولة النصر والهزيمة:

نفرّعا عن المسألة الأولى يعرض القرآن حقيقة ملموسة ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ

النَّاسِ ۖ فَالْغَلْبَةُ قَدْ تَكُونُ لِهَؤُلَاءِ وَقَدْ تَكُونُ لَأُولَئِكَ، وَقَدْ تَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَقَدْ تَكُونُ
لِلْكَافِرِينَ.

وقد صرَّح القرآن بأربعة أوجه للحكمة الإلهية في ذلك ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ
مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (١١٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ۗ
فاختلاف الأحوال من نصيرٍ إلى هزيمةٍ ومن هزيمةٍ إلى نصيرٍ من شأنه أن يكشف معادن
الناس، ومستوى إيمانهم وإخلاصهم، وفيه أيضًا تكريمٌ بالشهادة لمستحقيها ومحقٌ وهلاكٌ
للكافرين والظالمين.

وقد جاء قوله تعالى في وسط هذه الرباعية: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ تنبيهًا لمن يتوهم أن
الغلبة هي معيار الفوز والنجاح، فالظالمون قد يتمكّنون من المؤمنين، وقد يُسلّطهم الله على
من يشاء من عباده وبلاده، وليس هذا من محبة الله لهم.

ثالثًا: النظرية والتطبيق:

يعرض القرآن في هذا المقطع لمسألة تواجه الكثير من القادة والموجهين، تتزامن مع كلِّ
نقلة جادة من ميدان النظر إلى ميدان التطبيق، ومن ميدان الأقوال إلى ميدان الأفعال ﴿وَلَقَدْ
كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ والقرآن هنا يشدُّ انتباهنا إلى
متطلبات هذه النقلة؛ لأن التجارب البشرية على اختلافها مُثْقَلَةٌ بحالاتٍ من الفشل؛ بسبب
تصدّي الكفاءات النظرية الحاملة، والتي أعطتها منابرُ الخطابة ومحاضرات الدرس دورًا لم
تستعدّ له تمام الاستعداد.

رابعًا: التعلق بالقضية لا بالأشخاص:

ليس هناك في الخلق من هو أولى وأزكى من رسول الله ﷺ، وفي أحد أشيع خبر مقتله ﷺ
فاضطرب المؤمنون اضطرابًا شديدًا، وحقَّ لهم أن يضطربوا وأن يُزلزلوا، بيد أن القرآن
الكريم أراد لهم أن يَسمُوا على عواطفهم ومشاعرهم، وأن يتعلَّموا أن العمل للإسلام قضية
لا تتوقف على حياة أحدٍ ولو كان رسول الله، فالعمل عبادة، والعبادة لله وحده ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ

إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٠﴾ وإذا كان هذا في حق رسول الله، فما بالك بمن دونه؟

خامسًا: وجود النبي لا يمنع الابتلاء:

وهذه حقيقة قرآنية مؤداها أن النبي ﷺ إنما يقود أمته وفق السنن الإلهية والنواميس الكونية، وكما أنه معرض للمرض والتعب والضعف والحوادث الأخرى، فإنه في شأنه العام معرض لكل ما يمكن أن يتعرض له القادة الآخرون إلا ما يُخالف مقتضى سلامة التبليغ وعصمة الوحي ﴿وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ وهذه الحقيقة جوابٌ لمن استغرب حصول النكسة مع وجود النبي ﷺ، مع الجزم أن النبي ﷺ لا يمكن أن يكون هو سبب النكسة، فقيادة الأنبياء هي أكمل القيادات وأزكاها وأولاها باستحقاق نصر الله وتمكينه، لكن العبرة في التمكين هو حال الأمة كلها ووزنها بين الأمم الأخرى، والله أعلم.

سادسًا: طمأنينة المؤمن وقلق الكافر:

يتميز المؤمن عن غيره بنظرته العابرة لحدود الحياة القصيرة العاجلة، فالموت الذي يهابه الخلق لا يمثل سوى قنطرة العبور للحياة المديدة المستقرّة، من هنا يعمر قلب المؤمن بالسكينة والطمأنينة مهما واجه من المخاطر، بينما رُعبُ الموت لا يفارق قلب الكافر وإن كان في بيته وبين أهله ﴿سَكُنْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبُ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ﴾.

والقرآن يفتح باب الأمل للمؤمنين حتى وهم في حالة الهزيمة والنكسة، ويستنهض فيهم عناصر القوة الكامنة في نفوسهم ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

سابعًا: مرحلة النكسة:

يصارح القرآن في بيانه هذا جيش المسلمين أنه قد فشل في وسط المعركة بعد أن حقق نجاحًا سريعًا في أولها ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَسِلْتُمْ ۖ ثُمَّ يَبَيِّنْ أَسْبَابَ هَذَا الْفَشْلِ ﴿وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ﴾، ثم عاد ليصوّر حالة الفشل هذه ﴿إِذْ تَصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَبِكُمْ فَأَتْبَكُمُ غَمًّا بَغِيرَ﴾.

إن القرآن يرسم في تقريره هذا منهجيته في الإصلاح والتصحيح، والتي تبدأ بالتشخيص الدقيق والصريح والمباشر، وجعل هذه المصارحة مقروءة على الملأ، الصالح منهم والطالح، والعدو منهم والصديق، وبهذا يُنهي القرآن الجدل حول أدبيات المراجعة والتقويم، والتي يرى بعض العاملين في مجال العمل الإسلامي المعاصر أنها ينبغي أن لا تكون مباشرة أو علنية؛ حتى لا يستفيد منها العدو، ولا تخدش في وحدة الصفِّ ومعنوياته، وما إلى ذلك من المبررات التي تفضّل إبقاء الورم تحت الجلد، وإحاطة العمل بهالة من الهيبة والتقديس.

ثامنًا: ظنون وتلاوم:

في كلِّ حالات الفشل يكثر التلاوم وتبادل التهم، وهذا هو الوجه المقابل للمراجعة الصادقة والجادّة، والوجهان قد يختلطان وتشابه السلوكيات الفرعية المنبثقة منهما، وبعض الذين يتخوّفون من المراجعة قد يتخوّفون منها لاختلاطها فعلاً بهذا السلوك المشين والمدمر ﴿وَلَا يَفْقَهُ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ وقصدتهم من هذا تركية النفس وتبرئتها من الخطأ، وإن كان في هذا طعن في الصفِّ كلّ، بل وسوء ظنٍّ بالله أنه لم ينصّر المؤمنين وهم أحبابه على الكافرين وهم أعداؤه.

وقد حقّب القرآن على هذا السلوك بقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا

فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١﴾ وهذا من ثمار المداولة وابتلاء المؤمنين ببعض نتائجها الثقيلة.

دقائق التفسير

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ كل الناس، وإن كان فيه ما يثقل على نفوس المؤمنين من بيان أسباب فشلهم ونكستهم، وهو تأكيد لمنهجية القرآن الصريحة والمباشرة في الإصلاح والتصحيح.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لام التعليل جاء بها لتعليل المداولة، ومجيئها بعد الواو يوجي بوجود تعليلات أخرى لم يشأ الله أن يذكرها، وهي قطعاً ليست مما يخصنا نحن البشر، وإنما هي من حكمة الله المطلقة والتي تخضع لها كل حركة وسكنة في هذا الكون.

﴿وَلِيَعْلَمَ﴾، ﴿وَيَتَّخِذَ﴾، ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾، ﴿وَيُمَحِّقَ﴾ هذه الأفعال الأربعة هي تعليلات المداولة، بيد أنه الحق اللام بالأول والثالث، وحذفها من الثاني والرابع، والظاهر أنه أثبتّها في كل فعلٍ مُتَحَقِّقٍ بعمومه من غير استثناء، فعلم الله تام وشامل، وكذا تمحيصه وتمييزه للمؤمنين، وهو متّصل بعلمه سبحانه أيضاً، أما اتخاذ الشهداء ومحق الكافرين فهما على التبعض؛ فليس كل المؤمنين شهداء، وليس كل الكافرين سيُمحَقَّقون، وليس كل مداولة تستلزم القتال.

ومعلوم أن إلحاق اللام في الفعل المعطوف جائز، وحذفه جائز، فلما ذكره في فعل وحذفه في آخر دلّ على قصد التأكيد في الأول بخلاف الثاني، والله أعلم.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿عِلْمُ اللَّهِ مُتَحَقِّقٌ وَشَامِلٌ وَمُسْتَعْرِقٌ لِلْمَوْجُودَاتِ عَلَى تَنَوُّعِهَا وَاخْتِلَافِ أَحْوَالِهَا﴾ ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١)

(١) سورة البقرة / ٢٩، وتكرّرت بعدها في القرآن الكريم كثيراً.

فالذي لا يعلمه الله لا يمكن أن يكون موجودًا، وعليه فنفي علم الله بشيء ما معناه نفي الشيء نفسه، فيكون معنى الآية: هل تظنون أنكم تدخلون الجنة من غير جهادٍ ولا صبرٍ؛ إذ لو كنتم جاهدتم وصبرتم لعلم الله ذلك منكم، والله أعلم.

﴿أَفَايُنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۚ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ الشكر مقابل النعمة هو حقُّ المنعم على عبده، والمقام ليس فيه نعمة ظاهرة، بل محنة ومصيبة قاهرة.

والظاهر أن القرآن يتكلم عن معنيين للشكر؛ معنى يقابل النعمة، وآخر مستقر في القلوب مطمئنة مهما كانت الأحوال، الأول جزء من تقوى العبد، والثاني غاية التقوى وسقفها الأعلى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وهو المعنى الذي لا يرى في أفعال الله إلا الخير وإن كانت ابتلاءً ثقیلاً، فالعبرة بالعواقب والخواتيم.

والقرآن يشير هنا إلى أن موت الرسول ﷺ بحاجة إلى مستوى من الإيمان واليقين والاتصال الوثيق بالله لكي يثبت العبد على الجادة ولا يهتز أو يضعف، والله أعلم.

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۖ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ قانون إلهي وميزان عادل، فمن يعمل للدنيا حقق الله له ما يريد وفق سنن الله الكونية ونواميسه المودعة في هذا الخلق، ومن يعمل للآخرة حقق الله له ما يريد أيضًا.

وفي هذا القانون جوابٌ لمن يسأل عن سرِّ تفوق المخلصين في عملهم ولو كانوا على دينٍ آخر، وتأخر المهملين والمقصرين ولو كانوا صوَّامين قوَّامين.

وفيه جوابٌ أيضًا لمن يسأل عن مصير المبدعين والمُنتجين ممن لا يؤمنون بالقرآن، ولا بالآخرة، ولا يسعون لها سعيها، ويشير القرآن إلى صنفٍ متميّز، وهم الذين يعملون ويجتهدون في العبادة وكلِّ أعمال الخير شكرًا لله، وهؤلاء مع طمعهم بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة لكنهم حينما يتعبّدون الله لا يستحضرون إلا حقه ﷻ عليهم، فالعبادة خالصة

لوجهه، وجزاء الله لهم منة وكرم وفضل، هذه هي العلاقة الأرقى والتي لا تناسب إلا أولئك المقربين.

﴿قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ وهذه صفات الربانيين الموصولين بالله، والذين يسمون عن آلام الجسد وخسارة الدنيا بربانيتهم وثقتهم بما عند الله؛ إذ الرِّيتون جمع رِبٍّ، وهو اسمٌ منسوبٌ إلى الرب، وهو الربَّانيُّ بمعنى، وتغيير فتحة الراء إلى الكسرة واردة في النسبة كثيراً.

ومن قال بأن معناه: الجماعات الكثيرة، نسبة إلى الرِّبة، وهي الجماعة، وهو وارد في اللغة أيضاً، والأول أنسب لمقام المدح والتأسي، والله أعلم.

﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ﴾ تعبيرٌ عن سرعة التقدم في الميدان، وإزاحة صفوف العدو، وهذه هي المرحلة الأولى من المعركة.

﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ أي: عصيتُم أمر قائدكم، وهم الرماة الذين خالفوا أمر رسول الله ﷺ فتركوا مواقعهم، وتقدموا نحو الغنائم، فكانوا السبب في النكسة، والمعصية هنا ليست ذنباً كبقية الذنوب التي يتعرّض لها كلُّ البشر عدا الأنبياء ﷺ، بل هي معصيةٌ لأمر القائد في ميدان المعركة، وهذه هي التي تُسبب النكسات لنا ولغيرنا.

وتعميمُ المعصية في هذا السياق على كلِّ مخالفة دينية لا يصحُّ؛ إذ لو صحَّ لما انتصر جيش من جيوش المسلمين، فليس هناك جيشٌ معصومٌ ومبرأٌ من المعاصي، وقد نصر الله جيوشاً كثيرة وفتح على أيديهم رغم ما فيهم من الذنوب والمعاصي، وليس معنى هذا التهوين من خطر الذنوب، خاصّةً تلك التي تفتُّ في عضدِ المقاتلين كالغيبة والنميمة، والتحاسد والتباغض، لكنَّ معصيةً أُحد كانت إخلالاً بالنظام العسكري أكثر من كونها ذنباً مثل بقية الذنوب، والله أعلم.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُ عَلَى أَحَدٍ﴾ أي: تهربون في الأرض على غير هدى

ولا خطة مرسومة، هروباً لا يبقى معه تذكُّر لعزیز أو ضعيف يستحقُّ منكم الإغاثة والرافة، وهو تعبيرٌ عن شدة النكسة، وما صاحبها من هلع واضطراب.

﴿فَأَثْبَكُمْ غَمًّا بِغَمِّ لَيْكِيلاً تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾
غمٌ مرَّكَبٌ؛ لأنها نكسة بعد نصر، فهي أشدُّ وقعاً، وأكثر إيلاماً، وفيها فات النصر المأمول، وضاعت الغنائم التي كانت سبب النكسة، واستعمل الثواب بدل العقاب؛ لأن الأصل في المجاهد أنه يسعى للثواب، فلما تغيَّرت النوايا وحصلت المعصية كان ثوابهم غمًّا بغم.

وأما قوله: ﴿لَيْكِيلاً تَحْزَنُوا﴾ مع أن الحزن غمٌّ، فهو حاصل بالضرورة، فالأظهر أنه توجيه بصيغة الخبر، بمعنى: أن ما أصابكم من غمٍّ وحزنٍ وأذى يكفيكم لتدبروا حالكم وأسباب ما نالكم فتستفيدوا من أخطائكم؛ فذلك هو طريق الخروج من أحزانكم وآلامكم، وهذا من شأنه أن يفتح باب الأمل والتفاؤل.

وقد اقترن هذا بلطفية ربانية أعقبت ذلك الغمَّ ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُّعَاسًا﴾
وهو إيذان بأن الغمَّ مرحلة ينبغي أن تنتهي سريعاً؛ لينطلق الناس في ميدان التصحيح العملي، والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَاقَتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ إِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ تَكُنْ فُطْرًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَقُضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جِهَتٌ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرِهِمْ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنْتَ هَذَا أَقَلُّ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلِيَعْلَمِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا فَتُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ فِتْنًا لَا نَتَّبِعَنَّكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ يَأْفُوهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾

دروس المعركة

أولاً: التربية والتعليم:

يُذَكِّرُ الْقُرْآنُ فِي هَذَا الْمَقْطَعِ بِأَهْمِيَّةِ التَّعْلِيمِ الْمُسْتَمِرِّ وَالْمُنْتَسِقِ مَعَ الْأَحْدَاثِ، وَتَرْكِيَةِ النَّفْسِ وَحَمَلَهَا عَلَى طَرِيقِ الْخَيْرِ وَالْهُدَى.

جاء هذا من خلال ربط أحداث أُحُدَ بأصل الرسالة القائم على التعليم والتزكية ﴿لَقَدْ

مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ﴿ ثم بالدروس التي يُسجّلها القرآن من مجريات الحدث نفسه، وهي عملية تربوية مركّبة تجمع بين العلم والعمل، والنظرية والتطبيق.

وتظهر الحاجة هنا أكثر في صفوف المجاهدين؛ لما يجرّ عليهم الجهل وقلة التفقه والتزكية من تصوّرات وتصرفات خطيرة تُودي بمستقبلهم ومستقبل أمتهم.

ثانيًا: صفات القائد الناجح:

ذكر القرآن جملةً من صفات القائد والتي تجسّدت في شخص الرسول ﷺ لتكون مثالا لكل من يتولى القيادة من بعده:

١- اللين والصفح والعفو ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِدَلِيلٍ لَوَكُنْتَ فَعَا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ وهذه الأخلاق جاءت مُغيّاة بغاية عملية، وليست مجرد سجيّة ذاتيّة، وهذه الغاية هي الحفاظ على وحدة الجماعة، وتأليف القلوب، وإشاعة جوّ عام من الثقة والمودة والرحمة.

ثم ذهب القرآن إلى العمق النفسي لاستشعار هذه المودة وإرادة الخير حتى بالعصاة والمخالفين ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ وهذا الأمر أعمق بكثير من المجاملات اللفظية التي يتبادّ لها الناس فيما بينهم، إنها إرادة الخير لهم بصدق ومحبة، فهو لا يكتفي بالعفو عنهم، بل ويدعو الله أن يعفو عنهم أيضًا.

٢- الشورى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ الشورى: تداول المعلومات والأفكار للوصول إلى الرأي الأصوب، والأظهر أنها مشاركة في صنع القرار وليست تقديماً للمعلومات، وهذه المشاركة تدفعهم لتحمل المسؤولية في إبداء الرأي وفي التنفيذ، وهي تُعزّز ثقتهم بالقيادة.

والظاهر أن قوله تعالى: ﴿فِي الْأَمْرِ ﴾ أنه الأمر العام الذي يهّم الناس، أما الأمور الشخصية والعائلية ونحوها فلها فقهها الخاص، وكل حالة منها تُقدّر بقدرها، والطرح العام فيها غير وارد.

ومن اللافت هنا أن عاقبة الشورى في معركة أُحُد كانت غير مشجعة؛ حيث استجاب الرسول ﷺ لرأي الأغلبية في الخروج لملاقاة العدو خارج المدينة، ومع هذا يأتي تأكيد القرآن لهذا الحق ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ وفي هذا دفع لمن يتنكر للشورى بذريعة النتائج التي قد تأتي بعض الأحيان بخلاف المطلوب، وهذا مُتَوَقَّع في كل اجتِهاد، والشورى اجتِهادٌ أيضًا لكنها اجتِهادٌ جماعيٌّ.

٣- الأمانة ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغْلُ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ والغلول هنا هو التصرف في المال العام الذي تحت يده بغير وجه حق، ويُقاس عليه كل ما تحت يد القيادة من معلوماتٍ وأسرارٍ وكل ما يتعلق بأمن الناس وحياتهم.

ثالثاً: محاسبة النفس:

الإنسان خطأ بطبعه وأصل تكوينه، وليس مطلوباً منه أن لا يُخطئ، بل المطلوب منه أن يعترف بخطئه، ويؤدّي ما عليه من استحقاقٍ بسبب هذا الخطأ توبةً لله، وأداءً لحقوق الناس، وأن يستفيد من خطئه هذا تجربةً حيّةً في مستقبل عمله، وهذه هي المحاسبة التي تقود إلى التصحيح الذاتي ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّنَا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾.

والناس مُتَفَاوِثُونَ في هذا المقام بقدر تفاوتهم في استحضر المعاني الإيمانية، وفي مستويات تربيتهم الروحية ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرُورٍ يَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

رابعاً: سنن الله الغالبة:

إن ما يُصِيبُ النَّاسَ من خيرٍ وشرٍّ، ونصرٍ وهزيمةٍ لا يخرج أبداً عن إرادة الله المطلقة وسننه الكونية التي أقام عليها هذا الوجود: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾ وهذا القدر الإلهي

ليس قدرًا عبثيًا، ولا قدرًا مزاجيًا - جلَّ الله وتعالى عن ذلك -، بل هو وفق سننه الكونية المنبثقة من مجموع أسمائه الحسنی، وصفاته العلی؛ كالعلم، والحلم، والحكمة، والرحمة.

خامسًا: عقيدة المسلم في الموت:

الموت هو المصير الحتمي لكل كائن حي، ليس في ذلك شك ولا خلاف، وإنما يقع التساؤل عادة حينما يكون ذلك بأسباب بشرية؛ كالقتل، والقتال.

وهنا تتكرر الأسئلة عن مدى مسؤولية الإنسان، وعادة ما تبرز هذه الأسئلة بنوع من التلاوم، والحقيقة أن الندم أو التلاوم قد يكون مشروعًا إذا انصبَّ ذلك على قصد الفاعل ومشروعية فعله، أما الأجل فهو محسوم ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

فموقف المسلم هنا أنه لا يخشى الموت، ولا يتلاوم فيه، لكنه مطلوب منه البحث عن موقفه الشرعي نيَّة وعملاً، فهو إنما يُحاسب على ذلك، فالقاتل الظالم بقتله يبوء بإثم نيته وفعله، ويتحمل مسؤولية ذلك في الدنيا والآخرة، أما أجل القتل فهو غيب محض لا يخضع للبحث والنقاش، وهذا الغيب مكتوب لا محالة على كل إنسان.

سادسًا: مكانة الشهداء:

لا تختلف الشهادة عن الموت من حيث إزهاق الروح ومفارقتها للجسد، ومن حيث كونها بأجل محتوم لا يحيد عنه ميت ولا شهيد، وكذا ما ينبني عليهما من أحكام دنيوية؛ كالمراث، وعدة الزوجة، ونحوهما، وإنما الفارق في ما أعدَّه الله للشهداء من كرامة ومكانة، وما ذاك إلا لوجود النيَّة السليمة وارتباطها بالسلوك الشرعي المقبول عنده سبحانه ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١١٩) فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ

فَضْلِهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٠﴾ وَذَكَرَ الشَّهَادَةَ هُنَا فِيهِ رَدٌّ عَلَى تَلَاوُمِ الْمُنَافِقِينَ وَضَعْفَاءِ الْإِيمَانِ، وَتَخْفِيفٍ عَنْ ذَوِي الشَّهَادَةِ، وَفِيهِ دَافِعٌ كَبِيرٌ لِلتَّضْحِيَةِ بِالنَّفْسِ كُلِّهَا حَانَ وَقْتُهَا.

سابعًا: دور المنافقين:

لَمْ يَكْتَفِ الْمُنَافِقُونَ بِإِعْلَانِ انْشِقَاقِهِمْ وَانْسِحَابِهِمْ فِي وَسْطِ الطَّرِيقِ، وَهُوَ مَوْقِفٌ لَا يُمْكِنُ تَبْرِيرُهُ بِأَيِّ مَقْيَاسٍ، خَاصَّةً أَنْ جَيْشَ أَحَدٍ كَانَ بِقِيَادَةِ مُبَاشِرَةٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَالانْشِقَاقُ عَنْهُ مُؤْذِنٌ بِالْانْشِقَاقِ عَنِ الدِّينِ نَفْسَهُ ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنَنْتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَدْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَكُمُ هُمْ لِلْكَافِرِينَ مَوَدَّةٌ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ بَلْ زَادُوا عَلَى ذَلِكَ فِي مُبَاشَرَتِهِمْ لِلْإِيذَاءِ النَّفْسِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أَصَابَهُم الْقَرْحُ الشَّدِيدُ فِي تِلْكَ الْمَعْرَكَةِ ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

وَلَا يَبْعَدُ أَيْضًا أَنْ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذَا الْمَقْطَعِ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغْلَ﴾ جَاءَ رَدًّا عَلَى إِشَاعَاتِ الْمُنَافِقِينَ الَّتِي مَسَّتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي أَمَانَتِهِ، وَهُوَ الصَّادِقُ الْأَمِينُ قَبْلَ الْبَعْثَةِ وَبَعْدَهَا، بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي.

وَهُنَا مَلْحُوظَةٌ لَا بُدَّ مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَيْهَا، وَهِيَ: أَنَّ أَهْلَ السَّيْرِ يَذْكُرُونَ أَنَّ عَدَدَ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا نَحْوَ ثَلَاثِمِائَةٍ وَهُمْ ثُلُثُ الْجَيْشِ، وَهَذَا رَقْمٌ كَبِيرٌ وَرَبَّمَا دَخَلَتْهُ التَّقْدِيرَاتُ الْخَاطِئَةُ؛ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِحْصَاءٌ مُعْلَنٌ بِأَسْمَاءِ الْمُنَافِقِينَ، وَإِنْ صَحَّ هَذَا التَّقْدِيرُ فَهُوَ لَعَدَدُ الْمُنْسَحِبِينَ، وَهَؤُلَاءِ قَدْ يَكُونُ فِيهِمْ مِنَ الضَّعْفَاءِ وَالْمُتَرَدِّدِينَ مِمَّنْ لَمْ تَتَعَمَّقْ فِيهِمْ مَعَانِي التَّضْحِيَةِ، وَلَيْسَ شَرْطًا أَنْ يَكُونُوا كُلُّهُمْ مُنَافِقِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

دقائق التفسير

﴿إِنَّمَا أَسْأَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ إشارة أن الذنب الثاني من عقوبة الذنب الأول، فمن اقترف ذنباً ولم يتب منه كان أقرب لارتكاب الذنب الثاني، وهكذا يكون الانحدار نحو الفسوق، ومن هنا تتأكد أهمية التوبة، ليس في كونها تمحو الذنب الأول فقط، بل لتقي من الذنب الثاني.

﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فالتلاوم في الآجال المحسومة لا يقود إلا إلى الحسرة، هذا واقع، وهو من سنة الله، وهو المقصود بالجعل هنا، والله أعلم.

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ رَحْمَةُ اللَّهِ هُنَا قَدَرِيَّةٌ وَتَشْرِيعِيَّةٌ، فَرَحْمَتُهُ الْقَدَرِيَّةُ أَنْ اخْتَارَ لَنَا هَذَا النَّبِيَّ الرَّؤُوفَ الرَّحِيمَ، وَرَحْمَتُهُ التَّشْرِيعِيَّةُ أَنَّهُ شَرَعَ وَوَجَّهَ بِكُلِّ مَعَانِي الرَّحْمَةِ وَمُفْرَدَاتِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ إشارة إلى أن المصلح إذا كان من القوم يكون أدعى لتحقيق الإصلاح فيهم؛ لأنه يعرفهم تمام المعرفة، كما أن فيها إشارة حبٍّ وودٍّ تجاه ذلك النبي الكريم ﷺ.

﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ دلالة أن النفاق ليس شرطاً أن يكون انحيازاً كاملاً للكفر، بل قد يكون نوعاً من الضعف والتردد بسبب اضطراب المصالح والعلاقات، وهو يفتح الباب للدعاة والمصلحين أن لا يياسوا في دعوتهم من أحد.

وقد يكون المعنى: أن موقفهم هذا أقرب لأهل الكفر، فهو حكم على الظاهر من تصرّفاتهم، ثم عقب مباشرة ببيان ما في نفوسهم ﴿يَقُولُونَ يَا فَوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ والله أعلم.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ دلالة أن الشهادة إنما تكون لمن يُقتل في سبيل

الله ومات على الإيمان ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أما التوسُّع في إطلاقها لرفع معنويات
المقاتلين الذي يقاتلون في سبيل الأوطان خاصة والمصالح الدنيويَّة والحزبيَّة، فهو خروجٌ
عن الدلالة القرآنية.

وأما إثبات الحياة والرزق للشهداء فهو من حالات الغيب التي لا نعلم كيفيَّتها، ولا
ينبغي عليها حكمٌ عمليٌّ بالنسبة لنا، والحياة الأُخرويَّة لها صور كثيرة، منها: حياة البرزخ،
وحياة الشهداء، وحياة الأنبياء، وهو عالمٌ آخر نُؤمِّنُ بما جاء عنه بالدليل، ونكِلُ التكيفَ
والتفصيلَ.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى دِيَارِهِمْ فَأَتَى الْفِرْعَوْنَ أَصْحَابُ الْأَيْمَنِ الْمَكِيدُونَ ﴿١٧٤﴾ وَاللَّهُ دُفُّ فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٥﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٦﴾ وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يَسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرًا لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيْزِدُوا إِشْمَاقًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٩﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَابَعُوا قَوْلَ رُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٨٠﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨١﴾﴾

الرد السريع

تعمد الجيوش المنكسرة عادة إلى رد الاعتبار، وإعادة الثقة بجنودها، وتوجيه رسالة لكل من يعنيه الأمر أن الانكسار مرحلة من مراحل الصراع لا أكثر، من هنا جاءت غزوة (حراء الأسد)، وهي التي دعا لها رسول الله ﷺ في اليوم التالي من النكسة لتعقب جيش المشركين الذي كان يشعر بالزهو، وقد تفاجأ فعلاً بهذا الخروج المفاجئ والمبكر، فالمشركون حينما قرروا رد هزيمتهم في بدر جاءوا بعد ما يزيد على السنة، أما أن يكون الرد في اليوم التالي فهو مفاجأة ثقيلة لا يقوى على تحقيقها إلا جيش مرتبط بعقيدة سماوية أقوى من كل الحسابات الأرضية.

ويذكر أهل السير أن المشركين كانوا قبل هذه المفاجأة يفكرون جدًّا بالرجوع إلى المدينة واستئصال الوجود الإسلامي فيها.

لقد أثر حُكماء قريش الانسحاب من المواجهة بعد مراسلات غير مباشرة تأكدوا فيها من عزم المسلمين على رد الاعتبار وجرمان المشركين من لذة الغلبة والانتصار، وبهذا تكون

(جراء الأسد) الغزوة الأسرع إعدادًا وتجهيزًا، والأقل خسائر، والأكبر نتائج.
ويُذكر أن الرسول ﷺ قد انتدب المسلمين للخروج ممن شارك فعلاً في معركة أمس،
وهذا المقطع كله إنما جاء ليوثق هذه التجربة.

دقائق التفسير

﴿أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ حيث فقدوا خيرة الأصحاب، منهم: حمزة عم رسول الله، ومصعب
سفيره لأهل يثرب، كما جرح رسول الله ﷺ وأُشيع خبر مقتله، والخسائر المعنوية والنفسية
(الغم) لم تكن بأقل من ذلك.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ يذكر أن الذي قال لهم ذلك رجل واحد، فيكون هذا من باب
إطلاق العام وإرادة الخاص، والصيغة تُوجي بجهالة الناقل، وكأنها نوع من الإشاعة
والحرب النفسية لا أكثر.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ إشارة إلى النصر المرحلي الذي أحرزه
المشركون في أحد، وهنا تأكيد للمعيار الكلي في تقويم الأمور والأحداث والأشخاص،
فليس كلُّ غالبٍ إلى خير، وليس كلُّ مغلوبٍ إلى شرٍّ.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ فالمال نعمة
كما النصر والجاه والصحة والقوة، والعبرة دائماً ليس في ذات النعمة، بل في سلوك الإنسان
قبلها ومعها وبعدها، وكأن القرآن يرى حاجة البشرية لتصويب نظرتها لمعيار الحق والباطل،
والحسن والقبح، والفضيلة والرديلة، فتلك النعم كلها لا تعني الأفضلية على الخلق إن لم
تقترن بالإيمان والعمل الصالح، بل قد تكون سبباً للبلاء والشقاء في الدنيا والآخرة، إضافةً
إلى ما يمكن أن يُسببه البخلُ من هزيمة عامة لا ينجو من ضررها البخيل نفسه.

سُورَةُ الْعَمْرَانِ

بِرَفَقَةٍ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُونُوا
 عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٧٨﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٧٩﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ
 نُؤْمِنَ بِرُسُولِهِ حَتَّى يَأْتِيََنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن
 كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٨١﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ
 الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا
 مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿٨٢﴾ لَتَبْلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَسْمَعُكُم مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ
 وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّن عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ
 أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿٨٤﴾ لَا
 تَحِبُّوا الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَاوَا وَيَحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨٥﴾ وَلِلَّهِ
 مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨٦﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي
 الْأَلْبَابِ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا
 بَطَلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٨٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِّنْ أَنْصَارٍ ﴿٨٩﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا
 مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿٩٠﴾ رَبَّنَا
 وَمَا نَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿٩١﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ
 مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِّي بَعْثُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ
 سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّتِ بَجَرَىٰ مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿٩٢﴾ لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا فِي آلِيكِ ﴿٩٣﴾ مَتَّعَ قَلِيلًا ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيُبْسُ إِلَهَادُ ﴿٩٤﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّتٌ بَجَرَىٰ مِّن
 تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا تِلْكَ فِيهَا تُدْخِلُ اللَّهُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿٩٥﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا
 أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِمَا يَدَّيْنِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ
 اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٩٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبَرُوا وَصَابَرُوا وَرَاطَبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٧﴾

بعد الانتهاء من معركة أُحُدٍ وتداعياتها والدروس المستفادة منها عاد القرآن إلى موضوع السورة الأساس، وهو العلاقات بأهل الكتاب، وربما كانت المناسبة بين الموضوعين هو موقف أهل الكتاب من المسلمين بعد نكسة أحد ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ والتطرق مجددًا إلى أهل الكتاب حمل انتقادات حادة لمواقفهم، ونماذج صارخة من سلوكياتهم، كما جاء بتوصيات جامعة ومركزة للمسلمين، ويمكن تلخيص هذا في النقاط الآتية:

أولاً: حال أهل الكتاب:

١- **التعالي على الله ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾** وهذه جرأة ووقاحة لا تنم إلا عن سوء في التدئين، وسوء في الخلق، وهي تعبر عن تشوش واضطراب في مفهوم الإيمان وعلاقة هذا المخلوق بخالقه.

٢- **الكذب على الله ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾** وهذه الكذبة تحمل في ذاتها دلالة ضمنية على انتظارهم لنبي، فمن هذا النبي؟ وأين ذهبت هذه النبوة؟

٣- **قتل الأنبياء ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾** ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

٤- **كتمان الحق ونبد الكتاب ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مُمْنًا قَلِيلًا﴾**.

٥- **التحالف مع المشركين ضد المؤمنين ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾**.

٦- الرياء الكاذب ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحَمِّدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ وهذا سوء مركب، فالناس يراؤون بصالح أعمالهم، فيكون الرياء سبباً في بطلانها وقطعها عن الثواب المرجو منها، وهؤلاء يراؤون بأعمال لم يعملوها، بمعنى أنهم يدعونها ادعاءً، وقد ينسبون لأنفسهم أعمال غيرهم، وبهذا جمعوا بين الكذب والظلم والرياء.

٧- إن هذه الخلال والصفات الذميمة لا تصدق على عامة أهل الكتاب، فهناك صنفٌ مختلفٌ لم يشأ أن ينزل إلى هذا المنحدر ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

ثانياً: حال المؤمنين:

١- التفكير في هذا الكون والتأمل في نواميسه وسننه ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ وهذا التفكير هو ما يميز الإنسان عن سائر الكائنات، وهو وظيفة العقل المعطلة لدى كثير من الناس بسبب دورانهم في فلك الشهوات الجسدية، والمصالح المادية، وحبس اهتمامهم فيها.

إن أولي الأبواب (العقول) هم الذين يعملون عقولهم لاكتشاف أسرار هذا الخلق، وهي الخطوة الأولى على طريق الهداية.

٢- الاستجابة لنداء الإيمان ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا﴾ ولكي لا يتوهم واهم أن هذا الإيمان جاء تقليداً للمنادي من غير دليل ولا برهان، جاءت هذه الاستجابة بعد آيات التفكير والنظر في ملكوت الله، وإعمال العقول، وهذه الاستجابة تعبر في الوقت ذاته عن صدق مع النفس، واستشعار جدية الأمر، وإلا فهناك كثير ممن تقوم عليهم الحجة لكنهم يصرون على الباطل عناداً وتكبراً، أو رغبة في اللهو والعبث، وعدم الرغبة في تحمل تبعات الإيمان.

٣- الالتزام بتبعات الإيمان عبادةً وتضحيةً وثباتاً وصبراً ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾، ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقَتِلُوا لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ثالثاً: ميدان المنافسة وميزان العمل:

مع بيانه لحال الفريقين أخذ القرآن يحدد ميدان المنافسة، ومعيار التقويم في نقاط محددة وواضحة:

١- إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(١)، فالله هو ربُّ العالمين، خلقهم من العدم، وهو أعلم بهم منهم، وأرحم بهم من أنفسهم، وهو القادر على أن يفعل ما يشاء وكيفما يشاء، ومن كان كذلك فهو مبرراً عن الظلم؛ لأن الظلم صفة نقصٍ من كلّ وجه، فهي صفة مذمومةٌ بذاتها، وقبيحةٌ بصاحبها، وهي علامة عجز؛ حيث إنّ الظالم يخاف فوت مصلحةٍ أو شهوةٍ، أو يرغب في مضاعفتها، فيبادر بظلم الآخرين وأكل حقوقهم، أو أنه يظلم سهواً، فدلّ ذلك على غفلته وقلة علمه، وكلّ ذلك مُنافٍ لصفات الله العليم القدير سبحانه.

٢- إن كلّ مكلفٍ مسؤول عن سلوكه وعمله خيراً أو شراً ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ﴾ ﴿وَلِنَّمَا تُوَفَّقَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ﴾ فهذا هو الميزان الحقّ، فلا مجال للاعتذار بالقدر، فكلُّ فعلٍ إنما يُنسب لفاعله، فهذا مُصلّ، وذاك سارق، وهذا مؤمنٌ، وذاك كافر، ونسبة هذه الأفعال إلى القدر مغالطة ومحاولة لتشتيت المسؤولية الجزائية، فالله شرّع أحكاماً دنيوية، وثبّت جزاءات أخروية على هذه الأفعال، وإنما يُؤخذ الفاعل بفعله، أما أن تكون هذه الأفعال خاضعة تحت مظلة القدر الكلية، بمعنى: أن الله قد

(١) تكرر هذا الجزء من القرآن في ثلاث مواضع: آل عمران/ ١٨٢، الأنفال/ ٥١، الحج/ ١٠.

قَدَّرَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُمْتَحَنَ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَتُجَازَى عَلَى أَدَائِهِ، فَهَذَا الْقَدَرُ حَقٌّ، وَهُوَ مِنْ كِهَالِ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَأَلُوْهِتَّتِهِ، وَلَيْسَ فِيهِ نِسْبَةُ الْفِعْلِ لغير فاعله، أَوْ أَنَّ هُنَاكَ إِكْرَاهًا قَدْرِيًّا عَلَى الْفِعْلِ، فَإِكْرَاهُ الْمَخْلُوقِ لِلْمَخْلُوقِ مُؤْذِنٌ بِرَفْعِ التَّكْلِيفِ عَنِ الْمَكْرَهَةِ، فَكَيْفَ بِإِكْرَاهِ الْخَالِقِ لِلْمَخْلُوقِ؟

٣- إِنْ الْغَشُّ فِي هَذَا الْمِيدَانِ مُحَرَّمٌ وَمُؤْذِنٌ بِبَطْلَانِ الْعَمَلِ حَتَّى لَوْ كَانَ صَوَابًا فِي نَفْسِهِ، فَالْعَمَلُ يَنْبَغِي أَنْ يَنْتِجَ عَنْ نِيَّةٍ صَادِقَةٍ، وَعَنْ إِرَادَةٍ مُتَجَرِّدَةٍ لِفِعْلِ الْخَيْرِ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُجِبُونَ أَنَّ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾.

٤- إِنْ التَّقَلُّبُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ فِي نِعَمِ اللَّهِ أَوْ فِي ضَنْكِ الْعَيْشِ لَيْسَ دَلِيلًا عَلَى الْفَوْزِ وَالنَّجَاحِ، وَلَا الْهَلَاكِ وَالْخُسْرَانِ؛ فَأَحْوَالُ الْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ غِنًى وَفَقْرٍ، وَصِحَّةٍ وَمَرَضٍ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ لَا تَحْمِلُ دَلَالَةً مُعَيَّنَةً عَلَى نَتِيجَةِ الْمَسْعَى ﴿لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١١٦) مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعٌ الْفُرُورِ﴾ ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ﴾.

٥- إِنْ مِيدَانُ الْإِمْتِحَانِ يَمْتَدُّ حَتَّى الْمَوْتِ، وَهُوَ الْمَصِيرُ الْمَحْتَوَّمُ الَّذِي لَا يَسْتَثْنِي أَحَدًا ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

٦- إِنْ الْجَزَاءُ الْحَقُّ إِنَّمَا هُوَ الَّذِي سَيَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾، ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، ﴿لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سِيَآتِهِمْ وَلَا دُخَانَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾.

وَأَمَّا أُولَئِكَ الْكَاذِبُونَ الْمَكْذُوبُونَ ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، ﴿لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١١٧) مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

٧- إن من تمام العبودية الصادقة وعلامة الفوز أن يتضرع العبد بين يدي خالقه يطلب منه العفو والمغفرة، ولا يغترن بها يُقدّم، فإن الله له المنّة والفضل قبل العمل وبعده، فالله هو الذي ميزنا بالعقل، وحواس الإدراك، وأدوات العمل، وهو الذي علّمنا ما لم نعلم، ثم إن ما قدّمناه إنما هو لسعادتنا في الدنيا، والله هو الغنيّ عنا وعن عبادتنا، فالثواب على الحقيقة إنما هو كرمٌ وفضلٌ محض، ونحن لا نستحقّ الثواب إلا بوعده سبحانه؛ ولذا فإن الاغترار بالعمل دليلٌ على قلة الفقه، أو ضعف التدبّر ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ (١١٣) رَبَّنَا وَءَايُنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ.

دقائق التفسير

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ الله يسمع قول هؤلاء وقول غيرهم، ويسمع كلّ همسة وحركة في هذا الوجود، والتنصيص على السمع هنا قصد به لازمه وهو الغضب الشديد؛ إذ سماع الشتيمة بلا نقلٍ أو واسطة أدعى للغضب؛ ولذلك توعدّهم مباشرة ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وفي قوله: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ مقابلة القول بالقول، فلما قالوا كلمة الكفر، كانوا أولى بسماع قوله العذاب، و﴿ذُوقُوا﴾ خرجت عن ذوق اللسان، وهو المألوف في أصل الاستعمال إلى معنى مباشرة العذاب وتحسّسه يقيناً مؤكّداً، كما يتذوق اللسان المطعومات.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إشارة إلى أن قولهم في القربان الذي تأكله النار كذبٌ من كذبهم، قصدوا بها التنصّل من الاعتراف بالحقّ المؤيّد بالبراهين القاطعة، وحرف مسار الحوار إلى مثل هذه المباحكات، وقد كشف الله نواياهم هذه ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ

وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ ﴿ وَالْقُرْآنَ هُنَا يَذْكُرُ بِحَادِثَةِ قَتْلِ الْيَهُودِ لِنَبِيِّ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ جَاءَهُمْ بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ كَمَا طَلَبُوا.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ تقريرُ المصير الواحد الذي ينتظر البشر بِمُخْتَلَفِ أَسْمَائِهِمْ وانتهاءِ أَيْتِهِمْ، وفيه إشارة لتسليّة المؤمنين على ما فَقَدُوهُ مِنْ أَحْبَابٍ وَأَصْحَابٍ فِي مَعْرَكَةِ أُحُدٍ.

﴿ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ الْكَارِ ﴾ إشارة إلى صعوبة ذلك بسبب طبيعة البشر، وكثرة ظلمهم لأنفسهم؛ لأن الزحزحة عن الشيء تعني قرب الوقوع فيه، وهي إشارة تحذيرية وتربوية تجعل المرء أقرب للطاعة، وأبعد عن المعصية.

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ في الدنيا نِعَمٌ كَثِيرَةٌ وَجَلِيلَةٌ، وَقَدْ أَمْتَنَ اللَّهُ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ، وَالتَّهْوِينُ مِنْهَا هُنَا تَهْوِينٌ نَسْبِيٌّ؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ هُنَا مَقَامُ الْآخِرَةِ، وَالدُّنْيَا بِالنِّسْبَةِ لِلْآخِرَةِ لَيْسَتْ بِشَيْءٍ؛ لِأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ الْخُلُودُ، وَكُلُّ عَمْرٍ يُقَاسُ بِالْخُلُودِ فَهُوَ لَيْسَ بِشَيْءٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُجِبُونَ أَنَّ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ أَي: بِمَا آتَوْا مِنْ جَرَائِمٍ وَمَظَالِمٍ؛ كَتَحْرِيفِهِمْ لِلكِتَابِ، وَقَتْلِهِمْ لِلنَّبِيِّينَ، وَتَعَدِّيهِمْ عَلَى مَقَامِ الرَّبِّ الْجَلِيلِ سُبْحَانَهُ، وَهَذَا سُلُوكٌ مَعْرُوفٌ وَمَأْلُوفٌ، فَالكَثِيرُ مِنَ الظَّالِمِينَ يَشْعُرُونَ بِالزَّهْوِ وَلَذَّةِ الْإِنْتِصَارِ مَعَ كُلِّ جَرِيْمَةٍ يَرْتَكِبُونَهَا، فَكُلُّ أَعْمَالِهِمُ الْمُنْكَرَةُ يَعُدُّونها إِنْجَازَاتٍ وَإِنْتِصَارَاتٍ، وَهُمْ مَعَ هَذَا يَرِيدُونَ مِنَ النَّاسِ وَحَتَّى الْمَظْلُومِينَ أَنْ يُصَفَّقُوا لَهُمْ وَيَشْكُرُوا لَهُمْ عَلَى مَا قَدَّمُوهُ لَهُمْ! بَعْدَ تَزْيِينِهِ بِالْكَذِبِ وَالْبَاطِلِ، وَهَذَا هُوَ الرِّيَاءُ الْمُرْكَبُ بِالظُّلْمِ وَالْكَذِبِ، وَالَّذِي اسْتَحَقُّوا بِهِ ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِعَفَاةٍ مِنْ الْعَذَابِ ﴾.

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ تَرْغِيبٌ بِالذِّكْرِ، وَتَيْسِيرٌ عَلَى الذَّاكِرِينَ لِيَذْكُرُوا رَبَّهُمْ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ، وَوَضْعٍ وَحَالٍ؛ لِمَا لِلذِّكْرِ مِنْ دَوْرٍ فِي تَهْدِيبِ النَّفْسِ وَتَرْكِيتِهَا وَدَفْعِهَا لِلْعَمَلِ وَالسُّلُوكِ الْأَفْضَلِ.

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ ترغيب في الدعوة إلى الله، وفي النداء معنى الصراحة والوضوح والشعور بجديّة الأمر، وكل هذا من شروط نجاح الدعاة في مهمتهم.

﴿إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ وهو الميعاد بالثواب وقبول التوبة واستجابة الدعاء، والله لا يخلف أبدًا ما وَعَدَ به، أما الوعيد فإنه مختلف؛ لأن العفو عن مستحق العقوبة واردٌ، وهو من كمال ربوبيّته سبحانه، وهي صفةٌ محمودةٌ في الخلق، فكيف بالخالق الذي هو الأرحمُ بعباده، والأغنى عن معاقبتهم؟

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ إشارة أنهم الكبار الذين يتحكّمون في البلاد والعباد، والذين يغترُّ بهم عامة الناس؛ لما يمتازون به من متاعٍ وأبهةٍ وسلطانٍ.

﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ ثلاثة أوامر ربّانيّة للعباد المؤمنين تختتم بها السورة، والفرق بين الصبر والمصابرة: أن المصابرة لا تكون إلا بوجود خصمٍ صابرٍ على باطله لتحقيق المشاركة والمغالبة، وهو مُستوى من الصبر أشدُّ من الصبر الأول؛ لأنه يستلزم المطاولة وحبس النفس إلى نهاية المشوار، فإنما الأمور بخواتيمها.

وأما المُرَابطة فهي المكوث في موضع الحراسة أو ساحة الجهاد، مع الحذر والاستعداد التام، ويُقاسُ عليها الثبات في كل ميادين الحق؛ من دعوة، وتربية، وعلم، وعمل، وهي معاني التقوى، وشروط الفلاح ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

سُورَةُ النَّبَاِ

المجلس الرابع والثلاثون: وحدة الأصل البشري

المجلس الخامس والثلاثون: نظام الإرث

المجلس السادس والثلاثون: المجتمع الظاهر

المجلس السابع والثلاثون: تنظيم شؤون المجتمع

المجلس الثامن والثلاثون: اليهود وعداوتهم للمؤمنين

المجلس التاسع والثلاثون: التشريع ومرجعية الحكم

المجلس الأربعون: التربية العسكرية

المجلس الحادي والأربعون: العلاقات العسكرية

المجلس الثاني والأربعون: توجيهات تربوية للمقاتلين

المجلس الثالث والأربعون: العلاقات الأسرية

المجلس الرابع والأربعون: المنافقون

المجلس الخامس والأربعون: أهل الكتاب

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَثِيرًا ۝٢ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِسُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَنَّىٰ وَتِلْكَ وَرِثَةٌ لِّكُمْ إِنَّمَا يُوَفَّىٰ الْوَلَدُ أَهْلُهَا ۝٣ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدَّبَ أَلَّا تَعْلَمُوا ۝٤ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَسًا مَرِيئًا ۝٥ وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝٦ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۝٧ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝٨ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٩ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝١٠ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَفًا يَخَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝١١ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٢﴾

وحدة الأصل البشري

تستهل سورة النساء ببيان وحدة الأصل البشري ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ﴾ وهذه النفس هي نفس آدم ﷺ، ثم أجابت السورة عن سؤالٍ قد يرد بهذا الصدد بشأن حواء: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فهي مخلوقة من جسد آدم.

وقد ورد في الحديث أنها «خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ»^(١)، وبهذا يكون جميع البشر الذكور والإناث

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة ؓ، ينظر: صحيح البخاري (٣/١٢١٢) دار ابن كثير، تح. د. مصطفى البغا، ط. ٣،

١٤٠٧ - ١٩٨٧ م)، وصحيح مسلم (٢/١٠٩٠) دار الجليل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح. مجموعة

من المحققين).

ومن طرفي الأب والأم يرجعون إلى أصل واحد، ونفس واحدة، وهذا مبدأ المساواة في الإسلام، بخلاف الفلسفات والنظريات الأخرى التي تُؤسّس للتمييز العنصري ثقافاً وسياسةً.

ومن أسس المساواة في الإسلام: أن جعل دائرة الولاء مفتوحة لكل داخل، بخلاف الولاءات القومية والقبلية والوطنية ونحوها مما لا تتسع إلا لقوم مخصوصين، قد ورثوا هذا الولاء وراثته من غير قرار ولا خيار، فالمرء في هذه الولاءات مقيد بما ورثه من أبيه جنساً ولوناً، لا يملك فيه تغييراً ولا تعديلاً.

أما الولاء الإسلامي فهو ولاء (إيمان)، وبوسع الناس كلهم أن يدخلوا فيه مهما كان جنسهم ولونهم، ومن هنا جاء الخطاب القرآني الكريم مصدراً بـ ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾.

وقد حمل بعض المتأخرين خلق حواء من آدم على أنها خلقت من نوعه، وليس من جسده، وهو تكلف لا تحتمله اللغة، ولا حاجة إليه؛ فقصة الخلق بالنسبة لنا غيب، ولا سبيل لإدراك الغيب إلا بالوحي، والنص ظاهر في أن الله خلق حواء من نفس آدم، وحمل النص على غير ظاهره بلا قرينة صارفة لا يصح، والله أعلم.

هذا وقد تضمن هذا المقطع مسائل تفصيلية تدرج تحت هذا الأصل الكبير، ومنها:
حقوق اليتامى:

المسألة الثانية التي يتناولها المقطع تتعلق بحقوق اليتامى الذين يفقدون آباءهم وهم في سن الصغر دون البلوغ، وهؤلاء بحاجة إلى رعاية خاصة أمينة وحانية، وقد مهّدت السورة لهذا الأمر بالتذكير بمكانة الأرحام ومنزلتهم في الدين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ ﴿وَأَتُوا آلِنَّكُمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ فالذي يتولّى شؤون الأيتام في العادة لا يخرج عن دائرة الأرحام.

ثم نصّ على الحقوق المالية لليتيم؛ لأنها مظنة الطمع، ولأنها قد تتداخل مع مال الوصي، فيكون هناك نوع من التجاوز وإن كان بغير قصد.

ثمَّ عرَّج على أمرٍ في غاية الحساسية متعلق بمصير اليتيمات؛ حيث يَكُنَّ عُرضَةً لهضم حقوقهن الماديّة والمعنويّة والاجتماعيّة في مرحلة انتقالية من أعمارهنّ، وهي مرحلة التهيؤ للزواج، وهنا قد تتدخل الرغبات من قِبَل الأوصياء لدفعهن للزواج بغير رضا، أو من غير كفاء، أو بمهر أدنى من مثيلاتهم، وقد لا يكون الأمر بإكراه، وإنما حياؤهنّ ووفاءهنّ لمن أحسن إليهنّ وتكفلهنّ قد يمنعهنّ من إبداء رأيهنّ.

ومن هنا جاء التوجيه الربّاني بأخذ الحيطة ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِسُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ ۖ كَأَنَّهُ يَقُولُ: إن النساء غيرهنّ كثير، فدعوا ما فيه شبهة الإجحاف والجور، ثم نبّه إلى حقّ آخر يشمل الأيتام واليتيمات ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ﴾.

وفي هذا التنبيه أحكام وتوجيهات كثيرة، تبدأ باختبار اليتيم واليتيمة للتأكد من قدرتهما على التصرف بأموالهما التصرف السليم، خاصة وأنها سينتقلان إلى حياة جديدة بمسؤوليات وواجبات جديدة، ومن ذلك مثلاً: أن اليتيمة التي ستزوّج من رجلٍ أجنبيّ قد تكون عُرضَةً للابتزاز، واستحواذ زوجها على مالها بعدم إدراكها، وضعف خبرتها، وغلبة عاطفتها، وهذه حالة من حالات كثيرة استوجبت ذلك التنبيه الربّاني ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ ۖ﴾.

حقوق الزوجات:

جاء الحديث عن حقوق النساء في هذا الموضع تفريعاً عن حقوق اليتامى، وملاحظة هذا النسق تُعيننا على فهم بعض المسائل التي قد ترد هنا؛ ومنها: استهلال الحديث عن حقوق النساء بالتعدد، وهو إنما جاء لترغيب الأوصياء، وبيان سعة الخيارات المتاحة أمامهم بعيداً عن شبهة الحيف بالزواج من اليتيمات اللواتي تحت أيديهم، وقد ذهب بعيداً من ظنّ أن التعدد في الزواج أصل، فإن السياق لا يقتضيه، والله أعلم.

وقد وهِمَ أيضاً مَنْ عدّ التعدّد حقّاً للأزواج، فحاجة المرأة في الزواج ولو كانت ثانية أو

ثالثة أو رابعة أولى من حاجة الرجل؛ ولذلك ترغب فيه، ولو امتنع النساء عن ذلك لما حصل التعدد أصلاً، والخلاف فيه ليس بين الرجال والنساء، وإنما هو خلاف بين الضرائر من النساء، فالأولى تشعر بالضرر من التعدد، وهذا شعور مفهوم ومبرر لمكان الغيرة ولكثرة ظلم الأزواج، والأخرى تشعر بالحاجة للزواج فهو بكل الأحوال أولى لها من الحياة عازبة أو أرملة أو مطلقة، وأن تعيش شريكة في الزوج أنفع لها من أن تعيش مع زوجة أخيها مثلاً بلا زواج ولا أمومة، أو تعيش منفردة بلا حق ولا أنس، وفي كل هذا ألزم الله الزوج بالعدل، بل والتأكد من القدرة عليه قبل التعدد ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾.

وإذا دار الأمر بين الوقوع في الحرام بمجافاة العدل وبين ترك المباح وهو التعدد فالعادل من يتجنب الحرام، وهذا هو منطق الآية.

وقد وقع كثير من المعددين في هذا الحرام من حيث إنهم أرادوا الخير، فقدّموا صورة لا تنسجم مع مبادئ الدين ولا مع سنة سيّد المرسلين، ثم نبّه القرآن إلى حقّ (الصدّاق)، وهو مهر الزواج الذي تستحقّه المرأة في مال زوجها؛ إكراماً لها وسدّاً لحاجتها الخاصّة، وفيه تكلفة للزوج بما يبعده عن التفكير بالانفصال لأدنى مشكلة تقع بينه وبينها.

الحفاظ على المال:

في ثنایا الحديث عن مسائل من النظام الاجتماعي المنبثق أساساً من وحدة الأصل البشري، وقبل ذلك من وحدة الخالق ﷻ، يأتي الحديث عن أهمية المال، ومسؤولية المجتمع في الحفاظ عليه بغض النظر عن المالك المعین؛ حيث إن المال له وظيفة اجتماعية عامة وشاملة وليس مجرد متاع بيد مالكة ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

ومن ثمّ فعلى المجتمع أن يضع حداً على تصرفات السفیه المبذّر لماله، ووضع الحد على المبذّر للمال العام أهم وأولى.

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يدور الآن في الأوساط العلمية البحث في إمكانية (الاستنساخ البشري) بأخذ خلية حيّة من الجسم وتنميتها في محاضن خاصّة لتكوين إنسان آخر، وإن كان هذا لم يتحقق لحدّ الآن، وقد يعجز عنه البشر تمامًا، إلا أن أصل البحث يقرب إلى الذهن قصّة الخلق الأولى؛ حيث ينصّ القرآن على أن حواء قد خلقها الله من آدم، والله أعلم.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ بضمّ أموال اليتامى إلى أموالكم، والصيغة موحية بالتنفير من الطمع، فالطامع لا يقنع بما عنده، بل يسعى لضم مال الآخرين إلى ماله، ولما كان الآخرون هم اليتامى كان التحذير أشد والاحتياط أوجب ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي: إثما كبيرا، ثم أكد وكرّر في نهاية المقطع: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبُعَ﴾ ذكر حالات التعدد، والجمع بين هذه الحالات غير وارد لا لغة ولا شرعاً؛ لأنه سينتج حالات جديدة خارجة عن النص خماس أو سباع أو تساع، وقد وهم من عدّ هذه الصور أو الحالات أرقامًا قابلة للجمع، فجاء بالرأي الشاذّ المخالف للنص والإجماع.

﴿وَعَاتُوا نِسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ أي: حقًا ثابتًا لهنّ ليس على سبيل التفضّل، ومن ثمّ لا يجوز التقصير أو التسويف فيه أو الأخذ منه إلا بطيب نفس منهنّ.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ قاعدة عظيمة في التعامل مع المال؛ فكلّ مالٍ له وظيفة اجتماعيّة بغض النظر عن مالكة، وهو في يد المالك ما دام أنه لا يسيء استعماله، فإن كان سفيهًا سبّذًا ولا يحسن التصرف فينبغي الحَجْر عليه، ووضع اليد على ماله إلا بالقدر الذي

يسد حاجته ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ وقد جاءت هذه القاعدة تفريعاً عن حقوق اليتامى والنساء في المال الذي ورثوه أو استحقوه بأي سبب، فتسليم المال لهم مرهون بالرشد وانتفاء السفه، وفي هذا حفظ لأصل المال وهو - لا شك - في مصلحة النساء واليتامى، وفيه أيضاً حفظ لحق المجتمع بحفظ الوظيفة الاجتماعية والاقتصادية العامة للمال.

﴿وَلَا تَأْكُلُوها إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ تنبيه للوصي أن لا يسرف في مال اليتيم بأن يأخذ منه أكثر مما يستحق مقابل سهره وتعبه، وأن لا يبادر بصرف المال كما يشتهي متعجلاً قبل أن يبلغ اليتيم حيث تنقطع الوصاية ويرجع المال لصاحبه.

﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ توجيه للوصي بأن يأكل من مال اليتيم بقدر أتعابه ومستلزمات وصايته فقط، هذا إذا كان فقيراً ولا يستطيع أن يقوم بالوصية من دون ذلك، أما إذا كان مقتدرًا فليحتسب وصايته لله، وليستعفف عن مال اليتيم، والله أعلم.

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ تجنباً للشك والنزاع المحتمل، فالوصي إذا رأى أن يدفع لليتيم أمواله بعد البلوغ والرشد فعليه أن يوثق ويشهد على ذلك.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ هذه الآية عمدة لأحكام الميراث الآتية بعد ثلاث آيات، وتقديمها جاء إتماماً لحقوق اليتامى ورعايتهم والتلطف بهم، فأثناء توزيع التركة قد يحضر بعض الأيتام ممن ليس لهم حق في التركة ونحوهم من الأرحام وكذا الفقراء والمساكين ﴿فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ توجيه لمن يحضر الميت عند وصيته قبل أن يقضي، بأن يتحرروا سداد الرأي، فإن

كان عنده ورثة قاصرون ومحتاجون فليوصوه بالتقليل من الوصية في الجهات الأخرى؛ لأن هؤلاء الورثة أولى، وإن كان من الحضور أيتام ومساكين من غير الورثة فليوصوه بهم، فهذا هو القول السديد؛ أن يعطي كل ذي حق حقه، وأن هؤلاء الحضور عليهم أن يتصرفوا بالنصح كما لو كان أولئك الورثة القاصرون أو هؤلاء اليتامى الحاضرون هم من ذريتهم، هكذا ينبغي أن تكون الرحمة والحكمة، والله أعلم.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَلَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾

نظام الإرث

يأتي هذا المقطع مكتملاً للمقطع الذي قبله والذي بدأ بالحديث عن وحدة الأصل البشري، ثم عن حقوق اليتامى والزوجات، وفي أثناء ذلك نبه إلى أهمية المال ووظيفته، ثم شرع في هذا المقطع ببيان نظام يربط بتفصيل دقيق بين النظام المالي والنظام الاجتماعي، وهو نظام الإرث الذي جاء مفصلاً في هذه الآيات، وقد حظي باهتمام المفسرين والفقهاء واعتُدت له أبواب خاصة، والذي يعيننا هنا الوقوف على فلسفة التشريع الكلية من خلال المسائل الآتية:

الإرث وتفتيت الثروة:

يجمع الإسلام بين حق الملكية الفردية ومبدأ تفتيت الثروة وتوزيعها؛ بحيث لا تبقى محتكرة بيد واحدة، ونظام الإرث واحد من أدوات الإسلام في تحقيق هذا المبدأ؛ حيث إن المالك يتصرف في ملكه طيلة حياته، فإذا توفي أو حضرته الوفاة حصر الإسلام حقه في التصرف بثلاث ماله فقط والباقي يؤول للورثة بنظام يحدده الشرع، وليس لأحد الحق في تغييره أو تعديله، وبهذا يضمن الإسلام توزيع الثروة بعد مالكتها الأول، وهذا بخلاف النظم الرأسمالية التي تتيح للمالك حكر ماله من بعده في يد واحدة، كما أن الإسلام يخالف في أصل الملكية النظرية الشيوعية التي تستهين بحق الفرد في التملك.

إن حق الفرد في التملك هو جزء من تعبيره عن ذاته وكيانه وفطرته، وهو في الوقت ذاته دافع أساس للعمل والإنتاج والمنافسة في تجويد هذا الإنتاج وتسويقه، أما عند حضور الأجل فقد انقطع هذا الدافع، ومن ثم تترجح وظيفة المال الاجتماعية ودوره في التنمية العامة بأن يعطى لأكثر من يد وهم الورثة، ويمنع المالك الأول من توريثه على هواه؛ لأن هذا يضر بالوظيفة المالية.

ومستند الحق في هذا المنع أن هذا الإنسان إنما استحق هذا المال على جهة الاستخلاف والتوكيل وإلا فإن أصل المال لخالقه ﷻ ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، وهذا الاستخلاف مرتبط بحياته، فحينما أشرف على الموت قيد هذا الاستخلاف لينتقل المال الذي بين يديه إلى مستخلفين آخرين، وهكذا ينتقل المال من يد مستخلف إلى مستخلفين آخرين في كل جيل، وكما جاء المرء إلى هذه الحياة مجرداً من كل ملك فسيخرج منها كذلك، والله الأمر من قبل ومن بعد.

حق الذكر وحق الأنثى:

نص القرآن الكريم في هذه الآيات على أن حظ الذكر من الإرث هو مثل حظ الأنثيين ﴿لِلذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ وهذه قاعدة معروفة في العصابات، أما في ذوي الفروض فقد

يُوافق، مثل: حال الزوج والزوجة، وقد يخالف، كما في قوله: ﴿وَلَا بُؤْيَهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا
السُّدُسُ﴾ وفي كل هذا حكمة ربّانية، وحساب دقيق ليس فيه مُحاباة ولا غبن.

غير أن بعض المتأثرين بالفلسفات الغربيّة قد أنكروا هذه القسمة، وزعموا أنها ميل
للذكر دون الأنثى، وأغلب الظن أن هؤلاء قد اقتطعوا هذا الحكم من بقيّة الأحكام المالية
التي تنظّم العلاقة بين الذكر والأنثى، فقبل هذه الآية نصّ القرآن على أن الصداق حقٌّ
خالصٌ للأنثى في مالِ الذكر، ولم نسمع منهم مُعترِضاً أو شاكياً، وزيادة على الصداق أوجب
الله للمرأة في مال الرجل السكن والنفقة، وهذه التكاليف أكثر بكثير من زيادة نصيبه في
الإرث، وكأنّ الزيادة هذه لم تكن سوى رأس مال يُنميّه الذكر لينفق منه على أنثاه التي أمره
الله برعايتها وسدّ حاجتها.

وهنا ينبغي التنويه أن الفلسفة التي ينطلق منها الفكر الغربي قد جنحت نحو المساواة بين
الذكر والأنثى في كل شيء، وهي بذلك تتغافل عن التنوّع والتكامل اللذين هما أصل
العلاقة بين مفردات هذا الكون، وهذا التنوع يتطلب العدل وهو إعطاء كل ذي حقّ حقه،
وجعل كل شيء في مكانه الأنسب ودوره الأليق، أما المساواة التامة بين المختلفين فهي الظلم
بعينه، وقد يلحق الضرر بالاثنتين معاً، وإنكار الفوارق الجسديّة والنفسية بين الرجل والمرأة
تعسف وتكلف ظاهر.

دقائق التفسير

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ تمهيدٌ لأحكام الإرث، وفيه شعور بالحنو والعاطفة،
وقال: ﴿يُوصِيكُمُ﴾ مع أنها أحكامٌ جازمةٌ ومحددة، كأنه يقول لهم: إن هذه الأحكام هي
لكم، ولصالح أولادكم، وهذا أدعى للالتزام بها والحرص عليها.

﴿فَإِنْ كُنْ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ المقصود اثنتان فما فوق؛ إذ الحكم اللاحق

يتعلق بالواحدة ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ وليس بينهما حكم ثالث، وإهمال حكم البنتين ليس بوارد، والآية الأخيرة في هذه السورة تنص على أن الثلثين نصيب الأختين ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ والبنتان أولى في هذا من الأختين.

وقد وَهَمَ من قال: إن ﴿فَوْقَ﴾ زائدة؛ لأن زيادتها تعني إهمال حكم الثلاثة فما فوق، فكأنه وقع فيما فرّ منه.

ومن اللطائف العلمية هنا: أن حكم البنتين هنا قد استُفيد من آية الأختين، وهي الآية الأخيرة من هذه السورة، وحكم ما فوق الأختين قد استُفيد من هذه الآية التي نحن بصدددها، وهكذا يفسّر القرآن بعضه بعضاً، والله أعلم.

﴿لَا تَذَرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ إشارة أن الوارث يستحق نصيبه من الإرث ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ بغض النظر عن رأي المورث وطبيعة العلاقة بينهما.

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ إذ المتوفى له الحق أن يوصي قبل موته بالثلث من تركته فما دون، وللدائنين أن يسترّدوا دينهم أيضاً بالتنصيص من المتوفى أو بما يقدمونه من بينة، وهكذا كلُّ حقٍّ مالي في ذمّة المتوفى، والله أعلم.

﴿غَيْرَ مُضْكَرٍ﴾ توجيه للموصي أن يتجنّب الإضرار بالورثة أو بعضهم من خلال الوصية التي يوصي بها، أو بادّعائه الدين عليه بقصد حرمان الورثة من حقهم.

﴿يُورَثُ كَلَالَةً﴾ الكلاله في اللغة التعب والضعف، وقد استعمله القرآن هنا في الشخص الذي يتوفى وليس له والد ولا ولد على قيد الحياة، وهنا ستكون التركة بين الحواشي من الأقرباء.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ دلالة أن أحكام الميراث هذه حدود مُقرّرة ليس لأحد أن يتجاوزها أو يستهين بها، وفي هذا دفع لشبهة التوجيه المجرد من الإلزام، والذي قد يُفهم من الوصية في قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾.

سُورَةُ النَّبَاِ

وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفُجْئَةُ مِنْ نِسَائِكَ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝ (١٥) وَالَّذِينَ يَأْتِيَنَهَا مِنْكُمْ فَقَاذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۝ (١٦) إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ (١٨) يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَقْضُلُوهُنَّ لَتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفُجْئَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝ (١٩) وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا ۝ (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۝ (٢١) وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَجْشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ۝ (٢٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَتُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ۝ (٢٣) وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِجْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَاضِيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ (٢٤) وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مَخْذَلَاتٍ أَخَذْنَا فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفُجْئَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْرِبُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ (٢٥) يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي سَنَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ۝ (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ۝ (٢٨)

حفاظاً على طهارة المجتمع ونقاء الأسرة شرع القرآن في بيان المنهج العملي الذي يحقق هذه الغاية، فحرّم الزنا وسّمّاه (الفاحشة)؛ تنفيراً عنه وتنبيهاً على خطره وكبير ضرره، وبدأ بالنساء ﴿وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ لأنهنّ المتضررات به أكثر من الرجال؛ حيث يفتضح أمرهنّ بالحمل ونحوه، فتكون الفضيحة والسقوط الاجتماعي، بخلاف الرجل الذي لا يظهر عليه من هذا الأثر شيءٌ، وكذلك لأن سمعة المرأة أرقّ، فهي كالشوب الأبيض الذي لا يحتمل الدنس، ولأن مقدمات هذا المنكر إنما تكون في العادة من سوء تصرّف المرأة بالزينة في غير محلّها، وبإلين القول مما يُسقط عنها الهيبة؛ فيتشجّع الرجل على طرق بابها.

ثم ثنى بالرجال: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَآذُوهُمَا﴾ لكي لا يظنّ الرجال أنهم بمنأى عن الملامة والعقوبة، ومن الملاحظ هنا أنه عجل بعقوبة الرجال ﴿فَأَآذُوهُمَا﴾ وأجل عقوبة النساء إلى مرحلة أخرى في التشريع، واكتفى هنا بحبسهنّ في البيوت حبساً احترازياً واحتياطياً، والعقوبة أيّا كانت دليلٌ على أن الإسلام لا يكتفي بالنصح والتوجيه، بل هو يحتمل المجتمع والدولة المنبثقة عنه مسؤولية المنع والردع، فليس كلّ النفوس تستقيم بالموعظة والبيان.

ومع هذا الموقف الحازم والرادع لم يقطع الإسلام طريق المراجعة والتصحيح الذاتي ﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿ولكي لا يُستغل هذا الطريق للتمادي في المنكر جاء الاستثناء الواضح والدقيق ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُبْتُ عَلَىٰ كُنْ﴾.

وليعلم الله أن هذه الشهوة مغروسة في الإنسان وهو بحاجة إلى إشباعها شرع الزواج، وهو الحل الأزكى والأطهر ﴿وَأَجَلٌ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ فالله لم يغلق الباب الحرام إلا

وفتح الباب الحلال الواسع الذي يستوعب هذه الشهوة الغريزية ويوجهها باتجاه الخير مودةً ورحمةً واستقرارًا وسكينةً وحفظًا للصحة والنسل والنسب.

ثم فتح بابًا آخر للعلاقات الاجتماعية البريئة والنافعة بين الرجال والنساء وهي دائرة (المحارم) وعظم من شأن هذه الدائرة؛ لأنها ضرورة حياتية، ولها أكثر من وظيفة نفسية واجتماعية وثقافية، وهي واحة التواصل وواحة التعاون والتكافل والتشاور، ومن ثم كانت الشهوة هنا محرمة ومرفوضة رفضًا أشد وأخطر منها مع الأجانب ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

دقائق التفسير

﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ﴾ وهذا هو طريق إثبات تهمة الزنا، والمتأمل فيه يجده صعب التحقق؛ إذ لا يكون الزنا في العادة أمام الناس، ولو حصل في مجتمع الرذيلة مثل هذا فإن الشهادة سترد في الغالب؛ لأن الذي يكون في ذلك الموقع يكون متهمًا أيضًا ومردود الشهادة، وكأن هذا الحد إنما جاء للتخويف والردع، ومنع المجاهرة بالزنا.

أما العلاقات السرية التي قد تحوم حولها الشبهات والقرائن بلا بينة قاطعة فغاية ما فيها الحذر والاحتياط ومنع المقدمات، وربما التعزير فيما دون الحد، وأما الإقرار فهو حالة من القلق الذاتي وتأنيب الضمير؛ بحيث يرى العقوبة أهون عليه مما هو فيه، وله أن يرجع عن إقراره، وله أن لا يقر أصلاً، فالحد عقوبة قضائية، وليست شرطاً في التوبة الدينية، والستر أولى من طلب إقامة الحد، ولو طلب هو إقامة الحد تدنياً ونداماً فليس للقاضي أن يسأله عن شريكه في الجرم، مع أن هذه الجريمة لا تكون إلا بالاشتراك.

وهذا الفقه يقطع الطريق على من راح يبحث لإقامة الحد عن طريق الفحص الطبي ونحوه؛ إذ هذا التوجه يختلف في الأصل مع الرؤية الشرعية لهذا الموضوع، والله أعلم.

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ﴾ ليس فيه تنصيص حصري على اللواط، وإن كان متضمناً له؛ لأن المقصود به كل اثنين يمارسان معاً هذه الجريمة، والله أعلم.

﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ إبطال لعادة جاهلية، كان فيها الوارث يرث عن مورثه زوجته ما لم تكن أمّاً له كأن تكون زوجة أبيه مثلاً كما يرث ماله ومتاعه.

﴿وَلَا تَقْضُوا مِنْهُنَّ إِصْبَاحًا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ تحذير من سلوك بعض الأزواج؛ حيث يقومون بتنكيد عيش زوجاتهم ومضايقتهن ليطلبن بذلك الخلاص بالخلع مقابل تنازلهن عن حقهن في المهر ونحوه، ثم استثنى من ذلك مُرتكبة الفاحشة، وهذا الاستثناء هو مناسبة ذكر عضل الزوجات في هذا السياق.

﴿وَأَتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ والقنطار هو: المال الكثير الذي يدفعه الزوج صداقاً لزوجته، وليس في الآية تشجيع على زيادة المهور، بل هو تبيين لسبب احتيال الزوج عليه بالعُضْل وغيره، فالمال الكثير يثير الحرص والطمع بخلاف القليل، والله أعلم.

﴿وَقَدْ أَقْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي: المعاشرة بلا حاجز ولا احتشام؛ إذ الإفضاء هو الوصول إلى الشيء ومباشرته بلا حائل ولا واسطة.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ليس في هذا الاستثناء إقرار لهذا النوع من العلاقة وإن كانت بعقد سابق، بل هو عن العلاقات المنتهية السالفة، وفائدته رفع الحرج النفسي والاجتماعي عن تلك العلاقات وما نتج عنها، والله أعلم.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ أي: الأمهات والجَدات، وكذا ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ أي: البنات والحفيدات.

﴿وَأَمَّهَتْ نِسَائِكُمْ﴾ ولو بمجرد حصول العقد من غير دخول؛ إذ العقد على البنات يحرم الأمهات، ولا ينعكس، فالعقد على الأمهات لا يحرم البنات إلا إذا اكتمل بالدخول ﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿وَرَبَّيْتُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ الرّبيبة بنت الزوجة، وهي محرمة على زوج أمها بعد الدخول كما مرّ، وقوله: ﴿فِي حُجُورِكُمْ﴾ أي: في بيوتكم، وهذا القيد ليس احترازيًا، فالرّبيبة محرمة سواء كانت في هذا البيت أو غيره، وفائدة ذكر الوصف: إثارة الرحمة والعطف بها في قلب الزوج.

﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ فزوجة الابن محرمة، وكذا زوجة ابن الابن، والقيد ﴿مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ احتراز عن زوجة المتبنّى، لا غير.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي: النساء المتزوجات، فليس للمتزوجة الزواج من رجلٍ آخر قبل انتهاء عدّتها من زوجها الأول وانفصالها عنه بالكامل.

ومناسبة الحكم هجرة بعض المؤمنات المتزوجات من مشركين في مكة، وقد وقع الانفصال الفعلي، دون الانفصال القضائي الشرعي، وهذا بخلاف من تقع في السّبي من الشركات أثناء الحرب، فهذه لها أحكام خاصّة تتعلق أولاً بسياسة الدولة المسلمة والتزاماتها مع الدول الأخرى، وطريقة تعامل العدو مع أسرانا من رجال ونساء، وملك اليمين هو حالة واحدة من حالات كثيرة واحتمالات متعدّدة، والأمر أوسع بكثير مما يُظنُّ أو يُتوهّم.

وقد ترد المحصنات بمعنى: الحرائر متزوجات أو غير متزوجات، ومنه قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾.

﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهنّ، والاستمتاع هو الزواج المشروع بضوابطه وأحكامه المعروفة.

وأما المتعة المؤقتة فهي تخالف معنى الزواج والسكينة والاستقرار، والتمسك بلفظ الأجر لا حجة فيه، وحمله على ثمن المتعة المؤقتة باطل؛ لأن الله ذكره بالنص في حق أمهات المؤمنين: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّ لَنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ النَّبِيُّ ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

﴿طَوَّلًا﴾ غنى، والمقصود به هنا القدرة على دفع المهر.

﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ بمعنى: نساء عفيفات ليس عندهن أصحاب وخلان من غير أزواجهن.

﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنْ أَتَيْتَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْنَ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ نزلت في الأمة التي ترتكب الزنا بعد إحصائها؛ أي: زواجها، فتجلد خمسين جلدة، وهي نصف حد الحرة المحصنة.

والظاهر من الآية: أن الأمة غير المحصنة ليس عليها حد، وما ثبت من جلدها في السنة محمول على جلد التأديب والتعزير، وخلاف الفقهاء في هذا معروف، والله أعلم.

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ أي: خشي الوقوع في الفاحشة.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿ هذه قاعدة كلية في التشريع الإسلامي، فالتخفيف والتيسير ورفع الحرج سمات لهذا التشريع؛ إذ التعبد طريق السعادة الدنيوية والأخروية، فإذا أدى إلى الشقاء فإنما هو بسوء الفهم، أو سوء التطبيق.

سُورَةُ النَّبَاِ

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ٣٠﴾ إِنْ تَحْتَسِبُوا كِبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ٣١﴾ وَلَا تَلْمَنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ۚ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَتَاوَهُمْ نَصِيبُهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ٣٣﴾ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ۖ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ۖ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالَّذِينَ حَسِبْتَ حَفِظْتَ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّيْلِ نَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ ۖ فَعِظُوهُمْ ۖ وَاهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرُوهُمْ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ ۖ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ۖ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ٣٥﴾ ۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۚ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ٣٧﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقًا ۖ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ٣٨﴾ وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۚ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا ٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ٤١﴾ يَوْمَ يُدْعَى الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَعَصُوا الرَّسُولَ ۖ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ٤٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا ٤٣﴾

بعد صيانة المجتمع من لومة الفساد والانحراف الأخلاقي تأتي هذه الآيات للرقي بالمجتمع وتهذيبه وتنظيم شؤونه وتوجيهه نحو التواصل والتكافل وبناء الروابط الداخلية المتينة بحيث يصبح كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً، ويحمي بعضه بعضاً، وأول ما بدأ به القرآن هنا المال:

العلاقات المالية:

حذر القرآن من الظلم الماليّ وأكل أموال الناس بالباطل ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾، ثم أشار إشارة لطيفة إلى أحد أهم أسباب هذا التعدي؛ وهو الحسد وتمني ما عند الغير ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، ثم ذكر بالحقوق الخاصة ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ﴾.

وأخيراً حثّ على الإنفاق العام محذراً من البخل، ومُبشِّراً المنفقين بمضاعفة الثواب وعظيم الأجر ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٣٧﴾ والَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ۝٣٨﴾ وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۖ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ۝٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يُظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾.

حق الحياة والمحافظة على النفس:

بعد المال أوصى بالأنفس ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٤١﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۝٤٢﴾ والعدوان والظلم قرينتا إرادة قتل الغير وليس قتل الرجل نفسه، وإنما أنزل نفس المقتول منزلة نفس القاتل لإثارة دواعي الرحمة والتذكير بحالة

الجسد الواحد إيمانًا وأخوة، كما أن الاستهانة بالقتل تُشيعه وتكثره، فيكون المجتمع الذي لا يتورّع عن القتل ولا يردع القتل كأنه يقتل نفسه، وقَدَّم المال على النفس؛ لأن الخلاف المالي قد يكون مقدّمة للقتل، والله أعلم.

العلاقات الزوجية:

وبعد المال والنفس شرع ببيان العلاقات البينية داخل المجتمع، وبدأ بالعلاقة الزوجية مُبْتَدَأً لِحَقِّ الزوج في القوامة، ومُنْطَلِقًا منها في تفصيل المسائل الأخرى، والقوامة الحقّ إنما هي للذّين، فكلاهما يخضعان له ولأحكامه وآدابه، والزوج لا يدير بيته على هواه، بل وفق هذه الأحكام والآداب، وهنا يكون دور الزوج إداريًا وتنفيذيًا في حدود الشرع وحكمته ورحمته، وليس حاكمًا فذًا أو متسلّطًا.

وقد ذكر القرآن سببين لهذه القوامة: ﴿يَمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيَمَا أَنْفَقُوا﴾ والإنفاق معروف في الصداق ونفقة المعيشة ونحوها، وأما التفضيل فمن المقطوع به أنّه ليس التفضيل الديني عند الله؛ إذ هذا مرهونٌ بما يقدّمه المرء من عملٍ وحسن تعبّدٍ وتديّنٍ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقَكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فلم يَبْقَ إلا التفضيل بقدرات خَلْقِيَّة وجسديّة امتاز بها الرجل وأهلته أكثر من المرأة لكسب الرزق وإدارة البيت وحمايته وضبط سلوك الأولاد بعد أن يكبروا، ونحو هذا، وهذه القوامة أعطى القرآن صلاحيّات للزوج في إدارة بيته ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَاهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُمْ﴾.

وهذه وسائل لضبط البيت في حالات النشوز، والذي يظهر أن كل وسيلة منها جاءت لتتناسب مع مستوى النشوز، وعلى الرجل أن يكون حكيماً ولا يفرط أو يتعسّف، وقد جاء الضرب آخِراً للتنبيه أنه لعلاج حالة شاذّة من النشوز؛ لمنع الاعتداء المباشر أو التصرّف المُضِرّ بالبيت والأولاد مثلاً، كما في حالة الغضب الشديد، والذي يتطلب تدخُّلاً سريعاً ولا يحتمل الانتظار، وليس كما يُظنُّ أنه حقٌّ للزوج في كلّ حالة خلاف، فالخلاف لا يُحُلُّ بالضرب

إطلاقاً، وإنما بالحلم والعقل والموعظة الحسنة، ثمَّ الهجران المؤقت لاستثارة العاطفة المحركة لإعادة الصلة.

ويجدر التنبُّه هنا أن هذه الوسائل إنما تكون مشروعة في حالة النشوز، وهو خروج المرأة عن الطريق السوي الخروجَ البين، أما الخلاف في وجهات النظر، أو الخلاف في تقدير الحقوق والواجبات، فليس للرجل أن يكون هو الخصم والحكم؛ ولذلك جاء قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

صلة الرحم والإحسان إلى الآخرين:

بعد العلاقات الزوجية جاء الحديث عن العلاقات الاجتماعية الأخرى ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ والإحسان هو الاسم الجامع لأنواع البر وأعمال الخير مع الإتيان والاستقامة حتى يؤتي ثماره الطيبة في بناء الثقة والمحبة بين كل أفراد المجتمع.

بناء الفرد الصالح:

وفي ثنايا هذه التوجيهات الاجتماعية تأتي التوجيهات الربانية لبناء الفرد الصالح القادر على المحافظة على تلك العلاقات، ومن هذه التوجيهات:

أولاً: توثيق الصلة بالله ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، ﴿إِنْ جَحْتَنِبُوا كَبَابِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾، ﴿وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ وهذا تأكيد أن الصلة الوثيقة بالله تنتج صلة طيبة بالخلق.

ثانياً: ترسيخ القيم الأخلاقية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾، والملاحظ هنا أن هذا التوجيه جاء مباشرة عقب الحديث عن حقوق الوالدين والقريبى واليتامى والجار

ونحوها من الحقوق الاجتماعية والإنسانية، وكأنه يقول: إن الخيلاء والفخر والتكبر هي التي تؤدّي إلى التقاطع والتدابير.

ثالثاً: سلامة العقل ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ فالحكمة من تحريم الخمر إنما كانت لتحصيل المعرفة والعلم بما يقرأ ويسمع من الآيات.

وقد كان هذا التحريم مقدّمةً للتحريم العام للخمر وكلّ ما من شأنه أن يذهب بالعقل؛ لأن ذهاب العقل ولو مؤقتاً من شأنه أن يورث العداوة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَبَرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [المائدة: ٩١].

رابعاً: نظافة الجسد ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ وهذا التشديد في النظافة حتى مع عدم وجود الماء هو لبيان أهمية هذه القيمة، وقد جاء ذكرها بعد آيات التواصل الاجتماعي إشارة إلى أهمية النظافة في بناء هذا التواصل، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ فِي حَسْرَةٍ مِنْ شَيْءٍ تَرَاضِي مِنْكُمْ﴾ دلالة أن التراضي أصل في المبادلات التجارية، وعليه فكلّ تبادل لا ينشأ عن تراضي من الفريقين فهو محظور لما فيه من العدوان وأكل أموال الناس بالباطل، ومن ذلك الإكراه واستغلال ضعف الآخر أو حياته.

﴿إِنْ جَحْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نَنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ الكبيرة ما استوجبت حداً أو لعنة أو وعيداً شديداً، والسيئة هنا كلّ ذنب دون الكبيرة، وهذا وعدٌ ودودٌ ورحيمٌ أن الله يغفر لنا سيئاتنا إذا اجتنبنا الكبائر، اللهم فاغفر لنا كبائرنا وصغائرنا بمنّك وفضلك.

﴿وَنُذِخْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ فالذي تطهر من كبائره وصغائره يستحقُّ الكرامة والمنزلة العظيمة من الله، وهي عامة شاملة في دنياه وأخراه، طمأنينةً وسكينةً ورضا في الدنيا، وجنةً خالدةً وزُلفى ودودٍ في الآخرة.

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ أي: لكل تركة جعلنا لها ورثًا يتقاسمونها وفق شرع الله الذي أعطى لكل ذي حقَّ حقه.

﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ الظاهر أنها عامة في الالتزامات والعقود من غير الوراثة المقدرة في الشرع، وهذه الحقوق تخضع لمنهجية التشريع، فما أبطله الشرع من عقود الجاهلية وأعرافها فهو باطل، وكذا الحقوق المرحلية التي أقرها الشرع ثم أبطلها كالتوارث بين المهاجرين والأنصار بنظام الأخوة الخاصة، أما العقود المتوافقة مع ما استقر عليه التشريع فهي حقٌّ، وينبغي أن يُستخرج من مال المتوفى قبل توزيع التركة، والله أعلم.

﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ جاء هذا في بيان أصل العلاقة الزوجية، والمرأة هنا محفوظة كرامتها وحقوقها المادية والمعنوية كما صانت بيتها وحقَّ زوجها، وأمَّا الحالة الثانية: ﴿وَاللَّي تَخَافُونَ سُوءَ بَهْ﴾ فهي حالة استثنائية تتطلب حلًّا استثنائيًا.

﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ فيه تقييد عملي لمعنى القوامة، فهي قوامة مقيدة بالعدل ورفع الظلم وإعطاء كل ذي حقَّ حقه؛ ولتحقيق هذا العدل جعل الله التحكيم مناصفة من أهله وأهلها، وأوصى الطرفين بتوخي الإصلاح، وهو معنى أرفع من العدل المجرد، فهو عدلٌ وزيادةٌ صلحٍ وترميمٌ للعلاقات التي تعكّرت بسبب الخلاف.

﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ﴾ تفصيل لأنواع الجيران من الناحية الاجتماعية، فهناك من يجمع بين الجوار والقربة، وهناك من يجمع بين الجوار والصدقة، وهناك الجار الجنب الذي لم يكن قبل الجوار قريبًا ولا صديقًا، وفي هذا اهتمام خاص بحقَّ الجار لا يغفل عنه اللبيب.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضْعِفْهَا﴾ أصل في معاملة الباري لعباده، وهو من الوعد الرحيم الذي لا يتخلف، وفيه إشارة لما ينبغي أن يكون عليه خلق المسلم مع الآخرين؛ أن يغفر لهم الزلات، ويكبر فيهم البرّ والأعمال الصالحات.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ الرسول ﷺ هو الشهيد على هذه الأمة، وكلُّ رسولٍ أو نبيٍّ شهيدٌ على أمته، وهذه الشهادة إنما هي بتبليغهم الوحي كما أنزل لإقامة الحجّة عليهم، ومن ثمّ تكون حسرة المكذّبين ﴿يَوْمَ يَذُودُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾.

والآية متضمنة لوجوب طاعة الرسول واتخاذها الأسوة الشاملة في كلّ شأنٍ من شؤوننا، فلم يكن ﷺ شهيداً على هذه الأمة إلا لكونه قائدها وقادتها والأمين على دينها بقوله وعمله -بأبي هو وأمي-، وقد جاءت الإشارة إلى هذا بتحشّر المكذّبين الذين كفروا ﴿وَعَصَوُوا الرَّسُولَ﴾.

﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ لم يقل: لا تُصَلُّوا وأنتم سُكَارَى، طلباً للتهيؤ المبكر للصلاة؛ بحيث يكون المصلّي واعياً بما يقرأ أو يسمع، وفيه إشارة لقطع جميع العلائق والشواغل التي تشوّش على عقله وقلبه.

﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ كناية عن الجماع، وهذا هو الأظهر من أقوال الفقهاء بقرينة مقابله لإتيان الغائط، فيكون اللمس مثلاً للحدث الأكبر وإتيان الغائط مثلاً للحدث الأصغر، وكلاهما يستوجبان التيمم بالصعيد الطيّب عند فقد الماء.

وهذا أيضاً هو الذي يتناسب مع مقاصد الشرع؛ فحذر الزوجين من ملامسة أحدهما للآخر الملامسة الجسديّة الظاهرة تجنباً لنقض الوضوء من شأنه أن يباعد بينهما لوقتٍ أطول وهما في بيتٍ واحد، بينما مقصد الشرع توطيد الصلة والمودّة والرحمة، وفي السُّنة وفعل السلف ما يؤيد هذا مما هو معروف في مظانّه من كتب السُّنة والفقه، والله أعلم.

﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ هو التراب الطاهر، هذا هو الأظهر من أقوال الفقهاء؛ لأنه بديل الماء، فينبغي أن يكون صالحًا للتطهير، أما الحجارة الصلبة التي ليس فيها تراب أو غبار يمرّ على البشرة فليس فيها من آثار التطهير شيء، والقول به ربما جاء ترجيحًا لمعنى التيمم التعبدى البحت، ومراعاة التطهير المادي هنا أولى مع ما فيه من معاني التدُّين والتعبُّد، وقد جاء التطهير بالتراب في ولوغ الكلب، وهو قرينةٌ قويّةٌ لإرادة هذا المعنى المادّي، والله أعلم.

سُورَةُ النَّبَاِ

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَن يُضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَادْعِنَا لَيْتَ بِالسَّيِّئِينَ وَطَعْنًا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن مَّجْدٍ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوَّفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نَصَّجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾

اليهود وعداوتهم للمؤمنين

بعد وضع الأسس المتينة لبناء المجتمع المسلم شرع القرآن الكريم في تحذير هذا المجتمع من خطر قريب يتهدده من الخارج المتمثل بالقبائل والتجمعات اليهودية التي كانت في المدينة وخيبر، والتي كانت تغذي حركة النفاق في الداخل، وتتحالف مع قريش وغيرها من القبائل المشركة في الخارج.

وقد تضمن هذا التحذير جوانب مختلفة في طبيعة اليهود وما يضمرونه للمسلمين، وكما

يأتي:

أولاً: إِنَّ الْيَهُودَ أَهْلُ ضَلَالَةٍ وَإِنْ انْتَسَبُوا لِدِينٍ سِوَايَ ﴿۱﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ ﴿۲﴾ وَمِنْ أَعْظَمِ ضَلَالَاتِهِمْ؛ تَحْرِيفُهُمْ لِكَلَامِ اللَّهِ ﴿۳﴾ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴿۴﴾ بِالتَّأْوِيلِ الْبَاطِلِ أَوْ بِالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ، وَكِتَابُهُمُ الْمَوْجُودُ بَيْنَ أَيْدِينَا الْيَوْمَ شَاهِدٌ عَلَى كُلِّ هَذَا.

ثانياً: إِنَّ الضَّلَالََةَ وَصَلَتْ بِهِمْ إِلَى حَدِّ الشَّرِكِ ﴿۵﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴿۶﴾ وَقَدْ مَهَّدَ اللَّهُ لِهَذَا بِقَوْلِهِ: ﴿۷﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿۸﴾ وَالسِّيَاقُ كُلُّهُ عَنِ الْيَهُودِ مِمَّا يَدُلُّ أَنَّ الْيَهُودَ أَوْ قِسْمًا مِنْهُمْ عَلَى الْأَقْلَ قَدْ وَقَعُوا بِالْفِعْلِ فِي هَذَا الشَّرِكِ.

ثالثاً: إِنَّهُمْ قَدْ كَفَرُوا بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَتَمَادَوْا فِي شَتْمِهِ وَالنِّيلِ مِنْهُ ﴿۹﴾ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَأَنْظِرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿۱۰﴾.

رابعاً: إِنَّهُمْ أَعْلَنُوا عداوتهم للمسلمين ﴿۱۱﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ﴿۱۲﴾ وَهَذَا فِي سِيَاقِ تَشْخِصِ مَوْقِفِ الْيَهُودِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ بَلَغَتْ بِهِمُ الْعَدَاوَةُ أَنْ فَضَّلُوا الْمُشْرِكِينَ وَتَمَالَؤُوا مَعَهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿۱۳﴾ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّوْا أَوْ هَدِّى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿۱۴﴾.

خامساً: إِنَّهُمْ يَعْمَلُونَ عَلَى إِضْلَالِ الْمُسْلِمِينَ وَحَرْفِهِمْ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿۱۵﴾ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿۱۶﴾ وَهَذِهِ لَوْحَدَهَا بِحَاجَةٍ إِلَى وَقْفَاتٍ طَوِيلَةٍ، وَدِرَاسَةٍ مَعَمَّقَةٍ لِتَحْصِينِ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ مِنْ مَخْطَطَاتِهِمْ وَأَسَالِيهِمْ.

سادساً: إِنَّ الدَّافِعَ الْأَسَاسَ لِمَوْقِفِهِمُ الْمُعَادِي هَذَا إِنَّمَا هُوَ الْحَسَدُ ﴿۱۷﴾ أَمْ يَحْسَدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿۱۸﴾.

سابعًا: إنهم جمعوا إلى الحسد كلَّ صفةٍ ذميمةٍ كالبخل ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ
النَّاسَ نَقِيرًا﴾ والكذب أيضًا ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ ومع هذا
فهم أهل غرور ويمدحون أنفسهم بالباطل ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾.
ثامنًا: ولكل ذلك فقد استحقوا اللعن والطرْد من رحمة الله والوعيد الشديد ﴿أُولَئِكَ
الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
ءَامِنُونَ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا
أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَأَسْمَعَ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ يقول اليهود لرسول الله ﷺ: اسمع لما نقوله لك، أما نحن فلا
نسمع لك ولا نستجيب ولا نطيع، وهو تعبير عن عقدة مرَّبة من الغرور والحسد، وقساوة
القلب، وغلظة الطبع.

﴿وَرَاعَنَا لِيَّا بِالسِّنَنِهِمْ﴾ والليُّ هنا أنَّهم يلفظون الكلمة بطريق السخرية لتعطي معنى
الرعونة وليس الرعاية.

﴿أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ الطمس على الوجوه ذهاب معالم الوجه أو
معالم الوجهة، فيكون الأول عذابًا حسيًّا بمسح أو مرضي، ويكون الثاني عذابًا معنويًّا
بإذلالهم وطردهم خزايا من أهلهم وحصونهم، والله قادرٌ على كل ذلك، لكن الذي تحقَّق
واقعًا هو الثاني.

والرُّدُّ على الأدبار معناه: الانتكاس من العزِّ إلى الدلِّ، ومن الغنى إلى الفقر، وهو قريبٌ
من الطَّمَس بمعناه الثاني، والله أعلم.

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ فالشرك افتراءٌ وكذبٌ؛ لأنَّ المشرك كأنه يشهد أن معبوده الوثني أو البشري قد حلَّت فيه الصفات الإلهية؛ ولذلك يدعوه ويرجوه، وهذا ادِّعاءٌ باطلٌ وكذبٌ فاضحٌ.

﴿لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ النقيير هو الأثر الذي لا يكاد يُرى في ظهر نواة التمر، وهو تعبير عن شدَّة البخل والحرص على المال وجمعه، وهي صفة معروفة في اليهود إلى اليوم، وهذه الصفات لا تعمَّ كلَّ اليهود، إذ التعميم ليس من منهج القرآن، كما أن هذه الصفات مذمومة أينما وجدت وفي كلِّ قوم، وتنبيه الأمة الوريثة لتجاوز هذه الصفات أمرٌ مقصودٌ أيضًا.

﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ جوابٌ لموجب الحسد عند اليهود تجاه المسلمين أو العرب الذين بُعث فيهم خاتم الرسل، كأنه يقول لهم: كما أن الله أعطى لآل إبراهيم ومنهم بنو إسرائيل النبوة والملك فقد أعطى الله للعرب ما أعطاه لكم فلماذا الحسد؟ والله يفعل في ملكه ما يشاء.

﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ دلالة أن استشعار الألم إنما يكون بالجِلْد، وهو ما أثبتَّه الطبُّ الحديثُ.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ يَمَاقِدَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ بِحُلُوفٍ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيْهُنَّ ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهْدِيَنَّهُمْ سِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِالْقَوْمِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

التشريع ومرجعية الحكم

القوانين الحاكمة في كل مجتمع لا بُدَّ لها من فلسفة كلية ورؤية عامة تنبثق منها، وهذه الفلسفة سابقة للتشريع ومهيمنة عليه؛ لأنها تمثل في الغالب هوية الأمة وثقافتها وخصوصياتها التي تميزها عن الأمم الأخرى.

والأمة المسلمة ليست بدعاً ولا استثناء من هذا السياق والعرف الإنساني العام، فأساس تكوين هذه الأمة وأصرتها الكلية، إنما هو الإسلام، والإسلام دين وعقيدة تبدأ بالإيمان بالله

الواحد الذي خلق الخلق وأبدعه، وتُثني بالإيمان بالنبِيِّ الرسول المبلِّغ عن الله (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله)، وهذه الشهادة هي عقدٌ والتزامٌ بالخضوع والطاعة والتسليم المطلق، ومن هنا جاءت كلمة (الإسلام).

في هذا المقطع من سورة النساء تركيز وبيان لا نظير له في كل آيات القرآن الكريم لتحديد مرجعية الأمة المسلمة في حكمها ونظامها العام، ومصدرية التشريع وسنّ القوانين بطريقة مباشرة ومؤكدة لا تحتمل الخلاف، وهذا يحقق في الأمة انسجاماً تاماً بين معتقداتها الكلية ومفرداتها التشريعية، كما يضمن وحدة الأمة في أخطر جانب من جوانب حياتها.

يبدأ الخطاب بالتذكير بالجانب الغيبي الذي اجتمعت عليه الأمة وتشكّلت في ضوئه ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، ثم جاء الأمر المباشر والصريح: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾، فتلك المقدمة وهذه النتيجة، فالله الذي آمَنتم به هو الذي يأمرُكم، وليس بعد هذا سوى الطاعة ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ والطاعة في الحقيقة واحدة؛ لأنه لا طاعة إلا بأمر، والأمر محسومٌ لله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ وعليه فالطاعة لله امتثالٌ لأمره، وطاعة الرسول تصديقٌ له في تبليغه لأمر الله.

وطاعة وليّ الأمر (الدولة) خضوعٌ عمليٌّ لسلطة التنفيذ، فهي التي تملك صفة الإلزام القانوني والعملي، وفي حالة حصول الاختلاف مع الجهات التنفيذية يكون الحل بالرجوع إلى مصدر الأمر ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

إن هذا التسلسل المنهجي هو دليل صدق المقدمة الأولى (الإيمان)؛ ولذلك شدّد القرآن نكيره على من زعم الإيمان وأنكر الحكم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَزِيلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾، وكان الحكم النهائي في هؤلاء ونحوهم قاطعاً وصريحاً: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾.

ويلاحظ هنا: أن التحكيم المطلوب والذي هو دليل الإيمان التحكيم في الأمور التي يكون فيها الشجار والخصومة بين الناس وليس الشعائر الدينية، وهذا ردٌّ على من زعم أن الحكم الشرعي إنما يكون في الشعائر والعبادات الدينية المجردة عن نظام الحياة.

أما التمسك بالشهادتين واسم الإيمان الجامع مع الصّدّ عن حكم الله وأمره فهو علامة النفاق ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾، من هنا يكون الوعد الإلهي مرتبطاً بالطاعة وليس بالإيمان المجرد: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾.

ولكي لا يظنّ ظانٌّ أن الحكم الشرعي هو حكمٌ طبقيٌّ أو سلاليٌّ تتحكم فيه طائفة - ولو كان في الأرض من هو خيرٌ منها - جاء التأكيد المبكر ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ فهذان ركنان في الحكم: الأمانة والعدل، والأمانة معنًى واسعٌ؛ ومن صورها المعاصرة:

الأمانة في الترشُّح للولايات العامة، والأمانة في الاختيار، والأمانة في التصويت، حتى في السلوك العملي الفردي داخل كلِّ مؤسسة ووظيفة، والعدل كذلك هو معنًى واسعٌ لكلِّ ما هو منافي للظلم، لكنّه يتأكّد في الشأن العام وسياسة الدولة أكثر؛ لتعلّق مصالح الخلق ومصيرهم وطبيعة حياتهم.

دقائق التفسير

﴿ظِلًّا ظِلِيلًا﴾ هو ظلُّ الجنة الكثيف لكثرة أشجارها، وفي العبارة إشارة للأمن والسكينة من كلّ خوفٍ وفزع.

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي: إلى كتاب الله وسنة نبيه، ومن هنا جاء قول من قال بأن أولي الأمر هم العلماء؛ لأنهم هم الأقدر على استنباط الحكم من الكتاب والسنة، والصحيح أن العلماء مرجعية علمية وفقهية، والأمر سلطة تنفيذية، وضبط العلاقة بين الجهتين لا بد منه لتحقيق الحكم الرشيد المستند إلى الرشد والقوة.

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ وهي صورة متكررة لمن يرفض التحاكم إلى دين الله، طالما أنه يرى التحاكم في غير مصلحته، فإذا وقع في المصيبة والحاجة إلى الإنصاف لجأ إلى الشرع طلباً للحلّ والصلح، فكأنه يؤمن ببعض ويكفر ببعض، وهو سلوك المذبذب وفق هواه، والتائه بين السبل والدعوات المختلفة.

وقد ذكر بعض المفسرين سبباً لنزول هذه الآيات: أن رجلاً حكم له الرسول ﷺ فأبى، ثم جاء إلى عمر رضي الله عنه يستقضيه، فحكم عليه عمر بالردة وقتله، وهو خبر لا يصح سنداً ولا متناً، فليس لعمر أن يحكم عليه بالقتل، ثم يُنفذ حكمه من غير علم رسول الله ﷺ.

﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي: انصحهم فيما بينك وبينهم من غير تشهير؛ لعل هذه النصيحة تؤثر فيهم وتبلغ إلى عقولهم وقلوبهم، وفي الآية من أدب الدعوة والتلطف حتى بهؤلاء ما لا يخفى على لبيب.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ كان ذلك شرطاً في التوبة؛ لأن طاعة الرسول والتلقي عنه والالتزام بأمره واجبات عينيه، وبعد انتقاله ﷺ انتقلت بعض هذه الواجبات إلى سنته، وبعضها الآخر إلى خليفته من بعده وكلّ إمام شرعي للمسلمين، فالسنة حق التشريع، والإمامة حق السلطة والتنفيذ.

وأما استغفاره ﷺ فلا تخفى بركته؛ إذ دعاء المسلم لأخيه مظنة الاستجابة فكيف بدعاء

النبي ﷺ؟

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾

معناه: أن الناس بتركهم للوحي يقعون في المظالم فيقتل بعضهم بعضاً، ويؤذي أحدهم الآخر، ولو أن الشرع أمرهم بذلك ما فعلوه، فهم بفعلهم هذا قد وقعوا في الشرّين؛ شرّ المظالم فيما بينهم، وشرّ مخالفة الشرع.

ومؤدّي هذا كلّهُ أن الشرع إنما جاء لتحقيق السعادة والرحمة، ورفع الحرج والظلمة، وأن الذي يخالف الشرع ويتنكّر له سيقع في الشرّين، والله أعلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ بَرُّوا جَمِيعًا﴾ (٧١) وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لَّيْثَلَنٌ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَاقْوَزَ فَؤُوزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنَعَ اللَّهُ نَارَ قَلِيلٍ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ قُلْ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَن يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِّنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانُ وَلَوْ كَانَ مِن عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَيطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِصِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَن يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِحِجَابٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْزِيَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَآ رِبَّ فِيهِ وَمَن أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴿﴾

القرآن كتاب الأمة ومصدر معارفها وتشريعاتها وتصوراتها، والأمة فيها العسكريون والمدنيون، وفيها الدعاة والقضاة، وفيها العلماء والمتعلمون، وكل هؤلاء إنما يجدون ضالتهم في هذا الكتاب، وهنا نقطة منهجية قلّ من يتنبّه لها؛ وهي أن آيات القرآن يقرؤها كل هؤلاء جملةً واحدةً دون تبويب أو عناوين فرعية.

وهنا قد يختلط الأمر بين الآية التي تخصّ الجندي وبين الآية التي تخصّ المدني، وبين الآية التي توجّه القضاة وأصحاب السلطان، وبين الآية التي توجّه الأفراد، وهذا ولّد إشكالاتاً عملياً خطيراً؛ فقارئ القرآن قد يتحوّل إلى كل هؤلاء فهو الحاكم والقاضي والجندي والقائد والداعية ... الخ؛ فتكوّن شخصية مضطربة يصعب التنبؤ بتصرّفاتهما؛ لأنك لا تدري ما الذي سيستحضره من الآيات في مواجهة أيّ حدثٍ أو استفزازٍ يتعرض له!

من هنا كان لا بُدّ من فرز المجالات التي يتناولها القرآن الكريم، خاصة تلك التي تتطلب نهجاً مختلفاً وخاصاً في الإعداد والتوجيه كالمجال العسكري، وهذا الفرز هو في الجانب العملي حصراً.

أما التلاوة والتدبر والمعرفة فهي واجبات لا تُفرّق بين مسلم وآخر، فالأمة كلّها رجالاً ونساءً يلتقون على هذا القرآن، ثم بعد هذا ينطلقون في تخصّصاتهم ومجالاتهم المختلفة، فالنهج الشمولي للقرآن لا يستدعي تكوين الشخصية الشمولية، ولا حتى الجماعة الشمولية، وهذا من الأخطاء المنهجية التي جرّت على الأمة البلايا والرزايا.

في هذه الآيات معالم واضحة لما يمكن تسميته بالتربية العسكرية للقائد والجندي، وهي تربية لها خصوصيّتها من بين كلّ مجالات التربية، وهذا أمرٌ معلومٌ ومعتادٌ في كلّ أمم الأرض وشعوبها مهما اختلفت دياناتهم وثقافتهم:

المعلم الأول: الحذر:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ والحذر هنا: اليقظة والاستعداد التام والدائم لكل طارئ، ويلاحظ هنا أن الأسلوب القرآني جاء بصيغة الأمر السريع والحاسم والمباشر ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ وكأنه أمر عسكري لا يحتمل سوى سرعة التنفيذ. ثم أطلق ولم يقيد الجانب الذي ينبغي الحذر منه، ليفيد كل الجوانب مرة واحدة؛ وليكون الحذر جزءاً من شخصية العسكري في كل ظرفٍ ووقتٍ.

المعلم الثاني: السريّة:

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ فالأخبار والمعلومات وكذا الإشاعات لا ينبغي تداولها إلا مع القيادة، وشهوة الكلام والثروة تتنافى تماماً مع شخصية العسكري، سواء أكان في الميدان أم خارج الميدان.

المعلم الثالث: المبادرة بتنفيذ الأمر:

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيْبِطَنَّ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ هؤلاء الذين لهم حساباتهم الخاصة، فهم لم يترّبوا على السمع والطاعة، بل هم ينظرون في الأحداث ومآلاتها وما يمكن أن ينالهم منها ﴿فَإِنْ أَصَبَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ﴾ هؤلاء ليسوا جنوداً بل تجّار يكثرون عند الطمع، ويقولون عند الفرع. ولا يبعد عن هؤلاء أولئك الذين لا يتحرّكون إلا وفق قناعتهم الذاتية، وكأن كل واحد منهم هو صاحب القرار، وهو الذي ينبغي أن يطّلع على كامل الخطّة العسكريّة وتفصيلاتها واحتمالاتها، وهو لا يفرّق بين التربية العلميّة والثقافيّة وبين هذه التربية، ويقدر هذا الخطأ التربوي يكون خطأً الذي يحاول نقل هذه التربية إلى حلقات العلم والدعوة والعمل السياسي.

هذا الخلطُ في النصوص ومجالات عملها قد وُلد مثل هذا الارتباك والفوضى، واختلال الموازين.

المَعْلَمُ الرابع: الروح القتالية:

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾، ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، وقد حذّر القرآن من الضعف والتردد والخوف ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْ لَا أَخْرَجْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾.

ومن الواضح أن هؤلاء ليسوا منافقين بل هم من أهل الإيمان، ولكنّ الضعف البشري وارد خاصة في مثل هذا الموضوع، والقرآن إنما سجّل هذا الموقف ليكون محطّ اهتمام القادة والمربين، فمهما كانت الثقة بالجند فإن حالات الضعف والتردد والخوف من الموت واردة، والمطلوب محاصرة هذه الحالات والتقليل منها ومعالجة المتبقي منها بمختلف الوسائل المناسبة.

المَعْلَمُ الخامس: الجُهد المكافئ للهدف:

﴿ فَأَنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴾ فالنفير للحرب ينبغي أن يكون وفق الخطة المناسبة للهدف ولطبيعة الحرب وحجم التحديات والقوّة المقابلة، فنفرة الجميع بدافع الإيمان أو العاطفة ليس مطلوبًا في كلّ حال، بل قد يكون عبثًا وضررًا ويأتي بالنتائج المعكوسة، وكذا نفير المجموعات الصغيرة من غير مشورة أو تنسيق في مواجهة حشد كبير قد هيا نفسه وأعدّ عدته.

وهذا التخيير ﴿أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ ليس تخيير العفو والسعة وإنما تخيير المسؤولية، فالقيادة تتحمّل مسؤوليتها في اختيار الطريقة الأنسب؛ لأنّ هذا يُقدَّر بقدره في ظرفٍ ووقتٍ، ولا يمكن أن يُحدّد بالوحي.

المَعْلَمُ السادس: شرعية القتال:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ فالقتال الإسلامي ليس لفرض الهيمنة لقوم على قوم، ولا لقبيلة على قبيلة، ولا من أجل الاستحواذ على خيرات البلاد الأخرى، بل هو قتالٌ في سبيل الله، والله هو رب العالمين جميعًا.

وقد جاء الحديث عن المستضعفين والمظلومين امتدادًا أو قرينًا لسبيل الله، تأكيدًا لهذا المعنى؛ فالقتال في الإسلام إنما كان لكفّ الظلم والعدوان، ثم ترك الناس أحرارًا في خياراتهم وانتماءاتهم ونشاطاتهم، وهذا تصريح القرآن بما لا يحتمل التأويل ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي

الَّذِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

المَعْلَمُ السابع: التمييز وتحديد جهة العدو:

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾، ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهآ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾، فالناس ليسوا سواء، لا داخل الصف ولا خارجه، وإذا كان العدل وتميز الصالح من الفاسد مطلوبًا داخل الصف فإن تمييز الآخرين ودراسة مواقفهم لا يقل أهمية عن ذلك، فليس كل كافر عدوًّا، وليس كل مخالفٍ مُسيئًا.

وهذا ما أكّدته سورة الممتحنة بشكل أوضح وأدق، وأدب التحية في الإسلام معروف، وهو جزءٌ من الآداب الاجتماعية التواصلية، بيد أن وروده هنا له إيجاعات لا تخفى تتعلق بمواقف الآخرين من الأمم والدول، فهو ذو بُعدٍ سياسيٍّ أكثر من بعده الاجتماعي، يؤكد هذا قوله في الآيات الآتيات: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾.

المعلم الثامن: تحمُّل المسؤولية:

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ والحسنة هنا: الخير كالنصر والغلبة، والسيئة هنا: الشر وما يصيب الجيش من مشقة وخسارة، والمؤمن ينسب كل خير إلى الله، وإن كان قد باشر هو العمل واتخذ السبب، وينسب كل شر لنفسه وإن كان بقدر الله؛ لأن هذا القدر وفق سنن الله المبثوثة في هذا الكون، والتي لا تُحايى ولا تظلم أحداً، وهذا مجمع الآيتين؛ آية: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، وآية: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ فالإنسان ينبغي أن يتحمَّل مسؤوليته كاملة عن كل تصرُّفاته ولا يعتذر بالقدر، أما القائد فهو يتحمَّل المسؤولية المركَّبة؛ لأن تصرُّفه لا ينعكس على نفسه فقط، ومن هنا جاء النص: ﴿لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أي: التكليف العام بإدارة القتال والإعداد له، واتخاذ الأسباب اللازمة، وتخريض الجند وتدريبهم.

المعلم التاسع: التربية الإيمانية:

وهي القاعدة الأساس التي يبنى عليها كل عمل تربوي وفي كل المجالات، والجندي بحاجة إلى هذه التربية واستحضارها أكثر من غيره لثقل المسؤولية التي يتحملها، وللدقة المطلوبة منه والسرعة في التنفيذ.

من هنا جاءت الآيات تعالج كل جوانب الضعف والتردد بخطاب إيمانيّ تعبويّ يرفع من مستوى الهمة والجاهزية المطلوبة للتنفيذ ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾، ﴿أَتَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ﴾، ﴿قُلْ مَنَعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ ولترسيخ هذه المعاني يأتي الأمر بتدبر القرآن فهو عدّة الجندي ودافعه الأول للعمل والتضحية ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾.

﴿ثَبَاتٍ﴾ جماعات وسرايا متفرقة ﴿وَأَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ هو ما يسمّى اليوم بالنفير العام أو التعبئة العامة، وهذا لا يكون إلا في حالة الحرب الشاملة وتعرّض الأمة للغزو الكبير الذي يهدد وجودها واستقرارها.

﴿إِذَا لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي: حاضراً، كأنه فرحٌ بعوده وشامت بها أصاب المسلمين، وهو دأب المنافقين في كلّ نكسة.

﴿يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يبيعونها طلباً للآخرة.

﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ هذه سنة الله في الحرب، والمسلم ليس استثناء من هذا، بيد أنه ينتظر الأجر العظيم من الله في كلتا الحالتين.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ أي: من أجل إنقاذ المستضعفين وتخليصهم من وطأة الظالمين، وهذه سبيل لا تختلف عن سبيل الله بحال.

﴿الطَّغُوتِ﴾ من الطغيان وهو المتجاوز لحده وحقه، ثم استعملت اللفظة في كلّ من حادّ الله ورسوله، أو تجبرّ وطغى على عباد الله وسامهم سوء المعاملة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ كان هذا في مكة؛ حيث لم يؤذن للمسلمين بالقتال، فكان بعض المسلمين يتمنون لو أذن الله لهم بالقتال ليردّوا عذاب قريش وتنكيلها، فلما استقرّوا في المدينة تراخوا عن القتال، وهؤلاء مؤمنون وليسوا من النفاق في شيء، لكنّه الضعف البشري الذي لا يخلو منه جيل أو مجتمع.

﴿بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ الأبنية المنيعة والعالية التي لا يصل إليها الخطر من سيل ونحوه، لكنّ الأجل يصلها ويصل غيرها.

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ ليس فيه تعظيمٌ لشأن النبي ﷺ إلى درجة اختلاط مقام النبوة بمقام الألوهية، لكنه تقريرٌ واقعٌ أن النبي ﷺ مبلّغٌ عن الله، وأنه لا ينطق عن الهوى بل عن الوحي، ومن ثمّ كانت طاعته هي طاعة الله على الحقيقة.

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ برجوعهم إن علموا قوة المسلمين واستعدادهم، أو بدحرهم في المعركة، والعبارة فيها إيجاء أن المسلمين ليسوا حريصين على المواجهة، فالهداية أحب إليهم، وهذه غاية الرسالة الكبرى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً﴾ أي: من يكون سبباً في الخير، والسياق يُوحى أنها في الشفاعة التي تعود للجند بالخير بكفّ عدوّ، أو كسبٍ حليف، ونحو ذلك، فله نصيب من الأجر، بخلاف شفاعة السوء.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيمًا﴾ أي: حفيظاً ومقتدرًا، فلا تغيب عنه نوايا الشفعاء، ولا يعجز عن مجازاتهم.

سُورَةُ النَّبَاِ

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسُهُمْ بِمَا كَسَبُوا أْتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ (٨٨) وَدُّوا أَنْ تُكْفَرُوا كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُغْلِبُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ أَعَزَّ لُوكُمْ فَلَمْ يُغْلِبْكُمْ وَأَقْلُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ (٩٠) سَتَجِدُونَ أَخْرَيْنَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَارَدُوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعَزَّزْ لُوكُمُ الْيَكْرُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ (٩١) وَمَا كَانِ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانِ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانِ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (٩٢) وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (٩٣) يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (٩٤) لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَیَّ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٩٥) دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٩٦) إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٩٩) وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (١٠٠)

العلاقات العسكرية

تتناول هذه الآيات فقه العلاقات العسكرية بكل أبعادها وجوانبها، وأحكام السلم والحرب والمعاهدات، إضافة إلى العلاقات الداخلية ومكانة الجندي المقاتل في مجتمعه، ويمكن تقسيم هذه العلاقات وفق المحاور الآتية:

محور المنافقين:

وهو المحور المثير للجدل والاختلاف ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ بمعنى أن الصحابة رضي الله عنهم قد اختلفوا في المنافقين إلى فئتين: منهم من يرى موالاتهم، ومساواتهم بالمسلمين بحكم ظاهرهم وموقفهم العلن، ومنهم من يرى البراءة منهم، وربما مُعاقبتهم وقتلهم بحسب افتضاح أمرهم، ونكوصهم عن مقتضيات الإيمان والوفاء بعهود الولاء للدولة المسلمة ودستورها ونظامها.

وهذا الخلاف بين الصحابة مردهُ الخلاف بين ظاهر المنافقين وباطنهم، وتنوع النفاق وأساليبه، واختلاف المواقف بين كل فئة وأخرى من المنافقين، واختلاط بعض مواقفهم بمواقف المخطئين من المؤمنين والمترددین من الأعراب والقبائل التي لم تحسم موقفها، وهذا كله يبعث على الاختلاف في تقدير الموقف واستنباط الحكم المناسب له.

وإنما جاء اللوم في قوله: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ ﴾ على حالة من الاختلاف مع وجود رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم، وكأنَّ هناك أسباباً في تباين المواقف لا صلة لها بالاجتهاد العلمي وأصول الاستنباط، فربما كانت العواطف والمصالح والعلاقات الاجتماعية سبباً في ذلك، وهذا هو محلُّ اللوم؛ إذ المجتهد المستوفي لشروط الاجتهاد لا يستحقُّ اللوم وإن أخطأ أو خالف من هو أعلم منه.

وقد وضَعَ القرآن الكريم هنا دالَّتَيْنِ عمليَّتين ظاهريَّتين لتقدير موقف المنافقين والحكم عليه:

أولاً: الردّة؛ حيث إن بعض المنافقين قد ارتدّوا صراحة ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسُهُمْ﴾ وكما بيّن في موضع آخر: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ [المنافقون: ٣]، وأكد هذا المعنى بالآية التالية: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾ ولا بُد أن تكون هذه الردّة ظاهرة؛ إذ هي مناط الحكم بالنسبة لنا نحن البشر، فمن كتم رّدته لا سلطان لنا عليه.

ثانيًا: رفض الهجرة ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ والمقصود هنا فئات من المنافقين ممن هم خارج المدينة كبعض المتظاهرين بالإسلام من أهل مكة خديعة للمسلمين، أو بعض الأعراب الذين يدورون مع مصالحهم الدنيوية؛ فمرة يُوالون المسلمين، ومرة يُوالون المشركين، والذين وردَ فيهم: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة: ٩٧]، وهؤلاء إنما يُمتحنون بالهجرة، فمن هاجر وانضمَّ إلى المسلمين فهو منهم وسِرَّه موكل إلى الله، ومن رفض بلا عذر ظاهر فهو خارج دائرة الولاء.

وهذه العلامات إنما هي لفرز هؤلاء عن مفهوم الأمة المسلمة وعن استحقاقات الدولة، أما القتال الذي ورد في ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ﴾ فالظاهر أنَّها فيمن تولى عن المسلمين وانضمَّ إلى صفِّ المشركين في قتالهم ومعاداتهم للمؤمنين، وهم فئة من المنافقين.

أما الآخرون فالظاهر من السيرة والسنة المحفوظة أن الرسول ﷺ لم يقاتلهم، ولم يعتزلهم، وإنما اكتفى بالحذر منهم، والتحذير من أخلاقهم وسلوكياتهم.

وختلاصة هذا أن المنافع فئات متعددة ومختلفة، ولا يصح معاملتهم معاملة واحدة، والله أعلم.

محور الأعداء المحاربين:

وهؤلاء أكثر وضوحاً ممن سبقهم؛ ولذا جاء الحكم واضحاً ومحددًا ﴿فَإِنْ لَّمْ يَعْزِلُوا كُفُّوا أَيْدِيَهُمْ وَأَقْسِلُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْسِلُوا أَيْدِيَهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾.

وهنا قرينة أخرى تؤكد أن المقصود بقوله تعالى المتقدم في المنافقين: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أنهم أولئك الذين انضموا إلى جبهة العدو، فلم يعتزلوا، ولم يكفوا أيديهم، ولم يكتفوا بكفرهم الباطني، وهذا يعني أنهم خرجوا من طور النفاق إلى طور المحاربة والمجاهرة بالكفر.

محور المعاهدين:

وهؤلاء يشتركون مع السابقين في الكفر ويخالفونهم في الموقف؛ حيث ميزوا علاقاتهم بالدولة المسلمة بمواثيق سلام أو تحالف أو اشتراك في المصالح، ومثال ذلك قبيلة خزاعة التي انحازت إلى معاهدة المسلمين بالضد من قريش وحلفائها، وفي هؤلاء ونحوهم يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ وهو استثناء من المحاربة، فهؤلاء وإن كانوا على دين آخر لا تجوز مقاتلتهم بحال ما داموا أوفوا بعهودهم.

محور المعتزلين:

في كل حرب يكون هناك طرفان أو أكثر، وتكون هناك أطراف أخرى لا ترى لها مصلحة في هذه الحرب ﴿أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ فحكم هؤلاء من هذه الناحية كحكم المعاهدين، أما بنود المعاهدات فهي خاصة بالمعاهدين، ولكل معاهدة بنودها بحسب اتفاق الطرفين.

محور القاعدين من المؤمنين:

وهؤلاء اختاروا القعود عن القتال في سبيل الله مع القدرة عليه ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ وهو تمييز للمجاهدين على من سواهم من المؤمنين ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾.

ثم فصل الدرجة بالدرجات إشارة إلى اختلاف مراتب المجاهدين ومراتب القاعدين، ولم يتضمن هذا التمييز الأحكام الشرعية المتعلقة باختلاف الحالات والدرجات، فالتخلف عن جهاد الطلب ليس كالتخلف عن جهاد الدفع (المقاومة)، والتخلف لأداء واجبات أخرى باجتهاد صحيح أو بإذن من ولي الأمر قد يصل إلى الاستثناء من المفاضلة أصلاً؛ كاستثناء أولي الضرر وأشدّه، لكن الآية بمجمّلها تؤكد من الناحية العمليّة التكليفيّة المكانة المرموقة التي ينبغي أن يحظى بها العسكري المسلم في مجتمعه.

وهناك تحت هذا المحور قعود آخر، وهو القعود عن الهجرة، وهو متضمّن للقعود عن الجهاد أيضاً، فإن كان ذلك عن عجز فهم مشمولون بالعفو ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ (١٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ ﴿١٩﴾.

أما المتكبرون والذين يؤثرون مصالحهم الدنيوية على مصلحة الإسلام العليا ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

ولا شك أن هذا الوعيد إنما هو فيمن تخلف عن الهجرة الواجبة، والتي هي علامة الإيمان ودليل الولاء، وليس كل مكوث في بلاد الكافرين يتناوله الوعيد، والله أعلم.

محور العلاقة بين القاتل والمقتول:

وهذا محور عملي ومتعلّق بحملة السلاح، وهو جزء من الفقه العسكري، والسياق لا يحتمل غير هذا، وإن كان من الممكن استنباط الجنايات الفردية أو الاجتماعية منه، وقد جاء في هذه الآيات أربع حالات من القتل:

الحالة الأولى: قتال المسلم لعدوّه في ميدان المعركة، وهذا أصل القتال المشروع ﴿فَإِنْ لَّمْ يَعْزِزْ لُوْكُ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْلُبُوهُمْ﴾ ومفهوم المخالفة أنهم إن اعتزلوا وألقوا السلم وكفوا أيديهم عن قتالنا فلا يجوز قتالهم.

الحالة الثانية: قتال غير المسلم للمسلم، وهو القتال بدافع معاداة الإسلام والمسلمين،

وقد جاء هذا تفريعاً عن قوله: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَعْزِلُواكُمْ﴾ الآية، وهؤلاء أعداءٌ يستوجبون القتال كما ورد في الحالة الأولى، ويستوجبون النار والخلود فيها ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾، فهو قد قتله عمداً لإيمانه وتحت هذا الوصف.

أما القتل التي تحصل بين المسلمين إثر خلافٍ وخصامٍ فليس لها ذكر هنا، وإنما جاءت في آياتٍ أخرى كآية القصاص في سورة البقرة، وعدم ذكر القصاص هنا ولا الدية قرينة متسقة مع السياق أن القتل هنا هو قتل الحرب، فهو بالأساس خارج عن سياق الجنايات الشخصية المعروفة.

وهناك قرينة تعضد ما ذهبنا إليه هنا، وهي قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ مع أن قتل المؤمن للمؤمن في الجنايات الشخصية وارد وقد يكون مشروعاً كما في حالة الدفاع الاضطراري عن النفس وردّ الصائل، لكن الذي لا يُتصور وقوعه أن يقتله لإيمانه ومناصرة لعدوه، فهذا دليل الكفر وعلامة النفاق، ومن هنا استوجب الخلود في النار.

الحالة الثالثة: القتل الخطأ، وهو الذي يقع من مسلمٍ على مسلم بغير قصدٍ، وله صور كثيرة تندرج في الغالب تحت فقه الجنايات، ومناسبة ذكر هذه الحالة هنا الاستثناء الوارد في قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ فاقضى بيان هذا الخطأ والأحكام الفقهية المترتبة عليه.

ومع هذا ففي هذه الأحكام تأكيدٌ لموضوع السياق؛ فالقتيل المسلم قد يكون قومه مسلمين أيضاً، وقد يكونون أعداء، أو معاهدين، وهذه الاحتمالات أقرب إلى فقه العلاقات منها إلى فقه الجنايات ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِصْيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَكَبِرِينَ﴾.

الحالة الرابعة: قتال المسلمين بالتأويل، وهي حالةٌ يكثر فيها الالتباس واختلاط النوايا، ومن هنا كان الواجب إخلاص النية واستبانة الموقف لكشف اللبس والدخن ﴿فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾.

دقائق التفسير

﴿أَزَكَّهُمْ﴾ رَدَّهم إلى الكفر، بالسنن التي أودعها الله في هذه الحياة، وأن الإنسان يسعى وله ما سعى، وقال: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ تحقيقاً لهذا المعنى واحترازاً عن شبهة الجبر.

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ يصلون أي: ينتسبون، فالعهد مع زعماء القوم يتناول كل من انتسب إليهم وتسمَّى بهم.

﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ ضاقت.

﴿وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ أي: سالوكم ولم يشاركوا في العدوان.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ وهم فئات من المنافقين والمترددين ومن يؤثر السلامة والمصلحة الدنيوية، فهؤلاء لا تصح مقاتلتهم ما داموا قد كفوا أيديهم ولم يشتركوا بقتال، مع أنَّهم أقرب إلى الفتنة والكفر.

﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ تمكثتم منهم.

﴿سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ حجة ظاهرة.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ عتق الرقبة ترغيبٌ بتحرير العبيد وتعويضٌ للمؤمنين عما فاتهم بقتل أخيهم، والدية تعويض مالي لورثة المقتول، فإن لم يجد الرقبة صام ستين يوماً؛ تربية على الاحتراز والاحتياط في دماء الأبرياء وفيه شعور إيجابي بمواساة ذوي القتل.

﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ هم أهل القتيل إذا رأوا التنازل عن الدية، إذا كانوا أهلاً للتنازل، أما الوارث اليتيم فتنازله غير مقبول، فله سهمه من الدية كاملاً، أما إذا كان أهله أعداء للمسلمين فلا دية لهم بخلاف المعاهدين فلهم الدية وإن كانوا كافرين.

﴿الْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ حياكم بتحية الإسلام، وهي: (السلام عليكم).

﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بترك الهجرة وخضوعهم لسطوة المشركين.

﴿مُرْغَمًا﴾ مخرجاً ومنعاً يرغم بهما عدوّه.

﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ ثبت أجره وعداً من الله، والله لا يخلف وعده.

سُورَةُ النَّبَاِ

وَإِذَا صَرَّفْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكُمْ وَلْيَاخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكُمْ وَلْيَاخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَحَدَّةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيْمَا وَقَعْتُمْ وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُورًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَتَأْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِثْمًا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولُوهُ مَا تَوَلَّى وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرَ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْسَانًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا يُخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضَلَالَتُهُمْ وَلَا مِيتَتُهُمْ وَلَا مُرْتَبَتُهُمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ مَا ذَاكَ الْأَنْقَرِ وَلَا مُرْتَبَتُهُمْ فَلْيَغْفِرْ بَرِيئًا خَلَقَ اللَّهُ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا حَتَّى يُبَاسِطَ أَيْدِيَهُمْ وَأَسْلِحَتُهُمْ وَأَمْنُهُمْ وَأَمَانَتُهُمْ وَلَا أَمَانِيَكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢١﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٣﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ﴿١٢٤﴾

يحتاج المقاتل أكثر من غيره إلى التوجيه المتواصل بحكم حساسية دوره وخطورة نشاطه، وقد تضمنت هذه الآيات عددًا من التوجيهات التربوية نلخصها في الآتي:

أولاً: إقامة الصلاة، وهي صلاة خاصة بالمقاتلين فيها قدر من التخفيف ومزيد من الضبط، فهو يصلي صلاة المسافر قصرًا وجمعًا، ولكنها صلاة منضبطة بإمام واحد، ينقسم الجند فيها إلى مجموعتين؛ مجموعة يصلي بهم الإمام ركعة واحدة فقط، ثم يجلس فتكمل هذه المجموعة صلاتها، ثم تنصرف لتأخذ دور المجموعة الثانية في الحراسة، ثم يصلي الإمام بالمجموعة الثانية ركعته الثانية، فإذا سلم قاموا وأكملوا صلاتهم، وهذه صورة من صور صلاة الحرب أو الخوف، والصور الأخرى معروفة في كتب الفقه.

والمعنى المضاف في هذه الصلاة هو الحرص على وحدة القيادة حتى في الظروف الاستثنائية، ولا يخفى أيضًا التأكيد على أهمية الصلاة بالنسبة للجند؛ فهي صلتهم بهويتهم وعقيدتهم، وصلتهم فيما بينهم.

ثانيًا: الذكر ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ وهذا تنبيه على أهمية الذكر في صياغة شخصية الجندي إيمانًا وشجاعة، وتنزهًا عن الحطام ودواعي الجبن والقعود، وفي الذكر ترسيخ لقيم الألفة والتعاون ومحبة الخير، والتغاضي عن أسباب النزاع والخلاف.

ثالثًا: الحذر، وهو ركن التربية العسكرية ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ ﴿وَاخْذُوا حِذْرَكُمْ﴾ وأطلق الحذر هنا ليشمل كل ما ينبغي الحذر منه بدايةً من نوازع النفس وشهواتها، حتى مخططات العدو وطرائقه في الاختراق واصطياد المعلومات، وفتح الثغرات. رابعًا: العزم والتحمل ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۚ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

خامسًا: الشعور بالمسؤولية وتحمل التبعات ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾، ومع هذا فباب التصحيح مفتوح ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، وحذر هنا من التخلي عن المسؤولية واتهام الآخرين بالباطل ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾.

سادسًا: البراءة من الخائنين ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَثِيمًا﴾، ﴿هَتَانُكُمُ هَتُولَاءُ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، وقد بين الله سبب الخيانة ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ فالله معهم وهو يعلم سرهم ونجواهم، ولكنهم هم لم يكونوا مع الله، فهوئذوا الإثم، واستصغروا حق الله في مقابل حق الناس فتملكهم الرياء والرغبة بما في أيدي الناس.

ومن ثمَّ وجب رفع الغطاء عنهم وكشف مخططاتهم وارتباطاتهم ومحاولاتهم التأثير على مصدر القرار ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ، لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾، وإذا كان هذا في حق المعصوم صلوات الله وسلامه عليه، فإن غيره من الخلفاء والأمراء أولى بالحيلة.

سابعًا: الابتعاد عن النجوى، وهي المحادثات الجانبية في الشأن العام بمعزل عن القيادة، وهي نذيرٌ بالتفرُّق والاختلاف وشيوع الشك والريبة ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾، ثم استثنى التشاور من أجل الإصلاح ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾.

وقد ورد التحذير الشديد من النجوى في سورة المجادلة: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [المجادلة: ١٠].

ثامناً: التحذير من مجانبة الحق وشق الصف ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، وقد جاء هذا التحذير عقب الحديث عن النجوى إشارة إلى الصلة السببية بينهما.

تاسعاً: البراءة من المشركين وضلالاتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾. ﴿وَإِنْ يَدْعُواكَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا يُخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ ﴿وَلَا ضَلَّاهُمْ وَلَا مُتَّبِعُهُمْ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَبْتِكُنْ إِذَا تَكُنَّ الْأَنْعَامُ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغْيِرْكَ خَلْقُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ فالمجتمع المسلم كله متميز بعقيدته وأخلاقه وطريقة تعامله مع الخلق، حتى الأنعام والبهائم.

عاشراً: الأخذ بالأسباب وعدم الاتكال على الإيثار المجرد ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ ﴿فُسْنُ اللَّهِ غَلَابَةٌ، والسوء في مخالفة السنن الكونية لا يختلف عن السوء في مخالفة الأحكام الشرعية؛ إذ خالق الكون ومنزل الوحي رب واحد وإله واحد ﷻ؛ ولذلك لم يشفع للمؤمنين إيمانهم حينما تركوا ثغرتهم مكشوفة على جبل الرماة يوم أُحُد، وهذا هو عدله سبحانه في الخلق والأمر.

دقائق التفسير

﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ شرط ظاهر في قصر الصلاة بالنسبة للجيش، فهو يقصر الصلاة في حالة الحرب وإمام واحد، أما قصر الصلاة في السفر فلا يشترط فيها خوف العدو سواء أكان المسافر عسكرياً أم مدنياً، فسياق الآية يتناول الحرب وليس السفر، وإنما أخذت صلاة المسافر من السنة النبوية.

﴿وَلَا جُنَاحَ﴾ لا حرج ولا إثم.

﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وهي الصلاة التامة من غير قصر، في حالة حصول الاستقرار وانتهاء حالة المواجهة والإنذار العسكري.

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ أي: فرضاً مؤقتاً بمواقيت محددة، وهذا هو الأصل في الصلاة، وإنما جرى تغيير الوقت في حالة الحرب استثناءً من الأصل، فاقضى العود إلى الأصل بذهاب حالة الاستثناء، وفي هذا دليل على وجوب الالتزام بأوقات الصلاة كما فرضت وكما أداها رسول الله ﷺ، بخلاف بعض المبتدعة الذين يرون الجمع بلا عذر ولا حرب ولا سفر.

﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ^ط وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ وهذا من شأنه أن يُخَفِّفَ من وطأة الألم، ويُعين على الصبر والتحمل، فالمشرك يُجْرَحُ ويُقتل وهو لا يعتقد بحياة الجزاء الآخروي، بخلاف المؤمن الذي يرجو تلك الحياة وثواب الله فيها.

﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ أي: مُدافعاً ومجادلاً عنهم.

﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ يستترون حياءً.

﴿يُبَيِّنُونَ﴾ أصله تدبير الأمر في الليل، ثم استعمل في كل أمر يتم في الخفاء.

﴿بِهَتْنًا﴾ رمي الآخر بالتهمة الباطلة كذباً وافتراءً.

﴿أَنْ يُضْلَوْكَ﴾ أن يخدعوك.

﴿يُشَاقِقِ﴾ يخالف ويعاند.

﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يتخذ طريقاً غير طريق الإسلام، وقد استنبط الأصوليون من هذه الآية حجية الإجماع، فما أجمع عليه المسلمون لا ينبغي مخالفته.

﴿وَيَغْفِرْ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ من الذنوب كبيرها وصغيرها، وهذا من سعة رحمته وعفوه ومغفرته، وهذا ظننا به سبحانه، فهو الغني عن خلقه، وهم الفقراء إليه، وفي الآية دليل على جواز العفو عن قاتل النفس؛ إذ هو مما دون الشرك، وهذه قرينة أن وعيد الله لمن

يقتل مؤمناً متعمداً بالخلود في جهنم إنما في القاتل الكافر الذي يقتل المؤمن لإيمانه، والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿لَمَنْ يَشَاءُ﴾ حتى لا يتكلم الناس فيتجرؤوا على الذنوب وانتهاك الحقوق، كما هو مذهب غلاة المرجئة.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ هي الأصنام كمناة والعزى، وفيه قبحٌ مضافٌ؛ حيث إنهم يقتلون إناث البشر، ويعبدون إناث الحجر، وهذا القصر ليس على حقيقته؛ بل هو قصرٌ قُصِدَ به التنبيه إلى سُنَاعَةِ فِعْلِهِمْ، كما يُقال في المدح: لا فارسَ إلا زيد، ولا فتى إلا عمرو، وكما يُقال في النصيحة: لا تخافن إلا ذنبك، والله أعلم.

﴿شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ هو إبليس الخارج عن طاعة الله، ويصح إطلاق الشيطان على كل خبيث في جنسه من الجن والإنس والحيوان.

﴿فَلْيُبَيِّنَنَّ أَآذَانَ الْآذَانِ﴾ وهو نموذج للتدوين الفاسد، فقطع الآذان ليس من الدين وليس من الخلق في شيء.

﴿فَلْيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ وهذه غاية الشيطان الكبرى، وطريقته في إفساد الكون، فالموضوع أكبر من قطع الآذان، والانحراف إنما يبدأ بخطوة، فتغيير الخلق يعني تغيير نواميس الكون بدءاً من خصوصية الذكر والأنثى والعلاقة الفطرية فيما بينهما، وصولاً إلى تدمير الحياة والبيئة المحيطة بأنواع التلوث، وأسلحة الدمار الشامل.

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾ ليس بما تشتهون وترغبون.

﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ تأكيد المساواة الجزائية وتحمل المسؤولية.

﴿نَقِيرًا﴾ الأثر الذي في ظهر نواة التمر، والمقصود أي شيء ولو كان صغيراً أو قليلاً.

﴿وَاتَّبَعَ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ تأكيداً لوحدة الدين وربط الرسالات السماوية كلها بمصدرٍ واحدٍ

وتاريخٍ واحدٍ.

سُورَةُ النَّبَاِ

وَنَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَزَعْنَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضَعِفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ نَبِيَّكُمْ كَانَ بِكُمْ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمِغْلَقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوِلْدَانِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعِزُّوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

العلاقات الأسرية

تتأب الأسرة مشكلات كثيرة قد تعصف باستقرارها وتماسكها، وهذه المشكلات متوقعة في كل المجتمعات لغياب الوازع الديني، وضعف ثقافة الانسجام، وطغيان الأثرة والشح وما إلى ذلك من الأمراض النفسية والاجتماعية، وقد جاءت هذه الآيات لوضع المعايير والقيم الضابطة للسلوك الأسري، ويمكن ترتيبها تنازلياً كالآتي:

أولاً: القيمة العليا، وهي الإحسان ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ والإحسان متضمن للإيثار والتنازل عن بعض الحقوق، والعمل على تقديم الخير

لكل أفراد الأسرة صغارًا وكبارًا وأيتامًا ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ وهذا مقام المتقين الصالحين الذين يؤثرون ما عند الله على ما عند الناس.

وقد شاع مؤخرًا في ثقافتنا الاجتماعية أن هذا التنازل إنما هو دليل على ضعف الشخصية والقبول بالمذلة، وهذا تصور خاطئ؛ فالمصلحة لا يكون مُصلِحًا بحق إلا أن يبذل مما عنده، ويتغافل عن إساءة الآخرين، ويغفر لهم ويدعو لهم، وهذا من عظمة النفس وكرامتها، ورفعة شأنها.

ثانيًا: العدل، وهي القيمة التي تأتي في المرتبة بعد قيمة الإحسان ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَمَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ إن يكن غنيًّا أو فقيرًا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وفي حال تعذر تحقيق العدل الكامل، خاصة في العلاقات المتشعبة والمتضمنة للعواطف والمشاعر ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾.

والمقصود هنا: العدل في العاطفة والمحبة؛ إذ هو لا يقع تحت الضبط والسيطرة، بخلاف العدل في المسائل المادية والتعامل الظاهر، فهذا بمقدور الإنسان تحقيقه، وقوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾ أي: لا تتبعوا الميل القلبي بالميل المادي؛ لأنكم إن عُذرتُم في الأول فلن تُعذروا في الثاني، والله أعلم.

ثالثًا: الصلح، وهو القيمة الثالثة في هذا السياق، ولا يكون إلا بوجود مشكلة فعلية ﴿وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ والصلح هنا هو اتفاق على حل المشكلة، وقد يتضمن تنازلًا فيما دون العدل على أن تبنى الرابطة الزوجية قائمة، والخير الذي فيه إنما هو لبقاء العصمة، واستمرار الرعاية

والنفقة، والحفاظ على الأولاد، ولا يكون هذا في الغالب إلا في حالة فقدان الانسجام والعاطفة التواصلية بين الزوجين، والله أعلم.

رابعًا: الفراق بالحسنى؛ وهو الحل الأخير ﴿وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾.

وقد امتزج في كل هذا التذكير بتقوى الله، والتحذير من الأثرة والشح ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ والترغيب بما عند الله والدار الآخرة ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

دقائق التفسير

﴿فِي يَتَمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبْنَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ هي اليتيمة التي يمسك بها وليها مستأثرًا بهاها وغير راغب بنكاحها فيعضلها عن الزواج أيضًا خوفًا من ذهاب مالها إلى زوجها، وهي حالة مختلفة عن تلك التي وردت في الآية الثالثة من هذه السورة، وهي اليتيمة التي يرغب وليها بنكاحها بمهر أقل من القسط، فتحصلت في هذه السورة حالتان:

اليتيمة التي يرغب الولي بنكاحها؛ لأن تكلفة مهرها أقل.
واليتيمة التي لا يرغب بنكاحها ولا يرغب بتزويجها أيضًا حتى لا تذهب بهاها الذي عنده، وكلاهما بغى وإثم.

﴿وَالْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ حيث كانوا في الجاهلية لا يُورثون الصغار من بنين وبنات.

﴿كُلِّ الْمَيْلِ﴾ الميل المادي في القسمة والنفقة إضافة إلى الميل العاطفي القلبي.

﴿كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أي: ليست بزوجة لها حقوق الزوجة المعروفة في الشرع، ولا مطلقة لتري طريقها وما فيه مصلحتها.

﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ أي: لا تُحَابُوا الغنيَّ تقربًا منه، ولا تُحَابُوا الفقيرَ رحمةً به؛ فالعدل أن يأخذ كلُّ طرفٍ ما يستحق، وهذا الحكم العدل، فإن أراد الغنيُّ أن يعطف على الفقير من ماله، فهذا إحسانٌ منه، لكن ليس قبل أن يقضي القاضي بينهما بالعدل، فيكون الإحسان فيما بعد مُقَدَّرًا ومعلومًا.

﴿وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَرَضُوا﴾ نهى عن حرفِ الشهادة أو كتمانها.

سُورَةُ النَّبَاِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكِتِبِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالِكِتِبِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئْنَظُفُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ءَإِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَرَبُّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ءَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَءَوْنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجْدِلَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا إِلَهُ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ قَابَلُوا وَاصَلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ خَفَوْهُ أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾

المنافقون

تقدم الحديث مفصلاً عن المنافقين في سورة البقرة، والقرآن يكمل بعضه بعضاً، فجاء بسيرة المنافقين هنا في سياق آخر، ففي البقرة كان الحديث منصباً للمقارنة العقدية بين الفئات الثلاث: المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، أما هنا فقد جاء الحديث مركزاً في بيان

موقف المنافقين من المعركة الدائرة بين الإسلام والكفر؛ لمناسبة الحديث المتقدم قبل قليل
عن التربية العسكرية وشروط الجندية في الجيش المسلم، ويمكن استخلاص الموقف القرآني
من المنافقين في النقاط الآتية:

أولاً: إن الإيمان وحدة متكاملة لا تتجزأ، وقد جاء بيان أركان الإيمان الخمسة، وأن من كفر بواحد منها فقد كفر بجميعها ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

وأما الركن السادس وهو: القدر، فهو مضمّن في الإيمان بالله؛ إذ حقيقته الإيمان بعلم الله وإرادته وقدرته وحكمته، وهذه صفات إلهية ينتج عنها القضاء والقدر، ومناسبة ذكر الأركان هنا بيان حال الكافر بها ومنهم المنافقون وهم محل الحديث أولاً، ثم يأتي الحديث بعدهم عن أهل الكتاب، وكلهم مشتركون في هذا الكفر وإن اختلفت صفاتهم الأخرى.

ثانياً: إن المنافقين ليسوا في درجة بين الإيمان والكفر، بل هم قد كفروا كفراً لا شبهة فيه ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ عَذَابٌ أَلِيمًا﴾.

وأما تكرار الإيمان والكفر فهو ليس على سبيل التردد، بل هو طبيعة النفاق، فهم كلما قابلوا المؤمنين قالوا: آمنا، وكلما قابلوا الكافرين قالوا: كفرنا، وأما حقيقتهم الذاتية فهي الكفر، كما قال عنهم في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

ثالثاً: إن المنافقين هم مع الكافرين في ولاء واحد من دون المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ
الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والمقصود بالكافرين هنا: المُجَاهِرُونَ بكفرهم وعدائهم
للمؤمنين، وإلا فلان المنافقين كافرون وليسوا مُوَالِينَ للكافرين، فكفرهم ثابتٌ بنفي إيمانهم
من الأصل، وليس بسبب ولائهم.

رابعًا: إنهم يشتركون مع الكافرين في الاستهزاء بآيات الله ﴿أَن إِذَا سَمِعْتُم مَّآيَةَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ إِنَّكُمْ إِذَا مِثَلْتُمُ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿٤٠﴾.

خامسًا: إن تغير مواقفهم إنما يكون بحسب المصلحة، وليس تغيرًا في الرأي أو المعتقد ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمُ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذا هو سبب التذبذب ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾ لأنه ليست عندهم راية واضحة ينحازون إليها؛ فاليهودي مُنحازٌ ليهوديته، والمشرِك مُنحازٌ لقومه، وهؤلاء ضائعون انتهازيون يبحثون عن الفتات تحت أي سفرة، وليس التذبذب التحير أو التردد بين الإيمان والكفر.

سادسًا: إنهم مخادعون ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ أي: أنهم يظنون أنهم يخدعون الحق وأهله، ولكن الحقيقة أن خداعهم راجع عليهم، فهم يخدعون أنفسهم ببعض المصالح الزائلة ثم تكون وبالاً عليهم.

سابعًا: إنهم يتقاعسون عن الطاعة والعبادة؛ لأنهم يتصنعونها تصنعًا بلا إيمان ولا رغبة ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالً يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهذا لا يشمل المؤمن الذي قد يتعرض للكسل بطبعه البشري، فهذا ليس من النفاق.

ثامنًا: إن باب التوبة مفتوح لهم، لكن بشروط مضافة ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ فإصلاح ما أفسدوه في مرحلة النفاق شرط في التوبة، وكذا الإخلاص والاعتصام لمكان الاضطراب والتذبذب وغيرهما من الصفات التي كانوا عليها مما لا تبعث على الطمأنينة والارتياح.

تاسعًا: إن المجاهرة بأقوالهم والمساهمة بنشر أخبارهم وإشاعاتهم، وكذا إعلان الخصومة لهم ليس من الصفات المحببة عند المؤمنين، إلا بقدر ما يندفع خطرهم وظلمهم المتجه نحو

المجتمع كله، أو نحو فرد أو مجموعة معينة ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾.

دقائق التفسير

﴿ثُمَّ أَزْادُوا كُفْرًا﴾ إشارة إلى أن الكفر يتفاوت كما يتفاوت الإيمان، فكفر الجاهل مثلاً ليس ككفر العارف المعاند، وهؤلاء المنافقون لأنهم عاشوا مع المسلمين وسمعوا من رسول الله ﷺ مباشرة، ورأوا خلقه وشأئله، وتأيد الله له، ثم أصرُّوا على كفرهم فهم قد هَوَّوا إلى أسفل دركات الكفر، ومن هنا استحقوا أشدَّ العذاب ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾.

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ منع الهداية لم يكن ابتداءً، بل بسبب ظلمهم وعنادهم ونفاقهم، وهذا هو الذي يَتَّفِقُ مع عدل الله وحكمته، فالله لا يهدي قومًا ويضل آخرين انحيازاً لأولئك وظلماً لهؤلاء - حاشا لله -، بل من طلب الهداية هُدي، ومن طلب الضلالة ضلَّ، تماماً كعالم الأسباب الماديَّة، فمن طلب الماء ارتوى، ومن تركه ظمئ.

﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ومعنى الجواب: أن من يتبغي العِزَّةَ فليلتجئ إلى الله، فالانتساب إليه يمنح العبد مكانته وكرامته؛ إذ سيتساوى مع كل البشر مهما كان ضعيفاً أو فقيراً، أما الابتعاد عن الله فإن الناس بهذا الابتعاد سيتميّزون بقدراتهم وإمكاناتهم، وهذه مظنة الإذلال وعبوديَّة البشر للبشر.

﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ إشارة أن مقاطعة المجتمعات الكافرة أو الفاسقة ليس مطلباً شرعياً ما دام الاحترام قائماً، أما إن سخروا واستهزؤوا فتتعيَّن العزلة، نزاعاً لفتيل الصدام، وتجنباً للنزول إلى المستوى الذي يضيع فيه الجدل، ويهزل فيه الفكر.

﴿يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ أي: ينتظرون نتائج المعركة مع تمنى السوء لكم.

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ هو جعل تشريعي، بمعنى: أن الله قد شرع لكم من التوجيهات والأحكام ما يضمن لكم النصر والتفوق، وهذا كقوله: ﴿إِنْ تَصُرُوا اللَّهَ يَصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، فالتزامكم بأمر الله واعتصامكم بحبله يقطع سبيل الكافرين في غلبتكم.

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ فالله ليس محتاجاً لعذابكم، لا لدفع ضرر عنه، ولا لجلب خير، ولا تشفيًا بكم، وهذا فيه ترغيب شديد بالتوبة والإنابة، وبيان لسعة رحمة الله وعفوه وقبوله لمن تاب إليه مهما كان.

﴿إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمْنُتُمْ﴾ قَدَّم الشكر على الإيمان، إشارة أن خُلق الشكر الفطري ومحبة الإنسان لمن يحسن إليه سيقود صاحبه إلى الإيمان حتمًا، فمن ذاك الذي أحسن إلينا أكثر من الذي خلقنا من العدم، وأمدنا بكل أسباب الحياة عناية ورعاية وكرامة؟

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ حتى لا يظن ظان أن ما تقدّم من فضح المنافقين وأساليبهم الملتوية مبرر لأن يكون هذا سمتًا في المسلمين في تعاملهم مع الآخرين، فالقرآن يذكر صفات وأحوالا يحذر منها ولا يذكر أسماء وأشخاصًا، أما تناول الأشخاص والجماعات المعينة بالطعن فهذا ليس واردًا إلا في حالة الظلم الواقع من معيّن على معيّن، وحتى هؤلاء ندهم إلى العفو ورغبهم فيه ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾.

سُورَةُ النَّبَاِ

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرًا مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهَنَّمَ فَاخِذْنَا مِنْهُ الصَّنِيعَةَ يَظْلِمُهُمُ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَقَوْا عَنْ ذَلِكَ ﴿١٥٣﴾ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٤﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ وَقَالُوا لِمَ أَذْخَلُوا الْبَابَ نَحْنًا وَقَالُوا هُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٥﴾ فِيمَا تَقْصِيهِمْ فِيمَنْهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَالِهِمُ الْأَنْبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَالِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِكَفَرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٦﴾ وَكَفَرِهِمْ وَقَالِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بَهْتًا عَظِيمًا ﴿١٥٧﴾ وَقَالِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْهَاقُ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٨﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٩﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَإِلَّا يُؤْمِنُونَ بِهِ قَبْلَ مَوْعِدِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٦٠﴾ فَيُظْهِرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبَقَتْ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦١﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ آمَوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦٢﴾ لَكِنَّ الرِّبَاخُونَ فِي الْبَيْتِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ كَمَا أَنْزَلْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالْإِسْحَاقَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٤﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٥﴾ وَرُسلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٦﴾ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ الْمَكِينُ يُشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُمْ لَإِيْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٩﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٧٠﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧١﴾ يَأْتِيهِمُ الْكِتَابُ لَا يَغْنَمُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧٢﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَكُ الْمَقْرُونُ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْمِلُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴿١٧٣﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أَجْرَهُمْ وَبَرِّدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٤﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَتِهِ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٦﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا مِنْكُمُ الْوَحْيَ لَقَدْ كُنْتُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا مِنْكُمُ الْوَحْيَ لَقَدْ كُنْتُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا مِنْكُمُ الْوَحْيَ لَقَدْ كُنْتُمْ فِي الْكَلَالَةِ وَلَكِنْ كُنَّا أَنْتَيْنِ قَالَهُمَا الثُّلَاثَانِ بِرَأْسِهِ وَلَكِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذِّكَ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾

يتكرر الحديث عن أهل الكتاب، وهذا دليل على خطورة شأنهم، وعظيم تأثيرهم في هذه الحياة، بيد أن هذا التكرار يحمل معه إضافات جديدة ومعالجات لجوانب أخرى لم تطرح من قبل، وفيه أيضا تأكيد للمقولات والمقدمات الجوهرية التي ينبغي استحضارها في كل مرة، أما المسائل التي تناولها الحديث في هذه الآيات فهي:

أولاً: تجزئة الإيمان كفر، وهذا هو مدخل الكفر بالنسبة لأهل الكتاب ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمُنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴿فَهُمْ آمَنُوا بِمُوسَى وَكَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ وَاخْتَلَفُوا فِي عِيسَى ۝١٥١﴾.

ثانياً: عناد اليهود وتكبرهم على الحق ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرًا مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۝١٥٢﴾ وقد ذكرهم القرآن بعد هذا بأن الله قد أراهم المعجزات الحسية كرفع الطور، لكن قلوبهم القاسية لم تَلَنَ فازدادت قساوة، وتمادت في ظلمها وتكبرها.

ثالثاً: جرائم اليهود، وقد جاءت هذه الآيات بنماذج متنوعة، بدأت بكفرهم بآيات الله، ونقضهم الميثاق الإلهي، وقتلهم الأنبياء، وحرصهم على قتل السيد المسيح، وانتهت بأخذهم الربا وأكلهم لأموال الناس بالباطل ﴿فِيمَا نَقَضُوا مِيثَقَهُمْ وَمَكَفَرُوا بِثَابِتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۝١٥٣﴾ ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۝١٥٤﴾ ﴿وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۝١٥٥﴾ وقد استثنى الله من هؤلاء من رفض هذه الجرائم واهتدى للحق ﴿لَكِنَّ الرَّاٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ۝١٥٦﴾.

رابعاً: شرك النصارى؛ وهو مدخل ثانٍ للكفر؛ حيث قالوا في عيسى ما يرفعه إلى مقام الألوهية ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ أَنْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۝١٥٧﴾، ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۝١٥٨﴾.

خامسًا: الغلو سبب مضاف للكفر والشرك، وهو قاسم مشترك بين اليهود والنصارى وإن جاء بنتائج متضادة ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾، فعيسى نبيُّ ورسولٌ، خلقه الله بأمره وجعل خلقه آيةً، وهذا هو الموقف الحق بين غلو اليهود فيه حتى اتهموه وأمه بها لا يليق بأحاديث الناس، وبين الغلو المقابل عند النصارى؛ حيث جعلوه نِدًّا لله، ونفوا عنه صفة المخلوقية.

سادسًا: وحدة الرسائل السماوية من حيث المصدر، ومن حيث الغاية ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾، ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾.

وقد حُتِمَتِ السورة بمسألة فقهية وثيقة الصلة بالمسائل التي استُهلَّت بها السورة؛ تأكيدًا للوحدة الموضوعية، ومنهجية القرآن في معالجة المسائل المتنوعة، فهي وإن اختلفت في بعض الجوانب، لكنها حقيقة كالنهر المتدفق لا يمكن فصل بعضه عن بعض، فالعقيدة تؤثر في السلوك الفردي والجماعي، والعلاقات السياسية مرتبطة بالعلاقات الاقتصادية، وهكذا.

دقائق التفسير

﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ بمعنى: أنهم يدعون الإيثار بالله ثم يكفرون برسله.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: مكتوبًا جاهزًا من السماء، وليس وحياً يُملَى عليك ثم تُملِّيه على الناس، وهذا من عنادهم وصلفهم، وإلا فدلّ الحق في الرحي ظاهرة، وهي كافية للهداية وإقامة الحجة.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقِهِمْ﴾ أي: رَفَعْنَا فوقهم الطور أثناء أخذ الميثاق منهم إلزامًا لهم، وتأكيّدًا لأهمية الميثاق، وقد مرّ الميثاق في سورة البقرة بالتفصيل المناسب.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ دليل على حفظ الله لنبيه عيسى من كيد اليهود وغيرهم، ونجاته من الموت على أيديهم، ورفعته إلى السماء ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾.

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ مقتضى السياق أن الله نجّى عيسى ورفعته إليه، ثم يقيم به الحجة على أهل الكتاب الذين غالوا فيه يمنة ويسرة، وهو ما سيتحقّق قبل موته ﷺ.

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضُ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا».

ثم يقول أبو هريرة: (واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾) (١).

وقد أشكل على بعض المفسّرين تخصيص العموم بهذا التفسير، أي: العموم الوارد بقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ إذ لا دليل على تخصيصه بالجيل الذي سيكون موجودًا عند النزول، فاضطروا لأقوال لا دليل عليها؛ كقولهم: إن كل كتابي في كل زمان ومكان لا يموت إلا وهو يؤمن بعيسى الإيمان الحق، كأن يرى شيئًا قبل موته - أي: موت الكتابي -، وهذا تكلفٌ ظاهر، فالتخصيص وارد بالحس والواقع، فالذين سيؤمنون به هم الذين سيُعاصرون نزوله ويرونه عيانًا، وهذا شائع في اللغة، وله نظائر في القرآن كثيرة، والله أعلم.

(١) متفق عليه، ينظر: صحيح البخاري (٣/ ١٢٧٢) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ م، وصحيح مسلم (١/ ١٣٥) دار الجليل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

﴿لَنَكِينِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ إشارة أن الرسوخ في العلم يقود إلى الهداية؛ لأن هذا الرسوخ هو علامة الصدق والجد، بخلاف العلوم والمواعظ السطحية التي يجمعها علماء النفاق والسلطان الذين يتسولون الجاه والمال بعلمهم ومواعظهم.

﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ فيه جواب ضمني لمن يسأل عن سر وجود الأنبياء كلهم في هذه المنطقة ما بين الفرات إلى النيل، وفيه تأديب أن لا نتناول أحدًا من المصلحين والمؤثرين في العالم؛ لأنه قد يكون من هؤلاء، وإن حُرِّفَت رسالاتهم، فالتوقف عن تناول الأشخاص المعينين منهم أولى، والله أعلم.

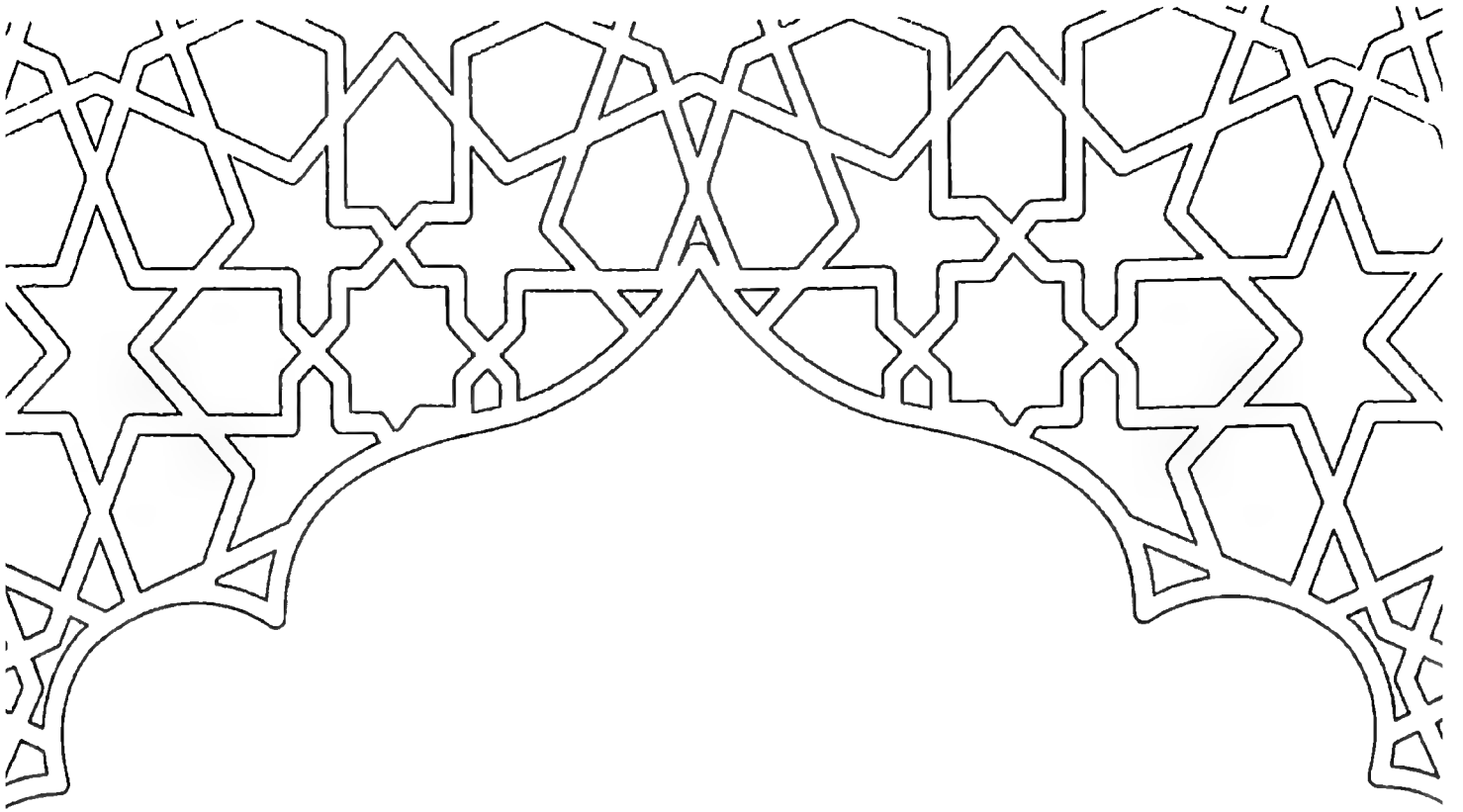
﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فالدعوة إلى الإيمان إنما هي لمصلحة الإنسان وتحقيق سعادته، وإلا فإن الله غني عن العالمين مؤمنهم وكافرهم.

﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أصل الغلو المبالغة والزيادة، ثم استعمل في التطرف والتشدد الديني زيادة على الحق بالكره أو الحب ونحوهما.

﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ الروح التي خلقها الله بأمره، كما تقول: أَرْضَ الله وسماؤه وخلقها، يَدَّ أن إضافة الروح مباشرة إلى الله فيه تشريف وتعظيم لمقام السيد المسيح ﷺ.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تأكيد للقيمة المحورية لهذا الدين أنه الصراط المستقيم العدل الذي لا عِوَج فيه ولا محاباة ولا ظلم ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ تقدّم تفسير الكلاله ومتعلقاتها في مقدمة السورة، وأن قوله تعالى هناك: ﴿فَإِنْ كُنْ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ يتكامل هنا بقوله: ﴿كَانَتَا اثْنَتَيْنِ﴾ فمجموعهما يدل في هذه المسألة على أن نصيب البنتين أو الأختين وما زاد هو الثلثان.



سُورَةُ الْمَائِدَةِ

المجلس السادس والأربعون: إكمال الدين وإتمام النعمة

المجلس السابع والأربعون: ميثاق الله السابق لأهل الكتاب

المجلس الثامن والأربعون: الأمن والحياة

المجلس التاسع والأربعون: أهل الكتاب واختبار الحكم

المجلس الخمسون: الولاء والبراء

المجلس الحادي والخمسون: حوار مع أهل الكتاب

المجلس الثاني والخمسون: بناء المجتمع المسلم

المجلس الثالث والخمسون: معجزات النبي عيسى على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوْا شَعْيِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْرِ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْرِ وَالْعُدُوْنَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالذَّمُّ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْلَقِسُوا بِالْأَزْلَمِ ۚ ذَلِكُمْ فَسُقُ ۚ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ۖ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ۚ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ۚ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاتَّفَقْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْلَمُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْحَرِيمِ ﴿١٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

إكمال الدين وإتمام النعمة

تضمّنت الآيات الأولى من سورة المائدة ما يُشعر بختم الرسالة وإكمالها والاطمئنان على ثباتها ورسوخها في هذه الأرض ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۖ

فالدين قد كمل على عهده ﷺ بالوحي المنزل والسنة الشارحة المبينة، فمن ادّعى نزول الوحي أو شيئاً من التشريع والأخبار الغيبية على شخص بعد رسول الله مهما كان قُربه ومنزله فقد كذب وخرق هذه الحقيقة القرآنية الصريحة والجليلة.

وقد تضمّن هذا الإتمام بعض الأحكام العملية الدقيقة التي اقتضت سنة التدرّج التشريعي أن تكون في أواخر التشريع.

وقد جاءت هذه الأحكام مُصدّرة بمبدأ أساس من مبادئ الإسلام ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ تذكيراً بالعقد المقتضي للالتزام العملي بكل ما شرّعه الله، وأكد هذا المعنى بقوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وهو تذكير مناسب لختم الرسالة، وتمهيد مناسب كذلك لما سيذكره من أحكام وهي:

أولاً: إباحة الطيبات من الطعام ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾، وهذه الطيبات تشمل: الأنعام ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾، وأنواع الصيد ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾، وما تصطاده الكلاب المدربة ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، وذبائح الذين أوتوا الكتاب ﴿وَوَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾.

ثانياً: محرّمات الطعام ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾، ثم نصّ على أصناف لها حكم الميتة ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ﴾، وصيد المحرّم

﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾، ثم استثنى من هذا حال الضرورة لدفع خطر الهلاك جوعاً
﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ثالثاً: إباحة الزواج من الكتابيات بشروط محدّدة ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي
أَخْدَانٍ﴾.

رابعاً: تعظيم الشعائر وما يتّصل بها، وتوفير الأمن للحجاج والمعتمرين ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوْا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ
فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ
تَعْتَدُوا﴾.

خامساً: البعد عن عادات الجاهليّة وخرافاتهما ﴿وَأَنْ تَسْقِسُوا بِالْأَزْلَمِ﴾.

سادساً: وجوب التطهّر لقاصد الصلاة بالوضوء لرفع الحدث الأصغر، وبالعسل لرفع
الحدث الأكبر، وبالتيمّم لرفع الحدثين في حالة عدم وجود الماء، أو عدم وجود القدرة على
استخدامه ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى
الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ
مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا
طَلِبًا فَاَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ
وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وهنا تلازم لطيف بين
طهارة القلب بالصلاة وطهارة الجسد بالغسل والوضوء.

سابعاً: العدل حتى مع الأعداء والمبغضين ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ
شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

والملاحظ هنا تأكيد هذا الخلق بأكثر من أسلوب؛ ففي الآية الثانية من هذه السورة حَرَّمَ الاعتداء على الآخرين ولو كانوا قد صدُّونا عن المسجد الحرام، وهنا أمر بالعدل معهم وربط هذا العدل بالتقوى، وهذه قيمةٌ دقيقةٌ من قيم العدل قد تضيع في بحر العداوة والخصومة، فجاء التأكيد ليجليها كلُّ هذا التجلي.

وبعد كلُّ هذا ذكَّر القرآن بنعمةٍ قريبةٍ وهي مظهرٌ من مظاهر إتمام النعمة ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ والظاهر من السياق وقرائن أخرى أنَّ هذه النعمة كانت في الحديبية؛ لقوله تعالى في سورة الفتح: ﴿وَصَدَّدُوا عَنْكَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [الفتح: ٢٥]، وكرَّر ذكر الشَّانِ في آية الصَّدِّ هذه، ثم في آية العدل؛ إشارةً إلى أنهم جهة واحدة.

وقد ثبت أن المشركين كانوا قد همُّوا بمقاتلة المسلمين في الحديبية، لكنَّ الله صرفهم إلى الصلح كما قال في آية أخرى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح: ٢٤]، ثم إن يوم الحديبية هو الأقرب زماناً لموضوع الآيات، والأكثر مناسبة لإتمام النعمة. وربما ذهب من ذهب إلى القول بأنهم اليهود الذين حاولوا قتل الرسول ﷺ؛ لمجيء الحديث عن بني إسرائيل مباشرةً بعد هذه الآيات.

والأقرب أن مناسبة ذكر بني إسرائيل كانت لتذكير المسلمين بعقدٍ وميثاقٍ سابقٍ كان مع اليهود فنَبَذُوهُ؛ تحذيراً للمسلمين أن يُكرِّروا هذا الخطأ في ميثاقهم الجديد، كما سيأتي في المجلس التالي، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ عامٌّ في كلِّ عقدٍ، ومقتضاه وجوب الوفاء بكلِّ الالتزامات والتعهدات ولو مع كافر.

﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهَيْمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أصل في الإباحة الأصلية، وأن التحريم استثناء لا يكون إلا بدليل.

﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أي: لا تستبيحوا المحرمات بمعصية عملية أو باعتقاد إباحتها من غير دليل، والشعائر جمع شعيرة، وأصلها العلامة الظاهرة، والمقصود: كلُّ نُسْكٍ وتدينٍ ظاهرٍ، وخصَّها بالذكر؛ لأنها تمثِّلُ هويَّةَ المجتمع المسلم، وانتهاكها انتهاكٌ لهذه الهويَّة الجامعة، والله أعلم.

﴿الشَّهَرُ الْحَرَامُ﴾ استغراق للأشهر الحُرْم كلِّها، والمنهي عنه هنا بدء القتال، أما ردُّ العدوان فم شروع فيها وفي غيرها، وكذا لو بدأ القتال قبلها ثم استمرَّ؛ لأن إيقافه من طرف واحد معناه الاستسلام للعدوِّ، وعليه يُحمل قوله: ﴿فَأَقْضُوا الشُّرُوكَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وهذا أولى من القول بالنسخ، خاصة أن هذه الآيات من أواخر ما نزل، والله أعلم.

﴿الْهَدْيَ﴾ كلُّ ما يُهدى إلى البيت الحرام قربة لله، فلا يجوز التعرُّض بالأذى له بالصدِّ أو العدوان.

﴿الْفَلَكِيدَ﴾ ما يقلَّد به الهدي تميِّزاً له عن غيره من الأنعام، وخصَّه بالذكر مع أنه هديٌّ؛ لأن صاحبه قد علَّمه، فلا مكان للشبهة ولا عذر بالجهل.

﴿وَلَا أَيْمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَنْتَعُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْواناً﴾ أي: يحُرِّم الاعتداء على من قصد البيت الحرام أداءً للنسك، أو طلباً للرزق، وهو عامٌّ في كلِّ قاصِدٍ، ثم خُصَّ بالنهاي عن قربان المشركين ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ الأمر إذا جاء بعد النهي أفادَ زوال النهي فقط؛ فيرجع الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي، ولما كان الصيد قبل الإحرام مُباحاً، ثم حُرِّم بالإحرام، جاء الأمر بالصيد بعد الإحرام مُفيداً لإباحته لا لوجوبه ولا لندبه، وهذه من الصيغ التي يخرج فيها

الأمر عن معنى الطلب.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ ۖ﴾ أي: لا يدفعنكم عداوة قوم لكم وبغضهم إلى أن تعتدوا عليهم، وهذا أصلٌ عظيمٌ من أصول العلاقات بين المسلمين وغيرهم، فالكفر لا يبرر العدوان، وإذا كان هذا مع الكافرين فهو بين المسلمين المختلفين أولى.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ۖ﴾ استثناء من الإباحة الأصلية، وهي التي تنفقُ بغير ذكاة شرعية. ﴿وَالْدَّمُ ۖ﴾ الخارج بذبْحٍ أو جرحٍ وهو المسفوح، أما الباقي في عروق اللحم بعد الذبح فلا حرج فيه.

﴿وَالْحَمُّ الْخَنِزِيرُ ۖ﴾ وذكر اللحم؛ لأنه المأكول عادةً، وإلا فالخنزير محرَّمٌ كُلُّهُ، والحديث عن حكمة التحريم نافعٌ في بيان منهج التشريع وحكمته، لكنَّه لا يؤثرُ في أصلِ الحكم؛ لأن إدراك الحكمة من التحريم متفاوت بين البشر زمانًا ومكانًا، فما فاتَ على من قبلنا قد ندركه نحن، وما فاتَ علينا قد يدركه من بعدنا، فالتحريم ثابتٌ وباقٍ ما بقي النصُّ، وهو باقٍ. ﴿وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ﴾ النذور والقرايين التي تُقدَّم لغير الله، فهذا مما يحرمُ أكله؛ كالميتة، والدم، والخنزير.

﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ ۖ وَالْمَوْقُوذَةُ ۖ وَالْمُتَرَدِّيَةُ ۖ وَالنَّطِيحَةُ ۖ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ ۖ﴾ وهذه كُلُّها من أصناف الميتة، وقد نصَّ عليها لمكان الشبهة؛ إذ قد ينصرف معنى الميتة إلى من تفقد حياتها بمرضٍ أو هرمٍ. والمنخنقة هي: التي تموت خنقًا بحبلٍ ونحوه.

والموقوذة هي: التي تموت بالضرب بعصًا أو بحجارةٍ ونحوهما.

والمتردية هي: التي تموت بسبب سقوطها من علوٍّ.

والنطيحة هي: التي تموت بسبب نطحها من قبل بهيمةٍ أخرى.

وما أكل السَّبْعُ هي: التي يفترسها السبع؛ كالذئب ونحوه.

﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ۖ﴾ استثناء من المُنْخَنِقَةِ فما بعدها، فإذا تعرَّضت البهيمة للخنق أو الضرب أو السقوط أو النطح أو الافتراس، ثم تمكَّن صاحبُها من ذبحها قبل موتها بحيث يخرج منها

الدم كما يخرج من غيرها، فهي حلال، أما إذا أشرفت على الموت بحيث لم يبق فيها ما يدفع بدمها نحو الخارج، فهي ميتة حُكماً، والله أعلم.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى التُّصْبِ﴾ تفریع لما أَهْلَ لغير الله به، والتُّصْبُ كُلُّ ما يُنْصَبُ للعبادة والتعظیم من حجارة ونحوها، فالذبح لها تقرباً يحرم الذبيحة.

﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ عادة جاهليّة أنكرها القرآن لما فيها من غبن وجهالة؛ حيث كان الجاهليّ يحتكم إلى قداح أو عيدان ثلاثة مُعلّمة بـ (افعل)، و(لا تفعل)، والثالث غُفْل، وذلك بقصد استنطاق الغيب ومعرفة ما قُسم له من خيرٍ وشرٍّ، فيمدُّ يده إليها وهي مغطاة لا يميّزها، فإن خرج بيده الأول فهو الخير، وإن خرج الثاني فهو الشرُّ، وإن خرج الثالث أعاد الكرّة، والاستقسام معناه: طلب العلم بما هو مقسوم في القدر، أو هو من القَسَم بمعنى اليمين؛ لأنه يُلزم نفسه بما خرج له، كأنه أقسم على نفسه بذلك.

﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ استثناء من التحريم اقتضته ضرورة الحفاظ على الحياة بدفع المخمصة، وهي الجوع الشديد المفضي إلى العطب أو الموت، فهذا يحقُّ له أن يأكل من الميتة ونحوها؛ فالتحريم إنما كان لمصلحة بوجود المباحات من الطيبات فلما فقد الطيبات وتعيّن الحرام لدفع العطب انقلب الحرام إلى مباح، واشترط عدم التجانف للإثم بمعنى أن لا يرغب بالإثم، ولا يميل إليه، ولا يستكثر منه.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ أصل في التشريع، والطيب هنا كُلُّ طعامٍ نافع، وعكسه الخبيث وهو الضارُّ، وما ثبت ضرره من كُلِّ وجهٍ فهو محرّم؛ كالسمِّ والدخان، وما اختلط فيه النفع بالضرر فتراعى فيه حال الأكل، فمن أدّى به إلى العطب؛ كالسكر لمن وصل به دأؤه إلى حدّ الخطورة فهو محرّم، ومن كان دون ذلك خفَّ التحريم إلى حدّ الكراهة أو الإباحة.

وهناك طعامٌ نافعٌ لكنه خبيث الرائحة - كالبصل والثوم - فهذا مباحٌ مع الاحتجاب عن أذية الخلق في الجماعات ونحوها، والله أعلم.

﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ هنا شروط

الصيد بالحيوانات المعتادة على الصيد؛ كالصقور والكلاب، وهذه الشروط: التعليم، وعلامته الائتثار بأمر معلّمه إرسالاً أو إحجاماً، ثم الجرح بأن يخرج من طريدته الدم، فلو قتل الصيد بثقله، أو طارده حتى مات خوفاً أو وقع في هاوية فلا يحل أكله، وهذا هو معنى الجوارح، ثم الإمساك به على صاحبه، بأن يصطاده له لا لنفسه، فلو أكل منه قبل أن يصل صاحبه فهو له - أي: للكلب - ويحرم على الآدمي.

والعبرة بالإمساك، فإن أمسك ثم تأخر عليه صاحبه فبدأ بالأكل فلا حرج؛ لأن علامة التعليم حصّلت، ومن الفقهاء من فرّق في هذا بين الكلب والطير، وليس هنا مجال التفصيل. ﴿وَأَذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: عند الإرسال، وهو على سبيل الاستحباب، فلو نسي فلا حرج، وعند الأكل كذلك، والمسألة لا تخلو من خلافٍ فقهيٍّ، والله أعلم.

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ﴾ المقصود بالطعام هنا الذبائح؛ لأن غيرها مباح بإطلاق من الكتابيين وغيرهم، وطعامنا حلٌّ للكتابيين معناه إطعامنا إياهم؛ لأن المخاطب بالتكليف المؤمنون، وفيه معنى خفيٌّ للتكافل والتواصل.

وأهل الكتاب هنا هم أهل الكتاب المعروفون على اختلاف نحلهم ومذاهبهم، واشترط التوحيد وعدم القول بالتثليث تكلف لا يساعد عليه سياق التشريع، إلا أن سوء تصرف الكتابي بذبيحته على خلاف دينه يحرّمها، وحكمه حكم المسلم الذي يخنق ذبيحته أو يصعقها بالكهرباء صعقاً مميتاً، والتحريم هنا لفقد الذكاة الشرعية وليست لاختلاف الدين، والله أعلم.

﴿وَالْمُخَصَّنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: الحرائر العفيفات منهم، وهذا نقض لمن توهم أن البراءة من الكافرين تقتضي بغضهم والانعزال عنهم، فالزواج سكنٌ ومودةٌ ورحمةٌ، وهو مع الكتابية كذلك.

ولا يُعقل أن الله يُبيح الزواج منها ثم يأمر ببغضها وبغض أهلها، وإنما البراء تمييز المعتقد،

وتمايز الصفوف عند القتال، وفي غيرهما يشرع التواصل والتكافل والتعاون والتحاور، والله أعلم.

﴿غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ السَّفَاح هو: الزنا، والأخدان: الخليلات والعشيقات.

﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ الواو للعطف، والترتيب هنا معنى مُضاف بقريئة إدخال الممسوح، وهو الرأس بين المغسولين، وهما الأيدي والأرجل، وغسل الأرجل ظاهرٌ بالفتح عطفًا على الأيدي، وأما قراءة الكسر فلا تناقض الفتح، والقرآن يكمل بعضه بعضًا، والعطف على الرؤوس واردٌ لفظًا لمحلِّ القُرب لا معنى، وذكرُ الكعبين قريئة على الغسل كما في المِرْفَقَيْنِ؛ إذ المسح لا يستوفي كلَّ القدمين، والعطف على الرؤوس واردٌ لفظًا لمحلِّ القُرب لا معنى، وربما فيه إشارة خفية إلى جواز المسح في حالة وجود الخفين، والله أعلم.

﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أصل الغائط: المكان المنخفض، والمقصود به هنا: نقض الوضوء بما خرج من السيلين، واستعمال الغائط بهذا المعنى؛ لأنه المكان المقصود عادةً لقضاء الحاجة، ومُلامسة النساء الأظهر فيها: الجماع.

وكأنَّ القرآن قد ذكر الحدِّث الأصغر ثم ذكر الحدِّث الأكبر، وهما المُوَجِّبان للتيُّم عند فقد الماء أو فقد القدرة على استعماله، وتفسيره بملامسة اليد - مع ما فيه من الاحتياط - فيه أثر سلبي للعلاقة بين الزوجين، خاصةً في البيوت التي لا يتوفَّر فيها الماء، أو الجاهزية لاستعماله، وفي هذا حرجٌ يتنافى مع قصد المودة وهو قصد شرعيٌّ.

وقد ورد من السنَّة ما يصرف الملامسة عن معنى اللمس الظاهر؛ كقول السيدة عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ يتوضَّأ ثم يُقبِّل ويُصَلِّي ولا يتوضَّأ)^(١)، والله أعلم.

(١) رواه أحمد وابن ماجه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها، ينظر: مسند أحمد (٦/٦٢) / المطبعة الميمنية، ط.

١٣١٣ هـ تصحيح محمد الزهري الغمراوي)، وسنن ابن ماجه (١/١٦٨) / دار الفكر، تح محمد فؤاد عبد الباقي).

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمْهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بِعَدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ١٢٦ ﴾ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ١٢٧ ﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ١٢٨ ﴾ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ١٢٩ ﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٣٠ ﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٣١ ﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ١٣٢ ﴾ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٣٣ ﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ١٣٤ ﴾ يَنْقُومُ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرُدُّوا عَلَى أَذْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ١٣٥ ﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ١٣٦ ﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١٣٧ ﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ١٣٨ ﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ١٣٩ ﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ١٤٠ ﴾

ميثاق الله السابق لأهل الكتاب

بعد إتمام النعمة وإكمال الدين، والدعوة إلى الوفاء بالعقود، والتذكير بميثاق الله لهذه الأمة المحمدية ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾، جاء التذكير بميثاق الله السابق مع بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ثم ميثاقه تعالى مع النصارى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرِيُّ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾.

وفي هذا تعليم للمسلمين بأخبار القوم وتجربتهم في حمل الأمانة، وفيه تحذير من الوقوع فيها وقعوا فيه، ويمكن تلخيص التجربتين السابقتين بالآتي:

أولاً: نصّ الميثاق على الإيمان بالله ورسوله، وإفراد الله بالعبادة، وتقديم الخير للناس، والوقوف مع الأنبياء وتعظيمهم ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

ثانياً: تضمّن الميثاق إلزامهم بدعوة النبي الخاتم ﷺ ورسالته الخاتمة: ﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾، ﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فُتْرٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾.

ثالثاً: وعدهم الله إن هم وفوا بميثاقهم بأن يكون الله معهم تأييداً ونصرة ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ وأنه سيكفر عنهم سيئاتهم ويدخلهم جنّاته ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

رابعًا: تضمّن الوعد أيضًا التمكين لبني إسرائيل في الأرض المقدّسة إن هم وفّوا بعهودهم، وتمسّكوا بميثاقهم ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَىٰ أَذْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾.

خامسًا: أن الله قد وفّى بوعدِهِ لبني إسرائيل في مراحل محدّدة من مسيرتهم بقدر ما كان هناك التزام من طرفهم ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾.

سادسًا: أن بني إسرائيل قد نقضوا ميثاقهم فاستحقوا الطرد ﴿فِيمَا نَقَضُوا مِيثَقَهُمْ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا وَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾.

سابعًا: أنهم تقاعسوا عن نصره الحقّ وخذلوا أنبياءهم، فحرّمهم الله من التمكين في الأرض ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّكَ لَنَدَخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

ثامنًا: أن بعض النصارى قد خرجوا عن الدين، وكفّروا بالله وأشركوا به ما لم ينزل به عليهم سلطانًا ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

تاسعًا: أن الميثاق إنما هو مسؤوليّة وأمانة، وليس فيه فُسحة للمحاباة، أو تمييز عنصرٍ على آخر ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّثْلَ بَنِي خَلْقٍ﴾ وفي هذا تنبيهٌ لأمة الإسلام لا تخفى دلالة.

﴿أَتَى عَشْرَ نَقِيبًا﴾ نوع من التنظيم لإدارة المجتمع، والنقباء هم القادة الذين يتولون أمر من تحت أيديهم.

﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ أي: عَظَّمْتُمُوهُمْ وَأَيَّدْتُمُوهُمْ وَنَصَرْتُمُوهُمْ.

﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ النسيان هنا عن إهمال أو عن قصد، وهو سلوكٌ معهودٌ في بني إسرائيل يؤمنون بما يروى لهم، ويُهملون ما يثقل عليهم أو يعترض شهواتهم وطموحاتهم.

﴿فَاعَفَ عَنْهُمْ وَأَصْفَحَ﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿أصلٌ في أدب التعامل مع المخالفين ولو كانوا على دينٍ آخر.

﴿وَنَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾ يزعم النصارى أنهم أبناء الله على المجاز من باب التودُّ والتلطُّف، وهو غير قولهم: إن عيسى ابن الله، فهم يقصدون به الحقيقة المعروفة، وقد أخطأوا في الأولى وكفروا في الثانية.

﴿وَأِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ هذا ديدنُ الشعوب المريضة، والتي تتكلُّ في كلِّ شؤونها على الأمانى وانتظار الفرج من الغير، أنهم يُمنُّون أنفسهم بأن تأتي قوة لتطرد هؤلاء الجبارين بعيداً عن الأرض المقدسة، ثم يقال لهم: تفضَّلوا، وكان عاقبة هذا التَّيه أربعين سنة.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أي: يخافون الله، فأنعم الله عليهما باليتين والحكمة.

﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ أي: اقتحموه بقوة، فلاقتحام دليل العزم والقوة، وهو - لا شك - من أهم أسباب النصر.

﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أن الله عاقبهم على جُبنهم
وخذلانهم لأنبيائهم بأنْ حالَ بينهم وبين الأرض المقدسة أربعين سنة حتى انقضى ذلك
الجيل. والتَّيُّ الضياعُ والحيرة والشتات.

﴿فَلَا تَأْسَ﴾ لا تأسف عليهم ولا تحزن.

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنَّي أُرِيدُ أَنْ تَبْشُرَ بِإِئْتِي وَإِنَّكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَخِ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِى سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤) يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْقَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا نُقِيلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٧) وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)﴾

الأمن والحياة

الحياة الآمنة المستقرة غاية كبرى للتشريع الإسلامي، وهي الأساس الذي تستند إليه المجتمعات البشرية في نهضتها وتطورها، والسياق القرآني هنا يشير إلى هذه الحقيقة، فالميثاق الذي واثق الله به هذه الأمة لتكون الأمانة على رسالة الله، وتقديم الخير والسعادة للعالمين

كُلُّ العالمين لا يمكن الوفاء به وبالتزاماته دون تحقُّق الأمن والاستقرار؛ فالأُمَّة المضطربة لا تحمل رسالة ولا تفي بميثاق.

وقد جاءت هذه الآيات لتضع التصوُّر الكلي لهذه الحقيقة، ثم تُفصِّل في بعض التشريعات الأُمْنِيَّة، وكما يأتي:

أولاً: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَخْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ هذه هي القاعدة الكلية التي تعكس روح التشريع الإسلامي وغاياته الكبرى، فالحياة مطلبٌ بحدِّ ذاتها، وحياة الفرد صورةٌ لحياة المجتمع، وانتهاك حياته إنما هو انتهاك لحياة المجتمع كَلِّهِ ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ وقد جاءت هذه القاعدة في سياق تاريخي متصل بنشأة الإنسان الأولى على هذه الأرض، وقصة ابني آدم إيداناً بأن هذه الحقيقة ثابتة من ثوابت الحياة، وثابتة من ثوابت الدين كذلك.

ثانياً: إن الحفاظ على حياة الفرد أصل، وإن الاستثناء وارد في حال أن حياة هذا الفرد أصبحت مصدر خطر مباشر لحياة الآخرين ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ وهذا تمهيدٌ مناسبٌ للتشريعات الحاسمة الآتية.

ثالثاً: حدُّ الحراية، وهو صورةٌ من صور الاستثناء؛ فالنزعة الإجرامية التي تدفع شخصاً ما أو مجموعة أشخاصٍ لضرب النقاط الرخوة في حياة المجتمع؛ كالاعتداء على قوافل المسافرين في الطرق الخارجية والتي يصعب على الدولة تأمينها بالكامل دون وجود ثغرة ينفذ منها أولئك المجرمون لا بُدَّ من التعامل معها بحزم وقوة ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾.

وهذه العقوبات التخيرية بين التَّغْرِيب - وهو الحد الأدنى -، والقَتْل - وهو الحد الأعلى - ليس تخييراً مزاجياً، وإنما هو المساحة المتاحة للمقنن، بمعنى: أن هذه العقوبات ينبغي أن تُحدَّد بقوانين مُلزمة وواضحة، والتقنين مهمة المؤسسات التشريعية في الدولة

المسلمة؛ لأن هذه الجريمة ليست على صفة واحدة، فهناك من يقتل ويسلب المال، وهناك من يكتفي بالمال، وهناك الزعيم الذي يتولى كبر الجريمة تخطيطاً وتنفيذاً، وهناك المغرر بهم والملبس عليهم بالشعارات والمقولات الدينية أو الثورية، من هنا كان لا بُدَّ من توسيع خيارات العقوبة، والله أعلم.

رابعاً: إن حدَّ الحراة بعقوباته المتنوعة كلها إنما يكون بحقَّ المجرم الذي لم يعلن توبته ولم يستسلم لسلطان الدولة قبل إلقاء القبض عليه، فإن ثبتت توبته سقط عنه الحدُّ ﴿إِلَّا الَّذِي تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ويبقى عليه الحقُّ الشخصيُّ إن كان قد قتل أو جرح أو نهب، وهذا بابٌ آخر.

خامساً: إن الجهاد الحقَّ الذي هو في سبيل الله إنما هو الجهاد الذي يحفظ للناس حياتهم وأمنهم ودينهم واستقرارهم ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وهذا هو سرُّ ذكر الجهاد بعد قاعدة: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ وفي ثنايا التشريعات الأملية، وفيه إشارة لا تخفى إلى أن تعقُّب المجرمين وملاحقتهم هو جهادٌ أيضاً.

سادساً: إن الكفر بالله والبعد عن هدي النبوة هو الذي يقود إلى الجريمة، ومن هنا جاء توصيفُ العدوان على المجتمع بأنه عدوان على الله ورسوله ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ ثُمَّ عَقَّبَ عَلَى هَذَا بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ﴾.

وفي الآية إشارة قويّة إلى أولئك المجرمين الذين ينتهكون أمن المجتمع لتحقيق شهواتهم في جمع المال الحرام بالحراة أو السرقة، فالله يُذكّرهم أن هذا المال سيكون وبالاً عليهم، وسيتمنّون لو أن الله يقبله منهم ثمناً لخلاصهم وفكاكهم، وهذا عندي يُشبه قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِسْلَامِ ۖ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۖ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ﴾ [الماعون: ١ - ٣]، بمعنى: أن هذا هو شأن الكافرين.

أما المؤمنون بالله واليوم الآخر فينبغي أن يكون لهم شأن آخر؛ لأن نظرتهم أوسع من الدنيا وما فيها، فالإيمان ضماناً لأمن المجتمع، فإن وجدت منتسباً إلى الإيمان يفعل ما يفعله الآخرون فإنما هو مُدَّعٍ كاذبٌ، أو جاهلٌ ينقصه التعليم والتكوين.

سابعاً: حدُّ السرقة ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾ وهذا الحدُّ لم يُشرع عقوبةً على أخذ المال كما يتوهم المتوهمون، فالمال مهما كان لا يستوجب قطع اليد، فالإنسان أكرم عند الله من ذلك؛ ولذا لا تقطع اليد في المال السائب مهما بلغ، ولا فيمن دخل الدار بإذن أهلها، ولا في العامل المأذون في التصرف، فهذه اختلاساتٌ تستوجب التأديب وردَّ الحقوق لأصحابها لا غير.

أما السرقة فهي انتهاكُ الحرمة وأمن البيوت، وهي شبيهةٌ بالخرابة من حيث تقصُّدها للمناطق الرخوة في حياة المجتمع، فالدولة لا تستطيع أن توفر حراسةً لكل بيت، فمن تعمَّد انتهاك البيت وكسر أبوابه ونوافذه بسلاح أو بغيره فقد انتهك أمن المجتمع، وحالة واحدة من هذا النوع تجعل المجتمع كله في قلقٍ واضطرابٍ، وتجعل الدولة كلها في حالة توترٍ واستنفار، هذه هي السرقة التي تستوجب الحدَّ.

تجدُرُ الإشارة هنا إلى أن إقامة الحد لا تكون إلا بقضاءٍ وبيئةٍ ودولةٍ مستقرةٍ وقائمةٍ بواجباتها في التربية والتعليم، وسنِّ القوانين ونشرها بين الناس، وسدِّ الحاجات، وضمان الكفايات؛ بحيث لا يبقى عذرٌ لمجرم بنحو جهلٍ أو ضرورة، فإن قصَّرت الدولة في ذلك، انتقل الحدُّ إلى التعزير والتأديب بالطرق المناسبة؛ لأن الحدود تُدْرَأُ بالشبهات، ومنها: الجهل الشائع، والفاقة العامة، والله أعلم.

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ دلالة أن الحسد دافع للتباغض والمعاداة وطريق للجريمة، وظاهر الآية أنه حسد ديني، فالذي خسر قربانه ولم يتقبله الله منه حسد أخاه فتوعده بالقتل حتى قتله.

والمفسرون يذكرون قصة ما قبل القربان، وفيها حسد آخر، وهو حسد دنيوي؛ إذ أصل الخلاف بين الأخوين كان على الزواج؛ حيث أصرَّ القاتل على الزواج من توأمة المولودة معه ولو كانت مُحَرَّمَةً عليه، وعلى هذا يكون الحسد بكلِّ صورته دافعاً أساساً من دوافع الجريمة، وهذا هو الاستنباط العملي الأهم، والله أعلم.

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِيَدَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ﴾ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أمسك عن قتل أخيه مع أنه كان في حالة الدفاع عن النفس، ولكنه استعظمَ القتل، وفيه دلالة أن التدبُّن الحقَّ يحول دون الجريمة، وأن الدين الحقَّ هو المؤتمن على هذه الحياة، وأن جُنُوح الإنسان إلى الدم الحرام سببه قلَّةُ التدبُّن، أو فهمٌ مقلوبٌ وشاذٌ لطبيعة الدين.

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ يحذّر أخاه من أنه سيتحمّل إثم قتله مع ما عليه من إثم سابق، وقوله: إني أريد، يعني: أنه إنما أمسك عن المقاتلة والمدافعة مع قدرته؛ لأنه لا يريد أن يتحمل إثمًا، كأنه يدعو أخاه ليتعظ ويقتدي به، وليس فيه معنى الرغبة أن يدخله النار، إذ لا مصلحة له في هذا، والله أعلم.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى سَوَاءَ أَخِيهِ﴾ حيث لم يكن القاتل يعرف كيف يتعامل مع جثة القتيل، وفيه أنه كان أوّل آدمي يموت على هذه الأرض، وفيه إمكانية تعلّم البشر من الكائنات الأخرى كما تعلّموا الدفء بجلود الحيوانات والزينة بريش الطيور.

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ الأقرب أنه ندم على قتل أخيه؛ لأن جهله بالدفن لا يستوجب

الندم، وندم القاتل بعد سُكُونِ الغضب وخفوت جمره الحسد أمرٌ معهود في البشر، يؤكد هذا قوله: ﴿فَأَوْرَىٰ سَوْءَةَ أَخِي﴾ فتذكُّره لرابطة الأخوة في هذا الموضع قرينة معتبرة، وربما رأى في الغراب وهو يدفن غراباً مثله ما أثار فيه هذه الفطرة، والله أعلم.

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ إشارة أن رسالة الرسل تعزِّز معنى الحياة، وتدعو لصيانتها وحمايتها.

﴿يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ النفي عقوبةٌ وقائيةٌ تتحقَّق بالتغريب أو بالحبس، لمنع المجرم من استغلال حرية الحركة والتنقل لتنفيذ أغراضه العدوانية.

﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ دلالة أن العبد لا يصل إلى مرضاة ربه بالأمان، بل لا بُدَّ من اتخاذ الوسائل التي تُوصِّله إلى ذلك، وهي اجتناب المحظور، وامتنال المأمور، والصبر على المقدور، ومنها محبة الصالحين وطلب الدعاء منهم، فكلُّ هذا من العمل المنجي من عذابه، والموصل إلى رضوانه.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ قدَّم الذكر على الأنثى؛ لأنه أجرأ على السرقة، وهنا إشارةٌ خفيةٌ إلى أن السرقة الموجبة للحدِّ هي سرقة اختراق الحرز وانتهاك الحرمة، وليست الاختلاس الخفي الذي يسهل على كل أحد.

﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ دلالةٌ على سعة رحمة الله، حتى مع السارق والمحارب، وهذا ترغيب للمجتمع أن يحتضنه ويتقبله ويغيِّر نظره، بشرط التوبة إلى الله، وتعويض الضرر، وإرجاع الحقوق، وهذا هو الإصلاح.

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ سَكَّعَاتٍ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُخْرِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ أَكْثَلُونَ لِلْحَقِّ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَاللسنَ بِاللسنِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَاللسنَ بِاللسنِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ يَعْنِي ابْنَ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَمَاعَةٍ شَرْعَةٌ وَمِنْهَا جَاءَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ مِنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَخَلُوقَ الْجَاهِلِيَّةَ يَتَعَوَّنُ مِنْ أَحْسَنِ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

أهل الكتاب واختبار الحكم

الاحتكام إلى الدين فرع الإيمان به، ودعوى الإيمان مع رفض الحكم به دعوى باطلة، وأهل الكتاب يدعون الإيمان بالله وبأنبيائه الذين بلغوهم رسالته وشريعته، بيد أنهم في كل مرة يرفضون حكم الله حيثما يكون هذا الحكم بخلاف شهواتهم.

وقد سجّل القرآن هذا عنهم في أكثر من موضع، وقد مرّ بنا في سورة البقرة: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

وهنا يتكرّر النهج نفسه مع رسول الله ﷺ، فهم يحتكمون إليه طلباً للحكم الأخف والأيسر عليهم، والأقرب لأهوائهم، فإن كان حكمه بخلاف ذلك رفضوه ولو كان مثل ما عندهم.

وقد جاء في «الصحيحين»: (أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنياً، فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟»، فقالوا: نفضّحهم ويجلّدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتُم، إن فيها الرّجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضّع أحدهم يده على آية الرّجم، وجعلوا يقرؤون ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا فيها آية الرّجم، فقال: صدق يا محمد، فيها آية الرّجم، وأمر بهما النبي ﷺ فرجما^(١)).

وكانت هذه الحادثة مناسبة لشرح موقف الكتابيين من مسألة الاحتكام للشرعية التي يدعون الإيمان بها:

أولاً: أنهم يدعون الإيمان بألستهم لكن قلوبهم تنكر ذلك ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ والظاهر من السياق أن هؤلاء هم اليهود، وبدلالة قوله تعالى

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ينظر: صحيح البخاري (٢٤٩٩/٦) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (١٣٢٦/٣) دار الجليل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

الآتي: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ فهم يدعون الإيمان بالتوراة ثم يتنكرونها لما جاء فيها.

ثانيًا: أن كفرهم بالتوراة قد جاء من طريقين: تحريفهم لكلام الله، وانتقائهم الأحكام التي تروق لهم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَأَحْذَرُوا﴾.

ثالثًا: أنهم لا يبالون بالكذب وأكل الحرام ﴿سَمِعْتُمْ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلشَّحْتِ﴾ وهذه مخالفات صريحة للتوراة التي يدعون الإيمان بها.

رابعًا: أنهم لو حكّموا التوراة وحكّم النصارى الإنجيل من غير تحريف ولا انتقاء لهدّوا إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾، ﴿وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾، ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾، ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾.

خامسًا: أنهم لم يكتفوا بتحريف كتابهم والتنكّر لبعض ما فيه من عقائد وشرائع، بل هم يسعون لصرف المسلمين عن كتابهم ﴿وَأِنْ أَحْكَمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

سادسًا: أن هذا التلاعب بالدين، ومنهجهم الانتقائي فيه يجعلهم أقرب إلى الجاهلية ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ لأن الجاهلية تصنع دينها وأحكامها وفق هوى الكبراء والزعماء، وهؤلاء كذلك، ومن ثمّ استحقّوا جميعًا هذه الأحكام الحاسمة مجمعة أو متفرقة ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

ولا شك أن السياق لا يتناول إلا المتلاعبين بدين الله تحريفًا وزيادة ونقصًا وانتقاء وإخفاء بطريق القصد والاختيار، أما العصاة والخائفون من تطبيق الشريعة لضعفهم، وغلبة

عدوهم، والخاضعون لسلطان غير سلطان المسلمين فهؤلاء لهم باب آخر من الأحكام، ولا يجوز إدراجهم في هذا السياق بحال.

سابعًا: أنهم على ما هم عليه من كفر أو ضلال لا ينبغي التعامل معهم إلا بالعدل ﴿سَتَعْلَمُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلسَّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنكَ أَلَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ تَلَطَّفَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وتخفيفًا عنه وهو يحزن على أولئك الذين يُهلكون أنفسهم باتباعهم الباطل، ومجافاتهم لما فيه خيرهم وذكرهم، وهو يحزن كذلك على مستقبل الدعوة وهو يرى كل هذه المعوقات والمنغصات، وهذا الحزن بشطريه نابع من حرصه على الدعوة، ورحمته بالخلق.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ هي إرادة الله الموصولة بعدله وحكمته وسننه المبثوثة في هذا الكون؛ فمن طلب الهداية هُدي، ومن سعى إلى الضلال ضلَّ، ومن اجتهد فاز، ومن قعد خاب.

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ﴾ ليس النكير على تحكيم النبي ﷺ، وإنما هو على منهجهم الانتقائي، فهم يحكمونه عندما يظنون أن في حكمه مصلحة عاجلة لهم، ويكفرون به وبدينه فيما عدا ذلك، وربما حكموه اختبارًا وامتحانًا، يدل على كل ذلك بقاؤهم على دينهم، وتشبُّههم الظاهر والمعلن بما عندهم.

﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ دليل على وحدة المصدر لكل الرسالات السماوية، فما كتبه الله في التوراة هو مصداق القصاص الذي كتبه الله في القرآن.

﴿فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ هذا هو مضمار المنافسة الحقة، أما التمسك بالمقولات المجردة والنخر بمآثر الأجداد ونحو ذلك مما هو بعيد عن العمل فمحض غرور.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْضِعُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينٌ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَعَنَكُمُ حَيْطَتَ أَعْمَلْتُمْ فَاصْبِرُوا خَسِيرِينَ ﴿٥٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَآئِمَةً ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوعًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ءَالَهُ أَغْلَبُوا بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾

الولاء والبراء

بعد بيان حال أهل الكتاب وتحريفهم لكتابهم، وسعيهم لصرف المسلمين عن دينهم، أصبحت نفوس المؤمنين مهيأة لتلقي الأمر بإعلان المفاصلة، وهذه المفاصلة إنما هي في الانتماء وتمايز الهوية، فقد أصبح للمسلمين دينهم، وللآخرين أديانهم، وهذا الدين هو محور الانتماء والالتقاء.

وقد فصلت هذه الآيات الخطوط العريضة لعقيدة الولاء والبراء هذه، وكما يأتي:

أولاً: النهي عن موالة اليهود والنصارى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ والنص على اليهود والنصارى لمكان الالتباس في المشتركات الدينية؛ كالإيمان بالله والوحي والنبوة من حيث المبدأ، أما المشركون فقد كانت المفاصلة عنهم مبكرة من العهد المكي كما هو معلوم من قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، ثم في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المتحنة: ١].

ثانياً: إن موالاتهم بعد هذا النهي الصريح والحاسم هو انتساب لهم، وانفكاك عن أسرة المسلمين وهويتهم الجامعة، فالعبرة في الموقف لا في الادعاء، فمن وقف في صف المسلمين فهو منهم، ومن وقف في صف الكافرين فهو منهم ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَهُمْ﴾.

ثالثاً: إن الدافع لموالاتهم مع بيان حالهم إنما هو النفاق ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ﴾ وهو التعبير المطرد عن المنافقين، كما مر في أوائل سورة البقرة: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

رابعاً: أما المؤمن فلا يمكنه بحال موالة الكافرين، وإن وقع فهي علامة الردة - والعياذ بالله - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

خامساً: إن قوة المسلمين وهيبتهم وعزتهم هي الضمانة لمنع حالات التفلت نحو الأعداء ﴿يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ فحالات الخوف والقلق وشتات الأمر وضياح السلطان هي البيئة التي يضطرب فيها الولاء، وهذا أمر معهود ومعروف.

سادساً: إن الولاء الحق إنما هو ذلك الولاء المستند إلى عقيدة صحيحة واضحة، وانتماء أصيل وناصح لهذا الدين ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ وهذا الحصر يقتضي بطلان الولاءات القائمة على أساس الأرض، والنسب، والانتماء الحزبي، والاجتهاد المذهبي، ونحو ذلك من الولاءات المجزأة.

سابعًا: إن الولاء الحق هو طريق العزة والنصرة ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ وذلك لتحقيق القوة الدافعة بالإيمان، وتحقيق الوحدة بموالاتة المؤمنين بعضهم بعضًا.

ثامنًا: إن الولاء الحق ينتج عنه خلق عملي تواصلي ﴿أَذِلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ وهو خلق يجمع بين القوة والتواضع، فالقوة لردع العدو، والتواضع لكسب الصديق، وهذا نظير قوله في سورة الفتح: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

تاسعًا: إن البراءة تتأكد فيمن ناصب الإسلام العداة ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾، ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوعًا وَلَعِبًا﴾.

عاشرًا: إن سبب هذا النصب والمجاهرة بالعداء إنما هو التكبر على الحق، ورفض الانصياع له ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَعْلَمُونَ أَنَّ آمَنًا بِهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ وأما ادِّعائهم الإيمان فهو ادِّعاء باطل من قبل ومن بعد، فقد ضلُّوا على عهد أنبيائهم، وعبدوا العجل، وخانوا الميثاق فاستحقوا لعنة الله ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ وقد ضلُّوا على عهد النبي الخاتم محمد ﷺ ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾.

تجدر الإشارة في ختام هذه المسألة إلى أن هناك خلطًا لدى بعض المسلمين اليوم بين عقيدة الولاء والبراء وبين فقه العلاقات، فالتعامل بالحسنى مع المخالفين أصل في هذا الفقه، وكذا الوفاء بالالتزامات والعقود، وإمكانية التعاون في المشتركات الإنسانية والخدمية والصناعات والتجارات؛ إذ الولاء المحرم إنما هو ولاء الانتهاء، وضياع التمييز في الدين والمعتقد، أو تأييد الكافرين على المؤمنين بالقتال والمناصرة، والله أعلم.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ بحكم الواقع، وأما الحكم الشرعي فلا بُدَّ فيه من التفصيل والتفريق بين الحالات التي تدخل في باب العقيدة، والحالات التي تدخل في فقه العلاقات، وكذا التفريق بين المختار والمكره، والمنحاز لصفهم المقابل لصف المسلمين وبين الذي تعلّق قلبه بامرأة منهم أو صديق أو شريك، والخلط في هذه المسائل قد يجرّ إلى كوارث في الحكم والتعامل، ومن بينها الجرأة على التكفير، والعياذ بالله.

﴿فَنَحْنُ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ أي: تقلّب الزمان، وتغيّر الحال، فتحتاج إلى من كنت مستغنياً عنه، وهذه إحدى دوافع التذبذب عند المنافقين.

﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ الفتح معروف المعنى ومحدد، والأمر مطلق، وهو الباب الأوسع للأمل والرجاء، فأمر الله لا يصدّه حدٌّ، ولا يمنعه سدٌّ، وهو فوق كلّ تقدير وحساب.

﴿مُحِبُّهُمْ وَمُحِبُّوهُمْ﴾ وهي علاقة فوق موضوع الطاعة والجزاء، فمحبة العبد لربه خلق قلبي دائم الحضور في كلّ وقت وحال، ومحبة الله للعبد تجعله أهلاً للعناية والرعاية في كلّ وقت وحال كذلك.

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه معنى التنازل والإيثار، وهو معنى أرقى من العدل أو المساواة، وهذا هو الذي يُديم الألفة والمودة، وأما العلاقة التي تقوم على المنافسة ولو كانت بالحق فإنها تتعرّض للتصدّع بأول خلاف؛ إذ تقدير الحقوق يختلف بين الناس، وخلاف المادة قد يُحلّ بالقضاء العادل، ولكن خلاف القلوب لا يحلّه عدل ولا قضاء.

﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ أيّ لائم ولو بثوب الصديق الناصح، فالموقف الحقّ له ضريته من حياة العبد وماله وسمعته وعلاقاته، ومن أصغى لللائمين أحجم عن تقديم هذه الضريبة، لكنه سيخسر الموقف الذي يحبّ الله أن يراه فيه.

﴿وَهُمْ ذَكِّمُونَ﴾ كناية عن الديمومة والاستقامة على الطاعة وفعل الخير.

﴿حِزْبَ اللَّهِ﴾ تعبير عن أمة الإسلام، والحزب فيه معنى التعاضد والتضامن، وهو الأنسب لمقام الولاء والبراء.

﴿بَشِّرْ مَنْ ذَلِكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: بمن يستحق أشدَّ الجزاء وأشدَّ العذاب، وإطلاق المثوبة هنا نظير البشارة في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١)، فهما من كلمات الخير، واستعملهما القرآن في العذاب على سبيل التهكُّم، والله أعلم.

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ هم اليهود، وهذا هو الظاهر في السياق، وادعائهم الإيمان إنما هو الإيمان بالتوراة والاحتكام إليها، لكنهم ينقضون ذلك في كلِّ مرة، وهم مُصِرُّون على ذلك دون انقطاع أو تردد.

وأما تفسيره بالمنافقين من اليهود، الذين يدَّعون الإسلام، فهم إن وجدوا حقًّا فإنهم أقلُّ وأحقر شأنًا من أن يكونوا محلَّ هذا التأكيد؛ حيث تكرر هذا الوصف لليهود في أكثر من موضع، وفي هذا الموضع جاء السياق كلُّه للبراءة منهم، والتحذير من عداوتهم، فلا يناسب أن ينصرف كلُّ هذا إلى أفرادٍ منهم شابَّهوا المنافقين العرب في سلوكهم، والله أعلم.

(١) ذكِّرَ هذا المقطع الكريم ثلاث مرات في القرآن الكريم: سورة آل عمران/ ٢١، وسورة التوبة/ ٣٤، وسورة الانشقاق/ ٢٤.

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

﴿ وَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِيمَانِ وَالْعُدْوَانِ وَكُلُّهُمْ السَّخْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٦٢) ﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِيمَانُ وَأَكْلِهِمُ السَّخْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٦٣) وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقِتْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَّةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٦٤) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَتَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٦٦) ﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْفُحُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٦٧) قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٦٨) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالصَّابِقُونَ وَالصَّابِقُونَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٩) لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٧١) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثُلُثٍ وَمَنْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (٧٥) قُلْ اعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٧٦) قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (٧٧) لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ وَالْآخِرِ مَا اتَّخَذُوا لَهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٨١) ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ يَأْنٍ مِنْهُمْ فَتَيْسَبِتُ وَرُحْبَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَمَّا مَا كُنْتُكَمُ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ (٨٤) فَأَنبَهُهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (٨٦)

بعد إعلان التمايز بين أمة الإسلام وأهل الكتاب شرع القرآن في محاورة أهل الكتاب ودعوتهم للحق، وهذا تفريع عن التمايز، فالحوار مع الآخر لن يكون قبل معرفة مَنْ نحن وَمَنْ الآخر، أما تداخل الخنادق بالمجاملات الظاهرية، بحيث تغطي نقاط الخلاف، فهو طريق التجهيل، وضياح فرصة التصويب والتصحيح.

ويمكن استخلاص منهجية القرآن في هذا الحوار بالنقاط الآتية:

أولاً: تسجيل نقاط الخلاف والملاحظات التي تحتاج إلى التصحيح أو الإصلاح بمنتهى الدقة والأمانة العلمية، ومن هذه النقاط:

- أ- قول اليهود: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ كناية عن البخل، وهي عبارة وقحة تعبّر عن نفسية مضطربة، وفيها جانب من الطمع؛ لأنها تُوجي بسخطهم على الله، لأنه لا يستجيب لطلباتهم وتطلعاتهم المفتوحة، وفق تصوراتهم بأنهم شعب الله المختار، وأن الله سخر الخلق جميعهم لخدمتهم، وقد ردّ الله عليهم هذه التصورات وما نتج عنها بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فالإنفاق إنما يكون وفق مشيئته سبحانه، وحكمته في تدبير الخلق.
- ب- أن اليهود مكذبون للرسول، ومتلبسون بقتلهم ﴿كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ وقد بين القرآن أساس هذه الجرائم وهو الهوى، وكأنهم يطلبون من الأنبياء أن يسايروهم على أهوائهم.
- ج- أن هذه العقائد والتصورات الباطلة قادتهم إلى السلوك الباطل، والتعدي على حقوق الناس ﴿وَرَأَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكَلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

- د- أنهم الأشدّ عداً للمسلمين ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، ﴿كَلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ أي: أوقدوها عليكم أيها المسلمون.

هـ- أنهم يُوالون المشركين من عبدة الأصنام على المسلمين ﴿ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وقد بان بهذا كذبهم في ادّعائهم الإيمان بالله وأنبيائه ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴾ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾.

و- أن النصارى كفروا كذلك بقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾، وبقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾، وقد ردّ القرآن هذه الافتراءات ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾. ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴾.

ثانياً: بيان أسباب هذا الانحراف، ويمكن تلخيصها كالآتي:

أ- تعطيل منافذ المعرفة الذاتية ﴿وَحَسِبُوا إِلَّا تَكُونُ فِتْنَةً فَاعْمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا ﴾ فقد كانوا يتوهمون أنهم ليسوا بحاجة إلى النظر والتفكير، وأنهم مهما فعلوا فلن يؤدي ذلك إلى الفتنة والشر، بحكم تصوّرهم أنهم شعب الله، أو أولاد الله، وأن الله لا يهلك شعبه، ولا يعذب أولاده!

ب- تعطيل أدوات الإصلاح المجتمعية، وخاصة من أهل العلم والصلاح ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِلَافَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتَ لَإِثْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾، ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾.

ج- الحسد الديني، وهو آفة الطوائف والمذاهب المختلفة؛ حيث لا يرى الحاسد في محسوده إلا القبح والمنكر ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ وقد تكرر هذا النص مرتين في هذا المقطع دلالة على أهميته، وتكرار تأثيره في النفوس.

د- الغلو ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾.

هـ- التقليد الأعمى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

ثالثًا: تمييز أحوالهم ومواقفهم والتزُّه عن التعميم ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، ﴿وَلْيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾، ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾، ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾، ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيكَ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

رابعًا: الحكم بالعدل عليهم وعلى غيرهم، وميزان الحكم بالإيمان والعمل ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالصَّارِعُونَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

خامسًا: دعوتهم لتحكيم التوراة والإنجيل ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وفي الآية إشارة إلى أن إقامة التوراة والإنجيل ستهديهم إلى الإيمان بما أنزله الله بعدهما وهو القرآن، والآية تأكيدٌ لوحدة الرسالات من حيث المصدر، وأنها كلام الله الذي يؤيد بعضه البعض، وفي هذا طمأنةٌ لهم أنهم باتباعهم القرآن لن يخسروا ما عندهم من كتاب ربهم.

سادسًا: ترغيبهم بالخير واتباع الحق كله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ شَفِيعٌ لِّحَسَنَاتِهِمْ﴾، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾.

سابعاً: ترهيبهم بالعقوبة الإلهية التي تنتظرهم على عنادهم وتكبرهم، وصدّهم عن السبيل ﴿يَنْبَغِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾، ﴿لَيْتَسَ مَا قَدَّمْتَ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

ثامناً: إبراز النموذج الأفضل للتأسي والاقْتداء ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ.

تاسعاً: تشجيعهم على النظر الهادئ والتفكير الجاد في الحقائق الماثلة أمامهم ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾.

عاشراً: إلزام أهل الحقّ ببيان الحقّ كلّهُ، والصبر على لأواء الطريق ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ولا شك أن هذه الأمة تابعة لنبیّها في مهمّة التبليغ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»^(١).

دقائق التفسير

﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتُ﴾ أي: المال الحرام.

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ﴾ هَلَّا كَانَ يَنْهَاهُمُ الرِّبَانِيُّونَ، فيه لومٌ وتقريعٌ وبيانٌ لسبب تماديهم في المنكر.

(١) جزء من حديث رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، ينظر: صحيح البخاري (٣/ ١٢٧٥) / دار ابن كثير، تح. د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧-١٩٨٧م).

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ بالفضل والإحسان وسعة الرزق، وهذا ردٌّ على قبح مقولتهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾.

﴿وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ هذا من سُنَنِ اللَّهِ فِيمَنْ زَاغَ عَنِ الْحَقِّ تَكْبَرًا وحسدًا، فهم لا يجتمعون إلا على مصلحة آيئة فإن ذهبت ذهب اجتماعهم، وفي هذا ردٌّ على من يقول: إن الكفر ملَّةٌ واحدة، بمعنى: أنهم على قلب رجلٍ واحدٍ مودَّةً واتحادًا وتناصرًا، بل هم مللٌ ونحلٌ وفرقٌ لا يجمعها جامع.

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ بتخاذلهم أو بتمكين المسلمين منهم يوم كان المسلمون أقرب إلى الله وأقوى في التمسك بأدوات التمكين.

﴿لَا تَكُلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ كناية عن كثرة الرزق ووفrته.

﴿أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ أي: معتدلة ومحافضة على ما معها من نور الكتاب.

﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: يحميك حتى تُبلِّغ رسالة الله كاملةً، وفيه دلالة على إتمام النعمة وكمال الدين به ﷺ.

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيعَتَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمْ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ، إِمَّاعًا عَشْرَةَ
مَسَكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُمْهُمْ أَوْ تحريرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ
وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ
الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ
فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رُسُولِكَ الْبَلْعِ الْمَيِينِ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَاسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَبَلُّوْكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاكُمْ لَعَلَّكُمْ يَعْلَمُونَ اللَّهُ مِنْ خَافَتِهِ بِالْعَيْبِ فَمَنْ اعْتَدَى بِكَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفْرَةٌ طَعَامُ
مَسَكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهُ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ
وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْغَنَاءِ وَحُرْمٌ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ
الْبَيْتَ الْحَرَامَ فَيَسَا لِنَّاسٍ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْمَهْدَى وَالْقَلْبَدِ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ
لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ فَإِنَّهُ يَتَوَلَّى الْآلِيبَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ فَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ إِنْ بُدِّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ
قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
وَكَثْرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ
أَنْتُمْ ضَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِنُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى
وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَيْمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُرِيَ عَلَى أَنْهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ
الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهِدَتِيهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ أَدْرَأْ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ
يَخْفَؤُا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

بعد إعلان الهوية الإسلامية المتميزة عن غيرها، ثم الحوار المعمق مع الآخر المختلف في هويته وعقيدته، عاد القرآن إلى المجتمع المسلم ليضع أمامه قواعد البناء السليم بمنهجية مترابطة ومتكاملة:

أولاً: مرجعية التشريع ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ فوحدة مصدر التلقي ضمانة لوحدة المجتمع نفسه، والاجتهاد لا يهدم الوحدة وإن تنوع؛ لأنه يبحث فيما دون القطعيات، وكذلك فهو يبحث فيما يحتمله النص من المعاني، وهذا جمع بين ضمانة الوحدة ومرونة الفكر والاجتهاد.

ثانياً: الهوية الجامعة ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلِيدَ﴾، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَقْلُوا الصِّيدَ أَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ فالشعائر الظاهرة مع ما فيها من تعبّد ونسك فإنها تحمل كذلك معاني الهوية الجامعة للأمة المسلمة، ومن ثمّ كان انتهاك هذه الشعائر إثماً كبيراً، ولو كان بصورة تعمّد قتل الصيد في الحرم، أو عند الإحرام بالحج ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

ثالثاً: التربية الإيمانية في سلّم الرقيّ والتنافس الإيجابي ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسِنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ تطويعاً للنفس على معاني الإيثار والتقوى والعمل الصالح حتى بلوغ مرتبة الإحسان، التي هي غاية السائرين إلى الله، والمرتبة العليا في الرقابة الذاتية والخشية الحاضرة من الذنب والخلل حتى يأتي العمل في غاية الدقة والإتقان ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾.

رابعاً: التربية العلمية وصيانة الفكر من الخرافة ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، ومن التقليد الأعمى بلا دليل ولا بينة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ

ءَابَاءَنَا أَوْلَوْكَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿٧﴾ وفي هذا السياق يأتي تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، فالأول يذهب بالعقل، والثاني قمارٌ ولعبٌ لا دخل للجهد الذهني في تحصيله، والثالث والرابع تقليد لخرافات الأجداد بلا حجة ولا تفكير.

خامسًا: التزوُّد بالطيبات، والتنزُّه عن الخبائث ﴿٨﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴿٩﴾، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَرَمُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ فالطيبات كلُّ نافعٍ من طعامٍ وشرابٍ وملبسٍ ومسكنٍ وسلوكٍ عمليٍّ وعلاقةٍ اجتماعيةٍ ونحو ذلك، والخبث كلُّ محرَّمٍ مما ليس فيه سوى الضرر المحض للفرد أو الجماعة.

سادسًا: مسؤولية الكلمة والعهد والالتزام ﴿١٠﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴿١١﴾، ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ فالؤمن لا يُعطي عهدًا وهو يعلم أنه غير قادر على الوفاء به، وفي هذا السياق يأتي تقدير مآل الكلمة ونتائجها ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدِّلَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدِّلَ لَكُمْ﴾ والسؤال في أصله مطلوبٌ ومشروعٌ ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

وقد تكرر في القرآن: ﴿تَسْأَلُونَكَ﴾ لكن هناك أسئلة غير عملية وغير مناسبة في زمانها أو مكانها، وهذه هي محل النهي، والتفريق بين النوعين مسؤولية السائل، فهو الذي عليه تقدير موقع سؤاله ومآلاته على المسؤول أو السامع، أو على المجتمع بشكل عام.

ومثال ذلك: أن يسأل عن حادثة تثير فتنة بين المستمعين، أو يسأل سؤالًا فيه جنوح للغيب المحض الذي لا ينبغي عليه عمل، أو فيه التشدد والتعمُّق بقصد استئزال التحريم فيما لم يحرمه الله، فكلُّ هذا وارد، ولكن الذي يظهر من السياق أنه طلب المعجزات، وهو الموضوع الذي ركزت عليه خواتيم السورة في قصة عيسى ﷺ، وعلى المسؤول أيضًا إرشاد السائل وعدم الانسياق وراء كلِّ سؤالٍ يعرض له.

سابعاً: التواضع والتكافل ﴿فَكَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، ﴿هَذَا بَلَغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّرَهُ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾.

ثامناً: العدل وأداء الشهادة على وجهها ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾، ﴿ذَلِكَ أَدْفَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا﴾.

تاسعاً: إن المجتمع الذي يهتدي لهذه الموجّهات الربّانيّة ويعتمدها في حياته العامة وفي سلوكه العملي مجتمعٌ محصّنٌ من الاختراق، ومُستَعِلٌ بإيمانه وقِيَمِهِ عن مكائِدِ الآخرين وشبهاتهم وشهواتهم ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْهِمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾. وليس في هذه الآية آية دعوة إلى السلبية والتقاؤس عن الدعوة والإصلاح، والمجادلة بالحقّ والعلم، وحُسن الخلق، فهذه واجبات منصوص عليها وهي - لا شك - من شروط الهداية ولوازمها.

دقائق التفسير

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ لأنّ تحريم ما أحلّ الله تشريع، والتشريع لله وحده؛ ولأنّ الحياة لا تستقيم بغير هذه الطيّبات، ومن مقاصد الشريعة إعمار الأرض وليس خرابها، وإسعاد الناس وليس إشقاءهم؛ ولذلك قال: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا﴾.

﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ بتجاوز الطيّبات إلى الخبائث، أو بالإسراف المُضِرّ منها، أو بتشريع ما لم يأذن الله به.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ هو الحلف بالله الذي يجري على اللسان من غير قصد، بخلاف ما عقدتم أي: قصدتم وجزمتم.

﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي: أطعموا الفقراء والمساكين من طعامكم المعتاد، كل بحسب وضعه وعادته.

﴿الْخُمْرُ﴾ المسكر، وكل ما يذهب العقل؛ كالخشيشة ونحوها.

﴿وَالْمَيْسِرُ﴾ القمار، وفيه الربح بلا جهد، أو الخسارة بلا نفع.

﴿وَالْأَنْصَابُ﴾ حجارة تُنصب وتُقدّم عليها القرابين والندور.

﴿وَالْأَزْلَمُ﴾ قِدَاحٌ وعِيدَانٌ مُحَبَّاةٌ، فيها توجيه غيبي للعمل أو تركه، وهي من عادات الجاهلية.

﴿رِجْسٌ﴾ خبث.

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ تهديد شديد لا يخفى على متدبر عارف بأساليب العرب.

﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ أي: يتصدق من الأنعام بشاة، أو بقرة، أو بعير ونحوها بمثل ما قتله من الصيد في الحرم كفارة لذنبه، وليس هو الذي يُقدَّر مستوى الكفارة، بل يقدرها حكمان عدلان بخبرتهما وأمانتهما.

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ القيام يُطلق على النشاط المستمر كما يطلق على الثبات، فالبيت الحرام يشهده الناس للعبادة والنسك وعمل الخير، وهو الذي تلتقي عليه أفئدتهم حبًا وإجلالًا وتعظيمًا، وهو ثابت من ثوابت دينهم وهويتهم.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ﴾ أوصاف لأنعام مُحَرَّمها المشركون على أنفسهم، أو يُحرِّمون الانتفاع بها بوجه من الوجوه، فالبَحِيرَةُ ناقةٌ يُعلِّمونها بشقِّ الأذن فلا يركبها أحد.

والسائبة: التي تُترك بعد بلوغها سنًا معيَّنة، فلا تُؤكل ولا تُركَّب، ولا يُستفاد منها بشيء، وقد يندرُها صاحبها لذلك قبل هذا السن.

والوصيلة: هي التي تَلِدُ ناقةً ثم تتبعها بأخرى دون أن يفصل بينهما ذكر، فهذه تُسيَّب كذلك.

والحامِي: هو الجمل الذين يَحْمُونَ ظهره من الركوب، أي: يُحرِّمُونَ ركوبه، وهذه العادات قد انتهت والحمد لله، لكن الناس يَتَدَعُونَ مِثْلَاتِهَا بِأَسْمَاءٍ أُخْرَى، فينبغي التنبُّه والتنبيه.

﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾^٤ أي: اهْتَدَيْتُمْ إِلَى الْحَقِّ كُلِّهِ، وَأَدَّيْتُمْ مَا عَلَيْكُمْ، وَمِنْهُ الْإِصْلَاحُ وَالِدَعْوَةُ وَالتَّعْلِيمُ وَتَبْلِيغُ الْحَقِّ لِلنَّاسِ.

﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾^٥ أي: مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَهَذَا فِي الْإِشْهَادِ عَلَى وَصِيَّةِ الْمَسَافِرِ، لِلْحَاجَةِ إِلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ فِي سَفَرِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿فَإِنْ عُرِيَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾^٦ أي: تَبَيَّنَ كَذِبُ الشَّاهِدِينَ.

﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾^٧ أي: لَمَّا بَطَلَتْ شَهَادَةُ الشَّاهِدِينَ فَنُرْجِعُ إِلَى الْوَرِثَةِ وَمَنْ لَهُمُ الْحَقُّ فِي مَالِ الْمَتَوَفَّى مِنْ دَائِنِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَإِنْ قَدَّمُوا الْبَيِّنَةَ عَلَى خِيَانَةِ الشَّاهِدِينَ، يُرْجَعُ الْقَوْلُ إِلَيْهِمْ فِي إِثْبَاتِ الدَّيْنِ بِالنِّسْبَةِ لِلدَّائِنِينَ، وَتَقْدِيرُ مَالِ الْمَتَوَفَّى بِالنِّسْبَةِ لَوَرَثَتِهِ، فَيَأْخُذُ كُلُّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَالْمَسْأَلَةُ لَهَا أَكْثَرُ مِنْ صُورَةٍ وَأَكْثَرُ مِنْ وَجْهِ، وَمَحَلُّهَا كِتَابُ الْفَقْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ (١٠٩) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ إِذْ أُتِدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَهُم بَالِيتِينَ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقَتْنَا وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَمَآيَةً مِنْكَ وَآرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَنَزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ﴿

معجزات النبي عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام

المعجزة أمرٌ خارقٌ للعادة يظهره الله على يد النبي تصديقًا وتأيدًا له، وهي مأخوذة من الإعجاز؛ لأنها تثبت عجز الآخرين عن تقليدها أو الإتيان بها بيطولها، ومعنى أنها خارقة للعادة: أنها تخرق النظام المعتاد في هذا الكون، وليست هي خارقة للعقل؛ لأن العقل يتصور

مخالفة النظام في بيئة أخرى، فما يحترق على الأرض قد لا يحترق على كوكبٍ آخر، والمسافة التي يقطعها المرء على الأرض في ساعة قد يقطعها على كوكبٍ آخر في ثانية. أما المستحيلات العقلية؛ فهي التي لا يمكن تصوُّرها في الذهن مثل: اجتماع النقيضين، ووجود جزءٍ أكبر من كَلِّه.

وفي هذه الآيات بيان للمعجزات التي أيد الله بها رسوله عيسى ﷺ مع بيان الإطار الإيماني والسلوكي الذي ينبغي استحضاره عند النظر في هذه المعجزات:

أولاً: إن رسالة الأنبياء هي تبليغ الدين وليست صناعة المعجزات؛ ولذلك استهلَّت هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾^ط فالسؤال إنما يكون عن تبليغ الدعوة ومدى استجابة الناس لها.

ثانياً: إن مصدر المعجزة إنما هو الله، وليس النبي أو الرسول ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾^ط، ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾^ط.

وتكرار الإذن هنا مُشعرٌ بتكراره مع كلِّ معجزة؛ دفعاً لتوهم التفويض والتوكيل المطلق بصناعة المعجزات، كما يتوهم غلاة الرافضة مع أئمتهم، فالملك لله وحده، والله لم يتنازل عن ملكه لأحد، لا على سبيل التملك، ولا على سبيل التفويض ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^ط.

ثالثاً: إن المعجزة متلبسة بالأمر والنهي ونور الوحي، فوظيفتها إقامة الحجة على صدق الوحي، ودفع الناس للالتزام والتمسك به ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾^ط.

أما الخوارق المصحوبة بالجهل والخرافة، وظلم الآخرين، والبُعد عن أحكام الشريعة وآدابها، فهذه ليست من الدين في شيء، وليست علامة على الإمامة أو الولاية مهما بلغت في أعين الناس.

رابعًا: إن الاستئناس بالمعجزات الحسيّة لزيادة الإيمان والطمأنينة وإرْدُّ، ولا يتعارض مع أصل الإيمان؛ لأن الإنسان مجبُولٌ على التعلُّق بالمحسوسات ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئَنَ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ فالعلم بالمحسوس فيه إضافة على العلم الحاصل بطريق النظر والاستنتاج.

خامسًا: إن المعجزة الحسيّة مع قوتها ومناسبتها لطبيعة الإنسان، إلا أنها قد تكون فتنة له، فالحاسد المكابر سيّدعي أنها من السحر كما فعل اليهود ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيَ إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

وأما المحبُّ الجاهل فقد تدفعه للغلو ورفع مقام النبوة إلى مقام الألوهية ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا أَنْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فهو لاء شطت بهم المعجزة بعيدًا عن نور الوحي بسبب جهلهم وغلبة عاطفتهم.

سادسًا: أدب النبيين مع المعجزة، ووقوفهم عند حدّ عبوديتهم لله؛ إذ لم تمنعهم هذه المعجزات أن يقولوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾، ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ.﴾

سابعًا: إن ميزان التفاضل بين البشر ليس في الخوارق ومن شاهدها أو لم يشاهدها، بل الميزان هو الصدق؛ الصدق مع الله، والصدق مع النفس، والصدق مع الآخرين ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿إِذْ أَيْدَتْكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ هو ملك الوحي جبريل عليه السلام، والعبارة موحية بالقرب والملازمة، وليس إيصال الوحي فقط، والله أعلم.

﴿تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا﴾ في المهد معجزته في تبرئة أمه مريم عليها السلام، وكهلاً لتبليغ رسالته، وهنا اقتران المعجزة بالرسالة.

﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ الأكمه الأعمى، والأبرص المتغير لون جلده بخلقة أو مرض، ويقال: إنَّ عصر عيسى كان مشهوراً بالتطبُّب؛ فجاءت المعجزة من جنس اهتمامهم وتفوقهم.

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ أي: تدعوهم فترتدُّ أرواحهم إليهم فيخرجون إليك.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ الحواريُّون هم أصحابُ عيسى عليه السلام المقربون منه، والوحي إنما كان له، وهم استمعوه منه، فاستجابوا لربهم، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، والإنزال إنما كان للرسول ﷺ والله أعلم.

﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ ليس على سبيل الشك بقدرته سبحانه، بل على سبيل التأدب والاحتياط في الطلب، كقولك لمن تجلُّه وتحترمه: هل يمكنك مساعدتي؟ وأنت عارف بإمكانيته، لكنك تُقدِّم العذر له إن ردَّكَ؛ لأنه يعلم ما لا تعلم، والله أعلم.

﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقَتَنَا﴾ هو علم الشهود لا علم النظر.

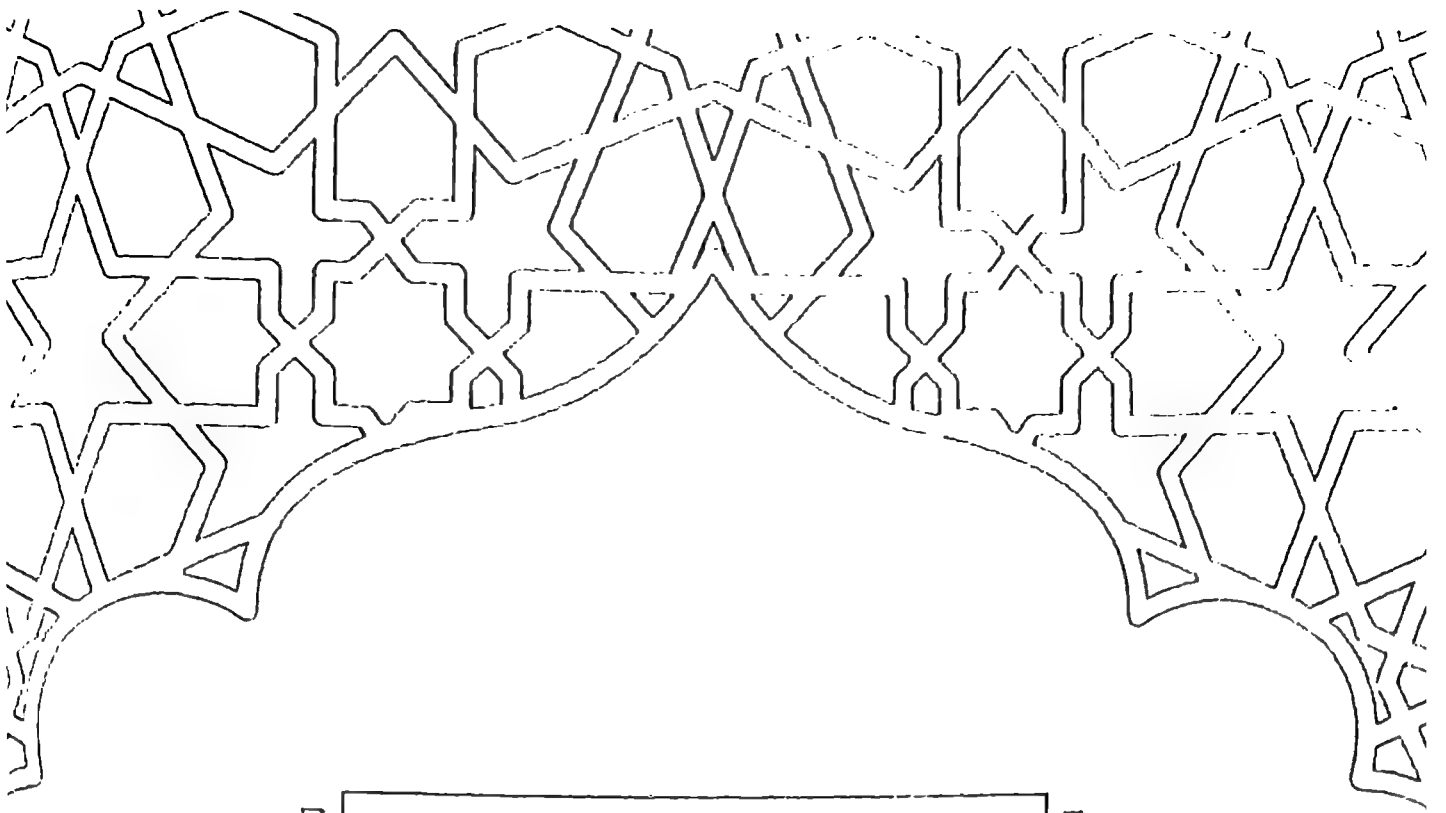
﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي: موسماً للاحتفاء والاحتفال، والتذكير بنعمة الله ووجوب شكرها.

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ دلالة أن الحساب على قدر النعمة، وعلى قدر المعرفة، فلما أصبح الغيب عند هؤلاء شهادة

بنزول المائدة التي سألوها من السماء، أصبح الإنكار محض عنادٍ ومكابرةٍ لا شبهة فيه لجهلٍ، ولا لغفلةٍ.

﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ تفويض الأمر إلى الله، وفيه روح الشفاعة وحسن الطلب، كأنه يقول: إنهم عبادك يا ربّ، وأنت أولى بهم مني ومن أنفسهم.

﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ كأنه يقول: أنت الغنيُّ عن معاقبتهم، وغفرانك لهم غفران العزيز المتفضل، وفي هذا نوعٌ من التذلل في الطلب، وهو مظنة الاستجابة، ولولا هذا المعنى الدقيق لكان الأنسب أن يقول: إن تغفر لهم فإنك غفورٌ رحيمٌ، والله أعلم.



سُورَةُ الْأَنْعَامِ

المجلس الرابع والخمسون: القرآن في مواجهة الكُذِّبِينَ

المجلس الخامس والخمسون: حوار مع المشركين

المجلس السادس والخمسون: التكوين الإيماني للمجتمع المسلم

المجلس السابع والخمسون: الهدْيُ الإبراهيميُّ

المجلس الثامن والخمسون: الوحيُّ والحياة

المجلس التاسع والخمسون: طرقُ الغواية والضلال

المجلس الستون: نماذج من العَمَلِ والضلال

المجلس الحادي والستون: الشريعةُ السَّامِحَةُ

المجلس الثاني والستون: وصايا عشرٌ وتوجيهات ختامية

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّوْثَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُنَمِكْ لَكَ وَارْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ آسَفْنَاهُ بَرُؤِ الْمَلِكِ فَأَخَذَ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ كُتُبُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الْبَلَدِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِ الْفَارِطِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصِرْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْنَاهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسَّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ لَا تُذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْكُمْ لِتَشْهَدُوا أَنْتَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرًا قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَاكُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَحْتُمُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظَرْ كَيْفَ كَذَّبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُكَ بُحْدُكَ أَوْ تُنَادِيهِمْ أَنْ يَقُولُوا اللَّهُ هُوَ الَّذِي كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأْنَاهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ هُوَ الَّذِي يَلْقَاهُ اللَّهُ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا قَرَّرْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الرُّسُلِ لِبَيِّنَاتٍ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتِ يَسْتَجِيبُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِمْ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

القرآن في مواجهة المكذبين

نزلت سورة الأنعام في مكة بعد أن استقرَّ موقف قريش على تكذيب الرسول ﷺ، من هنا كان الموضوع الأساس لهذه السورة وفي هذه الآيات بالذات هو بيان هذا الموقف وتحليله ومناقشته، وكما يأتي:

أولاً: تقرير الحقيقة الكبرى التي لا تستطيع قريش ولا كلُّ الناس نُكرانها ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾، ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ فانبثاق هذا الكون وجريان الحياة فيه لا تدعيه قريش ولا أصنامها، وهذه الحقيقة التي يؤكدها القرآن ويسوقها في كلِّ مواجهة مع هؤلاء المشركين، فهذه لوحدها كافية لإبطال ألوهية الأرباب المزيفة التي يصنعها الناس بأيديهم.

ثانياً: إن دعوة قريش وغيرهم لهذا الدين والحرص على هدايتهم أجمعين إنما هو لمصلحتهم وفائدتهم في الدنيا والآخرة، وهذا أصلٌ في علاقة الخالق العظيم بهذا الخلق ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ وما رسالة محمد ﷺ إلا لتحقيق هذه الرحمة.

ثالثاً: إن هؤلاء المكذبين لا يكذبون رسول الله ﷺ تشكيكاً بصدقه وأمانته، كيف؟ وهم الذين ينادونه الصادق الأمين، لكنَّه الرفض لدعوة الحقِّ مع وضوحها وظهور حجَّتْها ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ وذلك لمرض في نفوسهم، ولحساباتٍ أرضيةٍ ودنيويةٍ لا تمتُّ بصلةٍ إلى البحث والرغبة في المعرفة.

رابعاً: إن خسارة الإنسان لنفسه وتلوُّث فطرته الآدمية هي التي تقوده إلى هذا الجحود ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فالنفس البشرية تفرق عن سائر الحيوان بعلوِّها على الشهوة الحيوانية، والمقاييس المادية البحتة، بتشوقها للمعرفة، وتطلُّعها للعالم الأسمى، فإذا

عاش الإنسان حبسًا في شهواته ورغباته المادية انتكست فيه هذه الفطرة، ولم يعد مهتمًا بمجالات التفكير والحوار والنظر في ما وراء العالم المحسوس.

خامسًا: إن هؤلاء قد عطّلوا منافذ المعرفة لديهم ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

سادسًا: إنهم استعاضوا عن البحث العلمي، والنظر الجاد، والحوار الهادف بالسخرية والاستهزاء ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيبُشُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُوا بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وفي الآية دلالة أن قولهم الذي حكاه القرآن عنهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ كان من قبيل السخرية لا غير.

سابعًا: إنهم مُصِرُّون على التكذيب حسدًا وعنادًا، بغضّ النظر عن الحجّة والأدلة ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾.

ثامنًا: إن التكذيب منسجمٌ مع سلوكهم الكاذب واعتيادهم الكذب على الله، وعلى أنفسهم، وعلى بعضهم البعض ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾، ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

تاسعًا: إن هذه سنّة ماضية في كلّ الدعوات، فالحسد والعناد والمكابرة واتباع الهوى أمراض متكرّرة في المجتمعات البشرية ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرُوا﴾.

عاشرًا: إن هؤلاء المكذّبين الضالّين إنما يُهلكون أنفسهم، ويسعون بشقائها وعذابها ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾، ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا

يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْلُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ﴿٦٨﴾

حادي عشر: إن النبي لا يملك إلا الدعوة والدعاء وبيان الحجّة، والقيام بها كلّفه الله به، أما الآيات والمعجزات فهي لله وحده، وإنما تظهر على يد النبي بإرادة الله وحكمته ﴿وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْطِطِعْتَ أَنْ تَبْنِيَنَّ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

ثاني عشر: إن الدعوة إلى الله ماضية، وإن أهل الحق على طريقهم لا يضرهم من ضلّ وكذب، وإن الفاصلة بين الفريقين قائمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾، ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ، وَمَنْ يَلْبَغْ أَيُّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ عدّد الظلمات ووحد النور بإشارة إلى أن طريق النور واحدة، وأن سبل الغواية كثيرة ومختلفة، بعكس النور الحسيّ فهو متعدّد بتعدّد مصادره، وبعكس الظلام الحسيّ أيضًا فإن له سببًا واحدًا وهو فقد النور. وذكر الظلمات والنور فيه تمهيد للحديث عن المكذّبين الغارقين في ظلمات الجهل والهوى بعيدًا عن نور الوحي.

﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فيه تعجّب واستنكار لمن يُسوّي مخلوقًا بخالق، ومرزوقًا برازق، وهذا المعنى متضمن للمعنى الثاني، وهو العدول بمعنى الإعراض؛ إذ هم

أعرضوا عن الله بهذا الشرك، واستعمال الباء بمعنى (عن) ليس بمستبعد في اللغة، والله أعلم.

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ بخلق آدم من الطين وهو أبو البشر، وكذا فإن جسم الإنسان إنما يتغذى بالنبات المتكوّن من الماء والتراب، ومن الحيوان المتكوّن من الماء والنبات، فأجسادنا كلّها من هذا الطين، والله أعلم.

﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ الأجل المقضي هو أجل الناس الذين توفاهم الله، والثاني آجال الناس إلى قيام الساعة، والقضاء هنا الاستيفاء بحلول الموت، وليس بتقديره؛ لأن التقدير مقترن بالخلق فلا يعطف عليه بـ (ثم)، والله أعلم.

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ السموات والأرض من مخلوقات الله، والمخلوق لا يحيط بالخالق ولا محتويه، والله مُتَعَالٍ عن خلقه، وله العلوّ المطلق والكبرياء، والخلق كلّ الخلق مُفْتَقِرٌ إليه، وهو الغنيّ عمّن سواه، ولكن آيات الله وتجليّات أسمائه وصفاته ظاهرة في السموات والأرض وفي كلّ خلقه ﷻ، وأما البحث في العلاقة المكانية وعلاقة ذات الخالق بذات المخلوق فهذا بُعدٌ عن نور الوحي، وتغريبٌ بالعقل، ومجازفةٌ لا معنى لها.

﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ مدرارٌ كثيرٌ وغزيرٌ، وأصله من: درّ الضرع إذا جاد باللبن، وعطف الأنهار على الأمطار إشارةً إلى أن المطر سابق، فهو مادة تكوين الأنهار، والله أعلم.

﴿فِي قُرْطَاسٍ﴾ أي: في كتابٍ كاملٍ منزّلٍ من السماء، وليس وحياً ثمّ يخطّه كتبة الوحي، وهذا من دعاوى المشركين وأسلوب مُحاجّجاتهم.

والآية تُخبر أنهم لو رأوا ذلك ولمسّوه بأيديهم لأنكروه أيضاً؛ لأن الإنكار سببه الكبر والحسد، وليس الشك بصدق الرسول، ولا بنور الوحي الذي معه.

﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقَضَى الْأَمْرَ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ﴾ الأقرب في هذا: أنه لو أنزل الله عليهم ملكاً بصورته التي خلق عليها فإنهم لن يُنظروا بعدها، وسيمحّتهم الله فور إنكارهم، وهم أولى

بالإنكار كما مرَّ في آية القرطاس، وكما في قوله الآتي في هذه السورة: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وليس هذا الذي منع من إنزاله، فالله لا يستجيب لكل اقتراح أو طلب للبشر، وإنما أمره يجري وفق حكمته هو سبحانه.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيْسُوتَ﴾ تفریع على اقتراح المشركين، فالملك الذي يقترحونه لن يُغنيهم عن اتباع النبي الذي تنكروا له حسداً وباطلاً، وهذا الملك لا يكون بديلاً عن النبي إلا إذا حوّل الله صورته إلى صورة رجلٍ مثلهم حتى يتمكن من قيادتهم وتوجيههم، وهنا سيلتبس عليهم أمرهم كما التبس عليهم مع نبيهم، والله أعلم.

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بتعطيل عقولهم ومعاني إنسانيتهم، وهبوطهم إلى الاهتمامات الجسدية والمادية البحتة، فهؤلاء لم يعودوا قادرين على الوصول إلى معاني الإيمان والمعارف الجليلة التي تقودهم إليه.

﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقها من العدم ليس على مثال سابق، ولا من مادة أولية كما هي صناعات البشر واختراعاتهم.

﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ دليل على غناه سبحانه وافتقار من سواه إليه، وفيه تعريض بالأصنام التي يقدم لها المشركون الذبائح والندور، فكأنهم يطعمونها وهي بالمقابل لا تستطيع إطعامهم.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي: أول من يدعو لهذا الدين ويتحمل أعباءه في مقدّمة الداعين والعاملين له بعد أن انقطعت النبوة لمدة من الزمن، فالأول إن كان معناه: المتقدّم على غيره، فرسولنا ﷺ هو الأول بإطلاق، وإن كان الأول زماناً فهو الأول لما بعد الفترة.

﴿وَلَا تَكُونَتَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ خطاب لكلِّ مُكَلَّف وإن كانت صورته للنبي ﷺ، وفيه

معنى آخر، وهو تئيس المشركين من محاولة نبي عن دعوته.

﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ تخويفهم بالله، وهو الأسلوب الأنسب في

مُخاطبة المعاندين والحاسدين، وهو الأسلوب الذي يستخرج معاني الفطرة الكامنة.

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ مقتضى السياق أنه يستشهد بأهل

الكتاب كورقة بن نوفل وغيره من المنصفين، وليس المقام مقام مُحاججة أهل الكتاب؛ لأن السورة نزلت في مكة، وكانت المواجهة مع المشركين، وليس مع أهل الكتاب.

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ الأقرب أن سبب فتنتهم أنهم دلَّسوا

على أنفسهم في الدنيا، فتأولوا الشرك بتأويلات زائفة؛ ليرضوا متطلبات فطرتهم الناطقة بالتوحيد، كما يفعله كثير من أئمة البدعة ورؤوس الرفض في تقديس القبور والسجود لها والطواف بها، وحجتهم دائماً أن هذا ليس شركاً بل هو حبُّ لعباده الصالحين!

وهذه الحجة نفسها سيكررونها هناك لما يسألهم الله: ﴿أَيَنْ شُرَكَاءُكُمْ﴾ فيأتي القضاء العدل

﴿أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةٌ﴾ أغطية تحجبها عن الحق.

﴿وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ الصمم الذي يحول دون سماع الحق.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ﴾ أي: لا ينتفعون به لأنفسهم، ولا يسمحون لغيرهم

بالانتفاع به، فجمعوا بين المنكرين.

وفيه إشارة أن رغبتهم في إبعاد الآخرين أقوى من رغبتهم في النأي عنه، ولذا قدَّم النهي على النأي.

وقد ورد أن بعض زعماء قريش كانوا ينهون عن سماع القرآن، ثم يترددون هم لسماعه من

بعض الصحابة؛ وهذا لملازمة نور الوحي لكوامِنِ الفطرة في داخلهم، والله أعلم.

﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ دليل أنهم لم يكن يمنعهم الجهل، وإنما الكبر والحسد.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ هي بالنسبة للكافرين بغتة من كل وجه، أما المؤمنون فالبغتة نسيئة؛ لأنهم استعدُّوا لها بأعمالهم، وترقَّبوها بأشراطها المعروفة في الكتاب والسنة، ولكنَّ تحديد يومها وساعتها يبقى من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

﴿فَإِنْ أَسْطَظَعَتْ أَنْ تَبْغِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِثَاقٍ﴾ إشارة إلى شدة حرص النبي ﷺ على هداية قومه، وحُزنه على حالهم وتمسُّكهم بأصنامهم، ولكنَّ الأمر لله وحده، والآيات بيد الله وليس بيد النبي، ولا أحدٍ من الخلق.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: فتحوا منافذ المعرفة التي عندهم، وسمعوا سماع العاقل الناظر في فحوى الكلام ودلائله، وهؤلاء أقرب للإيمان، بخلاف الذين جعلوا الوقر في آذانهم، وهو وقر التكبر، فهؤلاء كالأموات الذين لا ينفعهم قول، ولا تردُّهم موعظة.

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَمِمَّنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا
 طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَافَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُغُرُ بُعْدِكُمْ
 فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءِ اللَّهُ يُضِلِّلهُ وَمَنْ يَشَاءِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ
 السَّاعَةُ أَعْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ
 أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٣٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ
 لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ فَلَمَّاسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا
 أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٣٤﴾ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ
 سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظِرْ كَيْفَ نُصْرِفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِقُونَ ﴿٣٦﴾ قُلْ
 أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ
 وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٩﴾
 قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا تَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ
 وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٠﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ

حوار مع المشركين

مع تأكيد القرآن أن هؤلاء المكذبين لن يؤمنوا حتى لو أنزل الله لهم ملكاً أو قرطاساً
 يلمسونه بأيديهم جاءت هذه الآيات تحاورهم وتقيم الحجة عليهم، وفيه بلاغ لمن خلفهم
 من الضعفاء والمترددين، والذين التبس عليهم الأمر لشدة اللغو بالباطل، ومكر الليل
 والنهار، ومحاصرة الكلمة الصادقة، والتضييق على أصحابها ومطاردتهم.

وقد جاء الحوار بمنهجية مختلفة إلى حد كبير عن حوار القرآن مع الكتابيين:

أولاً: إن رسالة الأنبياء بشارة بالحق، ونذارة عن الباطل ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ وهذا الحصر نفى لما كانت تُشيعه قريش عن أغراض شخصية أو دنيوية، وتنزيه شخصية الداعية عن هذه الشبهات مقدّمة لقبول دعوته؛ ولذلك تكرر في القرآن نحو: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

وأهل الباطل في العادة حينما يعجزون عن ردّ الحقّ والتشويش عليه يلجؤون إلى التشويش على حملته والداعين إليه، والغاية عندهم واحدة.

ثانياً: إن النبي لا يغري الناس بالجاء، ولا بالمال، ولا بالمتاع الزائل، كما يفعل الملوك والسلاطين والباحثون عن الصدارة والوجاهة، وهذا فيه تنزيه لمقام النبوة من جانب، وفيه تنقية الأتباع وتركيتهم من جانب آخر ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾.

ثالثاً: أخذُ المشركين إلى العالم الأوسع، وفتح أعينهم على الحقائق الكبرى الماثلة في هذا الكون؛ علّهم يتخلّصون من العقد الضيقة التي تتولّد نتيجة الاحتكاكات اليومية، والمنافسات المجتمعية الصغيرة ﴿وَمِمَّنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيرُ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾.

فأنتم لا تسكنون في هذا العالم لوحدكم، ولن تستطيعوا أن تعيشوا لوحدكم، وهذا العالم كلّهُ محكوم بناموسٍ واحد، وهو الشاهدُ على ربوبية الخالق العظيم لهذا الخلق، وكل ما يحتاجه الإنسان لإدراك هذه الحقيقة أن يفتح مغاليق عقله وفكره ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُمْ وَبِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ وهي ظلمات الجهل والحسد والتكبر التي تُعمي وتُصمُّ ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

رابعاً: أخذهم إلى قرارة أنفسهم، وكوامن فطرتهم بعيداً عن الصخب وضوضاء المجتمع المرتبك، وتأثيرات الملأ وذوي الأغراض المتشابكة والمختلفة ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ

اللَّهُ أَوْ أَتَنَكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠﴾ بَلْ إِلَٰهَةُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿١١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرَ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ ﴿١٢﴾.

فالمشركون يعرفون أن آلهتهم لن تجلب لهم خيراً، ولن تدفع عنهم شراً، واستنطاق هذه الحقيقة من أقوى طرق الدعوة معهم ومُحاججتهم في ذات أنفسهم.

خامساً: إن العذاب الذي هو دون الاستئصال من نحو جوع أو مرضٍ مدعاة للتضرع والخضوع للحق، وهذا هو الشأن في سلوك المجتمعات البشرية، وهو حاصل ومتكرر كما في النقطة السابقة، لكن بعض الناس تقسوا قلوبهم؛ لشدة تزيين الباطل في أنفسهم، ومحاولة إرضاء ضمائرهم به حتى يتمكن من نفوسهم كما يتمكن الحق في نفوس أهله، وذلك أشد أنواع الضلال والغواية ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهذا شبيه بقوله في المقطع السابق: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

سادساً: تنبيههم أن دوام الحال من المحال، وأن الجاه والنعيم الذي هم فيه لن يبقى، ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ وفي الآية إشارة إلى سبب تكبرهم وتعاليتهم على الحق، وهو الفرح بما عندهم من الجاه والمتاع.

سابعاً: تحذيرهم من عذاب الله الذي ينتظرهم إن أصرُّوا على تكذيبهم وكفرهم ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾.

ثامناً: ترغيبهم بنعيم الله الدائم وأمنه وطمأنينته ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

يُلاحظ هنا أن منهجية الحوار مع المعاندين المكذِّبين تعتمد على تحريك الجوانب الإيجابية في داخل النفوس، فالخطابُ خطاب للنفوس أكثر من كونه خطابًا للعقول؛ وذلك لأنَّ المشكلة التي تُحوَّل بينهم وبين الحقِّ إنما هي مشكلة نفسية، فلم يكن أهل مكة أهل علم وفلسفة ولا كتاب سابق، فاحتاجوا إلى هذا الخطاب، بخلاف الآخرين من أهل الكتاب ونحوهم.

دقائق التفسير

﴿وَمِمَّنْ دَاخِلُ الْأَرْضِ﴾ كُلُّ كَائِنٍ حَيٍّ متحرِّكٍ على هذه الأرض.

﴿لَا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ أي: مجاميع، لكل مجموعة نظامها الخاص بها، تتكاثر وتتحرك وتعيش ضمن ناموسها الذي وضعه الله لها، فالتشابه مع البشر إنما هو من حيث التحرك ضمن الناموس الكوني، وليس في شكل الخلقة وخصوصيتها؛ لأنَّ كلَّ أمة في هذا الخلق لا تشبه أمة أخرى، فالسباع نفسها لا تتشابه، وكذا الطيور، والأسماك، فعدم مشابهتها للبشر من باب أولى.

﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ما تركنا ولا أهملنا شيئاً، فكلُّ هذه الأمم من الإنس والجن وسائر الحيوان قد أحاط الله بها علماً، ووضع لها نظامها وطريقة عيشها، وقَدَّرَ لها أرزاقها وآجالها.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا﴾ هو فرح البطر والغرور، أما الفرح بفضل الله ونعمته فهو مشروع، وهو الفرح المستوجب للتواضع والشكر.

﴿بَغْتَةً﴾ فجأة من غير ترقُّب منهم ولا مقدمات.

﴿مُبْلِسُونَ﴾ يائسون.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الدابر هو آخر القوم، وقطع دابر القوم استتصاهم أولهم وآخرهم.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْسُهمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ الفسق الخروج عن الجادة، ويطلق على الكفر؛ لأنه خروج عن الإيمان، ويطلق على المعصية؛ لأنه خروج عن الطاعة.

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إشارة إلى أن دعوة الصادقين والجاديين في البحث، والذين ينتابهم القلق على مصيرهم لئلا يقعوا في الباطل أولى من الانشغال بمجادلة المعاندين والمتكبرين، مع أن أصل الدعوة للعالمين كل العالمين.

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ۝٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا إِبْهَاجًا ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٥٤﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لَيْسَ لَهُمْ شَيْئٌ إِلَّا يَعْزِمُوا يُرْسِلِ اللَّهُ الْفَلَاقِطَ ۝٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبَدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَنْتُمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۝٥٧﴾ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ۝٥٨﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ۝٥٩﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝٦٠﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٦١﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ۝٦٢﴾ ثُمَّ رَدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ لَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ۝٦٣﴾ قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝٦٤﴾ قُلْ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ۝٦٥﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ۝٦٦﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ۝٦٧﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُتَسَفِّرٌ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٦٨﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آبِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيتُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٦٩﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٧٠﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَاهُمْ أَلْحِيَّةَ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝٧١﴾ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى آتَيْنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا نُسَلِّمُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٧٢﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٧٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۝٧٤﴾

التكوين الإيماني للمجتمع المسلم

في خضم الحوار مع المشركين يلتفت القرآن إلى الصف المؤمن ليمنحه أسباب الثبات والقوة الإيمانية الذاتية التي تستعصي على التفكك أو الذوبان مهما كان حجم الضغوطات الخارجية، وتتجلى هنا معالم التكوين الإيماني كما رسمها القرآن:

المعلم الأول: وحدة الصف المؤمن، وعدم التفريط بالمسلم مهما كان حاله وظرفه ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ وقد كان هذا مطلباً لبعض أسياد قريش؛ أن يطرد الرسول ﷺ أتباعه من الضعفاء والفقراء حتى تكون الأجواء مهيأة لدخول أولئك الأسياد!

المعلم الثاني: أن وحدة الصف لا تعني ضياع المسؤولية الفردية، فكل فرد في هذا الصف مسؤول مسؤولية تامة عن خياراته وتصرفاته، لا يختلط هذا بذاك، ولا ذاك بهذا ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

المعلم الثالث: أن الرحمة هي القيمة العليا التي تنظم العلاقات البينية داخل هذا الصف، في ظلال الرحمة الإلهية الشاملة، والرحمة هنا تكميل لمعنى المسؤولية، فالفرد يتحمل مسؤوليته كاملة، هذا من حيث العدل والقانون، فإن احتاج إلى معونة من إخوانه أعانوه إلى حد الإيثار بالمال والنفس، وإن احتاج إلى المراجعة وتصحيح الموقف فباب التوبة مفتوح.

فالمسؤولية ليست جامدة بالقدر الذي يسحق الفرد تحت سطوته، بل هما قيمتان متناغمتان؛ المسؤولية، والرحمة ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

المَعْلَمُ الرابع: العلم بالباطل ونهجه ومبتداه ومنتهاه ﴿وَلَتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾
والسبيل: الطريق من أوله إلى آخره، واستبانته للمؤمنين شرط في تكوينهم الإيماني؛ لأنَّ
يختلط الحقُّ بالباطل، وطريق الجنة بطريق النار؛ ولذلك قال بعده: ﴿قُلْ لَا آتِيعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ
ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

المَعْلَمُ الخامس: العلم بطريق الحقِّ ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ وبالتالي فكلُّ من سلك
الطريق بلا بينة ولا علم يُخشى عليه الضلال والتوهان في مسارات الباطل.

المَعْلَمُ السادس: تنمية الرقابة الذاتية من خلال اليقين بعلم الله المحيط بكل شيء ﴿وَيَعْلَمُ
مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَةٍ إِلَّا يَكُنْ مَّيْنٌ﴾ ومع الرقابة والمحاسبة الذاتية هناك شعورٌ بالطمأنينة والثقة، فليس هنا في
هذا العالم مجال للعبث، أو النسيان، أو العشوائية حتى ورقة الشجر الذابلة الساقطة! ومن
باب أولى سلوك هذا الإنسان المكلف بعمارة الأرض ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾.

المَعْلَمُ السابع: عقيدة الجزاء الأخروي الدافعة لفعل الخير وتجنب الشر ﴿لِيُقَضَىٰ أَجَلٌ
مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٠) وهو القاهر فوق عباده ويُرْسِلُ عَلَيْكُمْ
حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (١١) ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ
إِلَّا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾، ﴿أَن تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا
شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا﴾.

المَعْلَمُ الثامن: الإعراض عن مجالس الإثم واللغو الباطل؛ صيانة للنفس، وحماية
للمجتمع ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ
الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

المَعْلَمُ التاسع: العمل على الدعوة والإصلاح وإنقاذ الناس، وهذا المعلم مكمل لما قبله حتى لا يكون الإعراض إعراضاً سليماً ﴿كَالَّذِي أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتَيْنَا قُلُوبَهُ هُدًى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ﴾.

المَعْلَمُ العاشر: التذكير بالأصل الكلي الذي قام عليه هذا الدين، واجتمع عليه هذا الصف، ألا وهو التوحيد ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَنْجَحْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٣) ﴿قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ﴾، ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرًا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧١) ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٧٢) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

دقائق التفسير

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ بالغداة استعداداً للعمل، وبالعشي مراجعة واستغفاراً وتنظيفاً للقلب عما علق به.

﴿فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ قانون كلي في هذا الخلق؛ إذ التفاوت بين الناس وجه من وجوه الابتلاء والاختبار، إيماناً وكفراً، قوة وضعفاً، غنى وفقراً، والحاكم مُبتلى برعيته، والرعية مُبتلاة بحاكمها، والوالد مُبتلى بولده، والولد مُبتلى بوالده، والنجاة إنما تكون بمعرفة واجب كل طرف تجاه الآخر، فالصدقة واجب الغني، والرحمة واجب القوي، والقناعة واجب الفقير، والدعوة واجب الداعي، والإصغاء واجب المدعو، وهكذا.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِعَايَتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ السلام العام والشامل، وهو رسالة الإسلام الكلية، وهو مظهر من مظاهر الرحمة ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ وبعُد أن يكون السلام هنا سلام التحية؛ إذ التحية على القاصد لا على المقصود، والله أعلم.

﴿وَلَيْسَتَيْنِ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ كأنها تتجلى بنفسها دون بحث وجهد، حتى لا يبقى عُذر لمعتذر.

﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ﴾ ارتباط بين الهوى والضلال، فكل من سار خلف رغباته وشهوته متجنبًا سبيل العلم والمعرفة، فقد وقع في الضلالة لا محالة.

﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ فمهمة الداعي تبليغ الدعوة، وتطبيق الشرع، لا الاستجابة لطلبات المدعوين بأي اتجاه كانت، فالملك لله وحده، بيده الثواب والعقاب، وهو وحده الذي يقدر الآجال والأرزاق.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ أي: عنده علم الغيب كله؛ لأن الذي لا يملك المفتاح أو المفتاح - مفرد مفاتيح - لا يهتدي إلى ما بداخل الصندوق.

وإنما ذكر المفاتيح إشارة إلى حرص الإنسان على معرفة الغيب كحرصه على الحصول على ما في الصناديق المغلقة من كنوز، والمقصود بالغيب هنا: المقابل لعالم الشهادة، أما ما يجهله الإنسان من عالم الشهادة بحكم محدودية قدراته وأدواته فهذا قد يصل إليه بتطوير هذه القدرات أو الأدوات، كأدوات الاتصال الحديثة التي قربت البعيد، وجعلت ما كان غيبًا في الماضي معلومًا ومشهودًا في الحاضر، فهذا غيب نسبي لا دخل له بعالم الغيب.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ هو علمه سبحانه المحيط بعالم الشهادة، وهو العلم الذي قد يكون للمعرفة الإنسانية منه نصيب، بخلاف عالم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ سمى النوم وفاة؛ لما بينهما من مشابهة وغياب الإنسان عن وعيه، وفقده القدرة على الحركة، وهو تذكير بما ينتظر الإنسان من غياب أكبر وعجز أشد.

ثم شبه الاستيقاظ بالبعث: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ تذكيرًا بذلك اليوم الذي سيحشر فيه الناس جميعًا إلى خالقهم بعد ذلك الموت العميق.

﴿جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أي: اكتسبتم من أعمال، واختيار الجرح إشارة لنوع هذه الأعمال التي فيها من الأذى على الفاعل نفسه وعلى مجتمعه، فالكسبُ في عادة البشر لا يخلو من جراحات وكدورات وآثام، وكأنه يشبهُ كسبَ الإنسان بكسب الجوارح لصيودها، والله أعلم.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ بحكم ربوبيته وقدرته المطلقة، وهذا لا يتعارض مع رحمته الشاملة؛ إذ الذي يملك الرحمة إنما هو القوي الغالب لا الضعيف العاجز، وقد خصَّ العباد - وهم العقلاء - مع أن قدرته على العقلاء وغيرهم على السواء؛ تنبيهاً للعقلاء أن يخضعوا الخضوع التكليفي باتباع الأوامر، واجتناب المناهي، كما خضعوا خضوعهم الخلقى لقهره سبحانه وإرادته وقدرته.

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ هم الملائكة الذين يحفظون على المكلف كل أعماله حسنها وقبيحتها، ما استحقَّ الثواب، وما استوجب العقاب، وهذا من سُنَّته سبحانه في هذا الخلق أن يجعل لكل شيء سببه، ولكل مخلوق دوره ووظيفته، وإلا فإن الذي يُحصي الأوراق المتساقطة لا يُعجزه الإحاطة بسلوكيات هذا الإنسان وتصرفاته.

﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ التضرُّع: التذلل، والخُفْيَةُ: ضدُّ الجهر، والمقصود بهما الدعاء الخالص الصادق الذي لا تشوبه شائبة الرياء، ولا التأثير بعاطفة الجمهور، فكلُّ امرئ يمرُّ بنوع شدة فإنه يلجأ إلى من ينتشله منها، وحينما يعجز الأهلون والأقربون، وتقطع الأسباب الدنيوية، تتحرك الفطرة الثابتة في كينونة هذا الإنسان (يا الله) على وجه التذلل الكامل، والصدق الخالص.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ تفریع لما قبله، كأنه يقول: إنكم تضرعون إلى خالقكم حينما تكونون في ظلمات القفار والبحار، ثم تنسونه في حياتكم العامة في بيوتكم ومجالسكم ومواطن أمتكم، فهل تظنون أن الله قادرٌ عليكم هناك، وأنه لا يقدر عليكم هنا؟! ١

ثم ذكر أمثلة من العذاب التي تصيب الناس في مآمنهم؛ كالزلازل، والصواعق،
والحروب: ﴿وَيَذِيقُ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ^٨﴾.

﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ^٩﴾ فالمقاطعة ليست مقصودة لذاتها بل هي مطلوبة بقدر تجنب
الإثم، فإذا عاد اللاهون عن ههنا تحرك المؤمن بدعوته لإنقاذهم، وإصلاح أحوالهم.
﴿أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾ أن تقع في اليأس والقنوط من رحمة الله بسبب الإصرار على الضلال،
والصد عن باب التوبة والإنابة.

﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ إشارة إلى العمل الجماعي في الدعوة إلى الله، مشورة
وتعاوناً وتكميلاً للأدوار والمهام.

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَا زَرَرْتُكَ أَصَنَامًا ۖ إِلَٰهَةٌ ۖ إِنِّي أَنَا نَكِلٌ فِي شَأْنِكَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَرَىٰ إِبْرَاهِيمَ
 مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونُ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا
 أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ
 ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسُ بَازِعَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُغَوِّرُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ
 وَجْهِيَ لِلدِّينِ فَطَرَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحْجُّونِي فِي اللَّهِ
 وَقَدْ هَدَانِ ۗ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ۚ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ
 ﴿٨٠﴾ وَكَيفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ
 أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ
 حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۚ وَمِن دُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا ۖ وَكُلًّا
 فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِن ءَابَائِهِمْ وَدُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَجْنَيبَتُهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ
 يَهْدِي بِهِ ۚ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن
 يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَقَدَرُ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ
 عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

الهدى الإبراهيمي

في هذه الآيات تقصُّ علينا سورة الأنعام نموذجًا للمناظرة العلمية بصيغة الناظر لا المناظر، وبأسلوب الباحث لا المجادل، وهذا - لا شك - أقرب للقلوب وأدعى للقبول،

وقد جاءت هذه المناظرة في سياقٍ متّصلٍ وإطارٍ متكاملٍ في معركة القرآن الكبرى مع الآلهة المزيّفة التي صنعها الإنسان بنفسه لينازع بها سلطان الله في خلقه وملكه:

أولاً: دعوة الأقربين قبل الأبعدين ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ﴾ وهذا نهج النبيين عامة ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وهذا يلقي في نفوس الآخرين طمأنينة وثقة أن هؤلاء الأنبياء لا يعملون لمطمح شخصي، ولا لمطمع دنيوي، بل هم يدعون إلى الحق والخير، ويدعّون بأنفسهم ثم بأقرب الناس إليهم؛ ليتحمّلوا أعباء الطريق من بدايته، وأتعاب الحرث والغرس قبل وفرة الظل، ونضج الثمر، ولولا البعد الأخروي في هذا لما بدأ الأنبياء بأبائهم وأبنائهم وأزواجهم، مع التأكيد المتكرر ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.

ثانياً: الدعوة بالعلم ﴿وَكَذَلِكَ نُرِىْ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ فما كشفه الله لإبراهيم من ملكوته أورث عنده علماً يقينياً بتلك الحقائق الإيمانية التي يدعو لها، وهذه إشارة أن العلم شرط الدعوة، وأن اليقين أساس العمل.

ثالثاً: إن النظر العلمي الذي يبدأ بملاحظة الظواهر وافتراض الفرضيات، ثم تصنيف المقدمات وتركيبها، ثم استظهار النتائج هذا هو طريق المعرفة الأول، فإبراهيم ﷺ رأى كوكباً ثم افترض فرضاً؛ أن يكون هذا الكوكب ربّاً لأنه أكبر من الأصنام وأعلى وأكثر فائدة، فمن جوّز عبادة الحجر المظلم الصغير لماذا لا يجوّز عبادة الكوكب الكبير المنير؟ فلما أفل الكوكب بطلت الفرضية؛ لأن الربّ لا ينبغي أن يزول، ولا ينبغي أن يترك مربوبيه.

فلما رأى القمر افترض فرضيةً أخرى؛ أن هذا أكبر من ذلك الكوكب، وأظهر بزوغاً وإشراقاً، فلعلّه يثبت ولا يعتريه ما اعترى الكوكب، فلما أفل بطلت الفرضية أيضاً، وهكذا افترض في الشمس بعد أن رآها أكبر الأجرام المرئية، وأكثرها نفعاً وضياءً، فلما أفلت أفلت فرضيتها كذلك.

وهذا كله على سبيل تنزيل المناظر منزلة الناظر، وإلا فإن إبراهيم يعلم أن هذه الأجرام تأفل وتغيب قبل ذلك اليوم؛ لأنها من الظواهر المتكررة التي يراها الصغير والكبير، ولا يدور في خلد عاقل أن إبراهيم كان ينتظرها في ذلك اليوم ليراها تأفل أم لا؟
كما أن السياق لا يقتضي أنه كان يناقش عبدة الكواكب، بل السياق متصل في مناقشة أهل الأصنام أبيه وقومه.

وإنما عرّج على هذه الكواكب لحث هؤلاء على النظر خارج الدائرة الضيقة المحكومة بموروثات الآباء والأجداد، كأنه يقول لهم: مَنْ أَوْلَى بالعبادة: هذه الأحجار الصماء، أو تلك الكواكب والنجوم الباهرة بكبرها وعلوّها وإشراقها؟! فإذا جاء بهم إلى هذه الدائرة فقد نجح في تخليصهم من الموروث، وفتح أذهانهم لمستوى آخر من البحث والحوار.
رابعاً: إن الإيمان بالله عن ثقة ويقين يقود إلى الطمأنينة والشعور بالأمن، وذلك بخلاف المتخبط في ظلمات الجهل، والمكبّل بحبال التقليد ﴿أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

فانظر كيف قرّن الأمن بالسلطان وهو هنا الحجّة والبرهان، وبالعلم وهو نتيجة النظر والاستدلال، وهذا قانون كليّ في حياة الإنسان؛ أنه يخاف مما يجهله، ويستأنس بما يعلمه، وما غاصّ في أعماق المحيطات ولا ركب في طبقات الفضاء إلا بعد أن تيسّرت له من المعلومات ما تبدد عنه شكوكه ومخاوفه، فعابد الحجارة الصغيرة كيف سيتعامل مع هذا الكون؟
ومثله ذلك الذي تهرب عن الاعتراف بالجهل تحت مظلة (الصدفة) وهي ترسيخ للجهل لا أكثر، فأئى آمن يشعر به وهو لا يرى في كلّ ما يراه إلا الفوضى والعشوائية الخالية عن كلّ قصد، وعن كلّ نظام؟

خامساً: إن هذا الإيمان هو أساس العمل، وهو شرط القبول ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهذا قانون إنساني عام، فمن لا يعترف برّب العمل كيف يطلب منه فيما بعد المكافأة على عمله؟

وفي هذا جواب لمن يسأل عن أولئك الذين يقدمون أعمالاً دنيوية جلييلة مع كفرهم بالله، فلهؤلاء لهم كل ما يستحقونه في الدنيا من مكافآت قانونية، ويستحقون كذلك الشكر من كل شخصٍ مُنتفعٍ بما قدّموه، أما الآخرة فلا يفوز بها إلا من آمن بها، واستعدّها، وسعى لها سعيها.

سادساً: إن قافلة الإيمان واحدة، من قبل إبراهيم ومن بعده ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾.

سابعاً: إن هذا النموذج والنماذج الأخرى في هذه المسيرة الإيمانية من الخبرة المتراكمة والحركة الميدانية المنبثقة من نور الوحي كلها تكون المثل والقذوة الحسنة لكل السائرين على هذا الطريق ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَتْ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَعِزَّ﴾ الأظهر أن آزر هو أبو إبراهيم، وهذا هو الأصل في استعمال اللغة، وليس من مسوغ ظاهر للخروج عنه، وورود اسمه في التوراة (تارح) ليس بحجة كافية، ولو صحّ ذلك فلا مانع من وجود اسمين لشخص واحد، كما في يعقوب وإسرائيل.

والقول بإيمان جميع آباء الأنبياء وأمهاتهم يحتاج إلى نصّ، وليس بين أيدينا مثل هذا النص.

ومن احتجّ بإطلاق العرب الأب على العم، فهو يصلح احتجاجاً على الإمكان لا على الوقوع، وإلا لكان اسم الأب أينما ورد فإنه ينصرف إلى المعنيين على سبيل الاشتراك، ولا قائل به.

﴿إِنِّي أَرْسَلْتُكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ هذا الخطاب فيه قوة وشدة، والظاهر أنه جاء في مرحلة تالية لخطابه الوارد في سورة مريم: ﴿يَتَأْتِيَ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]، وما بعدها من الآيات، فهو انتقال بحسب تغير الحال، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا أَفْلَحَ﴾ وهو متيقن أنه سيأفلح، فهذا هو المعتاد والمشاهد في كل يوم وليلة.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمَنُ﴾ دليل على ارتباط الإيمان بالعمل الصالح لتحقيق النجاة، على خلاف قول المرجئة: (لا يضر مع الإيمان معصية) بل المعصية تُضُرُّ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُنتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُم بِصَآئِرٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَمَن أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَن عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِيُقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾

الوحي والحياة

حاجة الحياة إلى الوحي لا تقل عن ضرورة الحياة نفسها؛ فانبثاق الحياة لا يزال اللغز الأكبر في المعارف الإنسانية، وهو الذي يجعل الإنسان يعيش حياة عبثية، لا يدري المنشأ ولا يدري المصير، ولا يعرف غاية لوجوده سوى المتاع، وهو هنا يغالط نفسه، فقد رته على المتاع لا تتجاوز سوى مرحلة عمرية وسطية، قبلها طفولة يعيش فيها عالة على أبويه، وحين يكبر تعثره الأمراض وآثار الشيخوخة حتى يعود كما بدأ بحاجة إلى عناية ورعاية، ومرحلة الشباب ليست خالصة من المنغصات من فقر ومرض وحوادث وكوارث، فما قيمة الحياة إن كان هذا مبلغها؟

الوحي يفتح نافذة لما قبل الحياة، ولما بعدها أيضاً، ويرسم الغاية الكلية وسبيل تحقيقها والوصول إليها، وفي هذه الآيات إضاءات وإشارات على هذا السبيل:

أولاً: إن هذه الحياة ليست عبثاً ولا مصادفة، ولا يمكن لها أن تكون كذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْخَيْبِ وَالنَّوَى ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ﴾، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۖ﴾، ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ﴾.

ثانياً: إن النظام الذي يضبط حركة الحياة ويؤلف بين أجزائها ومفرداتها شاهد على نفي العبث والفوضى في أصل الخلقة ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝١٦﴾ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴿﴾، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ۖ﴾.

ثالثاً: إن الذي يشاهد كل هذا النظام فيلوذ بالجحود والنكران بذريعة أنه لم ير الخالق، إنما هو مكابر معاند، فدلالة الأثر على المؤثر دلالة عقلية فطرية علمية يتعامل معها الإنسان في حياته اليومية دون تكلف.

فمن سُرِقَ ماله خفية لا يمكنه أن ينكر وجود السارق، ومن وجد كتاباً ليس عليه اسم مؤلفه أو صورته لا يمكنه أن ينكر وجود المؤلف ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾.

رابعاً: إن الذي أبدع هذا الخلق لا يمكن أن يتركه للضياع دون هداية وتعليم، وذلك هو معنى الوحي ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ فمقتضى الحكمة أن صانع الشيء لا يهمله.

ومن هنا يأتي الربط بين حقيقة الخلق وحقيقة الوحي ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ، مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾، ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾، ﴿ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾، ﴿أَتَبَعَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

خامساً: إن ابتعاد الإنسان عن الوحي الحق يجعله نهياً للجهل والخرافة، والدعاوى الباطلة، والشعارات الخادعة التي تستعبده وتذله وتقهره ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾، ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١٠٠) ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

سادساً: إن إغماض العين عن الحقيقة لن يحول أبداً دون مواجهتها، وخير للإنسان أن يفكر بذلك المصير قبل الوصول إليه ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمُ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ هناك سيخسر الظالمون المتكبرون ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ولن ينجو كذلك الرعاع الذين غرهم

الشركاء المزيّفون والشفعاء الكاذبون ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۖ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ۝﴾.

دقائق التفسير

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۖ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ إنكار الوحي جملةً فيه انتقاص من مقام الألوهية؛ إذ مؤداه أن الله خلق الخلق ثم تركهم، وهذا لا يليق بحق أي صانع، فكيف بخالق هذا الكون العظيم؟

وهو قول بعض علماء الطبيعة اليوم آمنوا بالخالق لتفسير عليّة الخلق، ثم تنصّلوا عن الدين، وتكبّروا على الوحي، وهو لا يختلف عن موقف المشركين السابقين الذين تُناديهم فطرتهم بالإيمان ثم يصدّون عن الرسول حسداً وكبراً.

﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ دلالة أن منكري الوحي لا ينطلقون من تفكير جاد، ورأي مدروس، بل هو الهوى واللعب بالحقائق العلمية والدينية على حسب أهوائهم.

﴿وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ مكة، وهي أكبر القرى وأصلها الذي ترجع إليه في شؤون العبادة والتجارة وغيرهما، والندارة ليست قاصرة على مكة وما حولها، بدليل قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، فالعام يتضمن الخاص دون تعارض أو تضاد.

﴿أَوْ قَالَ أُوْحَىٰ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ التحذير من طريقين من طرق الضلال؛ ادّعاء النبوة كذباً كما فعل مُسيلمة وغيره، وإعطاء البشر حقّ التشريع من دون الوحي، وهو حال الأنظمة المعاصرة التي تدّعي ضمناً أن قوانينها الوضعية أصلح للحياة من الوحي.

﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ على سبيل التحدي، بمعنى: أنكم لو كنتم تملكون من الأمر شيئاً فأنقذوا أنفسكم من هذا العذاب وأفلتوا بها عن طوق الموت.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إشارة إلى أن الحياة الاجتماعية مرحلة مؤقتة ومحدودة في حياة الإنسان، فهو قد وُلد فردًا ثم يموت فردًا، وأنه كذلك يحاسب فردًا حتى في أعماله الجماعية أو الاجتماعية، والصلة الثابتة والدائمة إنما هي صلة الإنسان بربه والمخلوق بخالقه.

﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ من مالٍ ومتاعٍ؛ حيث لم يكن سوى عارية على سبيل التحويل لا التملك الدائم.

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: تقطع ما كان سببًا في وصلكم من التصورات الخاطئة، والمعتقدات الفاسدة.

﴿فَالِئِ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ لإنبات الزرع والشجر، ولولا ذلك لما استمرت الحياة.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ إذ أصل الخلق كان من التراب الذي ليس فيه روح، ثم يكون من النطفة والحبة والنوى، وهي أشياء جامدة وإن كانت فيها مقومات الحياة الأولى، لكنها أشبه بالميت في جمودها وسكونها وعدم قدرتها على الحركة.

﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ في دورة الحياة المألوفة؛ حيث تخرج البذرة الجامدة من الشجرة النامية، وتخرج البيضة الساكنة من الطائر المتحرك، وفي الآية إشارة إلى أن الأصل في هذه الدورة هو خلق الكائن الحي، ثم تخرج منه النطفة والبيضة والبذرة بدلالة (يُخْرِجُ) الذي يعني: الثبوت والاستقرار، بخلاف ﴿يُخْرِجُ﴾ الذي يفيد التكرار، وقصة خلق آدم تعضد هذا التدبر.

أما تفسيره بإخراج المؤمن من والدٍ كافر، وإخراج الكافر من والدٍ مؤمن ونحوه فهو مُستبعد في السياق، وإن كان محتملاً بطريقة الإشارة.

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾ إشارة إلى أهمية علم الحساب، وأنه معتبر، بخلاف من ظنَّ أنه يُعارض الرؤية الشرعية للهِلال؛ إذ الرؤية وسيلةٌ كما الحساب، والمقصود إدراك حركة

الأهْلَةُ، وضبط دخول الأشهر القمرية وخروجها، وربما كانت الرؤية متعينة لضعف هذا العلم في العصور الغابرة، أما وقد تقدّم حتى صار أكثر دقة من الرؤية، فلا دليل على المنع، والله أعلم.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني: آدم ﷺ، فحواء خلقها الله منه، ثم تكاثر النسل بهما.

﴿فَسَقَرُوا وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ الأظهر أنها مصدران لبيان الحال، كأنه قال: مستقرون في الأرض ومستودعون فيها إلى آجالكم المعلومة، فلولا الاستقرار لما صحّ التكليف، ولولا الاستيداع لظنّ الناس أنهم مخلدون فيها، فالاستقرار إنما كان بقدر تحقق غاية الاستخلاف والاختبار، وبعدها تردّ الودائع، كما قيل:

وَمَا الْمَالُ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وَدِيعَةٌ وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ

﴿حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ الذي يركب بعضه بعضًا كما في سنابل القمح والشعير.

﴿قِنَوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ هي عذوق الرطب القريبة من تناول.

﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾ الشَّبه في الشجر، والتمايز في الثمر، حتى إنك ترى البساتين كأنها شيء واحد بأصولها وأغصانها وأوراقها، فإذا بان الثمر عرفت هذه من هذه.

﴿وَيَنْعِيَهُ﴾ الثمر إذا نضج.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ بالخوف منهم وتعظيمهم وطاعة شياطينهم، وإن كانت

العبادة مصروفة للأصنام، كما قال إبراهيم لأبيه: ﴿يَتَّبِعْتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: ٤٤]، فالشيطان أصل الضلال، والله أعلم.

﴿وَحَرَقُوا لَهُ، بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ كقول النصارى بنوّة عيسى، وقول المشركين: إن

الملائكة بنات الله، وخرقوا: اختلقوا كذبًا وزورًا.

﴿بَدِيعُ السَّمَنَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعها، وموجدتها من العدم.

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أي: لا تحيط به الأبصار لعظمته وجبروته، وأما رؤية الآخرين،
فهي رؤية تليق بجلاله وعظمته، ومقتضى الرؤية غير مقتضى الإدراك، والله أعلم.
﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ مجاز في مجانبه الحق والصدق عنه.

﴿وَلْيَقُولُوا دَرَسَتْ﴾ هي تهمة لإنكار الوحي، كأنهم ينسبون القرآن إلى علم بشري كسبي
منسوب لحبر أو كاهن.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ هي مشيئة المطلقة التي أتاحت للإنسان حرية الاختيار، وبهذا
يفوز أو يخسر، ولو شاء الله لجعلنا ملائكة بلا تكليف ولا اختبار، وليس في الآية مُتَنَفِّسٌ
لأهل الجبر الذين يظنون أن الله أجبر الكافرين على كفرهم، فهذا مُنافٍ لحكمة الخلق.
ولحكمة التكليف والابتلاء.

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصُرُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَلَكَّمْهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِلصَّغِيِّ إِلَيْهِ أَفْعَادُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتِغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُعْتَدِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِنْ تُطِيعِ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظِلْهَرِ الْأَيْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِيمَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّاطِطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجْنِدُواكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوْ مِنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ هُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

طرق الغواية والضلال

بعد بيان القرآن لصلة الوحي بالحياة، وحاجة البشرية إلى الهداية الربانية، صار من المناسب ذكر الأسباب التي دفعت بكثير من البشر إلى المروق عن جادة الوحي هذه، وعن طريق السعادة الدائمة في حياتي الدنيا والآخرة، ومن ذلك:

أولاً: الجهل، وهو عدو الإنسان الأول، وهو أساس كل غواية وشر ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾. ثانياً: الطغيان، وهو حالة نفسية مرضية تدفع بالإنسان إلى أن يتعالى ويتكبر على الحق حتى لو كان فيه منفعة، كتكبر المريض على الدواء، ومُعاداته للطبيب الحريص على شفائه، ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾، ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾. ثالثاً: العناد، وهو قرين الطغيان، فقد يتبنى المرء فكرة ما، فإذا تبين له أن الحق بخلافها صعب عليه التراجع، وغالبًا ما يكون هذا في الذين يظنون بأنفسهم العلم ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَىٰ يَتِمْ الْمَلِكِ كَةً وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

رابعاً: الهوى، واتباع المصالح الشخصية والفئوية القاصرة ﴿وَإِنْ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ﴾. خامساً: الكذب، وهو عام في تزيف الحقائق، وتحريف الكتاب، والبعد عن طريق الصدق والأمانة العلمية في البحث والحوار ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾، ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

سادساً: تزوين الباطل ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾ ونسبة التزوين إلى الله هو نسبة إلى الأسباب التي أودعها الله في هذا الكون، والتي هي بمتناول البشر، إن شاءوا أخذوا بأسباب السعادة، وإن شاءوا أخذوا بأسباب الهلاك، فالله خالق كل شيء، والإنسان يميز ويختار، وهو يتحمل مسؤولية اختياره.

سابعًا: تعاوُن أهل الباطل في باطلهم ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾، ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّدَ لَكُمْ﴾.

ثامنًا: اتباع الأكثرية وغوغائية الجماهير التائهة دون تبصُّر ولا دراية ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّوكَ بِأَهْوَاءِهِمْ﴾.

ولا يظنُّ ظانٌّ أن في هذا تزكية لما عليه الأقلية؛ إذ لو كان كذلك للزم اتباع الأقلية في كلِّ خلاف، وإنما يجري التنبيه على الأكثرية؛ لأنه المعتاد في السلوك البشري أن يتأثر الناس بالرأي العام، والعرف السائد.

والقرآن يُرشدنا إلى أن المعرفة الصحيحة إنما تكون بالحجة والدليل لا بأقلية ولا بأكثرية، أما تعبير الناس عن رغباتهم ومطالبهم في دائرة الخيارات المشروعة، فلا شك أن حكم الأغلبية راجح، والله أعلم.

تاسعًا: الذنوب، فكلما انغمس المرء في مخالفاته وشهواته كان أبعد عن طريق المعرفة، فإن العلم نورٌ، والذنوب تحجب القلب عن هذا النور، كما قالوا: ونورُ الله لا يُؤتَى لعاصٍ؛ ولذا جاء التذكير هنا: ﴿وَذَرُوا ظِلْهَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾.

فهذه الذنوب تُورِثُ القسوة، وتلبّد على القلوب فتمنعها من النظرة الصحيحة السليمة ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ النهي عن سب الأصنام والآلهة المزيّفة؛ كي لا تكون سبباً في استفزاز مُتَّبِعِيهَا على مسبّة الله، وفي هذا عدوان على الذات الإلهية سببه الأول سوء تصرّف المسلم مع الآخرين.

وفيه إبعاد لأولئك عن السماع لقول الحق من حيث نحن مكلفون بدعوتهم وهدايتهم.

وفيه منهجية البحث عن مآلات الأقوال والتصرّفات وإن كانت في ذاتها مشروعة.

﴿وَنَقْلِبُ أَعْيُنَهُمْ وَابْصُرْهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إشارة إلى أن الذنب الأول يقود إلى الذنب الثاني، وأن الذي اعتاد التكبر عن الحق سيتكبر عنه في كلّ مرّة، وأن علامة الخير وحسن الخاتمة اتباع العلم والهدى بلا عنادٍ ولا تكبر، فهذا دليل الصدق مع النفس، وهو أساس الهداية.

وتقليب الأفتدة والأبصار معناه: الشعور بالاضطراب والتردّد بين قبول الحق الذي يراه وبين دواعي النفس الداخلية في الصدود والمكابرة والمعاندة.

﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ العمه هو الضلال والحيرة والتخبّط، كالأعمى الذي لا يجد دليلاً، ولا يهتدي سبيلاً، والصلة بين الطغيان والعمه صلة سببية، فالطغيان أصل التيه والضلال، بخلاف التواضع الذي هو أصل كلّ خير.

﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ أي: لو جاءتهم كلّ الآيات، ولو أتيناهم بكلّ الخلق ليشهدوا لهم بالحق لما اتبعوا الحق؛ ذلك لأن هؤلاء لا تنقصهم المعرفة، بل هم طغاة معاندون متكبرون.

﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ دليل أن الشيطان وصف يدخل في كلّ جنس، فما خُبث من جني وإنس وحيوان فهو شيطان، وتفسيره بحسب السياق، ومن هذا القبيل وصف الكلب

الأسود بأنه شيطان، فهو بهذا المعنى لا أنه مختلف عن جنس الكلاب، بدليل أنه لو ولغ في الإناء فظهوره الماء والتراب كسائر الكلاب.

﴿وَلِنَصْغِي إِلَيْهِ أَفْعِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: تميل هذه الأفئدة إلى وحي الشياطين؛ لأنها مغلفة بشهوات الدنيا، فلا ترى أبعد من هذه الشهوات، أما التفكير بالحياة وما قبلها وما بعدها فهذا شأن القلوب الحية، والعقول المتحررة من هذه القيود.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ صدق في الخبر، وعدل في الحكم، وهذه ميزة الوحي عن تصورات البشر وقوانينهم، فالبشر يظنون ويخرصون، وقد يتعمدون الكذب دفعًا لضرر، أو جلبًا لنفع، والبشر يظلمون لهذه الأسباب أيضًا، فما الذي يدفع الوحي إلى مثل هذا السلوك، وهو من الله العليم بكل شيء، والغني عن كل شيء؟!

وهذه الحقيقة الكبيرة جاءت تفسيرًا وتدليلًا لفحوى السؤال الاستنكاري المتقدم: ﴿أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَبْتَغَى حَكْمًا﴾.

﴿يَخْرُصُونَ﴾ الخرص هو الحزر والتخمين بلا بينة ولا دليل.

﴿فَكُلُّوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ من الذبائح التي لم تقدم للأصنام، وكذا المحرمات التي ليست على هدي الله كالدم والميتة والخنزير، ثم استثنى منها: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ لحفظ الحياة؛ لأن مفسدة تناول المحرمات أقل في ميزان الله من هلاك النفس بسبب الجوع أو الظمأ.

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ إشارة أن مساحة العفو المباح هي الأصل، فما لم يفصل في ديوان المحرمات فهو مباح، ورد به دليل معين أو لم يرد.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ إثم الظاهر ما يراه الناس ويطلعون عليه، وهذا النوع فيه العدوان على حُرُمات الله وعلى مشاعر المسلمين، أما الإثم الثاني فهو الذي يُخفيه المذنب عن الناس حياءً منهم، أو طمعًا في الوجاهة بين المسلمين، وهذا الإثم إن كان لضعف في الإرادة

وقلة في العزم فهو أهون من الأول؛ لأن المجاهرة دليل الوقاحة، وقلة الحياء، أما إن كان مكرًا ونفاقًا وكيدًا بالمسلمين فهذا أخطر من الأول، والله أعلم.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ فيه التفريق بين المعصية التي مؤداها الفسق، وبين طاعة الطاغوت التي مؤداها الشرك، فالواقع في الإثم مع استشعاره الإثم لا يخرج من الدين، لكن من فضل قانون البشر على قانون الله رغبة وقناعة وطاعة فهذا مُخْرِجٌ من الدين بلا ريب، فمن أكل الربا مثلاً حُبًّا في المال فهو فاسقٌ آثم، بخلاف ذاك الذي يدافع عن الربا ويستنكر تحريمه مع علمه بقطعية التحريم، فهو كافرٌ خارجٌ من الدين.

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فاختيارُ الرسل إنما يكون بعلم الله وحكمته، لا على مقاييس البشر وتصوراتهم.

﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ هو الذلة والمهانة التي تناسب طيشتهم وغرورهم وتكبرهم.

﴿ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ فالذي يحاول الصعود على الشواحق يشعر بالخوف والقلق وضيق النفس، وهو تشبيهٌ لحال المتكبر المتعالي على الحق، فهو يشعر بالضيق والخرج عند سماعه للحق والحجة والبرهان.

وقد أثبت العلم الحديث أن الصاعد في طبقات الفضاء بطائرة أو مركبة يختلُّ عنده الضغط الجوي، فيشعر بضيق في الصدر، وصعوبة في التنفس.

﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ تأكيدٌ للصراط المستقيم الذي هو طريق الذين أنعم الله عليهم من المؤمنين الصادقين، غير المغضوب عليهم بسبب عنادهم وكبرهم، أو الضالين بسبب جهلهم وتقصيرهم في طلب العلم، وهذا الصراط المستقيم هو الموصل إلى السعادة الأبدية ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنُّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوٍ لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُذِذُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تَوْعَدُونَ لَأَتِي وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَيْكَ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُزِدُوهُمْ وَلِيَلْسِنُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِدُكُونِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

نماذج من العمه والضلال

الانحراف عن الصراط المستقيم يُوقِع المرء في حالة من التخبط والعمه في تصوراتهِ وسلوكياته وعلاقاتهِ الحياتية والاجتماعية؛ ذلك لأنه فقد الدليل الموجّه والنور الذي أنزله الله مُبدِع هذه الحياة وخالق مفرداتها وجزئياتها، وهنا يعرض القرآن لنماذج من هذا العمه:

أولاً: التصورات الخاطئة عن الجن وطريقة التعامل معهم؛ حيث لم يكن هذا عن علم، لأن معارف الناس في هذا مغلقة، فلا سبيل إلى مثل هذه العوالم الغيبية إلا الوحي، ومع كفرهم بالوحي وإعراضهم عنه سيكونون نهبا للخرافة، وفي هذا يقول القرآن: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أي: أضللتهم منهم كثيرا فصاروا أعوانا لكم، وأتباعا لنزواتكم ﴿وَقَالَ أَوْلِيَائُهُم مِّنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ والاستمتاع حصول المتعة والمنفعة المتبادلة، وهي هنا منفعة آنية؛ فمردة الجن يشعرون بالغلبة والتسلط حينما يتوسل بهم الإنس ويقدمون لهم النُّسك والقرايين، ومردة الإنس يُيَمِّنُونَ على ضِعَاف النفوس ويسلبون منهم أموالهم بالدجل والسحر والشعوذة.

ثانياً: الغرور بما نالوه من ذلك الاستمتاع حتى صدَّهم هذا الغرور عن كلمة الحق، فتمادوا في كفرهم وظلمهم ﴿وَعَزَّيْتَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِم أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾. ثالثاً: التلاعب بأموال الناس وصرفها في غير وجهها، فمرة يأكلونها باسم الله، ومرة يأكلونها باسم الأوثان ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، وهذا من تمام ضلالهم أنهم يحتاطون في شركهم لجانب الأوثان، فكلُّ ما التبس بين حقِّ الله - بزعمهم - وحقِّ الأوثان صرَّفوه للأوثان.

رابعاً: التحليل والتحريم بلا دليل ولا حجة، وإنما هو الهوى واتباع العادات والخرافات الباطلة ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِّثُ حِجْرٍ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ﴾.

خامسًا: قتل الأولاد خشية الإملاق ونقص الرزق، أو خوفًا من العار ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ الْكَثِيرِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ﴾، ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾.

سادسًا: تمييز الذكر عن الأنثى في الأكل من لحوم الأنعام ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّمَّنَّاهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾. هذه النماذج الصارخة تدلُّ على مستوى الانحراف والشذوذ الذي يمكن أن تهوي فيه المجتمعات البشرية حين تتخلى عن هدي النبوة، وتزيغ عن الصراط المستقيم.

دقائق التفسير

﴿أَسْتَكَثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ جعلتم كثيرًا منهم أعاونًا لكم في الضلالة والسحر والشعوذة. ﴿أَسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ تبادل الخدمات والمصالح الآتية والمتاع الزائل. ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ ظاهرٌ في بعثة الرسل من الجن ومن الإنس، والاكتفاء بهذا الظاهر أولى من الدخول في المجادلات والتأويلات؛ لأنها مسألة غيبية بحثة لا ينبغي عليها عمل، كما أن معنى الرسل في الجن ليس بالضرورة أن يكون كمعناه في الإنس، كما أن هذا الخبر لا يؤخذ بمعزلٍ عن الأخبار الأخرى، ومنها: أن نقرأ من الجن قد استمعوا للقرآن فقادهم هذا الاستماع إلى الإيمان، وهذه قرينة أنهم مخاطبون بهذه الرسالة، والله أعلم.

﴿ذَلِكَ أَنْ لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفِلُونَ﴾ أصلٌ في أن الله لا يعاقب غافلاً لم تبلغه الدعوة الصحيحة، فلا عقوبة قبل إرسال الرسل وتبيين الشرائع؛ لأن هذه العقوبة ستكون عقوبة ظالمة، والله منزّه عن الظلم، وعليه فلا معنى للجدل حول مصير الشعوب التي لا ندري أبلغتها الدعوة أم لا، ولو ببلغتها فلا ندري هل الذي بلغهم كان عالمًا بها

وناصِحًا أمينًا أو لا؟ فالأولى الاهتمام بواجب الدعوة، وترك الأحكام الأخروية التي لا يعلمها إلا الله.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ لأنه غنيٌّ، فهو ليس بحاجة إلى الظلم كحال المتنافسين على متاع الدنيا وزينتها، ولأنه ذو الرحمة فهو لا يحبُّ الظلم، ولا يرى فيه ما يراه الجبابة من لذة السطوة والاستعلاء على الضعفاء والفقراء، وهاتان الصفتان الإلهيتان اقترنتا في هذا الموضع لتنفياً عن الله الظلم بكل أشكاله ودوافعه.

﴿قُلْ بِقَوْمٍ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ فيه وعيدٌ وتهديدٌ شديدٌ، كأنه يقول: اعملوا ما شئتم، وابقوا على ضلالكم وعنادكم وسوف تعلمون، وفيه أيضاً مقابلة العمل بالعمل، فأعمال الشرِّ والكيد للإسلام لا بدَّ أن يقابلها عملٌ يكافئها قوةً، ويخالفها منهجاً ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ ولم يقل: إني داعٍ أو منتظرٍ لقدرة الله وعقابه لكم، فالعمل مسؤوليته، ومن قَصُر في العمل لم يُسَعِفْه القدر.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ وهذا من جهلهم وظلمهم، فكيف يُعطى للأوثان نصيبٌ من القرايين أنعاماً وثماراً وهذه الأوثان ليس لها نصيبٌ في خلق هذه الأنعام، ولا هذه الزروع والأشجار؟! فالله وحده هو الذي ذرأها وخلقها وسخرها لهذا الإنسان.

﴿فَمَا كَانُوا لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانُوا لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ فهم لم يكتفوا بالقسمة الظالمة الكافرة؛ بل كانوا يميلون على نصيب الله فيأخذون منه، ويتساهلون فيه ما لا يأخذونه، أو يتساهلون فيه من نصيب الأوثان، وإذا اختلط هذا بهذا احتاطوا للأوثان أكثر، وهذا السلوك يذكره القرآن نموذجاً لحالة الجهل وانعدام الموازين في المجتمعات البشرية التي تتخلَّى عن الوحي.

﴿وَلَيْسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ وهو هدفٌ كبيرٌ من أهداف الباطل؛ إذ التدنُّنُ فطرة مغروزة في النفوس لا يمكن اقتلاعه أو محوه؛ ولذلك كان التحريف والتلبس أسر وأقرب، وهذه معضلة بشرية عامة في مجال التصورات والسلوكيات الدينية.

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرِّثُ حِجْرًا لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ هو نوعٌ من الظلم مُلتبسٌ باسم الدين، كما هو ديدن الكهنة والسدنة الذين يتحكّمون بالموارد الدينية وبيع بعض أموال الناس من حرثٍ ونعمٍ بلا حقٍّ ولا حُجّة.

﴿وَأَنْعَمُ حَرَمَتٌ ظُهُورُهَا﴾ أي: حرّموا على الناس ركوبها كجزءٍ من شهوة التحكم في أموال الناس وتصرفاتهم.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ الظاهر أنه الجنين الذي يُخرج من بطن أمه بعد ذكاتها، فإن خرج حيًّا فهو للرجال خاصة، وإن خرج ميتًا فالرجال شركاء مع النساء! وهذا نموذجٌ للظلم الاجتماعي، الذي يتجاوز في بعض الأحيان هذا التمييز الغذائي إلى التصفية الجسدية كما في الآية التالية.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ المعروف في الجاهلية أنهم كانوا يثدّون البنات خشية الإملاق، أو خوف العار، لكن الآية تُشير إلى قتلٍ آخر مُلتبسٍ بالدين ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ وكأنهم يتقرّبون بهذا القتل إلى الله، وربما كان هذا في بعض النذور الآثمة، وفي حالات مخصوصة، كما في قصة عبد الله والد النبي ﷺ، والله أعلم.

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتِ مُتَشَكِّبًا وَغَيْرَ مُتَشَكِّبٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١١١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿ ١١٢ ﴾ تَمَنِّيَ أَرْوَجُ مِنَ الضَّانِّ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلْ مَالِ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَحْنُوهُ بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ ١١٣ ﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ مَالِ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيَكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿ ١١٤ ﴾ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ ١١٥ ﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿ ١١٦ ﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿ ١١٧ ﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿ ١١٨ ﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ ١١٩ ﴾ قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿ ١٢٠ ﴾

الشريعة السَّمِحة

في مُقابِل الخرافة التي تُلَفُّ المجتمع الجاهلي في التصور والسلوك والمعتقد يُقدِّم القرآن الصورة الثانية، صورة المجتمع المؤمن الذي تحكمه شريعة الوحي، وفيها مُقارنة ومُحاجة للتصورات والمفاهيم الجاهلية:

أولاً: إن الذي خلق الحرث والنعم هو الله وحده ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾، ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾.

ثانياً: إن الله خلق هذا كله للإنسان قوتاً ومتعة وزينة ﴿ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾، ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾.

ثالثاً: إن الأصل في كل هذا الإباحة المطلقة، وأن التحريم مخصوص بأدلة ظاهرة ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ وهذا التخصيص على قلته مخصوص بقواعد الضرورة ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

رابعاً: إن الذي حرّمه الله على يهود إنما كان على سبيل العقوبة المحدودة زماناً ومكاناً وحالاً، وليست تشريعاً خالداً ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ﴾، ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَهُم بِغَيْرِهِمْ ﴾ فهذه عقوبات لا تصلح للناسي ولا للقياس.

خامساً: إن الذي يحرم على الناس غير ما حرّمه الله مُطالب بالدليل، وإلا كان كاذباً مفترياً على الله ﴿ قُلْ أَلَذَّكَّرِينَ حَرَّمَ أَمْ الْأَنْثَيْنِ أَمْ أَلْأُنثَيْنِ ﴾ أَمَا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ نِيَّوْنِي يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿، أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾، ﴿ قُلْ هَلُمُّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ وهذه التأكيدات تبين خطورة التحريم والتضييق على الناس بغير وجه حق، وهذا من تمام سماحة هذه الشريعة ومنهجها المنبثق من رحمة الله العامة الشاملة.

سادساً: إن مقابل هذه النعم هناك حق يؤديه المؤسرون للمُعسرين، والمتنعمون للمحرورين محبةً ورحمةً وتكافلاً يتقرب به العبد من معبوده، ثم من قلب أخيه ﴿ وَءَاتُوا

حَقَّهُ، يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ» لأن الإسراف مُضِرٌّ بالنفس، ومُضِرٌّ بالثروة العامة، ومُضِرٌّ بعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، فالإسراف المبالغ به رياءً وكبراً وتميُّزاً مع وجود الجوعى والمحرومين يضرُّ بالبنية التركيبية للمجتمع، ويثيرُ الحسدَ والنفرةَ والأعمال السيئة؛ كالسرقة والرشوة ونحوهما.

يلاحظ هنا أن القرآن لم يعرض للعلاقة بين الجن والإنس مع أنه أثارها في المشهد السابق حينما تكلم عن عمه المجتمع الجاهلي وضلاله، أما في المجتمع الإسلامي فالأصل أن لا علاقة، فالجنُّ عالمٌ غيبيٌّ نؤمنُ بخبر الوحي فيه، ولسنا مُكَلَّفِينَ تجاههم بأيِّ تكليف، أما مسألة الواد وقتل الأولاد فقد ردّها القرآن في موضعها، وبينَ زيفها وبطلانها.

دقائق التفسير

﴿مَعْرُوشَتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَتٍ﴾ الشجر منه ما يصلح أن يكون على هيئة العريش فيوفر ظلالاً واسعة؛ كشجرة الكرم، ومنه ما لا يصلح لهذا، والناس في العادة لا يحتاجون إلى أكثر من عريشٍ واحدٍ في البستان، والآية تُنبِّه إلى فائدة جانبية لبعض الأشجار غير الثمر، وهي الظلال الجميلة، وما يكون تحتها من أنس وراحة وصلة.

﴿مُتَشَكِّهَا وَغَيْرَ مُتَشَكِّهِ﴾ منظره العام متقارب خُصرةً وظلالاً، وأما ثماره فمختلفة الطعم والشكل والرائحة.

﴿وَأَتُوا حَقَّهُ، يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ﴾ الحقُّ: الزكاة، وكلُّ صدقةٍ واجبة كالنذر والنفقة اللازمة، وفيه معنى المبادرة والمصارعة في الخيرات.

﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أي: في الأكل، والإسرافُ: مجاوزةُ الحدِّ في الاستهلاك، وفيه من الضرر ما فيه، كما تقدّم.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءٌ كُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ ذكر ثلاث فوائد للأنعام؛
الحمولة كالإبل والخيول والبغال والحمير وكل حيوان معد للحمول ونقل المتاع، والفرش ما
يتخذه الناس للجلوس والنوم من الوبر والصوف والشعر، والأكل وهو شامل للحم
واللبن، والله أعلم.

﴿دَمًا مَسْفُوحًا﴾ هو الدم الخارج من الذبيحة بخلاف الدم المتبقي في عروق اللحم.
﴿لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾ أطلق اللحم وأراد كل ما يتصل به من شحمٍ وعظمٍ وكبدٍ وغضروفٍ،
فكل هذا حرام أكله.

﴿أَهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ هي النذور والقرايين المقدمة لغير الله، سواء قدمت لصنمٍ أو نصبٍ
أو قبرٍ، وما إلى ذلك.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ في هذه الآية ذكر ما حرّمه الله على
اليهود من الأنعام عقوبة لهم، فهو ليس من شريعتنا قطعاً، فلا حاجة للخوض في تفاصيل
معانيها وأحكامها.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ هو نوعٌ من الاحتجاج بالقدر، وهو
احتجاجٌ باطلٌ، فالحجة للأمر والنهي، وأما القدر فنؤمن به ولا نحتج به، نؤمن به مع إيماننا
المطلق بحكمته ورحمته وعدله وتنزهه سبحانه عن الظلم.

﴿تَخْرُصُونَ﴾ تخزرون وتخمنون بلا دليل.

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنزِلْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَمَلِيٍّ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَنَٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعَهْدُ بِالْقَاسِ لَا يَكْفِ نُفْسًا إِلَّا أَوْسَعُهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَيَهْدِي اللَّهُ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَنَٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَنَٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ الْمُنْظَرُونَ إِنَّا نُنْظَرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنِّي هَدَىٰ رَبِّيَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِّي رِيبًا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلْقَ الْأَرْضَ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾

وصايا عشر وتوجيهات ختامية

في خواتيم هذه السورة جاءت التوجيهات الربانية لتلخص الصورة التي ينبغي أن تكون عليها الأمة المسلمة مُستهدية بالوحي، ومستفيدة من تجارب الأسبقين، وقد تصدرت هذه التوجيهات عشر وصايا وهي:

أولاً: ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ التوحيد.

ثانياً: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ بر الوالدين.

ثالثاً: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ الحفاظ على حياة الأولاد.

رابعاً: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ النهي عن الزنا ومقدماته.

خامساً: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الحفاظ على حياة الناس.

سادساً: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الحفاظ على أموال اليتامى.

سابعاً: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ العدل وحفظ أموال الناس وحقوقهم.

ثامناً: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أمانة القول وعدالة الحكم والشهادة.

تاسعاً: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ الوفاء بالعهد.

عاشراً: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾

الوحدة والثبات على الطريق المستقيم.

وجاءت تسميتها بالوصايا لتكرار كلمة: ﴿ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ﴾ مما يشعر بأهميتها

وخطورتها في حياة المسلمين.

ومما يُثار هنا مدى صلة هذه الوصايا بالوصايا التوراتية العشر المقدسة عند اليهود إلى

اليوم، وبمنظرة علمية موضوعية يمكن تسجيل الملاحظات الآتية:

أولاً: هناك تشابه وتقارب كبير بين المنظومتين، فكلاهما تركزان على التوحيد والأخلاق

وبر الوالدين، والعدل والحفاظ على حقوق الناس وأموالهم.

ثانياً: لا مانع أن تكون هذه الوصايا مما بقيَ على حاله في التوراة دون تحريف، فنورُ

الوحي فيها ظاهر، واتّساقها مع وصايا القرآن شاهدٌ على ذلك.

ثالثًا: التشابه بين الكتب السماوية أصلٌ بحكم وحدانية مصدرها ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ﴾ [الشورى: ١٣]، وهذه الوصايا مثالٌ واضح لتجسيد هذه الحقيقة.

رابعًا: إن سورة الأنعام نفسها قد عَقَّبَتْ مباشرةً بعد سرد الوصايا العشر بالقول: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ ثم وصفت القرآن بهذه الأوصاف أيضًا ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ وفي هذا إشارات لا تخفى عن مدى التشابه بين الكتابين بشكلٍ عام، وفي هذه الوصايا بالذات بدلالة السياق، والله أعلم.

بعد هذه الوصايا العشر جاء التأكيد لعددٍ من الحقائق الإيمانية والتاريخية والتي تتجه كلها لبناء شخصية الأمة وتمييز هويتها:

أولًا: إن البشر كلهم سائرُونَ إلى مصيرهم المحتوم، فالدنيا إلى زوال، وهناك يفوز المؤمنون بإيمانهم، ويؤوء الكافرون بعاقبة كفرهم وظلمهم ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَنِهَا خَيْرًا ﴾.

ثانيًا: إن دين الله واحد في أصله وجوهره وغايته، وإنما جاءت التفرقة بالتحريف والتحزب واتباع الهوى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾، ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

ثالثًا: إن ميزان الحساب واحدٌ بين جميع البشر: العدل والفضل ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾، ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ ﴾.

رابعًا: إن التفاوت في الرزق وغيره على هذه الأرض لا ينافي العدل؛ لأن هذه الأرض دار اختبار لا دار جزاء، والله يبلو هذا بذاك وذاك بهذا، الغني بالفقير، والفقير بالغني، والقوي بالضعيف، والضعيف بالقوي، وهكذا ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلِيفَةَ الْأَرْضَ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَاءِ آتَانِكُمْ﴾.

خامسًا: إن المسلم موصول بالله في كل حركاته وسكناته، وخلواته وجلواته ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٢) لا شريك له. سادسًا: إن التوحيد هو أساس الدين، وأساس كل خير، وهو الذي يحقق الانسجام بين الإنسان وفطرته من الداخل، وبينه وبين هذا الكون الفسيح أيضًا ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ بَنِيَّ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ شاملًا لكل معاني البر، من قولٍ وعملٍ ونيةٍ ورعايةٍ ومتابعةٍ ومبادرةٍ، مع كامل المودة، وكبير الاحترام.

﴿مَنْ إِمْلَقٍ﴾ هو الجوع الواقع الذي يجعل بعض النفوس الضعيفة تُضحي بأولادها للتخفيف من وطأته وشدته.

﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ القبائح المنكرة، وأكثر استعمال الفاحشة في الزنا، وقال: لا تقربوا؛ تنبيهًا إلى ترك كل ما يُفضي أو يؤدي إليه؛ من نظرة، وكلمة، وخلوة، وملامسة، وخضوع في القول أو الفعل.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كل نفس مؤمنة أو كافرة، فحياة الإنسان مُصانة إلا في ميدان القتال، أو ساحة القضاء، والأول للإمام أو نائبه، والثاني للقاضي بشروطه وأدلته، وهذا كله مفصل في مظانّه من كتب الفقه.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: ما فيه مصلحة اليتيم من بيع أو شراء أو نفقة، والأصل تحريم التصرف فيه، والقرب منه.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ نص في الأموال المكيلة والموزونة، ويُقاس عليها المعداد ونحوه، وإشارة في كل حق مادي أو معنوي.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أصل في الحكم والشهادة، ويقاس عليها كل قول بين اثنين أو رأيين أو خبرين، وهكذا.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ دلالة أن الابتعاد عن الصراط المستقيم يؤدي بالضرورة إلى التفرق والاختلاف.

﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أي: أنه كتاب كامل الهداية يدعو لكل فضيلة وخير، وينهى عن كل رذيلة وشر، وهذا الإتمام مناسب للمُحسِنين الراغبين في الهداية، والباحثين عن الحق، فهو كافٍهم هدى وحكمة ونورا في كل ما يحتاجون إليه من عقائد وشرائع.

﴿يَصْدِقُونَ عَنَّا إِنَّا﴾ يعرضون عنها.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ إشارة إلى قرب القيامة وشرائطها وأحوالها، وما ينتظر الناس بعدها من حساب وثواب وعقاب، وأن ﴿يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ هو خبر حاصل على ما يليق به من غير نقص ولا تشبيه ولا زوال، أما مجيء المخلوق فهو لحاجة؛ إذ لا يمكنه التصرف في مكانين إلا بالانتقال من أحدهما إلى الآخر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ تفريق الدين غير الاجتهاد في فهم الدين، فالأول يكون بهدم أصوله وثوابته وأحكامه القطعية؛ وبذلك يتفرق الناس على أديان مختلفة ومتناقضة، والثاني يكون بإعمال العقل في استنباط الأحكام الدقيقة والمعاني اللطيفة، فتعدد المدارس والمذاهب في تعددية ثرية وحيوية، وهذا ما عرفتُه الأمة أيام أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم من أهل الفقه والحديث والتفسير واللغة والتاريخ.

﴿دِينًا قِيمًا﴾ فيه معنى الثبات والاعتدال من القيام اللازم، أو بمعنى القيام بشؤون الناس، والإجابة عن أسئلتهم واحتياجاتهم الدينية تمامًا من غير نقص، وبيانًا من غير إبهام، وكلُّ هذه المعاني صحيحة ويحتملها اللفظ، والله أعلم.

﴿قُلْ إِن صَلَائِي وَنُفْسِي وَحَيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه ردُّ على من فصل بين شؤون العبادة وأمور الحياة، فالمسلم خاضع لله مُتَّصِلٌ به في كلِّ شؤونه الحياتية والدينية، الفردية والجماعية، الدنيوية والأخروية.

﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأمة بعد فترة الرسل؛ حيث جاء ﷺ ليؤسس الأمة الجديدة على هذه الأرض، وإن كان امتدادها الديني مُتَّصِلًا بإبراهيم وبنوح وبآدم ﷺ.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي: لا تحمل نفس ذنب غيرها، بل كلُّ يحمل ذنبه.

﴿خَلَقْتُ الْآرْضَ﴾ جيلًا بعد جيل.

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

المجلس الثالث والستون: درس الحياة الأول

المجلس الرابع والستون: يا بني آدم .. خطاب الإنسانية والفتنة

المجلس الخامس والستون: حوارات في دار الجزاء

المجلس السادس والستون: دعوة المرسلين من محمد إلى نوح عليه السلام

المجلس السابع والستون: هود وصالح عليهما السلام

المجلس الثامن والستون: لوط وشعيب عليهما السلام

المجلس التاسع والستون: النبوة في مواجهة السحر

المجلس السبعون: الصراع المفتوح مع فرعون وملئه

المجلس الحادي والسبعون: قيادة موسى عليه السلام لقومه بعد هلاك فرعون

المجلس الثاني والسبعون: الخطاب القرآني لليهود

المجلس الثالث والسبعون: سبيل الهداية وأسباب الضلال

المجلس الرابع والسبعون: تلخيص وتوجيهات ختامية

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿الْقَمَرِ﴾ ١ كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ وَيُذَكِّرَ لِلْمُؤْمِنِينَ ٢ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣ وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ٤ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ٥ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ٦ فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعَلَمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ٧ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٨ وَمَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ٩ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ١٠ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّن السَّاجِدِينَ ١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ١٢ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ١٣ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ١٥ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِّي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَا يَنبَغِي لَهُمْ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ وَمِن خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرُهُمْ شَاكِرِينَ ١٧ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمِن يَعْصِكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ١٨ وَيَتَادَمُّ اسْتَكْبَارُكَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكَلَا مِنْ حَيْثُ يَشْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ١٩ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءِيهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ٢٠ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنَاصِحٌ حَقٌّ ٢١ فَدَلَّهُمَا بِفُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٢٢ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٢٣ قَالَا اهْبِطَا بَعْضُكُمَا لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ٢٤ قَالُوا فِيهَا نَحْيُونَ وَفِيهَا نَمُوتُونَ وَمِنْهَا نُخْرَجُونَ ٢٥﴾

درس الحياة الأولى

تناولت سورة الأعراف قصة الخلق الأولى والنموذج الأول لصراع الحق والباطل؛ حيث كان آدم وحواء يواجهان إبليس في تجربة فريدة قُدِّر لها أن تؤسِّس لخط المعركة الممتدة بين الفريقين من تلك الساعة حتى قيام الساعة.

وقد مهدت سورة الأعراف بجملة من الحقائق والمبادئ قبل الدخول في جوهر القصة:

أولاً: ﴿كِتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ هذا الاستهلال يُوحى بأهمية القصة، ويُلقى في النفس الطمأنينة التامة بصدقها وثبوتها، كما هو الشأن في كل خير أو توجيه يرد في هذا الكتاب العزيز، فليس في هذا القرآن إلا الصدق والعدل والحق.

ثانياً: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ وهي الخطوة التالية للتصديق، فالعبرة دائماً لا تقف عند التصديق والتوثيق، بل لا بُدَّ من العمل وإلزام النفس بمقتضى ذلك التصديق.

والإشارة هنا أن آدم وزوجه قد أُخرجوا من الجنة؛ لأنها لم يقرنا بالإيمان بالعمل، ولا التصديق بالاتباع؛ حيث أكلَا من الشجرة التي نُهيَا عن الأكل منها.

ثالثاً: ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ ﴿١﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ تحذيرٌ ووعيدٌ لمن أخلَّ بواحدة من المقدمتين المتلازميتين؛ الإيمان والعمل، أو التصديق والاتباع، فمن كذب بالحق فقد ظلم، ومن حاد عنه بعلم فقد ظلم، وكلاهما مستوجب الهلاك، والعياذ بالله.

رابعاً: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ العدل في الحساب والجزاء، وهذه هي النتيجة النهائية لسلك الإنسان على هذه الأرض، فآدم وذريته أجمعون قد خُلِقُوا لهذا الاختبار والامتحان ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(١) وبعد ختم الأجل وغلق السجل ينتظر الناس نتائج أعمالهم: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٨﴾ وَمَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾.

(١) تكرر هذا النص الكريم في كتاب الله مرتين: سورة هود/ ٧، وسورة الملك/ ٢.

بعد هذه المقدمات يعرض القرآن لقصة الخلق الأولى، والدرس الأول الذي يؤصل لمصير البشر وانقسامهم الكلي، وطبيعة الصراع الدائر بين المعسكرين؛ معسكر الإيمان والعلم والعمل الصالح، ومعسكر الكفر والجهل والعمل الظالم الآثم، ويمكن تلخيص هذه القصة والمعاني المستنبطة منها في الآتي:

أولاً: أن الخلق لله والأمر له أيضاً، فالذي يخلق هو الذي يأمر، وهذه قاعدة متينة في التصور الإسلامي، والتي ينبنى عليها الربط بين الإيمان والعمل، وبين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾.

وأمر الملائكة بالسجود استتبعه أمر آدم وحواء بالابتعاد عن الشجرة، وأمر الله لخلقه من إنس وجان وملائكة إنما كان بحكم أنه هو الذي خلقهم ومنّ عليهم بالوجود الذي هو أصل لكل نعمة.

ثانياً: أن المأمورين بالسجود قد انقسموا؛ فمنهم من أطاع وهم الملائكة، ومنهم من عصى وهو إبليس ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ وهذه إشارة لما سيكون عليه الناس بعد أن يأتيهم الوحي ويتنزل عليهم الأمر.

ثالثاً: أن المعصية قد لا يكون سببها الكفر أو الجهل، فالنفس بحاجة إلى قوة ذاتية لتنفيذ ما اقتنعت به من حقوق وحقائق؛ إذ قد يحول بينها وبين التنفيذ عوائق الشهوة والكبر والحسد، وما إلى ذلك.

ومن هنا تأتي أهمية التزكية مع العلم، لترويض النفس على قبول الحق ولو كان بخلاف ما تشتهي، وهذا الذي أوقع إبليس في المعصية مع علمه ومعرفته اليقينية بالحق والحقيقة ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾.

رابعاً: أما معصية آدم وحواء فكانت درساً قدرياً لذريتهما إلى قيام الساعة أن أخطر ما يدفع الإنسان نحو المعصية إنما هو تزيينها وتسميتها بغير اسمها حتى يخادع الإنسان نفسه، ويغمض عينه ويتوهمها بصورة ثانية غير التي حرّمها الله، وفي أعماق النفس شهوة خفية للذة عابرة، أو مصلحة زائلة ﴿وَقَالَ مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّهُمَا بِفُرُورٍ ﴿٢٢﴾.

والإشارة هنا جليةٌ لمدى حبّ الإنسان للملك وخوفه من الموت، وهذان يعيشان مع الإنسان ما دام فيه نفس، إلا من رَحِمَ رَبُّكَ.

خامساً: أن المعصية تنزع عن الإنسان لباس التقوى الذي يجمّله هيبةً ووقاراً، فيتبدّل من حالٍ إلى حالٍ، يقسو قلبه، وتغلظ طباعه، ويقلّ حياؤه.

هذا هو شأن العصاة الذين تنكسر هيبة الله في قلوبهم فتضيع هيبتهم، ويهتكون ما بينهم وبين خالقهم فيهتك الله ما بينهم وبين الخلق، وقد كانت الصورة الحسيّة في ذلك الدرس والتي تعبّر عن كلّ هذه المعاني أن الله نزع عنها ما كان يُواري سوءاتها فور اقترافها للإثم وأكلها من الشجرة ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾.

سادساً: أن المعصية ليست نهاية المطاف، فربّ معصية أورثت ذلّاً وانكساراً وتوبةً؛ فأفلح بها صاحبها ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّآ تَغْفِرَ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وصورة آدم وزوجه وهما يُبادِرَانِ إلى ورق الجنة ليسُترا به سوءاتهما دليلٌ عمليٌّ على الندم والحياء، وهما من شروط التوبة، على خلاف معصية إبليس؛ حيث ابتعدَ بها أكثر عن كلّ معنى من معاني الحياء والأدب ﴿فِيمَا أَغْوَيْنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فنسب الغواية إلى الله، ثم أخذ يتوعّد من أمره الله بالسجود له أن يعمل على إيقاعه في أنواع المعصية ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾!

اللهم فلك الحمد ولك الشكر رغم أنف إبليس وما توعّد به.

سابعًا: أن المعصية الناتجة عن كبر واستعلاءٍ باطلٍ وإعجابٍ بالنفس لا تؤول في الغالب إلى الندم والتوبة، بخلاف المعصية الناتجة عن غفلةٍ أو شهوةٍ طارئةٍ، أو تضليلٍ وخداعٍ، فالأولى هي معصية إبليس، والثانية هي معصية آدم وزوجه.

ثامنًا: أن العداء بين آدم وذريته من ناحية، وبين إبليس وذريته من ناحية أخرى مُستمرٌّ على هذه الأرض إلى قيام الساعة، وهي معركة الوسوسة والتضليل وتزيين الباطل.

وهذا هو الدرس الذي كان الإنسان بحاجةٍ إليه ليعرف طبيعة الاختبار الذي كتبه الله عليه في هذه الحياة ﴿ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٢١) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ .

دقائق التفسير

﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ الحرج: الضيق، ويشمل كل ما يدعو الإنسان للتردد والشعور بالثقل، كالشك، وخوف العاقبة، وشدة المعارضة، ونحو ذلك مما يُواجهه كلُّ دعاة التغيير والإصلاح في كلِّ زمان وفي كلِّ مكان.

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ صيغة التكثر، بمعنى: أن كثيرًا من القرى قد استحقت الهلاك بظلمها وإعراضها عن سبيل الحق.

﴿بَيْنَا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ يأتيهم الهلاك في أوقات هُوهم وراحتهم، في غسق الليل، أو قيلولة الظهيرة.

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ يسأل الله الأقوام الذين امتنَّ عليهم برسالاته عن مدى استجابتهم لها وقيامهم بحَقِّها، ويسأل المرسلين عن حال هؤلاء الناس ليشهدوا عليهم شهادة الحق في يوم الحق عند الملك الحق ﷻ.

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ بعد استجواب الأقوام، ثم استنطاق الرسل للشهادة، يحكم الله بها يعلمه فيهم، وبما هو مُدَوَّن في كتاب كل واحد منهم من كبير أعمالهم وصغيرها، حتى مثقال الذرة من خير أو شر.

﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ بالحسنات.

﴿ خَلَقْتَكُمْ ثُمَّ صَوَّرْتَكُمْ ﴾ إفراد التصوير عن الخلق فيه تنبيه إلى دقة خلق الله وعنايته بهذا الإنسان، حتى كان بأجل صورة، وأحسن هيئة.

﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ دليل على أنه كان مأمورًا بالسجود معهم وإن لم يكن منهم.

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ حجة ربما كانت أقبح من الذنب نفسه، وهي طريقة المتكبرين في تبرير أخطائهم؛ حيث يصعب عليهم الاعتراف بالزلل والشطط مهما كان جرمه، ومهما كانت عاقبته. ﴿ قَالَ فَأَهِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ الصغار: الذل والمهانة، وهو العقوبة الأنسب للمتكبرين.

﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ أي: من المؤخرين إلى قيام الساعة؛ تحقيقاً لمعنى الاختبار والصراع الدائم بين معسكر الخير ومعسكر الشر.

﴿ لَا قَعْدَنَ لِمَنْ صَرَطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي: لأمنعهم عنه، ولأغرينهم بغيره يمينًا وشمالًا؛ ليكون مصيرهم مع المغضوب عليهم عنادًا وتكبرًا، أو مع الضالين الجاهلين الذين شغلَّتْهم الدنيا عن طلب العلم ومعرفة الحق.

﴿ ثُمَّ لَا تَنبَهُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾ تنبيه إلى تنوع مداخل الشيطان بالشبهة والشهوة والغفلة ونحوها، ومتابعته لابن آدم في كل أحواله صحته ومرضه، غناه وفقره، خلوته وجلوته، وهكذا، وليس المقصود بذلك الأمكنة والجهات المحسوسة، والله أعلم.

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ تنبيه إلى أهمية الشكر، وإشارة إلى أن سلوك طريق الحق عقيدة وشريعة وخلقا إنما هو لتحقيق معنى الشكر؛ ولذا قال في آية أخرى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا﴾ المذؤوم هو المغيب الذي غطاه عيبه، والمدحور هو المطرود المبعد.

﴿لِيُنَبِّئَ لَهَا مَا وُورِيَ عَنْهَا مِنْ سَوَاءٍ تَيْهًا﴾ كأنه كان عارفاً أنها إن أكلا من هذه الشجرة المحرمة نزع عنها سترها ولباسها، وغاية إبليس إحراجها وإهانتها حسداً على ما أنعم الله به عليهما من نعمة وكرامة.

﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ من القسم، وهو اليمين والحلف.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ هذه من أخبار الغيب التي لا يصلح معها اجتهاد، والخوض فيها هي عليه في عالم الغيب مجازفة لا توصل إلى علم، ولا تقود إلى نفع، فنوع الشجرة وعلاقتها بانكشاف العورة والورق الذي استعملاه في الخصف، كل هذه غيوب لا ندرك كنهها، أما العبرة منها فظاهرة ولا تخفى على متدبر.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ تحمّل المسؤولية، والاعتراف بالخطأ، وعدم التشبث بالأعذار القدرية، هذه علامات النجاح، وشرائط التوبة الصادقة.

﴿وَلَكُزْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَغَرٌّ وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ﴾ استقرارٌ نسبيٌّ ومؤقتٌ بقدر ما يتحقق الاختبار، ويتمايز المصلح عن المفسد.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ إشارة إلى أن الأرض هذه باقية حتى يبعث ما في بطنها من أموات، وأن الدمار الذي يلحقها عند قيام الساعة هو دمارٌ نسبيٌّ، وليس الفناء التام، والله أعلم.

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿يَبْنِيْ عَادَمَ قَدْ اَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤْوِيْ سَوْءَ تِكُمْ وَرِيْشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُوْنَ ۝٢٦٦﴾ يَبْنِيْ عَادَمَ لَا يَفْنِيَنَّكُمْ الشَّيْطٰنُ كَمَا اَخْرَجَ اٰبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَيْهِمَا ۚ اِنَّهٗ يَرِيْكُمْ هُوَ وَقَبِيْلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ اِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطٰنَ اَوْلِيَاۗءَ لِلَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ ۝٢٦٧﴾ وَاِذَا فَعَلُوْا فَحِشَةً قَالُوْا وَجَدْنَا عَلَيْنَا ءَاۡبَاءَنَا وَاللّٰهُ اَمْرًا يَّهَا قُلْ اِنَّ اللّٰهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ اَقْوُلُوْنَ عَلٰى اللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ۝٢٦٨﴾ قُلْ اَمَرَ رَبِّيْ بِالْقِسْطِ وَاَقِيْمُوْا وُجُوْهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوْهُ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُوْدُوْنَ ۝٢٦٩﴾ فَرِيقًا هَدٰى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلٰلَةُ اِنَّهُمْ اٰخَذُوْا الشَّيْطٰنَ اَوْلِيَاۗءَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ وَحَسَبُوْا اَنْهُمْ مُّهْتَدُوْنَ ۝٢٧٠﴾ يَبْنِيْ عَادَمَ خُذُوْا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا ۚ اِنَّهٗ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ ۝٢٧١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِيْنَةَ اللّٰهِ الَّتِيْ اَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِيْنَ اٰمَنُوْا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ كَذٰلِكَ نَفْصَلُ الْآيٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ ۝٢٧٢﴾ قُلْ اِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْاِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَاَنْ تُشْرِكُوْا بِاللّٰهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطٰنًا وَاَنْ تَقُوْلُوْا عَلٰى اللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ۝٢٧٣﴾ وَلِكُلِّ اُمَّةٍ اَجَلٌ ۚ فَاِذَا جَآءَ اَجْلُهُمْ لَا يَسْتَاْخِرُوْنَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُوْنَ ۝٢٧٤﴾ يَبْنِيْ عَادَمَ اِنَّمَا يٰتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقْضُوْنَ عَلَيْكُمْ ءَايٰتِيْ فَمِنْ اَتَقٰى وَاَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ ۝٢٧٥﴾ وَالَّذِيْنَ كَذَّبُوْا بِآيٰتِنَا وَاسْتَكْبَرُوْا عَنْهَا اُولٰٓئِكَ اَصْحٰبُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خٰلِدُوْنَ ۝٢٧٦﴾

يا بني آدم .. خطاب الإنسانية والفطرة

بعد قصة آدم وما دار بينه وبين عدوه قبل أن يهبطوا على هذه الأرض، جاء الخطاب القرآني:

﴿يَبْنِيْ عَادَمَ﴾ وهو الخطاب المتكرر والخالد والمباشر لكل آدمي يعيش على هذه الأرض حتى قيام الساعة، وقد تضمن الخطاب جملة من الوصايا والتوجيهات القريبة من وقائع القصة وأجوائها والدروس المستفادة منها:

أولاً: أن ستر الجسد باللباس الكاسي وحسن التجميل والتزين به هو من مظاهر الفطرة البشرية، ومن ثم جاء الخطاب عاماً لكل بني آدم ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ قَدْ اَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤْوِيْ سَوْءَ تِكُمْ وَرِيْشًا﴾، ولأهمية هذه الفطرة في حفظ كرامة الإنسان والمحافظة على نمط سلوكه العام استشهد فيها عدو الآدميين الأول ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَ تَيْهِمَا﴾.

وليس أدلّ على أن هذه فطرة بشرية عامة من توافق البشر على اختلاف أجناسهم وأديانهم على عدم مواجهة بعضهم بعضاً إلا بنوع من اللباس يطول أو يقصر، فالعُرْي شاذٌّ ونشازٌ، ولا وجود له في بيئة الآدميين، وهذا التوافق توافقٌ فطريٌّ؛ إذ لا يوجد ما يلزم كلَّ البشر به إلا فطرهم.

ثانياً: أن اللباس الذي يستر العورة هو أيضاً علامة على الحشمة والاحترام والنزاهة عن أسباب الفسق والفجور، ومن هنا جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ مباشرة بعد قوله: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهْمَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَبُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ومن ثمَّ فكلُّ مجتمع ينزع عنه ثوب الحياء، فإنه سيكون أقرب للفاحشة، وانتهاك الأعراض، واختلاط الأنساب، بينما عَقِبَ بالتقوى وهي الاسم الجامع للطاعات ولكلِّ أعمال الخير على اللباس وستر الجسد ﴿لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ تِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ وهكذا يربط القرآن بين المظهر والمخبر، والروح والجسد، فأحكام الشريعة كلها تتكامل وتتناسق لصياغة الشخصية المتوازنة والمجتمع السليم.

ثالثاً: أن الحياء والستر والاحتشام علاماتٌ للنجاة والفوز بسعادة الدارين، والعكس بالعكس، ولذا أكَّد القرآن صلة نزع اللباس بالخروج من الجنة: ﴿يَنْبِئُ آدَمَ لَا يَفْنَيْكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾.

والخطاب لبني آدم وهم لم يحضروا تلك القصة أصلاً فيه تحذيرٌ لا يخفى أن من نزع ثوب الحياء في الدنيا لا يكون جديراً بدخول الجنة في الآخرة، والله أعلم.

رابعاً: أن الزينة أمرٌ مُحَبَّبٌ شرعاً وهو مكملٌ للفطرة أيضاً ﴿يَنْبِئُ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، ﴿يَنْبِئُ آدَمَ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ تِكُمْ وَرِيشًا﴾ وعطف الريش على اللباس فيه إضافة التزيّن برقيق الثياب، وجميل ألوانها استعارة من ريش الطيور المزينة بألوانها المتناسقة الباهية.

ثم أكد هذا المعنى بأسلوب استنكاري على من توهم أن التدئين يقتضي إهمال الزينة ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾.

خامساً: أن زينة اللباس مثلها مثل طيبات الرزق، فهي كلها نِعَم يسرها الله لهذا الإنسان. فالتزُّين والتطيُّب والتنعم كل ذلك مُتَّحٍ ومرغَّب فيه، وهو من تمام شكره تعالى، فنيعة المنعم الكريم لا تُردُّ ولا يُزهد فيها، وقد امتنَّ الله على عباده بهذه النعم وذكرها في كتابه، فكيف يصح بعد هذا التنكُّر لها، أو الترفع عنها؟

إن العبودية الحقة أن تقبل هدية الله إليك، ثم لا تستعملها إلا بما أوصاك به: ﴿يَبْنِيْ ءَادَمَ خُذُوْا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوْا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ﴾ (٣١) ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

سادساً: أن منهج الإسلام في التحريم يقوم على دفع المفسد بكل أنواعها، وليس التحجير على الخلق، والتضييق في حياتهم وعلاقاتهم، وهذا هو التدئين السليم ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾.

سابعاً: بعد هذا البيان وهذه الأسس العملية الواضحة والمنسجمة مع فطرة الإنسان وإمكانياته، فإن الناس أحرارٌ في خياراتهم وهم يتحملون بعد ذلك كامل مسؤولياتهم ﴿يَبْنِيْ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِيْ ۖ فَمِنْ أَتَقْنَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٥).

دقائق التفسير

﴿لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوَءَ تِكُمْ وَرِيشًا﴾ ذكر الضروري والتحسيني، فالضروري سترُ السوء، والتحسيني ما يتفاوت فيه الناس من نعيم وزينة، والريش مأخوذ من ريش الطائر نعومة في الملمس، وتنسيقاً في اللون، وجمالاً في الهيئة.

﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ قَرَنَ زينة الجسد بزينة الروح؛ ليجتمع كمال الظاهر بكمال الباطن، والخير مطلق في كلِّ عملٍ وسلوكٍ حسنٍ، وأشار باللباس إلى معنى التقوى الشاملة والملازمة كملازمة الثوب للجسد، وكماله في الستر.

﴿إِنَّهُ يَرْنِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ مفاد هذا الإخبار مع أنه معلوم أن عداوة الشيطان لبني آدم إنما تعتمد الوسوسة وتزيين الباطل، وليس من قبيل العداوة التي يعرفها البشر فيما بينهم.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ سببان للضلال؛ تقليد الآباء على ما هم عليه بلا تبين ولا بصيرة، واتباع الأديان المحرفة الباطلة، والفتاوى الكاذبة المخالفة للنهج الرباني الصحيح.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ كلُّ أمر الله يقوم على هذا، العدل في كلِّ شيء، وبين كلِّ الخصوم والفرقاء، وكلُّ ما خالف العدل فليس من أمر الله في شيء.

﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الاستقامة والوضوح في تنفيذ أمره ونهيه سبحانه، وإعمار مساجد الله بتعهدها وملازمتها «وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ»^(١).

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ تقليدًا لأبائهم، أو تقديسًا لأخبارهم ومراجعهم، ولولا هؤلاء وأولئك ما تمكن الشيطان من تزيين هذا الباطل حتى ظنَّ أهلُه بأنفسهم أنهم على الهداية. ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ كما خلقكم أول مرة من غير علمٍ منكم، ولا رأيٍ، ولا مشورة، فكذاك تعودون إلى حياتكم الثانية.

﴿يَبْنِيْ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ خاطب المؤمنين المكلفين وحدهم بعمارة المساجد بـ ﴿يَبْنِيْ ءَادَمَ﴾ إشارة إلى أن موضع الخطاب - وهو أخذ الزينة - لا يخص المؤمنين دون

(١) جزء من حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، ينظر: صحيح البخاري (١/٢٣٤) دار ابن كثير، تع د. مصطفى البغا، ط.

١٤٠٧، ٢ - ١٩٨٧ م)، وصحيح مسلم (٣/٩٣) دار الجليل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من

الحفنين).

غيرهم، بل هي الفطرة البشرية العامة، وفيه ردٌّ على من زعم أن المسجد مكانٌ للدين والآخرة بعيدًا عن الدنيا وزينتها ومتاعها.

﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ المبالغة في الأكل والشرب والتزيُّن يضرُّ بالإنسان في روحه وجسده وماله، وفي علاقاته مع إخوانه أيضًا، فالمبالغة تعني الطَبَقِيَّةُ البغيضة، والتقاطع والتحاسد، ومن ثمَّ كان توفير الزائد عن حدِّ الحاجة، والتنعمُّ المقبول لاحتمالات المستقبل ولمساعدة المحتاجين والمعوزين أولى وأليق.

﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ تأكيدٌ لمنهج الإسلام في الجمع بين الدنيا والآخرة، فالنعيمُ في الدنيا للذين آمنوا لا يمنعهم التدبُّر عنه، ولا يمكن أن يكون حكرًا على أهل الدنيا الغافلين عن آخرتهم، أما في الآخرة فإن النعيم خاصٌّ بالمؤمنين، فالإيمان وفق المنهج القرآني سببٌ للجمع بين السعادتَيْنِ الدنيوية والأخروية.

﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ﴾ الأول ذاتيٌّ غير مُتَعَدٍّ؛ كشرب الخمر، والتهاون في الصوم والصلاة، والثاني مُتَعَدٍّ على حقوق الآخرين، فهو إثمٌ مركَّبٌ؛ لأنه معصيةٌ لله، وعدوانٌ على خلقه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي: لكلِّ أمةٍ مكذَّبة بالرسُل مُهلة للتفكُّر والتراجع، وإعلان التوبة، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، وليس هذا عامًّا في كلِّ الأمم؛ لأن هلاك الأمم لا يكون بأجلٍ واحدٍ لكلِّ أفرادهم، فلكلِّ فردٍ أجله، إلا إذا حُجِّل على معنى الدولة والسلطان، فلكلِّ دولةٍ نهايةٌ، فهذا حقٌّ من حيث هو، لكن السياق لا يقتضيه، والله أعلم.

﴿يُقْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾ يتلونها عليكم تباعًا آيةً بعد آيةٍ لتتفقهوا وتتدبروا، وفيه إشارة إلى تناسق الآيات وتسلسل معانيها، وانسجامها كما تتسلسل أحداث القصة الواحدة.

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكَتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُخَوِّفُونَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاثِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آدَرَكُوهَا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِبْتُمُونَنَا وَلَوْلَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّوْنَا فَفَاتِنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَهُنَّ لِأُخْرِبْنَهُنَّ فَمَا كَانَتْ لَكُنَّ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ فَجَرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَن هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَن تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أَوْ رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَنَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمْ الْخَيَاطَةُ الْيَوْمَ نَنسِيهِمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَتَحَدَّثُونَ ﴿٥١﴾﴾

حوارات في دار الجزاء

في سورة الأعراف مشاهد مثيرة تشدُّ العقل والقلب والوجدان لا مثل لها في كل آيات القرآن، مشاهد من ذلك اليوم يوم القيامة، لكنها مشاهد مختلفة عن تلك التي يعرضها القرآن في غير هذه الآيات، هناك يتحدث القرآن عن الجنة ونعيمها، أو عن النار وعذابها، أما هنا فالمشاهد أشبه بالمقاطع الصوتية التي تسجِّل حوارات مختلفة بين مجموعاتٍ مختلفة، وفي أماكن مختلفة:

المشهد الأول: نداء الملائكة للميت في ساعة موته ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ هذا هو جوابهم وشهادتهم على أنفسهم: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾^(١)، فيأتي القرار الحاسم والقضاء العادل: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ فِي النَّارِ﴾.

المشهد الثاني: حوار مجموعتين مختلفتين من أهل النار ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا نَعْلَمُونَ﴾^(٢٨) وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأُخْرِيَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ إنه تلاوّم وتخاصم، ورغبة في الانتقام واستزادة العذاب لبعضهم البعض، وهو لا شك تصوير للعذاب النفسي الذي يعيشه أهل النار إضافة إلى عذابهم الجسدي، أعادنا الله من كل ذلك.

المشهد الثالث: دعاء المؤمنين لبارئهم وشكرهم له أن وفقهم لطاعته، وأثابهم بجنته ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

والظاهر من السياق: أنهم يدعون ربهم دعاءً واحدًا موحدًا كأنهم مجتمعون في مكان واحد، وفي هذا أنسٌ مضاف إلى أنسهم، ثم يجابون على دعائهم وشكرهم بما يمنحهم الشعور بثمرة العمل والجهد والجهاد الذي بذلوه في هذه الحياة، وهذه لذة أخرى لا تسد عنها لذة، ولا يعرفها إلا من ذاق ثمار غرسه، وحصل نتائج سهره وتعبه.

المشهد الرابع: حوار بين أهل الجنة وأهل النار ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذْنُ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ صورة مكتملة، أهل الجنة يبدؤون بمخاطبة أهل النار ولومهم

(١) تكرر هذا النص الكريم في كتاب الله مرتين: سورة الأنعام / ١٣٠، وسورة الأعراف / ٣٧.

وتقرّيعهم، فلا يملك أهل النار إلا أن يُقرّوا بخسارتهم وهلاكهم، ثم يأتيهم صوت آخر لا من هؤلاء ولا من هؤلاء ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ليضيف على المشهد بُعدًا ثالثًا، وحركة لافتة، وكأنها جاءت لتذكّر بوعد الله الحق الذي كان أهل الإيمان يُحذّرون منه هؤلاء الكافرين الظالمين لما كانوا يعيشون معًا على هذه الأرض.

وأخيرًا: ينسى أهل النار عداوتهم للمؤمنين وما سبّوه لهم من أذى، ويبدؤون بمُنْاشدَتهم أن يتصدّقوا عليهم ببعض ما أنعم الله به عليهم، فهم يعرفونهم رغم عداوتهم أنهم هم أهل الصدقة، وأهل الخير، وأهل الرحمة ﴿أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾، فيأتي الجواب حاسمًا ومؤلمًا أن قوانين الآخرة ليست كقوانين الدنيا؛ ففي الدنيا كانت الأرزاق مشتركة، والمنافع متبادلة، والصدقة واردة، أما هنا فإن الله حرّمهما على الكافرين.

المشهد الخامس: أهل الأعراف يُحيّون أهل الجنة ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ هؤلاء الذين نجّاهم الله من النار، ثم لم يكن عندهم من العمل ما يرفعهم إلى مقام الجنة، إنهم هنا يؤدّون دورًا جميلًا بالنسبة لأهل الجنة، يذكّرونهم بتفوّقهم الذي نالوه بما كانوا يعملون، نعم، فقد كانوا يعملون أكثر من غيرهم، ويضحّون ويتحمّلون الشدائد والمصائب في سبيل دينهم ودعوتهم.

المشهد السادس: أهل الأعراف يُقرّعون أهل النار، ويتعوّذون منهم ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ

أَبْصَرُهُمْ نِلَقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ باتخاذ شريكًا معه، أو بتحريف كتابه وتأويله على غير ما أنزل، أو القول عليه تحليلاً وتحريراً وإخباراً بما لم يقله.

﴿نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ ما قُدِّرَ لهم في علم الله جزاء أعمالهم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ الرسل هنا ملائكة الموت المكلفون بقبض الأرواح.

﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ غابوا ولم يحضروا معنا في هذه الساعة التي كنَّا نظنُّ أنهم سيقفون معنا فيها.

﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ ادخلوا النار مع جماعات مثلكم.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ تحسَّرا وتضجُّرا وتلاوما.

﴿حَتَّىٰ إِذَا آدَارَكُوا﴾ تلاحقوا واجتمعوا فيها.

﴿قَالَتْ أَخْرِجْنَهُنَّ لِأُولِهِنَّ﴾ أي: الأتباع للمتبعين، وفيه أن قادة الكفر يدخلون النار قبل

أتباعهم من غوغاء القوم وسفلتهم، فهو تأخرٌ في الشأن، وتأخرٌ في الوقت، والله أعلم.

﴿فَنَاصِيَهُنَّ عَذَابًا ضَعُفًا﴾ أي: مُضاعفا؛ لأنهم ضلُّوا وأضلُّوا.

﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ استحقاقا؛ لأنكم ضللتكم وكفرتكم، وكنتم عونًا لكبرائكم على الضلال

والإضلال.

﴿فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ ليس لكم علينا مِيزة في كونكم أتباعا؛ لأن التابع شريك

المتبوع.

﴿لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ فمكانهم السفلى، لا يُقبل لهم دعاء، ولا يصعد لهم عمل.

﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ حتى يدخل الجمل من الإبل في ثقب الإبرة، مثْلٌ لاستحالة

الأمر وتعدُّره.

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ فراشٌ وغطاءٌ، وغواشٌ من الغاشية التي تعلو

البصر فلا تدعه يبصر، وهو هنا من اللهب والدخان المتصاعد، أعاذنا الله بلطفه ورحمته.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ الوُسْع:

الطاقة، إشارة إلى أن عمل الجنة سهلٌ ميسورٌ على خلاف ما يظنُّه غلاة المتدينين، أو أولئك

الذين فرُّوا من الدين لما أخذوه عن التدين؛ من صعوبةٍ وضنكٍ وعقدةٍ وعزلةٍ، فليس في الدين

سوى ما ينسجم مع فطرة الخلق وحاجاتهم، وضمان سعادتهم.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ﴾ الغل: الحقد الذي يخرب الأخوة، ويقطع الأرحام، فأهل الجنة براء من كل هذا، فلا يبقى معهم ما كان بينهم في الدنيا، ولا يستجدُّ أيضًا، فليس في الجنة غير الودِّ والصفاء.

﴿وَتُودُّوْا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ليس فيه تعارض مع ما ورد في الحديث: «لَنْ يُدْخَلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلِ وَرَحْمَةٍ»^(١) لأن العامل إنما يستحق الثواب برحمة الله، ولولا هذه الرحمة لما كان لهذا العمل قيمة؛ إذ ما جدوى العمل بالنسبة لله الغني الحميد؟

﴿فَإِذَنْ مُؤْذِنٌ بَيْنَهُمْ﴾ نادى مُنادٍ، على جهة التنكير فلا فائدة عملية من معرفة عينه وجنسه.

﴿يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ هم الذين يجاربون الحق ويحاولون ليه عن طريقه المستقيم ليوائم أهواءهم وشهواتهم.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي: بين الفريقين؛ أهل الجنة وأهل النار، فلا يصلُّ أحدٌ من أهل النار إلى الجنة إلا بإذنه سبحانه، كما لا يصلُّ أحدٌ من أهل الجنة إلى النار.

﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ العُرفُ المكان المرتفع، وهؤلاء قومٌ ليسوا من أهل الجنة وليسوا من أهل النار لكنهم مشرفون عليهما، ليس من باب الرفعة والشرف كما توهم بعض المفسرين؛ لأن قوله تعالى فيهم: ﴿لَتَرِدَّخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ دليلٌ على أنهم دون أهل الجنة مكانةً وتنعمًا وقربًا من المولى الجليل، وطمعهم في الجنة لم يردّه الله عليهم، وهذا مؤذنٌ بتحقيقه ولو بعد حين، والله أعلم.

﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾ يعرفون أهل النار بوجوههم المعذبة الكالحة، ويعرفون أهل الجنة

(١) متفقٌ عليه من حديث أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما مع اختلافٍ في الألفاظ، وقد تكررَت رواياتُ الحديث في كلا الصحيحين، بنظر: صحيح البخاري (٢١٤٧/٥) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (١٣٩/٨) دار الجليل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

بوجوههم النيرة، وثيابهم وحليهم.

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ عرضاً لا قصداً؛ لأنهم لا يريدون أن يروهم.

﴿ أَهْتَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿ هو

من قول أهل الأعراف لمن يعرفونهم من أهل النار: أهؤلاء المستضعفون الذين كنتم تكبرون عليهم، وترون أنهم لا يستحقون الخير لا في الدنيا ولا في الآخرة، انظروا كيف فضّلهم الله عليكم، وأدخلهم الجنة بلا خوفٍ ولا حُزنٍ، هذا المعنى هو المناسب للسياق، وهو أقرب من حمله على أنه خطاب الله لأهل الأعراف حينما يأذن لهم بدخول الجنة، فتكون جملة: ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ لا صلة لها بجملة: ﴿ أَهْتَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ ﴾ لأن الكافرين لم يُقْسِمُوا على أهل الأعراف، بل أقسموا على من ناوأهم من المؤمنين، والله أعلم.

﴿ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ ﴾ صبّوا علينا الماء لعله يذهب بالعطش، أو يُخَفِّف من النار.

﴿ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا ﴾ كأي متاع يتسلّون به ويسدّون به بعض فراغهم، بلا علم وبحثٍ وتدقيقٍ، ولا عمل جادٍّ ومثمرٍ، ومن نظر في بعض شعوب الأرض وكيف يتعاملون مع تراثهم الديني، وكيف يحتفلون بمناسباته الدينية يُدرك مغزى هذه الآية، ومثل هؤلاء من جعل الدين وسيلةً للكسب والعيش، كحال الكثير من المراجع، والسدنة، ورجال الدين.

﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ هو نسيان الإهمال والترك، وهو المناسب لإهمالهم أنفسهم وتركهم لطريق العلم والبحث في مستقبلهم ومصيرهم.

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ غَيْرِ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا نَارَ آوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَنزَالُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٥٤﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا بِقَالَا سُفْنَةٌ يَلْبِغُنَا بِهِ الْيَمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَجَسًا كَذَلِكَ نَصْرِفُ الْأَيَّاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٦٠﴾ قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصِّحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٦٢﴾ أَوْعِظُكُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ٦٤﴾

دعوة المرسلين من محمد إلى نوح

بعد قصة آدم وما فيها من دروسٍ ومعالمٍ أساسٍ لطبيعة الحياة ومغزاها على هذه الأرض، وما ينتظر الناس من بعثٍ ونشورٍ، وثوابٍ وعقابٍ، شرع القرآن في بيان طريق النجاة، وأنه لن يكون بغير الوحي الإلهي الذي أنزله الله واختار له خيرة خلقه.

وكان من المناسب البدء بالرسالة التي هي مدار البحث والصراع الحالي، وهي رسالة سيدنا ونبينا محمد ﷺ قبل البدء بالتسلسل التاريخي للرسالات، ومن ثم جاء الحديث عن رسالة سيدنا نوح مباشرة عقب الحديث عن رسالة سيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام وكما يأتي:

أولاً: أن الرسالة الخاتمة هي رسالة العلم والهدى والرحمة ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً﴾.

ثانياً: أن كل ما وعد به القرآن أو توعد به فهو الصدق والحق ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾.

ثالثاً: أن الذين يصدون عن هذا القرآن ستأكلهم الحسرة، ويهلكهم الندم ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

رابعاً: أن الله هو الذي خلق هذا الكون وأودع فيه كل ما يحتاجه الإنسان ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾، ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بِبَيْتِ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.

خامساً: أن إفراد الله في العبادة فرع عن تفرده في الخلق، فلأنه خلق الخلق بلا معين أو شريك فهو المستحق للطاعة والعبادة والخضوع لأمره ونهيه بلا وسيط، ولا شريك ﴿إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْآمَرُ﴾، ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

سادساً: أن هذه العبادة مرتبطة بإصلاح الأرض وتحسين ظروف الحياة، وليس العكس ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

بعد هذه المعالم الأساس في دعوة سيدنا محمد ﷺ رجع القرآن مباشرة إلى رسالة نوح ﷺ وتجربته مع قومه، مختصراً الأجيال والآماد، في تأكيد واضح على وحدة الرسالات السماوية في مصدرها وغايتها، وأصولها الإيمانية والعملية:

أولاً: التوحيد أساس الدعوة ومنطلقها الأول ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

ثانيًا: العلم قرين الدعوة، وضمانه استقامتها وسلامتها ﴿قَالَ يَقَوْمٍ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ثالثًا: محبة الخير للناس، ونصحهم والخوف عليهم تلك هي دوافع الدعوة الذاتية ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولًا لِّرَبِّ وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَرْجُمُونَ﴾.

رابعًا: أن العاقبة لمن آمن وصدق، والهلاك والبوار لمن كذب وتكبر ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً﴾ هو القرآن الكريم، فيه تفصيل الأخبار والأحكام، وفيه العلم اليقيني، والهدى للبشرية، والرحمة الشاملة التامة لهم.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي: تحقيق ما أخبر به القرآن عن الآخرة وأحوالها، فالتأويل هنا من المال، وهو العاقبة والنتيجة.

﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ تأكيد أن سبب كل ضلال هو خسارة الإنسان لنفسه، وهبوطه بها إلى درك الأنعام، فلا يفكر ولا يبحث عن الحقيقة، ولا يسعى إلى الحق؛ لأنه مُشغِلٌ بملذاته الدنيوية، وشهواته الجسدية، فهذه خسارة لقيمة النفس التي كرمها الله، ثم هي خسارة كاملة حينما يقود هذا الهبوط وهذا الخسران إلى ذلك الخسران الأكبر، أعادنا الله من هذا وذاك.

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هي ليست من أيامنا؛ لأن يومنا هو حصيلة دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس، ولكل كوكب يومه، فكيف باليوم الذي كان قبل خلق السموات والأرض؟ فذلك لا يعلمه إلا الله.

والمقصود بالإخبار عن تلك الأيام إنما هو التقدير على مراحل كما هي سنة الخلق كله، حتى الجنين في بطن أمه، والبذرة في بطن التربة، وفيه أيضًا بيان المساحة الأوسع التي يجهلها الإنسان في هذا الكون من بداية انبثاقه، فعلم الإنسان مهما بلغ فهو علمٌ محدود.

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ علا عليه علواً يليق به سبحانه؛ إذ العرش مخلوق وربّي خالق، والمخلوق لا ينفك محتاجاً إلى خالقه، وليس الخالق محتاجاً إلى أحدٍ من خلقه، تبارك ربُّنا وتعالى.

﴿يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا﴾ يغطّي النهار بالليل، وفيه علوُ الظلمة على الضوء؛ لأن الضوء له سببٌ، والظلمة ليس لها سببٌ فهي الأصل؛ ولذلك فكلُّ ضوء نراه إنما هو استثناءٌ من حالة الظلام العامة، فالظلام يغشى الضياء من كلِّ جانبٍ، ثم هو يطلبه حيثُها؛ لأنه كلما انسحب الضوء بانسحاب مصدره، أو بانسحاب بقعة الضوء عن مصدرها حلَّ الظلام محلّه، فهو يتبعه كأنه طالب له يتعقبه أينما ذهب.

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أصلٌ في التوحيد، جامعٌ بين توحيدهِ تعالى في الخلق، وتوحيده في الأمر وهو الحكم، فما أحلّه فهو الحلال الحقُّ، وما حرّمه فهو الحرام الحقُّ، ومن نازع الله في هذا وذاك فقد نازعه في حكمه، وخصائص ألوهيته.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ادعوه تذللاً وسراً، والله لا يحبُّ المعتدين الذين يتكبرون على الله فلا يدعونه ولا يعبدونه، أو يعتدون على المؤمنين بمنعهم من الدعاء والعبادة، وربما يتناول المعتدين بالدعاء نفسه إذا كان ليس على سبيل الطاعة والخضوع لله، كالدعاء للظالمين، أو الدعاء على المظلومين نفاقاً وتملقاً لأهل الباطل، أما رفعُ الصوت بالدعاء فلا يدخل في هذا النهي بوجهٍ، والله أعلم.

﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إشارةٌ أن الدعاء المستجاب هو دعاء المحسن في دعائه وفي عمله، بخلاف المسيء في دعائه، أو المُتمنّي على الله فيدعوه بلا عملٍ ولا سلوكٍ حسنٍ.

﴿حَقَّ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا نِّفَالًا﴾ أي: الرياح هي التي تحمل السحاب الثقيل المحمّل بالماء، وفيه تبينٌ لمعنى الماء النازل من السماء الذي وردَ في آياتٍ أُخرى، فالسَّماء هنا المكان المرتفع وليس من السموات السبع، فالسحاب نراه قريباً، وقد نعلو فوقه بالطائرات وبيعض الأبراج العالية والجبال الشاهقة، فهو أقربُ إلى الأرض منه إلى السماء.

﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ أي: كما تشاهدون انبثاق الحياة في بذور النبات وفي خلايا الفطر المبتوثة في التراب، والتي قد تمرُّ عليه السنة والستتان دون نموٍّ ولا حركة، فإذا نزل الماء رُبَّتْ وَنَمَتْ ودَبَّتْ فيها الحياة، فكذلك حال الأجساد البشريَّة المختلطة بعد موتها بهذا التراب، هناك يوم ستهيَّا فيه أسباب الحياة فَتَحْيَا، لفت لأنظار الناس لقياس الغائب بالحاضر، وغير المحسوس بالمحسوس.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ، وَيَاذِنُ رَبُّهُ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ فالْمُزْنُ لا يَنْبِت الزرع دون وجود التربة الصالحة، وفيه تشبيهٌ ضمنيُّ لحالة البشر مع نزول الوحي، فالقلوب الطيبة تتلقَّاه وتؤمن به، وتعمل بمقتضاه؛ فتثمر كلُّ خُلُقٍ وسلوكٍ طيبٍ، والنفوس الخبيثة ترفضه وتزداد معه عنادًا وتكبرًا، فلا تُثمر غير النكد والشقاء.

﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ وإن اتخذتم آلهةً أخرى؛ لأن كلَّ إله اتخذتموه دون الله فهو باطلٌ. ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٦٦) قَالَ يَقْوِمُ لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ ﴿تواضع الأنبياء، ونزولهم إلى مستوى ردِّ الشبهات الوضيعة، بخلاف ما يظنُّه بعض العلماء والدعاة اليوم، فالشبهة مهما كانت وضيعة ومتهافئة لا بُدَّ من نفيها ودحضها؛ لأن مستويات الناس متفاوتة، فالشبهة التي لا تخدع العالم قد تخدع الجاهل.

﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولًا رَّبِّي﴾ مع أنها رسالة واحدة، لكنها من حيث التدرُّج والتنوُّع والتفصيل كأنها رسالات، وفيه إشارة إلى دقَّة التبليغ، وأمانة المبلِّغ.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ﴾ من الطوفان، وفيه اقتران القدر بالسبب، فالطوفان قدرٌ إلهيٌّ، والفلك صنعٌ بشريٌّ، وهذا هو منهج الإسلام: إيمانٌ بالقدر، وأخذٌ بالسبب، والفصل بينهما بدعةٌ لا تمتُّ إلى الإسلام بوصلٍ.

﴿لَهُنَّ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ جمع عَمٍ، وهو بمعنى أعمى، والمقصود به: عمى القلب، وفيه إشارةٌ إلى وجوب النظر والبحث والتفكير.

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥٦﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَرُوكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِيَّةِ ۝٦٥٦٦﴾ قَالَ يَنْقُورِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦٥٦٧﴾ أُتِلْفُكُمْ بِرِسَالَتِي ربي وَأَنَا لَكَ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٥٦٨﴾ أَوْعَيْبَتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۖ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً ۖ فَادْكُرُوا ۖ آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٦٥٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَنبِئْنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٦٥٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رَجْسٌ وَعَظْبٌ ۖ أَنُجِدُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَيَّيْمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۖ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ ۝٦٥٧١﴾ فَأَجَبْتُهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ۝٦٥٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُنَوِّسُ فَإِذَا ذُكِّمْتُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٥٧٣﴾ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ۖ تَتَخَذُونَ مِّنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَادْكُرُوا ۖ آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٦٥٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ۖ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَقْلَمُونَ ۚ أَتَكْلُمُونَ أَتَكْلُمُونَ أَتَكْلُمُونَ أَتَكْلُمُونَ أَتَكْلُمُونَ أَتَكْلُمُونَ ۝٦٥٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنُمْ بِهِ كَفِرُونَ ۝٦٥٧٦﴾ فَغَفَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحْ أَثْنَانَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٦٥٧٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ۝٦٥٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورِ لَقَدْ أَتَلَفْتُكُمْ بِرِسَالَةِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ ۝٦٥٧٩﴾

هود وصالح

هما رسولان بعثهما الله في جزيرة العرب بعد نوح وقبل إبراهيم عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام، أما هود فبعث في جنوب الجزيرة ناحية حضرموت إلى قوم يقال لهم: عاد، وأما صالح فبعث في شمالها بين الحجاز والشام إلى قوم يقال لهم: ثمود، وعادة القرآن أن يذكرهما متتالين؛ لتشابه البيئتين، وطبيعة القومين، وأن قوم هود كانوا بعد قوم نوح، وقوم صالح كانوا بعد قوم هود، ويمكن ملاحظة الشبه بين التجربتين في النقاط الآتية:

أولاً: كلاهما بادَرَ قومه بالدعوة إلى التوحيد ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ﴾، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ وهذا يدلُّ على تمكُّن الشرك في جزيرة العرب من شمالها إلى جنوبها وفي مرحلة مبكِّرة جدًّا في تاريخها، وتوحيد الخطاب حتى في الصيغة دليلٌ على تشابه المخاطِبين في مستوياتهم وطريقة تفكيرهم.

ثانيًا: كلاهما كان حريصًا على قومه ناصحًا لهم، قال هود لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِي ربي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾، وقال صالح لقومه: ﴿يَنْقُومِ لَقَدْ أَتَلَقْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾.

ثالثًا: إن عادًا وثمودَ كلاهما كانا أولي بأسٍ وقوةٍ ونعمةٍ، أما عادٌ فقال الله فيهم: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصَاطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾.

وقال في ثمود: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنْخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾.

رابعًا: إن عادًا وثمودَ كانا أهل عنادٍ ومكابرةٍ؛ بحيث إنها استعجلاً عذابَ الله قولًا وفعلًا وبصلفٍ وتحدٍّ، فقالت عادُ لنبِيِّها: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

وقالت ثمود لنبِيِّها: ﴿وَقَالُوا يَصْلِحُ أَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

خامسًا: إن عادًا وثمودَ قد أهلكهما الله بعذابٍ حاسمٍ، ففي عاد قال الله: ﴿وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتٍ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾، وفي ثمود: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيمِينَ﴾.

﴿ وَلَئِنْ عَادَ لَخَآمُكُمْ هُودًا ﴾ هي أخوة النسب، واستعمالها هنا دليل على أن صلة الرحم لا يقطعها اختلاف الدين، وأن الداعية عليه أن يحافظ على وشائج العلاقات الإنسانية، ولا يفرط بها، فهذا من تمام خلق الداعية وسبيله للتأثير والإقناع، ومن ظن أن في هذا خلافاً لعقيدة الولاء والبراء فقد وهم.

﴿ قَالَ الْمَلَأُ ﴾ هم وجهاء القوم وأشرافهم وقادة الرأي فيهم.

﴿ إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ اتهام لرسولهم بالجهالة وخفة العقل؛ لأنه خالف ما عليه قومه وما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم، وهذه شبهة تلاحق كل خارج على المألوف، ولو كان هذا المألوف فاسداً أو باطلاً.

﴿ قَالَ يَنْقُومُ لَيْسَ بِ سَفَاهَةٍ ﴾ تواضع الأنبياء وتنزُّلهم لردِّ الشبهات الرضيعة مهما كانت. ﴿ أَلَيْفُكُمْ رَسُولَ رَبِّي ﴾ و﴿ لَقَدْ أُنَبِّئُكُمْ بِرِسَالَةٍ رَبِّي ﴾ أتى بالجمع في الأولى، وبالإفراد في الثانية؛ لأن الأولى جاءت مع المضارع فهي متجددة ومتنوعة بحسب الحال والمقام، بعكس الثانية التي جاءت إخباراً عن الماضي؛ حيث تمت الرسالة بالفعل، فأصبح من المناسب الحديث عن وحدتها، وليس عن تنوعها وتجددها، والله أعلم.

﴿ فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ ﴾ نعمه التي أنعم بها عليكم.

﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَظْبٌ ﴾ أي: قد استوجبتم ذلك بعنادكم وتكبركم. ﴿ أَتَجِدَلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ ذكر الاسم وأراد المسمى، كأنه قال: أتجادلونني في أصنام سمَّيتموها أنتم آلهة، وما هي كذلك.

﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا ﴾ أي: بلغ الهلاك آخرهم، فلم ينج منهم أحد.

﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ إضافة اختصاص وتشريف وإلا فالكون كله لله، ومناسبة الاختصاص أن الله خلقها لا على مثال سبق؛ لتكون آية على صدق رسوله، وحجة ظاهرة على قومه.

﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾ أنزلكم وأسكنكم.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ دلالة على صلة التكبر بالضلالة والبغي والجهالة.

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ نحروها ظلماً وعناداً، ومخالفةً لوصية نبيهم ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها يسوءاً فإخذكم عذاب أليم﴾.

﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ خالفوه عن قصد وتكبر.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ زلزلة وهزة في الأرض.

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أجساداً بلا أرواح تراكم بعضها فوق بعض.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَلَفْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾

صورةٌ للداعية الناصح الأمين الذي بذل حياته كلها في نصح قومه، وتحذيرهم من سوء العاقبة، ثم هو يراهم هكذا جاثمين بلا حراك، فيخاطبهم وهو عالمٌ أن لا جدوى من الخطاب، لكنها صورةٌ لحرص هذا القلب النقي على هداية قومه ونجاتهم مهما عاندوه وخالفوه، وفيها عظةٌ وتثبيتٌ للقلة الناجية بإيمانها واتباعها سبيل المرسلين.

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفِتْنَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الذَّكَاءِ
بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴿٨٢﴾
فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾
وَالْإِنِّي مَذِينٌ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُ عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا
الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا
وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَذَابُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامِنُوا
بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ
لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَؤُكَ كَذِبِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ
بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا
بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي
دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَفْتَنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٢﴾ فَلَوْلَى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَقَوَّمُ
لَقَدْ أَتَيْنَاكُمْ بِرِسَالَةٍ مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَامَسْتُمْ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا
بِالْبَاسِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنِ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾
أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُوبُ الْأَرْضُ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ
أَصْبَحْنَاهُمْ دُثُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا
كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا

أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

وهما نموذج آخر مختلف عن سابقه، حيث كان مبعثهما في نواحي الشام، وهي الأقرب للمدنية بخلاف قوم هود وصالح، فطبيعة المدينة مختلفة عن طبيعة البادية، وأمراض المجتمعات المدنية مختلفة بالضرورة عن أمراض المجتمعات البدوية؛ أما لوط فكان ممن عاصر إبراهيم عليه السلام وآمن به ثم بعثه الله إلى سدوم وما حولها من القرى في بلاد الشام.

وأما شعيب عليه السلام فبعث في أرض مدين وهي من بلاد الشام كذلك، ومن ثمَّ يعرض هذا النموذج لتجربة إصلاحية جديدة مختلفة عن تجربة النبيين السابقين، ولنبدأ مع سيدنا لوط عليه السلام: أولاً: القضية المركزية في هذه التجربة كانت محاربة الشذوذ الجنسي، والذي هو مظهر صارخ للهبوط في كل الجوانب الإنسانية الثقافية والسلوكية ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾.

والإسراف هنا: مجاوزة الحد والحق بإطلاق، فهم قد تجاوزوا الفطرة والدين والعقل وكل معنى متصل بالسلوك القويم.

ثانياً: لم ينشغل هؤلاء بالرد ولا بالمناقشة وطلب الآيات والبيّنات، كما هو المعهود في باقي الأمم، وإنما بادروا بقرار واحد: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾، فهم لا يريدون أحداً يُعَكِّر عليهم ما هم فيه منغمسون، وهذا ديدن الغارق في الشهوة، بخلاف صاحب الشبهة والفكرة الخاطئة.

ثالثاً: ثم كانت النتيجة أن أهلكهم الله بعد أن نجى لوطاً ومن آمن به ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِينَ﴾ (٨٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٣﴾.

أما قصة شعيب مع قومه فتتلخص في الآتي:

أولاً: أنه بدأ بدعوتهم إلى التوحيد كسائر الأنبياء مع أقوامهم ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا

قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿١٠﴾

ثانيًا: ثم ثنى بقضية مركزية خاصة في هؤلاء القوم ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ منبها أن هذا الظلم يقود إلى فساد عريض في الأرض ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

ثالثًا: ثم ثلث بدعوتهم إلى ترك الناس وما يختارون بلا ظلم ولا إكراه ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ، وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

رابعًا: أن الناس قد انقسموا إلى طائفتين اثنتين: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾.

وكان بين الطائفتين كلامٌ وأخذ وردُّ، يحاول أهل الباطل فيه أن يُثْنُوا أهل الحق ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَافِرِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا﴾.

خامسًا: كتب الله على هؤلاء المكذبين الهلاك كما كتبه على المكذبين من كل قوم ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾.

تعقيب قرآني

بعد أن عرض القرآن لهذه النماذج المختلفة خلص إلى تقرير القواعد والتوجيهات الكلية، وكأنها خلاصة ما ينبغي استنباطه من تلك التجارب:

أولًا: أنه تعالى لم يهلك قومًا إلا بعد أن أقام الحجة عليهم بإرسال الرسل وبيان الحق ﴿يَلَاكُ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾.

ثانيًا: أنه تعالى لم يأخذ قومًا على غرة، بل جاءهم بما يكفي للتذكُّر والتدبُّر ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ ثم يعفُو ويصفح، ويبدِّل الحسنة مكان السيئة، والرخاء مكان الشدة، لعلَّ الذي لم تُرجعه الشدة أن تُرجعه النعمة ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴾.

ثالثًا: أن العذاب والضنك والشقاء قرين الظلم والبغي والتكذيب بالحق، والعكس بالعكس ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾.

رابعًا: أن هذه العاقبة سنَّة من سنن الله لا تستثني أحدًا، وأن وعيد الله قائمٌ لكلِّ ظالم متجبرٍ كفَّارٍ إلى قيام الساعة، فليست هذه قصصًا تاريخيَّةً مجردة، بل هي سنَّة ماضية حتى يرث الله الأرض ومن عليها ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ (١٧) ﴿ أَوَامِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴾ (١٨) ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾.

خامسًا: أن السلوك الأغلب لعامة البشر وفق كلِّ هذا التاريخ الطويل يؤكِّد انحياز الناس إلى شهواتهم وموروثاتهم، والرغبة في إبقاء ما كان على ما كان دون التأكد من صحة الفكرة، أو سلامة السلوك، هذا هو شأنُ المجتمعات البشرية، وهو سبب التخلف الذي يعترِّبها وتكرار مآسيتها وتجاربها الفاشلة أو القاتلة ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ ۚ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾.

يجدر التنبُّه هنا أن بدايات الدعوة كما يقصُّها القرآن في هذه النماذج لم تكن واحدة؛ ففي قصة نوح وهود وصالح كانت الدعوة خالصة إلى التوحيد، بينما في قصة لوط كانت الدعوة لمحاربة الفساد الخلقية، وكأنها غاية الرسالة ومحورها الأساس.

أما في قصّة شعيب فهناك جمعٌ واضحٌ من البداية بين الدعوة إلى التوحيد والدعوة إلى رفع الظلم الاقتصادي.

وهذه كلّها تُعطي خياراتٍ واسعةً للعمل الإسلامي المعاصر، فقد يكون الباب الأنسب للدخول في الإسلام ما يَمَسُّ حاجةَ الناس واهتمامهم، وليس بالضرورة أن يكون في مسائل العقيدة والتوحيد والإيمان بالغيب، كما أن فتح منافذ التفكير ورفع قيود الشهوة، والتخفيف من وطأة الظلم كلّ هذه شروط متقدمة وممهدة لنجاح الدعوة، وصناعة بيئة مناسبة للموعظة، والمجادلة الهادفة.

دقائق التفسير

﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ دليلٌ على انحراف قوم لوطٍ ليس عن الدين فقط، بل عن السلوك البشري عامة، مما يدلّ على أن هذه الفاحشة مُنافية لقواعد الفطرة الآدمية، بل ولسلوك الكائنات الحيّة عامة.

﴿إِنَّكُمْ لَنَآتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ مع أنه ليس فيهم من صفات الرجولة شيء، وإنما هو استقباحٌ شديدٌ لفعلهم، كأنه يقول: هؤلاء خلقهم الله ليكونوا رجالاً، فكيف انتكست فطرتكم، وارتكست عقولكم، فحوّلتهم الرجولة إلى متعة وملهاة؟

﴿مَنْ دُورِ النَّسَاءِ﴾ إشارة إلى جانب آخر من الفساد، فالنساء اللواتي لا يجدن بُغيتهن من رجالهن سينحرفن أيضاً، ويبدو أن المجتمع كان مُجتمعاً فوضوياً عابثاً، وليس هو اكتفاء تاماً بالرجال عن النساء؛ إذ لو كان كذلك لانقطع النسل بالكامل، والله أعلم.

﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّظْهَرُونَ﴾ ربما كان ذلك على سبيل التهكُّم والسخرية، لكن حالة هؤلاء القوم لا يُستبعد معها أنهم يُفأخرون بالفساد والرذيلة، ولا يحاولون تغطيتها أو تسميتها بغير أسمائها، وهذا دركٌ ما تحته درك، وشذوذٌ ما بعده شذوذ.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ المؤمنين، بدلالة هلاك امرأته وهي من أهله - دون شكٍّ -؛ لأنها لم تكن

من المؤمنين.

﴿إِلَّا أَمْرًا تَهُ، كَانَتْ مِنْ الْغَيْرِينَ﴾ الْهَالِكِينَ بِمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ، وَمَوَالَاتِهَا لِقَوْمِهَا حَتَّى أَصَابَهَا مَا أَصَابَهُمْ.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ هُوَ مَطَرُ الْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ، وَأَصْلُ الْمَطَرِ الْمَاءُ النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَاسْتَعْمَلَ هُنَا فِي غَيْرِ الْمَاءِ فِي الْحَجَارَةِ وَنَحْوِهَا بِجَامِعِ النُّزُولِ مِنَ الْعُلُوِّ؛ بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَمْنَعَهُ أَوْ يَتَحَكَّمَ بِهِ.

﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أَصْلٌ فِي الْمَكِيلَاتِ وَالْمُوزُونَاتِ وَنَحْوِهَا، وَلَا يَمْنَعُ تَعَدِّيهِ لِسَائِرِ الْحَقُوقِ الْمَادِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ.

﴿إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمُ﴾ بِالْمَالِ وَالْعِيَالِ، وَفِيهِ تَنْبِيهُ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بِحَاجَةٍ إِلَى تَطْفِيفِ الْمِيزَانِ، فَقَدْ كَانُوا أَهْلَ نِعْمَةٍ وَخَيْرٍ، لَكِنَّهُ الطَّمَعُ وَالِاسْتِهَانَةُ بِمَالِ الْآخَرِينَ.

﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ يَفْصِلُ بَيْنَنَا بِالْعَاقِبَةِ، وَهِيَ نَجَاةُ الْمُؤْمِنِينَ وَهَلَاكُ الْمَكْذِبِينَ.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ﴾ تَأْكِيدُ قَرَأَتِي، وَتَكَرَّرُ أَنْ التَّكَبُّرُ هُوَ السَّبَبُ الْأَوَّلُ وَالْأَبْرَزُ فِي الضَّلَالَةِ، وَالصَّدُّ عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ.

﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ اسْتِعْظَامٌ لِإِكْرَاهِ النَّاسِ عَلَى غَيْرِ مَا يُؤْمِنُونَ بِهِ.

﴿قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ هَذِهِ قَاعِدَةٌ كَبِيرَةٌ لِلْعُلَمَاءِ وَلِلدَّعَاةِ إِلَى اللَّهِ أَنَّهُمْ حِينَمَا يُجَامِلُونَ الْبَاطِلَ فَإِنَّهُمْ لَا يَرْتَكِبُونَ ذُنُوبًا ذَاتِيَّةً كَسَائِرِ النَّاسِ، بَلْ إِنَّهُمْ يَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ، فَالنَّاسُ يَأْخُذُونَ عَنْهُمْ دِينَهُمْ بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، وَفَعَلَ الْعَالَمُ الظَّاهِرُ لِلنَّاسِ بِخِلَافِ مَا يَعْلَمُ هُوَ تَبْلِيغُ كَاذِبٍ عَنِ الْعِلْمِ الَّذِي يَحْمِلُهُ، وَبِهَذَا يَكُونُ قَدْ ضَلَّ بِنَفْسِهِ وَأَضَلَّ غَيْرَهُ.

﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ قَالَ: الْمَلَّةُ، وَهِيَ الدِّينُ وَالْمَعْتَقَدُ، وَلَمْ يَقُلْ: الْأَرْضُ أَوْ الْقَبِيلَةُ أَوْ الْمَجْتَمَعُ؛ لِأَنَّ التَّعَايِشَ مَعَ الْكَافِرِينَ لَا يَنْقُضُ الْإِيمَانَ، وَلَا يَعَارِضُ عَقِيدَةَ الْوَلَاءِ وَالْبِرَاءِ كَمَا تَوَهَّمُ مِنْ تَوَهَّمٍ، إِذَا كَانَتِ الْمَفَاصِلَةُ فِي الدِّينِ قَائِمَةً؛ وَلِذَلِكَ بَقِيَ الْمُسْلِمُونَ فِي مَكَّةَ وَلَمْ يَنْكُرُوا بِالْخُرُوجِ عَنْهَا إِلَّا بَعْدَ حِمَلَاتِ التَّنْكِيلِ وَالتَّعْذِيبِ؛ بِحَيْثُ لَمْ تُعَدَّ صَالِحَةً لِلدَّعْوَةِ، وَلَا

للعيش والسكن، ولو كان أصل العيش محرماً معهم لخرجوا قبل ذلك.

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: افصل بيننا وبينهم، وميزنا عنهم إن حكمت بهلاكهم.

﴿كَأَن لَّمْ يَفْنَوْا فِيهَا﴾ كأنهم لم يسكنوا ولم يقيموا فيها.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَاكُمْ رِسَالَتِي رَبي﴾ أتى بالجمع؛ تنبيهاً إلى تنوع رسالته بين دعوته للتوحيد، ودعوته لرفع الظلم الاقتصادي، ومحاربة الفساد في الأرض.

﴿فَكَيْفَ أَتَى عَلَى قَوْمٍ كُفِرُوا﴾ حوارٌ مع النفس يحكي حال التردد بين التسليم بقضاء الله وحكمه وفصله، وبين الحزن على الأقربين الذين ماتوا على الكفر وهلكوا بسببه، وهو ترددٌ مشروعٌ ومقبولٌ؛ إذ الحزن هنا لا يعارض التسليم، بل هو لوعةٌ عاطفيةٌ بحكم الرحم والقربى، تجري جنباً إلى جنبٍ مع الإيمان بالله، والتسليم بقضائه.

﴿بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ أنواعٌ من البلاء في النفس والمال، والحياة العامة والخاصة.

﴿يَضَرَّعُونَ﴾ يتوبون ويرجعون إلى الحق، ويخضعون لله وحده.

﴿مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةِ﴾ مكان البؤس النعيم، ومكان الضر الخير.

﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾ كثروا نسلاً ومالاً لما منحهم الله من السكينة والاستقرار والنعيم.

﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ﴾ كأنهم يقولون: هذه هي الدنيا لا تستقيم على حال، ولم يتنبهوا إلى ما في كل ذلك من تنبيهاتٍ ومواعظٍ، فأغلقت عقولهم، وسكَّرت أبصارهم عن مشاهدة السرِّ الإلهي في كل هذه الأحوال، ولذلك لم يتفَعَّوا منها بشيءٍ، بل زادوا بها طغياناً على طغيانهم، وغفلةً على غفلتهم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ بَغْةٌ﴾ بالنسبة لغفلتهم، وإلا فإنَّ الله أنذَرَهُم بالرسَل، ثم برسائل القدر من ابتلاءاتٍ، وتنبيهاتٍ متنوعةٍ ومتكررةٍ.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الآثام والمظالم، وفيه تأكيدٌ أن القدر مقترنٌ دائماً بعدلٍ

الله وحكمته ورحمته، وهو منزّه عن الظلم والعبث، تعالى الله وتقدّس عن ذلك.

﴿يَتَأَوَّهُمْ نَائِمُونَ﴾ وقت الراحة.

﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ وقت الغفلة، وكلاهما من ملابسات البغته - والعياذُ بالله -، وفيها أن قدرة الله مطلقة لا يحدها مكان، ولا يقيدها زمان.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ باستدراجهم في النعماء حتى يظنّوا أنهم قد فضّلوا على من سواهم، وأنهم مُستثنون من وعيد الله، وهذه حال أهل الكبر والغفلة حتى تصدمهم الحقيقة، وتحلّ بهم القارعة.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أي: ألم يتبيّن لهؤلاء الذين يعيشون في الأرض اليوم بعد هلاك أسلافهم ومن كان يعمرها قبلهم؟

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ هو طبعٌ وفق سنن الله العادلة، فالكبر والجهل والظلم كلّ هذه أسبابٌ لتغليف القلوب، وتحجير العقول، فلا يطبعُ الله على قلبٍ ظلماً له، أو خروجاً عن هذه السنن وهذه الأسباب، فكان مثلاً هؤلاء مثلاً من يشرب السمّ، فيكتب الله عليه الموتَ بذلك، والله أعلم.

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

من الآية

١٠٣٥ - ١٢٦

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرَكِيكَ كَاتٍ عَنِقَبُهُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يُفِرُّعُونَ إِيَّايَ رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرِجْهُ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا تَوْكُ يَا كُلَّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسَبِّحَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا لَنَنْقِمَ مِنْآ إِلَّا أَنْ ءَأَمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْ رَبَّنَا أَفَرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

النبوة في مواجهة السحر

بعد النماذج التي قدمتها سورة الأعراف لدعوة المرسلين في الجزيرة العربية (هود، وصالح)، ثم في بلاد الشام (لوط، وشعيب) ﷺ، شرعت في عرض النموذج الآخر، وهو نموذج مختلف تماماً؛ فموسى ﷺ لم يبعثه الله إلى قبيلة ولا إلى قرية، وإنما إلى دولة وحضارة ومدنية وجيوش وعروش.

ومن ثمَّ اقتضى المقام تفصيلاً أكثر، وعرض مشاهد متنوعة وصور مختلفة لهذه التجربة من الصراع بين الرسالة السماوية وبين الدولة الفرعونية، وأولى هذه المشاهد هي استعانة فرعون بالسحرة، فكانت هذه اللقطات المثيرة:

أولاً: عرض موسى ﷺ لقضيته بشكل صريح وواضح ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُفِرُّعُونَ إِيَّايَ رَسُولٌ مِنْ

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠١﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٢﴾ فهو رسولٌ من الله يبلغُ الناسَ كلمةَ الحقِّ، وهو كذلك صاحب قضية تتلخَّص في إنقاذ قومه من وطأة فرعون وظلمه، وهنا تقرن الرسالة الموسوية في خطوتها الأولى بين العقيدة والسياسة، وبين الإيمان والمصلحة، والدين والدنيا، وهو إيذانٌ بشمولية الرسالة وقيادتها للمجتمع الجديد في كلِّ نواحي حياته.

ثانيًا: فرعون يطلب من موسى أن يعرض بيئته بعد أن عرض قضيته ﴿١٠٣﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٤﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٠٥﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٠٦﴾، وفي هذا نزولٌ للميدان الذي يُتَقَنُّه الفراعنة؛ ليكون فيه استدراجهم، ولتكون هزيمتهم أشدَّ وأوقع؛ حيث كان المصريون قد بلغوا في السحر شأنًا رفيعًا، وكانت الصنعة التي يتداول أخبارها كلُّ الناس على مختلف طبقاتهم ومستوياتهم.

ثالثًا: فرعون يختار السحرة ليواجه بهم النبوة ﴿١٠٧﴾ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١٠٨﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَالِمٍ ﴿١٠٩﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٠﴾ لقد استدراج فرعون بالفعل، وراح يستدعي كبار السحرة ويرغبهم، ويحشد الناس من حولهم.

رابعًا: في وسط الميدان، حوار ومباراة، ثم هزيمة ساحقة لفرعون وسحرته ﴿١١١﴾ قَالُوا يَكْفُورُونَ ﴿١١٢﴾ إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٤﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٥﴾ فَوَقَّعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٦﴾.

خامسًا: السحرة يُعلنون إيمانهم بالله ربِّ موسى وهارون، ويكفرون بفرعون وملئه ﴿١١٧﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ سَاجِدِينَ ﴿١١٨﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٩﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾.

سادسًا: فرعون يهدد السحرة ويلجأ إلى منطق القوة ليواجه به منطق الحقِّ ﴿١٢١﴾ لَا أَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَا أَضِلُّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٢﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٣﴾ وهكذا ثبت السحرة ولم

يُبالوا بفرعون ووعيده بعد أن رأوا الحقَّ عيانًا، واكتشفوا زيفَ الألوهية الباطلة التي كان يتزَيَّنُ بها فرعون، ويتسلَّط بها على العباد.

دقائق التفسير

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى﴾ أي: بعد من تقدَّم ذكرهم من الأنبياء؛ نوحٌ وهودٌ وصالحٌ ولوطٌ وشعيبٌ، وهو تثبيتٌ للتسلسل التاريخي.

﴿فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ إشارةٌ أنَّ الفساد مقترنٌ بالظلم، وهو نتيجةٌ من نتائجه، وثمره سيئةٌ من ثماره.

﴿وَقَالَ مُوسَى يَفِرْعَوْنُ﴾ فيه المبادرة والشجاعة، والخطاب بالعدل دون مدح ولا قدح.

﴿فَارْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أطلقهم من نير عبوديتك، واسمَح لهم بالخروج من مصر.

﴿فَإِذَا هِيَ تُعْبَانُ مُبِينٌ﴾ حوَّل الله عصا موسى إلى ثعبان؛ ليرى فرعون ضعفه البشري، ويهزَّ هيئته وسلطانَه الباطل.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ﴾ أي: حين أخرج يده تحوَّلت إلى لونٍ أبيضٍ ظاهر الحسن والوضاءة من غير سُوءٍ.

وربما يكون في هذه المعجزة إشارةٌ لطبيعة دعوة الأنبياء، فبعد أن أَرَهَبَ فرعون بعصاه أخرج له اليَدَ البيضاء؛ فالقوة والسلام، والترغيب والترهيب، والجنة والنار، هذه هي المقولات الإيمانية التي تدفع الإنسان لتحمل مسؤوليته في خياراته وقراراته، وفيها الأساس الذي يقوم عليه أمن المجتمع وسلامة أفرادِهِ، فالقوةُ لردِّع المعتدين والمجرمين، والمكافأةُ للمصالحين.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ هو دورُ الملأ دائماً في رفع الحرج عن أسيادهم، فبعد أن بانَّ ضعفُ فرعون وزيف ادِّعائه للربوبية والألوهية بادر الملأ دون إذنٍ من فرعون ليتولوا عن الحقِّ: إنه ساحر، وعن النبي: إنه ساحر، تمامًا كما يفعل قرواؤهم في كلِّ

زمان، فما قال عالمٌ كلمة حقٍّ بوجه سلطانٍ ظالمٍ إلا انبرى ملأؤه ليقذفوا صاحب الحقِّ بكلِّ نقيصةٍ وشائبةٍ.

﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ اترك موسى وهارون برهَةً من الزمن حتى نجمع لهما السحرة، وهو قبول بالتحدي، لكنه قبول فارغ يهدف إلى طمأنة فرعون والتملُّق له، وتأكيـد دعواهم أن الذي جاء به موسى إنما هو السحر.

﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يحشرون لك السحرة من كلِّ المدن.

﴿قَالُوا إِنَّا لَنَآجِرٌ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ هكذا قال السحرة لفرعون، وهو على خلاف عادة العبيد مع أسيادهم، فليس للعبد أن يشترط، ولا أن يطلب عَوْضًا عن عمله، والظاهر أنه نوعٌ من صناعة جوِّ الاحتفال، وإعطاء حركة من الفرح والبهجة، وهذا يُناسبُ في العادة أجواء المباريات والألعاب التنافسيَّة.

﴿قَالُوا يَكُومُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ ﴿١١٥﴾ قَالَ الْقَوَا ۖ خَيْرٌوهُ إِظْهَارًا لِمَكْنَهُمْ، واختارَ هو أن يبدووا هم أولاً؛ ليظهر للناس غاية ما عندهم، حتى إذا سقطوا كان سقوطهم أبلغ وأوقع.

﴿فَلَمَّا الْقَوَا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ دلالة أن سحرهم لم يكن حقيقةً، فهم يسحرون أعين الناس، ولا يسحرون حقائق الأشياء، وهذا ظاهرٌ في السحر؛ حيث يدَّعي الساحر أنه يقلب الحجر ذهبًا، ليأخذ بذلك من الناس درهماً، ولو كان صادقاً لاكتفى بالذهب.

﴿أَن آتَىٰ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ تعضيد للمعنى الأول؛ فالسحر إنما هو إفكٌ وكذبٌ.

﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ﴾ تعبيرًا عن غاية استسلامهم وإذعانهم، وإيمانهم بالحق الذي أظهره الله أمامهم على يد موسى ﷺ، وإيمان السحرة بإظهار لحجة الله على خلقه، وتمييز قاطعٌ لمعجزة النبي عمَّا يلتبسُ بها في أذهان بعض الناس من خرافةٍ وسحرٍ وشعوذةٍ.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَاَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ شأن الطغاة دائماً، يتعجبون حينما يقتنع أحد من

الناس بفكرة دون إذن منهم؛ لأن عقول الناس وإراداتهم ينبغي أن تخضع لهم، تمامًا كما تخضع لهم أموالهم ودمائهم وآلامهم وآمالهم، فليس للعبد مع سيده خيار ولا قرار.

﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ إنها المؤامرة، المؤامرة لقلب النظام وإخراج المدينة من ملك أهلها الأصليين وتسليمها للغرباء الطائرين، وهكذا فكلُّ فكرة أو مقولة أو مشروع يخرج عن عبادة السلطان فليس له تفسير عند السلطان سوى المؤامرة، وهذه التهمة ركيزة لثقافة الانتقام المغروسة في نفوس الظالمين لكلِّ مخالفٍ لهم، أو خارجٍ عن طوعهم. ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو العكس، إمعاناً في النكاية، وليراها الناظر من كلِّ جانب.

﴿لَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: يربط أجسادهم على جذوع النخل، ليجعلهم مثلاً وعبرة للآخرين، وهكذا تكون القرارات الفرعونية بلا قضاء، ولا محاكمة، ولا فرصة للحوار أو الرد. ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: أنزل علينا صبراً كثيراً يؤهلنا للثبات في مواجهة غضبِ فرعون وشرِّه ووعيده.

﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ دلالة أن دين الأنبياء واحد، وهو الإسلام.

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَيَهْلِكَ ۚ قَالَ سَنَقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا ۚ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلشَّاقِقِينَ ﴾ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٢٩) وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَ نَهُدُ الْحَسَنَةِ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ۚ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ۚ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا تَخِمْ لَكَ بِمُؤْمِنِيكَ ﴾ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ أَيْتٍ مَفْضَلَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ۚ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيَنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لِنُؤْمِنَ لَكَ وَلِنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ (١٣٥) فَانْقَضَى مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (١٣٦) وَأَوْزَيْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَنَرُكُنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ (١٣٧)

الصراع المفتوح مع فرعون وملئه

بعد خسارة فرعون في ميدان الحجّة والبرهان واستسلام السحرة وخروجهم عن طاعته لجأ كما يلجأ كلّ الطغاة في التاريخ إلى الأساليب الأخرى؛ المكر والقتل وكسر إرادة الناس بالقوة، وهنا بدأت المرحلة الأخيرة والحاسمة بين أهل الحقّ بقيادة موسى ﷺ وبين أهل الباطل بقيادة فرعون:

أولاً: دور الملأ في التآليب والتحريض ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَيَهْلِكَ ۚ ﴾ وهم هنا إنما يدافعون عن مكاسبهم وامتيازاتهم كشأن كلّ جماعة مقرّبة من السلطان، لكنهم يستخدمون مفردات الحرص على الأرض والنظام والتراث،

وَيَتَّهِمُونَ أَهْلَ الْحَقِّ بِالْفُسَادِ وَالْإِفْسَادِ.

ثانيًا: الإفراط في استعمال القوة؛ لكسر إرادة الناس وإشعارهم باليأس من المقاومة ﴿قَالَ سَنُقْلِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾.

ثالثًا: لجوء المؤمنين إلى الله الواحد القوي المتين، وتدرُّعهم بالصبر وطول النفس في ظل انعدام القوة المادية المكافئة لقوة فرعون ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وحين يُلامس حالة من الضعف والندامة أو الملامة ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ يقول لهم: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ إنه باب الأمل المعزز بحسن الظن بالله، مع الشعور بالمسؤولية، والاستعداد للمتغيرات.

رابعًا: الله يستجيب دعاء نبيه والمستضعفين من أتباعه، فيُرسل بالندارة تلو الندارة لفرعون وملئه لعلهم يتدبرون ويتعظون ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ ثم شدد عليهم أكثر ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾.

خامسًا: اتسم السلوك الفرعوني بالعناد والمكابرة مع شيء من الخداع والمراوغة ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بل كانوا يحمّلون موسى ما يجري منه على طريقة التشاؤم؛ تنفيرًا للناس عنه ﴿وَلِإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾.

وحينما يطول عليهم العذاب يلجئون إلى موسى ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ رَبَّكَ يَمَّا عَاهَدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ فرفع الله عنهم الرجز؛ ليقيم الحجة عليهم وهو أعلم بحالهم ومآلهم ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِلُغْوِهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾.

سادساً: لم تكن خاتمة الصراع لصالح السطوة الفرعونية، بل كانت لصالح الضعفاء المستضعفين ﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (١٣) وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعَفُونَ مُشْرِقِ الْأَرْضِ وَمَغْرِبِهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ﴿، والقرآن هنا يذكر النقاط الحاسمة للاتعاظ والعبرة دون ذكر الوقت الذي أخذته هذه المعركة حتى حُسمت بهذه النتيجة، فلعلها كانت سنين وعقوداً، كما هو الشأن في آجال الدول والممالك، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿وَيَذَرَكْ وَءَالِهَتَكَ﴾ دليل أن فرعون كان له آلهة، ربما صنعها هو للناس يستعبدون بها؛ ولذلك قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤].

﴿وَنَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ﴾ نتركهم أحياء بلا رجال؛ ليكون ذليلاً وخادمات له ولقومه. ﴿وَأَنَا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ فوقية الاستعلاء والسلطة، وليست فوقية المكان، وهو شائع في اللغة.

﴿أَوَدِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ بالتمييز العنصري؛ حيث كان الفراعنة يُدُلُّون بني إسرائيل ويستعبدونهم، وقد قتل فرعون أبناءهم لرؤيا رآها.

﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ لمحاولة ثنيهم عن اتباع الرسالة الموسوية، فهو اضطهاد ديني مضاف إلى الاضطهاد العنصري.

﴿بِالسِّنِينَ﴾ سنوات القحط وقلة المطر والزرع.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى﴾ أي: إذا حصل لهم خيرٌ من خصب وزرع ونعمة قالوا: هذا حقنا؛ لأننا أهل لكل خير. وإن انقلبت النعمة القوا اللائمة على موسى، كأنه شؤم لهم.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ﴾ أنواع من العذاب يستهدف أجسادهم كالقمل، أو يستهدف مزارعهم كالجراد، أو يستهدف دورهم ومساكنهم كالطوفان، وهكذا.

﴿الرَّجْزُ﴾ العذاب.

﴿الْيَمِّ﴾ البحر.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمغربَهَا أَلَنِي بَرَكَاتِهَا﴾ جنس الأرض، وليست عين الأرض التي خرج منها فرعون؛ فبنو إسرائيل لم يرجعوا إلى مصر بعد خروجهم، بل نزلوا في صحراء سيناء مرحلة التَّيَّة، ثم استوطنوا فلسطين على عهد داود ﷺ، والله أعلم.

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿وَجُوزَاءُ يَبْقَىٰ إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامِهِمْ هَلْ يَأْتُوا بِمُوسَىٰ أَجْعَلْ لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۚ﴾
 ﴿١٣٨﴾ قَالَ أَغْيَرُ آفَهِ أَتَغِيبُكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ الْمَالِ فِرْعَوْنَ سَوْمًا مِّنكُمْ سِوَةَ الْعَذَابِ يُقَالُونَ أَنبَاءُ كُمْ وَتَسْتَحْيُونَ نِسَاءَ كُمْ ۚ فِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤٠﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ يَوْمٍ فَتَمَّ بِمِثْقَلِ رَبِّهِ أَزْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ خَلْفَنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤١﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرَ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرِنِي وَلَكِنِ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَفْرَأَ مَكَانَهُ فَتَنَفَّسْ مِنِّي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتَ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٢﴾ قَالَ بِمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَةٍ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٣﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٤﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ الْبُحْرِ أَوْ بَرًّا أَوْ سَيْلًا مِّنَ الْمَاءِ لَا يَأْخُذُوا بِهِ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ الْبُحْرِ أَوْ بَرًّا أَوْ سَيْلًا مِّنَ الْمَاءِ لَا يَأْخُذُوا بِهِ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْشَاهُمُ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٦﴾ وَأَخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِن جُلُوسِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَّا يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا أَخَذُوهُ وَأَخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَيْفًا قَالَ يَلَسَا خَلَقْتُمُونِي مِن بَدْنِي أَعْمَلْتُكُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٩﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ الْجِبَلِ سِينًا لَهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتِرِينَ ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٢﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ ۚ وَفِي تَحْتَهَا هَدًى وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ هُم لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٣﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّيمِيقَتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلَكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٤﴾ وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالٌ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ رَبُّهُمْ أَنَّهُمْ أَتَقَرُّوا وَآلَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٥﴾

قيادة موسى ﷺ لقومه بعد هلاك فرعون

أهلك الله فرعون وجنده الذين خرجوا معه لملاحقة بني إسرائيل، أهلكهم الله غرقاً لينجو بنو إسرائيل بقيادة رسولهم الكريم موسى ﷺ، لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخهم، مرحلة يكون القرار فيها لهم وليس لفرعون، يصنعون فيها أهدافهم ويصوغون فيها حياتهم، ويتحملون فيها مسؤولياتهم، وهذا هو الاختبار الجديد الذي كلمهم عنه نبيهم أيام كانوا تحت وطأة فرعون:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

وفي هذا الاختبار كُشِفَتْ معادن بني إسرائيل، ومستوياتهم المتفاوتة والمتباينة في الإيمان والعمل والأخلاق، كما برزت تجربة إصلاحية وقيادية كبيرة شملت كل نواحي الحياة في ضوء الوحي الإلهي الذي كان يُتابع هذه الحركة، ويتنزل مع كل حادثة أو مشكلة أو منعطف.

وقد ضُمَّت هذه السورة عددًا من خصائص هذه المرحلة ومعالمها:

أولاً: الجنوح المبكر نحو الوثنية ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالِ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، ثم تكرر هذا الجنوح باتخاذهم العجل ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِن حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خَوَارٌ﴾.

إن تفكير بني إسرائيل بهذه الطريقة مع أنهم من أسباط يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم ﷺ، وهم قد خرجوا للتو بمعجزة إلهية يُثيرُ تساؤلات كثيرة: فما الذي يدفع البشر إلى مثل هذا السلوك، مع علمهم أن هذه الأصنام مخلوقة ومفعولة: ﴿اجْعَلْ لَّنَا إِلَهًا﴾؟!!

الظاهر أن هناك غريزة داخل النفس البشرية تدفعها للبحث عن المعاني المجسَّمة في صور محسوسة وملموسة بعيدًا عن المعاني المطلقة، مع أن تلك المعاني هي الأصل، وهي القاسم المشترك لكل هذه السلوكيات على اختلافها وتباينها؛ فعبادة الحجر والشجر والبقر لا يمكن أن تكون عن اقتناع ذاتي بهذه الأشياء، لكنها الرغبة في تجسيد الإيمان بالله الذي لا تُحيطُ به المدارك.

من هنا تأتي أيضًا عبادة القبور عند الشيعة، والغلو في صورة الحسين، ورفعته إلى مقام الألوهية كما يفعل النصارى مع السيد المسيح، فهو سلوك بشري متشابه تتركب فيه فطرة الإيمان بالله مع غريزة التعلق بالمحسوس، لتنتج هذه الصور من الشرك، والخروج عن معنى الإيمان الصحيح.

والمنهج الإسلامي لا يلغي هذه الغريزة بالكامل، بل يُوجِّهها الوجهة الصحيحة من خلال الشعائر؛ كتعظيم الكعبة، والصفاء والمروة، ومقام إبراهيم، مع الفصل التام بينها وبين عقيدة التوحيد، فهذه ليست آلهة ولا وسائط بيتنا وبين الله، بل هي علامات وأماكن لعبادة الله وحده. ثانيًا: إصلاح النفس يأتي في المقام الأول، فالذي يتصدى للشأن العام محاولًا الإصلاح والتغيير الأفضل لا بد أن يتجه أولاً إلى تركية نفسه، وإعدادها الإعداد المناسب لهذه المهمة.

وهذا هو الدرس الذي تقدمه لنا سورة الأعراف ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾، فهذه أربعون ليلة اعتزل فيها موسى قومه؛ ليكون مع الله في صلة روحية إيمانية، لا نعلم نحن البشر عن أحوالها وتفاصيلها شيئًا غير تلك الإيجاءات السريعة ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى﴾، ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ وهي كافية لاستشعار عظمة الموقف، وفضل الله الكبير على هذا النبي الكريم.

ثالثًا: الرسالة الموسوية، وهي الرسالة الشاملة من بين كل الرسالات السماوية السابقة ﴿قَالَ يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَتِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ، وهذه إحدى أهم وجوه الشبه القوية بين الرسالتين المحمدية والموسوية، فهما الرسالتان الوحيدتان اللتان ينص القرآن على شموليتهما وسعتهما؛ ولذلك جاءت قصة موسى الأكثر تكرارًا وتفصيلًا في القرآن الكريم، والله أعلم.

رابعًا: التكبر هو العقبة الأكبر في طريق العلم والهداية ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآةً لَا يُؤْمِنُوهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا

وَأِنْ يَكْرُوا سَبِيلَ الْفَى يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴿١٠﴾ فالتكبر أعمى وأصم لا يرى إلا ما يريد هو أن يراه، ولا يسمع إلا ما يريد هو أن يسمعه ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٢﴾ فهي غفلة على سبيل الإعراض المتعمد، والغرور الزائف، وليست غفلة الجاهل البسيط المشغول بهومته ومتطلبات عيشه.

خامسًا: إدارة المجتمع، وهي مهمة مقترنة بالدعوة والإصلاح، فالمجتمع الفوضوي لا يمكن إصلاحه، وفي هذه التجربة نرى كيف أن موسى ﷺ لما ذهب إلى ميقات ربّه لم يترك قومه في فراغ، بل أوكل مهمة القيادة إلى أخيه هارون ﴿١٣﴾ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾.

ثم لما عاد موسى من ميقات ربّه، راح يختار صفّ القيادة الأول ﴿١٥﴾ وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا ﴿١٦﴾ وهو الميقات الثاني، في إشارة لحاجة هذا الصف إلى تلك التزكية وذلك الإعداد تهيئة لهم ليكونوا حلقة الوصل بين القائد الأعلى وبين عامة الناس، فمهما كانت عبقرية القائد وقوته، فإنه لا يمكنه أن يدير المجتمع لوحده.

سادسًا: الطبيعة البشرية للأنبياء ﴿١٧﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴿١٨﴾ إنها صورة الإنسان ولو كان نبياً ومصطفى من الله، وهذا من كمال النبوة، فلو كان النبي جنساً آخر مختلفاً عن طبيعة البشر لما قامت به الحجة، ولما صالح لاقتداء الناس به، فالنبي إنما هو بشرٌ يُوحى إليه، فبالوحي يكون الخلاص واليقين بسلامة المنهج، وبالبشرية يصح الاقتداء والتأسي، ومحاولة تكرار التجربة على مرّ الأجيال.

سابعًا: الانقسام المتوقع لكل المجتمعات البشرية تجاه دعوات الخير والإصلاح ﴿١٩﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٠﴾، ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ

رَجِيمٌ ﴿١٠﴾، ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ﴿١١﴾﴾، ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾، وإذا كان كل هذا يحصل مع وجود النبي والآيات والمعجزات، فحصوله مع من هم دون ذلك أولى.

دقائق التفسير

﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ اجْعَلْ لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءِلَٰهَةٌ ﴿١٣﴾﴾ تقليد أعمى لما عليه الآخرون وإن كان لا يستند إلى منطق أو حجة، وهو عادة الشعوب والمجتمعات الضائعة التي لا تجمعها هوية، ولا تحميها عقيدة.

﴿مُتَبَرِّمًا هُمْ فِيهِ ﴿١٤﴾﴾ أي: هالك ومسبب لهلاكهم.

﴿فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ بحمل الرسالة، وليس تفضيلاً بالخلق، ولا تمييزاً لجنسهم دون الأجناس.

﴿يَسُومُونَكُم بِسُوءِ الْعَذَابِ ﴿١٦﴾﴾ يذيقونكم.

﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴿١٧﴾﴾ أي: أريني أنت نفسك، لأنظر أنا إليك؛ لأنه يعلم أنه لن يتمكن من النظر إلى ربه، إلا أن يكون ربه في صورة المرئي، قال: ﴿لَن تَرِنِي﴾ نفى القدرة عن موسى، ولم ينف قابلية الذات الإلهية للرؤية، ولو قصد هذا لقال: لا أرى، بمعنى: أن موسى ليس عنده القابلية للرؤية؛ لأنه بشرٌ محكومٌ بنواميس الكون، وقد أعطاه الله درساً حينما تجلّى للجبل فجعله دكاً، وخرَّ موسى صريعاً.

فهذه كلها تأكيدات لضعف الخلق وقصورهم أمام عظمة الخالق ﷻ، والموضوع بعيدٌ عن أحوال الآخرة التي ستتغير فيها النواميس، والله أعلم.

﴿فَإِنْ أَسْتَقَرَّ مَكَانُهُ فَسَوْفَ تَرِنِي ﴿١٨﴾﴾ علّقه بممكن أصلاً مستبعد حالاً، وهو تأكيدٌ أن النفي

حاصلٌ بسبب ضعف القدرات وليس لاستحالة أصل الرؤية، والمفاجأة كانت بدكّ الجبل، وهي حالة غير متوقّعة وغير لازمة في الذهن، كأن الله أراد أن يقول لموسى: إذا كان الجبل لم يتحمّل ذلك التجلّي الإلهي، فكيف بك يا موسى؟ ولذلك خرّ موسى صَعِقًا.

﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتَ إِلَيْكَ﴾ أفاق من صعقته بعد أن أدرك ضعفه البشري أمام العظمة الإلهية، فلاذّ بالتسبيح والتوبة مع أنه لم يقترف ذنبًا، لكنه مقام العبودية، واستشعار ضعف النفس وذلتها وتقصيرها أمام خالقها العليّ الكبير.

ومن ظنّ أن التوبة كانت عن السؤال فقد وَهَمَ؛ لأن الله في كلّ هذه القصة وفي كلّ مواردّها لم يُنكر عليه سؤاله، ولو كان إثماً لما تأخّر بيانه بحال.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ الظاهر أنها الألواح التي كتبت عليها التوراة بدلالة قوله: ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ وهو وصفٌ للتوراة، ولو كانت التوراة غير الألواح فما مضمونها إذا بعد أن تكفّلت الألواح بتفصيل كلّ شيء؟ أما المادة التي صُنعت منها الألواح فلا تعنينا بشيء، والخلاف فيها ترفٌ فكريٌّ لا قيمة له، ولا ينبغي عليه عمل، وحسبنا التصديق المجمل بالخبر كما ورد في الوحي.

﴿سَأُورِيكَو دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ وعيدٌ لمن فسق عن أمر الله ونكث عهده، وهو تفرّيعٌ مناسبٌ لقوله في الألواح: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنَاهَا﴾ فمن حاد عن ذلك فقد فسق، ومن فسق استوجب العقوبة، وهي خراب بيوتهم، ونهاية أمرهم.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ صرفًا على سنن الله وأسبابه المعروفة، وليس صرفًا إجبارٍ وإكراه، فمن تكبّر فقد أغلق باب الهداية عن نفسه، وصرفها عن الحق.

﴿حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي: بطلت وخاب سعيهم ومكرهم وتكبرهم، هذا هو مقتضى السياق، أما البحث عن بطلان الأعمال الحسنة التي تقع من غير المؤمنين فهذه مسألة أخرى لا يقتضيها السياق، وإقحامها فيه لا يخلو من التكلّف.

﴿لَهُ خَوَازِئٌ﴾ صوتٌ كصوت البقر، والأمر لا يعدو كونه حيلة وخديعة انطلت على بني إسرائيل، خاصة أنهم مُهيئون لمثل هذا من يوم خروجهم الأول لما قالوا: ﴿أَجْعَلْ لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾.

﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي: وقعوا في الندامة.

﴿غَضِبْنَا سِفَا﴾ معناهما متقارب، وجيء بهما معاً للتأكيد المعنوي، والله أعلم.

﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ تأكيدٌ لعادة بني إسرائيل في احتقار أنبيائهم واستضعافهم وقتلهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بابٌ واسعٌ من الرجاء؛ إذ جاء هذا تعقيباً على عبدة العجل الذين ندموا على فعلتهم، فالرجاء بعفو الله فيما هو دون هذا أوسع وأكبر.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ أي: هداً الغضب بطول الوقت، ونسبة السكوت إلى الغضب دليلٌ على صحة المجاز فيه وإن لم تصح نسبته على الحقيقة بحال، وهو اشتراط بعض أهل العلم في استعمال المجاز، وهو اشتراطٌ تحكُّميٌّ لا دليل عليه، والآية هذه تكفي لردِّه، والله أعلم.

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ إشارةٌ أن الخوف من الله أصلٌ في تحقيق الرحمة وسلوك طريق الهداية، بخلاف صفة التكبر التي هي أصلٌ في القسوة والغفلة والضلال.

﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ عددٌ تمثليُّه الحاجة الإدارية زماناً ومكاناً وحالاً، وليس هو تشريعاً، ولا مثلاً ثابتاً للاقتداء.

﴿لَمِيقَاتِنَا﴾ ميقاتٌ آخرٌ مع الله، فالأول كان مع موسى خاصة، والثاني كان معه السبعون الذين اختارهم من صفوة قومه، وقد أخذتهم الرجفة كما أخذه الصعق في لقائه الأول، وهذه مسائلٌ غيبيةٌ نَقَفَ فيها مع الوحي دون زيادة ولا نقصان، والعبرة فيها ظاهرة، والله أعلم.

﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ نفي بصيغة السؤال، فالله لا يأخذ أحداً بجريرة أحد، وفيه استعطافٌ لرحمة الله، وبراءَةٌ من السفاهة والشرك وعبادة العجل.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ اختبارك للناس وامتحانك لهم تمييزاً لصادقهم عن كاذبهم، ومؤمنهم عن منافقهم.

﴿هُدًى نَّآ إِلَيْكَ﴾ بُنَا إِلَيْكَ، ونسبة اليهود إلى هذا الفعل واردة، فاليهود معناه: العائدون والتائبون إلى الله، كما أن المسلمين معناه: المُتَسَلِّمُونَ لِلَّهِ، والخاضعون لشريعته، والله أعلم.

﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ دليلٌ أن الرحمة أصلٌ، والعذاب استثناء، ورحمة الله سبقت غضبه، وعفوه غلب عقوبته.

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَإِذْ
آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ
إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ۖ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ۖ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾
وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَئَ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ ۖ آبَ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ
أَثْنَتَا عَشْرَةَ سَائِلَةً ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ۖ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ ۖ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ ۖ وَالسَّلَوى ۖ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ
مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا
مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ ۖ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّفَعْنَا لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ ۖ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾
فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ ۖ يَمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾
وَسَأَلْنَاهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ۖ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ۖ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَّائُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ
شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۖ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ بَلَّوْهُمْ يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۖ اللَّهُ
مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ۖ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ۖ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ
السُّوءِ ۖ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ
تَأَذَّتْ رِبَّكَ لِيَتَعَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْفَيْصَةِ ۖ مَنْ يُسْأَلُ سَاءَ الْعَذَابُ ۖ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾
وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ ۖ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ۖ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾
فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ۖ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَذَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ ۖ يَأْخُذُوهُ ۖ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ
الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ
بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۖ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ نَفَقْنَا لِبَلِّلٍ فَوْقَهُمْ كَآفَةً ۖ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا
ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ۖ وَآذِكُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

ينتقل السياق القرآني بلا مقدمات ولا فواصل ليربط بين صورة الماضي وصورة الحاضر؛ بين صورة اليهود وحراكهم المضطرب والمتذبذب وهم تحت قيادة نبيٍّ منهم ومن بني جلدتهم، وبين صورتهم وهم أمام نبيٍّ من قومٍ آخرين، يدعوهم للإسلام الذي هو رسالة إبراهيم وموسى وهارون وكلِّ الأنبياء السابقين، ويمكن تلخيص الخطاب القرآني في هذا المشهد بالآتي: أولاً: أن الرسالة المحمدية هي امتدادٌ للرسالات السماوية السابقة، وأن هذه الرسالات قد بشرت بالنبي الخاتم محمد ﷺ ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾.

ثانياً: أن الرسالة المحمدية رسالة شاملة لكل الناس لا تميز بين جنسٍ وجنسٍ، ولا قومٍ وقومٍ ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. ثالثاً: أن الرسالة المحمدية رسالة خيرٍ وسيرٍ ورحمةٍ ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

رابعاً: أنه لا خلاص ولا نجاة إلا باتباع هذه الرسالة الخاتمة ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾، ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

خامساً: تذكير اليهود بتاريخهم مع أنبيائهم في كبريات الأمور ودقائقها ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسَاطِلًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ آبَ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ

رَفُلُوا حِطَّةً ۞، ۞ وَسَلَّهْمَ عَنِ الْقَرَبَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْذُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَانُهُمْ يَوْمَ سَكَبَتْهُمُ تُرَعٌ وَتَوْمٌ لَا يَسْتَيْتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۞، ۞ وَإِذْ نَقَّضْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَانَهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ۞. والمغزى من هذا التذكير: إقامة الحجة عليهم؛ فهذا النبي الأمي الذي لم يتعلم الكتاب، ولم يسمع من أحباركم وعلمائكم ها هو يُجبركم بما يجله كثير منكم، وبما هو موجود في كتبكم، ألا يدعوكم هذا للنظر والتفكير في دعوته ومراجعة أنفسكم قبل أن تُعرضوا وتصدوا الناس عنها بلا حجة ولا بيّنة؟

وفيه أيضاً تحذيرٌ ووعدٌ لهم إن هم استمروا في عنادهم؛ حيث إن بعض ما قصه عليهم قد تضمن عقوبات إلهية شديدة على مخالقاتٍ هي أهون من تكذيبهم للنبي، من مثل تبديلهم لكلمة حطّة ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ ۞﴾ ومثل وقوعهم في إثم الصيد يوم السبت ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ۞﴾.

وفيه أيضاً تنبيه المسلمين إلى حقيقة هؤلاء القوم، فهم إن كانوا بهذا العناد والمكابرة مع أنبيائهم الذين هم منهم ومن بني جلدتهم، فما المظنون بهم وقد انتقلت النبوة عنهم إلى غيرهم؟ سادساً: تمييز الصالح منهم عن الفاسد، وعدم أخذ هؤلاء بجريرة هؤلاء، وهذا هو العدل والإنصاف، فمهما كان تاريخ هؤلاء القوم وواقعهم فلا يصحُّ التعميم في الحكم عليهم، ولا طمس النقاط المضيئة في تجربتهم ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ۞﴾، ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ۞﴾، ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ ۞﴾.

سابعاً: أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد جاء هذا في وصف نبينا ﷺ ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وفي وصف الثلة المؤمنة التي كانت تُحاول الإصلاح في بني

إسرائيل ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا لَا إِلَهَ مِنْهُمْ أَوَ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَقْدِرَةٌ إِيَّاكَ رَبُّكَ﴾، وفي هذا دليل على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى مع ضعف الرجاء بالاستجابة، وقد استثنى الله من عذابه هذه الثلاثة ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ ووعدهم بالثواب والأجر ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

ثامناً: أن مستقبل هؤلاء اليهود المعاندين والكافرين بنبوّة محمد ﷺ أنهم يعيشون كل حياتهم في ضعف وعذاب يتسلط عليهم الآخرون ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُبُّكَ لِبَعَثَنَّا عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُوءُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾.

وهذا ظاهر من عهد الرسول ﷺ حتى تمكنهم مؤخراً من تشكيل دولة صغيرة ومحاصرة في أرض فلسطين، وهي دولة قليقة، وتعرض بين الحين والحين إلى ضربات المقاومة، كما أنها تستمد قوتها ووجودها من ارتباطها بالقوى الصليبية. وهذه الحالة الاستثنائية من عمر الزمن لا تعارض تلك الحقيقة الكبيرة؛ أن اليهود فشلوا في أن تكون لهم أمة وحضارة واستقرار ككل شعوب العالم، مع أنهم يمتلكون عمقاً تاريخياً لا يختلف عن بقية الأمم إن لم يزد على كثير منها.

دقائق التفسير

﴿النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ﴾ هو سيدنا محمد ﷺ وهو أمّي لا يقرأ ولا يكتب. ويبدو أن هذا هو وصفه في التوراة والإنجيل، وكونه أمّيّاً أبلغ في تصديق نبوته؛ إذ لو كان قارئاً لوجد المبتلون باباً للشك.

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾ مبدأ عظيم من مبادئ التشريع الإسلامي، والطيب: كلمة جامعة لكل ما هو نافع مادياً ومعنوياً، والخبيث: اسم جامع لكل ما هو ضار مادياً ومعنوياً.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ ما يشق عليهم.

﴿وَالْأَعْمَلُ أَلَقِيَ كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ من القيود والتكاليف الثقيلة التي كانت عقوبة لهم على
فسادهم وظلمهم، وكذاك التي ابتدعوها من أنفسهم جهلاً أو غلوًا.
﴿وَعَزَّزُوهُ﴾ عَظَّمُوهُ.

﴿وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِطًا أُمًّا﴾ قَسَمْنَاهُمْ إِلَى قِبَائِلَ وَمَجْمُوعَاتٍ، فَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ
فِيْلَةً مِنْ اثْنِي عَشَرَ وَلَدًا، وَهُمْ أَبْنَاءُ يَعْقُوبَ، يَوْسُفَ وَإِخْوَتِهِ.
﴿وَأَنْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾ خَرَجَتْ مِنَ الْحَجَرِ اثْنَتَا
عَشْرَةَ عَيْنَ مَاءٍ صَالِحٍ لِلشَّرْبِ، لِكُلِّ سَبْطٍ مِنْهُمْ عَيْنٌ.
﴿أَسْكِنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ بَيْتِ الْمَقْدِسِ.

﴿وَإِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا﴾ ظَاهِرَةٌ فَوْقَ الْمَاءِ؛ لِكثَرَتِهَا وَتَزَاحُمِهَا.
﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ لَا يَقْطَعُونَ عَمَلَهُمْ.
﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ نَزِيدُ فِي امْتِحَانِهِمْ كُلَّمَا زَادُوا فِي فَسْقِهِمْ؛ عَقُوبَةً لَهُمْ
وَتَحْصِيصًا لِلإِيمَانِ الَّذِي يَدْعُونَ.
﴿قَالُوا مَعْذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ طَلَبًا لِلْعُذْرِ مِنْهُ تَعَالَى؛ حَتَّى لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَلَا نُثْلَامُ عَلَى تَقْصِيرِنَا فِي
دَعْوَتِهِمْ وَنَصَحَتِهِمْ.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أُنْجِنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ ﴿وَهَذَا مِنْ تَمَامِ مَعْذَرَتِهِمْ بَعْدَ أَنْ أَدَّوْا
مَا بَوَسَعَهُمْ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَن مَن لَمْ يَنْهَ عَنِ السُّوءِ فَقَدْ اسْتَوْجَبَ الْعُقُوبَةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رَبُّكَ﴾ أَيُّ: أَخْبَرَ وَبَيَّنَّ.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ هُمُ الْيَهُودُ الَّذِينَ وَرِثُوا التَّوْرَةَ عَنْ أَسْلَافِهِمْ
وَعَاصَرُوا الْبَعْثَةَ الْمَحْمُودِيَّةَ.

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ
الْكِتَابِ أَن لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴿نَزَلَتْ فِي مَنْ يَشْتَرِي مَتَاعَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا بِتَحْرِيفِ الْكِتَابِ

والكذب على الله، وهم أحرار اليهود، وكانوا يُمنُّون أنفسهم بمغفرة الله لهم بعد كلِّ ذنبٍ من هذا القبيل، لكنَّهم يعودون إليه في كلِّ مرة، فلم يكن رجاء المغفرة صادقاً عندهم، ولو كانوا صادقين لتوقَّعوا عن بُهتهم وتحريفهم.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ يتمسكون به، ويحافظون عليه، ويُظهرونه ولا يكتُمونه.

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ خصَّ المصلحين من بين الصالحين؛ لأن المصلح هو من يبذل جهده في نصح الآخرين وتبيين الحقِّ من الباطل، وهؤلاء هم الذين يقوم بهم الدين، أما الصلاح بلا إصلاح فهو صلاحٌ زائلٌ وذاهبٌ في غمرة الباطل.

﴿وَإِذْ نُنَاقِا الْجِبَلَ فَقَوْهَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ خلعناه من مكانه ورفعناه فوقهم كأنه سحابة ثقيلة.

﴿خُذُوا مَاءَ آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ بعزمٍ وحزمٍ دون ضعفٍ أو تردُّدٍ.

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الشَّيْطَانُ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَأَنْزَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ فَاَنْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَلَاهُ كَنُتِلَ الْكَلْبُ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِآيَاتِنَا كَاذِبِينَ ﴿١٧٧﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَفْئِدَةٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يَضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيْدِي لَهُ وَيُذَرِّهِمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْتُلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُحِيطُ بِهَا لَوْفًا إِلَّا هُوَ يُنْقَلِتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْتُلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْفَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

سبيل الهداية وأسباب الضلال

بعد هذا التطواف في تاريخ الدعوات وتجارب الأنبياء مع شعوبهم في الجزيرة والشام ومصر، على اختلاف تلك الشعوب في طبائعها ومستوياتها الثقافية والحضارية، وعاقبة المحسنين منهم والمسيئين، شرعت الأعراف في شرح سبيل الهداية وتمييزه عن أسباب الضلال، لتترك الناس أمام مسؤولياتهم فيما يختارون وما يسلكون:

أولاً: إن الإيثار هو نداء الفطرة المغروس في كينونة الإنسان، وإن الإنسان لا يحتاج إلى جهد

كبير لاكتشاف هذا الغرس مهما كانت أغشية الجهالة والغفلة ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾.

ثانياً: إن فتح منافذ المعرفة شرطاً في الهداية والوصول إلى الحقيقة، والتحرر من قيود الجهل والغفلة والتقليد الأعمى ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾، ﴿أُولَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾، ﴿أُولَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾.

ثالثاً: إن المعرفة البشرية لها حدودها؛ لأن وسائل البشر محدودة أيضاً، وهذه المحدودية تتناسب مع وظيفة الإنسان على هذه الأرض، فهو يعمر الأرض ويفكر في الملكوت الأوسع من خلال آثاره في عالم الشهادة، فالشهادة عملٌ ومسؤوليةٌ، والغيب إيمانٌ وتأملٌ وتدبرٌ ﴿أُولَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ﴾، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ﴾.

رابعاً: إن العلم النظري من غير تركية وتربية لا يقود إلى الهداية؛ إذ سيكون طوع الهوى والشهوة والمصلحة الآنية ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾.

خامساً: إن محور الهداية الحقّة إنما هو التوحيد ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِذُونَ فِي الْأَسْمَاءِ﴾ فالأسماء الحسنى له وحده بمعانيها وصفاتها، وهي الشارحة والمبيّنة لحقيقة التوحيد، وإن غير الله مهما كان شأنه لا يختلط مقامه بمقام الله ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا

وَلَا ضَرًّا ﴿١٢٢﴾ وَإِنِ الْمُرْكُ لَا يَقْبَلُ لَهُ عَذْرُ ﴿١٢٣﴾ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٢٤﴾ أَوْ
نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ ﴿١٢٥﴾

دقائق التفسير

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قَالُوا بَلَىٰ
شَهِدْنَا ﴿١٢٦﴾ صورة من صور الغيب لا يعلم كنهها وحقيقتها إلا الله، وإن كان المغزى منها
واضحًا، وهو الإقرار الفطري بوحداية الخالق وربوبيته، ولا يبعد هذا عن قوله تعالى في خلق
السموات والأرض: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]،
فالكون كله مخلوق له ويسبح بحمده في أصل تكوينه ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (١).
والناموس الكوني الموحد الذي يجمع أجزاء هذا الكون كلها في نظام متكامل ومتناسق شاهد
على وحداية الخالق، أما الخوض بلا دليل من الوحي في كنه الغيب وذلك العالم السابق على عالم
الشهادة فهو من التكلف الذي لا يُنتج عملاً، ولا يُوصل إلى معرفة، ويُغني عن هذا كله قوله
تعالى: ﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].
﴿نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ الرجل الذي تعلّم الكتاب وأصبح من علماء أهل الكتاب.
﴿فَأَنسَلَخَ مِنْهَا﴾ تنكّر لها وابتعد عنها.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي: بهذه الآيات وتلك العلوم إلى منازل الأبرار.
﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ ركن إليها والتصق بالدنيا مؤثراً متاعها الزائل على ما عنده من
العلم.

﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ أي: إن زجرته أو تركته فهو في الحالين سواء،

(١) تكرر هذا النص الكريم في سورتي الجمعة / ١، والتغابن / ١.

وهو مثل لمن تأتيه النذر والمواعظ فلا يتغير ولا يتعظ، ويبقى لاهثاً وراء شهواته وملذاته، وهي صورة مركزة في العالم الذي عنده الآيات والدلائل، فينسلخ منها ويذهب وراء الجاه والمال، يبيع دينه وعقله وأمانته، وهو حال كثير من ذوي العلم في كل زمان، والعياذ بالله.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ هَيَّأَنَا هَآ.﴾

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ هي في ذاتها صالحة للفهم والبصر والسمع، لكنهم يعطلونها عن معرفة الحق، ولا يستعملونها إلا في أهوائهم وشهواتهم؛ ولذلك شبههم بالأنعام.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وهي أسماء توقيفية ورد الوحي بها مثل: الله، الرحمن، الرحيم، الغفور، الودود، وليس للمخلوق أن يخترع لخالقه اسماً يدعو به ولو كان معناه صحيحاً ومقبولاً، فالوقوف عند ما سَمَّى الله به نفسه هو من تمام التعبد وحسن الأدب.

﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ أي: يجحدونها ويكذبون بها، ويدخل فيه أيضاً الاستهزاء والتشكيك والإشراك، وكل ما يُوحى بسوء الأدب وقلة الإجلال والتعظيم.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هو نوعٌ من مكر الله بالمتكبرين الذين يظنون أنهم يمكرون بالله وبالمؤمنين، فيُعطيهم الله ما شاءوا من نعيم وجاه وسلطان ثم يأخذهم وهم سادرون في غيهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤].

وهذه صورة من صور الاستدراج، ومنه العلم الذي يؤتاه الله لبعض الناس فيصدّهم عن سماع الحق من غيرهم عناداً وتكبراً، والمقيم على البدعة وهو فرحٌ بها ويظنُّ أنه خيرٌ من بقيّة الناس هو استدراجٌ كذلك، والعياذ بالله من كلّ ذلك.

﴿وَأَمَّا لِيُلهِمَ﴾ إِبْتُ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿أمدّ لهم فيما يشتهون وأمهلهم، وهذا تفسيرٌ لمعنى الاستدراج، وفيه التأكيد أن الاستدراج هو من كيد الله الذي يقابل كيدهم.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ بمعنى: أنهم لو أعملوا عقولهم لما اتهموا نبيهم بالجنون، وهو يأتيهم بكل هذه البينات، وهو الصادق الأمين في حياته وسلوكه معهم.

﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يتخبطون كما يتخبط الأعمى في الليل البهيم.

﴿أَيَّانَ مَرْسَنَهَا﴾ نهايتها، كأنها المحطة التي ترسو عندها سفينة الحياة وتتوقف.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ تعليم للعالم إذا سُئِلَ عما لا يعلمه.

﴿لَا يُجَلِّيْهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ لا يُظهرها في وقتها إلا الله، كأنها حقيقة واقعة وموجودة لكنها خفية على مدارك البشر، وفيه تأكيدٌ لَحتمية مجيئها، وإشارةٌ أن الزمن عند الله واحد، وإنما يفرق الماضي عن المستقبل بالنسبة للمخلوق ومداركه المحدودة.

﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثقيلة بحقيقتها وأهوالها، وثقيلة من حيث عجز المخلوقين عن إدراكها والتنبؤ بها.

﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ كأنك تعلمها لشدة اهتمامك بمعرفة وقتها وسؤالك عنه، وأنت لست كذلك؛ لأنك تعلم أن هذا لله وحده ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾.

﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتَ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ فما يُصيب الإنسان من فقر ومرض وخسارة وحوادث متنوعة دليلٌ على أنه لا يعلم الغيب، ولو كان يعلم الغيب، لتجنب الكثير من هذا، ولتحصل له الكثير من الخير، والخير هنا هو خير الدنيا، وكذلك السوء سوء الدنيا، أما خير الآخرة فيتحصل بالإيمان والعمل الصالح، والرسول ﷺ هو المثل الأعلى، والأسوة الحسنى.

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْيَهُودَ يَمُشُونَ بِهَا أَمَ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونَ ﴿١٩٥﴾ إِنْ وَلِيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ الْعَقْلَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّكَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِنَايَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنْ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَغْفِرُونَ عَنْ عِبَادِهِمْ وَيُسَيِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ۞

تلخيص وتوجيهات ختامية

تضمَّنت خواتيم سورة الأعراف النقاط القوية التي تلخص رسالة السورة من أولها إلى

آخرها:

أولاً: التذكير بقصة الخلق الأولى وما تضمَّنته من درس عميق في التوحيد الذي هو أساس

الدين وركنه الأول والأهم ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ

إِلَيْهَا ۞ ﴾ ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ ﴾ .

ثانياً: مناقشة المشركين واعتقاداتهم الباطلة في معنى الألوهية، وتصوراتهم الخاطئة عن علاقة

الخالق بالمخلوق ﴿ أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ

يَنْصُرُونَ ﴿١٠٠﴾، ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

ثالثًا: الحذر من الشيطان وتليساته ووسوساته ﴿وَمَا يَزْعَمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿١٠١﴾.

والمناسبة هنا أن الشيطان هو الذي أضلَّ أبونا حتى أكل من الشجرة المحرمة، وهذا هو ديدن الشيطان مع ذرية آدم حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

رابعًا: التمسك بالقرآن الكريم، فهو العاصم من مكائد الشيطان ﴿قُلْ إِنَّمَا آتَيْتُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢١٢) وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢١٣﴾.

خامسًا: الذكر المستمر، وبناء الروح القوية بالله، الموصولة بمعرفته والمتسامية على دناءات الدنيا ومستنقع شهواتها وآثامها ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾، ﴿وَأَذْكُرَنَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

سادسًا: السجود لله وحده والذي هو رمز للتوحيد والخضوع العملي لله الخالق العلي العظيم ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ في تذكير بالمعصية الأولى في قصة الخلق؛ حيث تكبر إبليس ورفض الخضوع لأمر الله، بينما كان الملائكة ولا يزالون ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ والإنسان مخير بين أن يسلك طريق الملائكة أو يسلك طريق الشيطان، وهو يتحمل مسؤولية خياره وقراره.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ آدم ﷺ.

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواء، خلقها الله من ضلع آدم.

﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليستقر ويشعر بالراحة والطمأنينة، وهذا هو دور كل امرأة مع زوجها، وقد أعطاه الله من الخصائص ما يؤهلها للقيام بهذا الدور، الذي يُضيف على الحياة قيمة نفسية وجمالية أرقى بكثير من تلك القيم المادية الجامدة.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ تعبير عن الجماع.

﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ كبر الحمل الذي في بطنها.

﴿لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا﴾ مولودًا سليمًا ومعافى من كل نقصٍ ومرضٍ.

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ انتقال والتفات إلى حال المشركين من ذرية آدم الذين يُعطيهم الله الأولاد الصالحين، ثم يشركون فيهم أصنامهم بالتسمية؛ كعبد العزى، وعبد اللات، وبالندور والقرايين ونحوها.

والالتفات ظاهر في السياق الآتي كله، فهو مناقشة لعقيدة الشرك الصارخة والمتغلغلة في نفوس المشركين، ولا يمكن أن يكون الخطاب في كل هذا موجَّهًا لآدم وحواء، فهما قطعًا لم يكونا من المشركين.

﴿الْهَمَّ أَزْجَلُ يَمْشُونَ يَهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ يَهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ يَهَا أَمْ لَهُمْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ يَهَا﴾ بيان لعجز الأصنام ونقصها قياسًا بما لدى البشر الذين يعبدونها، فالمشركون يستطيعون المشي والبطش والبصر والسمع، فهم أقوى وأقدر من أصنامهم.

﴿فَلَا تَنْظُرُونِ﴾ لا تنظروني أو تهملوني.

﴿إِنِّي إِلَهُ رَبِّكَ﴾ الذي ينصُرني ويؤيدني.

﴿وَتَرْنَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فعيون الأصنام مفتوحة كأنها تنظر لكنها لا تنظر؛ لأنها منحوتة بأيدي البشر، وليست عيوناً حقيقةً كتلك التي خلقها الله في البشر، ولا يبعد في السياق أن يكون المقصود المشركين أنفسهم، فهم ينظرون إليك يا محمد لكنهم لا يبصرون الحق الذي معك.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ صفتان للداعية الناجح؛ يأخذ بالعفو حلماً وتكرماً وتغافلاً عن سوءات الناس ومثاليهم، ويأمر بالعرف، أي: المعروف الذي هو كل طيب من قولٍ وعملٍ وسلوكٍ، والسياق بعيد عن معنى الصدقة، وأن المقصود أخذ العفو من أموال الناس، وهو الزائد عن حاجتهم، وإن وردَ هذا المعنى في سياقٍ وموضعٍ آخر، والله أعلم.

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ دافعٌ يدفعك للشرِّ والمعصية من وسوسةٍ وفتنةٍ وتزيينٍ للباطل.

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ اطلب الحماية منه سبحانه، ولا تغترَّ بما عندك من علمٍ وتعبدٍ.

﴿طَافٍ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ عارض من الوسوسة والأفكار السيئة.

﴿تَذَكَّرُوا﴾ الحقائق الإيمانية بذكرهم لله وتلاوتهم للقرآن واستذكارتهم لما هم فيه من نعمة الطاعة وأنس المناجاة.

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ الشياطين يمدُّون إخوانهم المشركين بما يدفعهم أكثر نحو الضلال والجريمة والتمسك بالعادات السيئة.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَا آجِبْنَاهَا﴾ يطلبون الآيات على هواهم، فإن لم تأت كذلك لامُوا النبي ﷺ كأنه هو من ينزل الآيات، وكذلك يفعل أهل الباطل مع علماء الدين، يطلبون الفتاوى على مقاييسهم، فإن تمسك العلماء بما عندهم من الحقِّ لامُواهم وعاقبوهم وحاربوهم.

﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ تذللاً لله، وتقرباً إليه، وخوفاً منه.

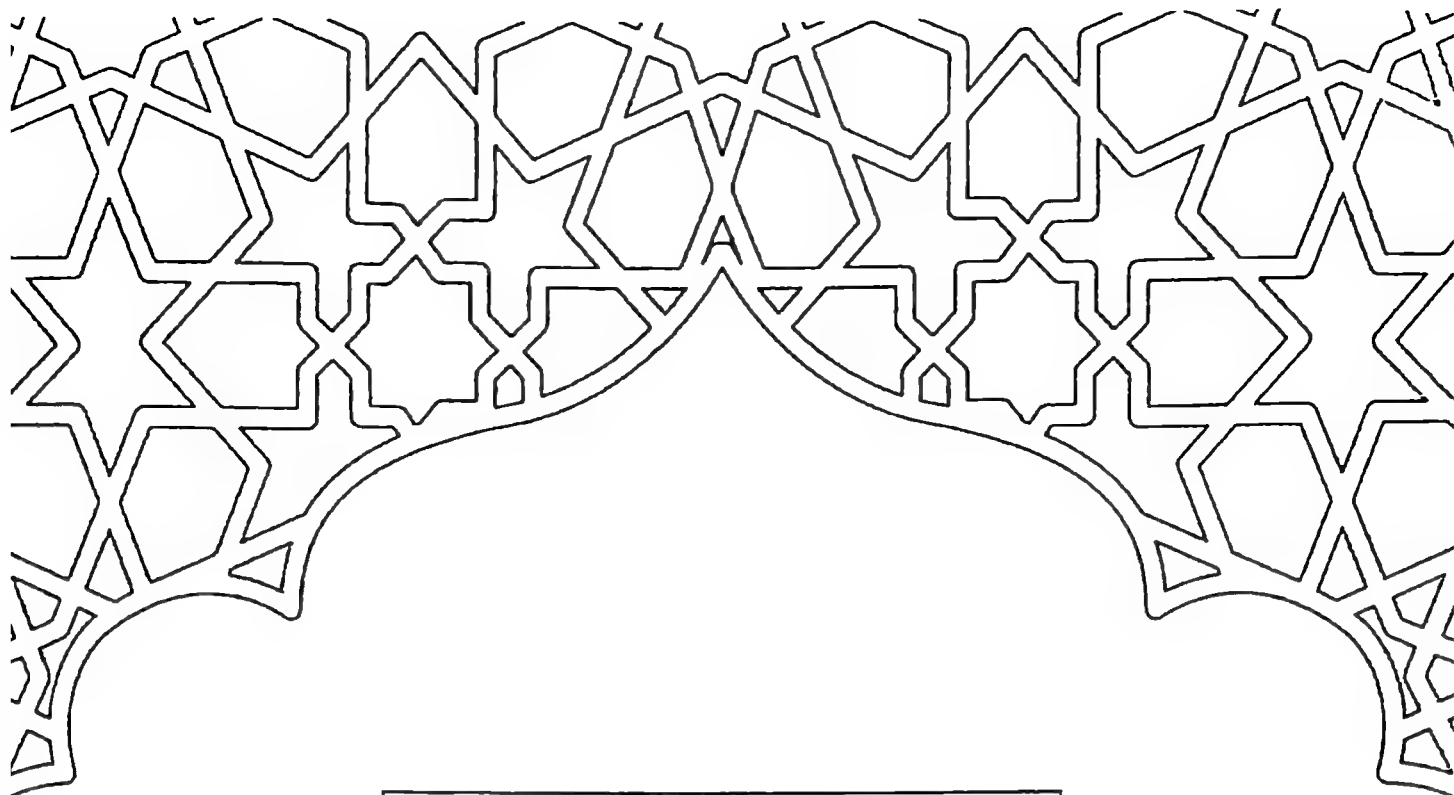
﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ في القرآن أو الدعاء أو الذكر بأنواعه، فيكفي الصوت المفهوم دون

الصراخ والصياح الذي لا مُوجِبَ له.

﴿بِالْعُدُوِّ وَالْأَصْحَالِ﴾ بداية النهار وآخره، وفيه الإشارة للمداومة وترك الانقطاع.

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ فمن لم يذكر الله فهو غافل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ الملائكة.



سُورَةُ الْاَنْفَالِ

المجلس الخامس والسبعون: يوم الفرقان

المجلس السادس والسبعون: تمايز الصفوف

المجلس السابع والسبعون: بيان المعركة

المجلس الثامن والسبعون: فقه الجهاد

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ كُلِّ الْأَنْفَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ (٤) كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ ۝ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۝ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ۝ (٨) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلِفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ۝ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَكَانَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ (١٣) ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ۝ (١٤) يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيَهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ۝ (١٥) وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدِ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقَوْلٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فَتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ (١٧) ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ۝ (١٨) إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ (١٩)﴾

الموضوع الأساس لسورة الأنفال هو معركة بدر، ولذلك فهي من أوائل السور المدنية، وقد تخصصت في الشأن العسكري عقيدة وتربية وتجربة وأحكاماً، إنها تتحدث عن الجيش، وليس عن المجتمع المدني، وهذه النقطة جديرة بالملاحظة لكل من يريد أن يفهم طبيعة هذا الدين؛ لأن الخلط بين الفقه العسكري والفقه المدني قد ولد إشكالات كثيرة لدى الباحثين والمهتمين فضلاً عن غيرهم.

في الدرس الأول نتحدث الآيات عن معركة بدر من حيث فلسفتها الكلية وعمقها الثقافي والحضاري ومسوغاتها وأهدافها، إنها الأسس المبدئية التي ينبغي استحضارها قبل الدخول في مجريات المعركة وأحداثها وأحكامها التفصيلية:

أولاً: إنها معركة عقيدة ومبدأ، لا معركة مصالح ومكاسب، إنها معركة المؤمنين حقاً ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿ في مقابل الكافرين المجرمين الذين ﴿شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

ثانياً: إن الله تولى أمر المؤمنين في هذه المعركة، فأمدَّهم بأسباب النصر ومقوماته ﴿إِذَا تَسْتَعِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ أِنِّي مُدْكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، ﴿إِذَا يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ ومع الملائكة كانت المؤيدات الأخرى ﴿إِذْ يُغَشِّبُكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ، وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ ثم بعد كل هذا يأتي التأكيد الرباني أن الله تبارك وتعالى هو الذي قتل الكافرين وردَّ كيدهم ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾.

إن القرآن هنا يُؤسّس لمعنى جديد في القتال يختلف عن ذلك القتال الذي يألّفه الناس، إنه القتال الذي يربط عالم الغيب بعالم الشهادة، وهذا الربط له ظلاله في طبيعة القتال وأساليبه وآدابه وأسبابه ونتائجه، القتال الذي يحرص فيه المقاتل أن ينقذ عدوّه من وحل الشرك والشرّ والمصير البائس إلى الرحمة والعدل وجنة الخلد مهما كان جنس هذا العدو وشكله ولونه.

وهو ليس قتالاً من أجل الإكراه على الدين ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، بل هو لرفع الظلم والأغلال التي تقيّد حريّات الناس في خياراتهم وقراراتهم، ثم بعد هذا يتحمل كلّ إنسان مسؤوليّةه، إنه قتال ليس لكلّ المخالفين أو الكافرين، وإنما هو لمن ﴿شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ظلماً وعدواناً حتى منعوا الناس من سماع القرآن، ومنعوا المؤمنين من الصلاة والطواف والجهر بدعوتهم، أما مع غير هؤلاء فالدعوة هي الأصل، وسلاحها البيان والحوار والأخلاق والقُدوة الحسنة وليس السيوف والسّنان، فالسيف ليس وسيلةً للهداية، والذي يهتدي تحت حدّ السيف ما هو بمُهدّد على الحقيقة.

ثالثاً: إن رسالة المعركة كانت لإحقاق الحقّ وإبطال الباطل ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ وهذا معنى واسع لم يتبّه له إلا القليل؛ فإحقاق الحقّ غير الحقّ، وكذلك إبطال الباطل، فالحقّ قبل المعركة وبعد المعركة سواء، وكذلك الباطل، لكن الجديد والذي هو غاية المعركة وهدفها الكبير إنما هو (إحقاق الحقّ) و(إبطال الباطل)، فالحقّ الذي ليس له سيادة على أرضه هو حقّ ضائع، أشبه بالنظريات الفلسفيّة والأمانى الأفلاطونيّة التي لا وجود لها إلا في بطون الكتب.

إن الدولة الجديدة التي أنشأها الرسول ﷺ لا يمكن أن تستمر دون فرض سيادتها على الأرض، وقد كان الاختبار الأول لهذه السيادة هو اختراق أبي سفيان وقافلته لأراضي هذه الدولة دون علم ولا إذن، وهو أمرٌ مرفوضٌ لدى كلّ دول العالم قديماً وحديثاً، من هنا كان اعتراض القافلة، ولو مرّت القافلة دون اعتراض فلن يكون هناك معنى لهذه الدولة الجديدة.

قيادة قريش أدركت هذا المغزى ووصلتها هذه الرسالة، فتجهّزت للردّ وليس لحماية القافلة

فقط؛ ولذلك قال أبو جهل بعد سماعه بخبر نجاة القافلة: (والله لا نرجع حتى نردّ بدرًا، فتنحر الجُزور، ونشرب الخمر، فتسمع بنا العرب وبمسيرنا، فلا يزالون يهابوننا) ^(١).

فالهيبة هي هاجس أبي جهل وليس العير، ووجود دولة تتحكم في الطرق التجارية بين مكة وبلاد الشام يحدّش هذه الهيبة، وعلى هذا اندلعت المعركة لتُقرّر في النهاية لمن السيادة على هذه الأرض، ثم تبعها سلسلة من المعارك، حتى أقرت قريش بسيادة المسلمين على أرضهم في صلح الحديبية، فكان بذلك الفتح المبين.

رابعًا: تعظيم المعركة وتنقيتها من الشبهات والشائيات؛ حيث إن اعتراض القافلة قد يلتبس بالأغراض المادية الصغيرة؛ ولذلك استهل القرآن هذه السورة بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ۖ﴾ وهي الأموال المُحصّلة بعد الحرب، فكان الجواب سريعًا ومقتضبًا: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَأَتَقُوا اللَّهَ﴾.

فالمعركة ليست معركة غنائم وأنفال، ولا استرجاع حقوقٍ ماليةٍ اغتصبها قريش من المهاجرين، كما يُوهّم كلام بعض من كتب في فقه السيرة، والقرآن كأنه يقول هنا للمسلمين: اتركوا الأنفال، فالله سيُمضي بها حكمه، وهذا المعنى أكّده بعد بضع آيات: ﴿وَتَوَدُُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾.

إن يوم الفرقان لا يمكن أن يكون يومًا لاسترجاع الأموال المغصوبة، أو الثأر لأيام العذاب التي تحملها المستضعفون في مكة، هذه حقوق نعم؛ لكنها صغيرة جدًا أمام عظمة يوم الفرقان. خامسًا: ابتداء التشريع العسكري، ونزول الأحكام العملية المنظمة لأداء الجيش وسلوك الجند ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ۚ ۝١٥ وَمَنْ يُولِهِمْ يُوبِخْهُ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾.

(١) ينظر: السيرة النبوية للإمام أبي محمد عبد الملك بن هشام الجُمَيري المَعافري (ت ٢١٣) (٣/١٦٦) مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط. ٢، ١٣٧٥ - ١٩٥٥ م، تح مجموعة من المحققين).

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ الغنائم، واحدها النفل وهو الزيادة؛ وسميت بذلك لأنها زيادة على المقصود من الحرب، فالنصر أساس والنفل زيادة، والله أعلم.

والفعل (سأل) إذا عُدِّي بنفسه كان معناه: طلب الشيء، وإذا عُدِّي بـ (عن) كان معناه: طلب العلم به، والصحابة رضي الله عنهم لم يسألوا الأنفال، وإنما سألوا عن حكمها، وهذا هو دأبهم في كل ما يستجد لهم.

﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ﴾ أمرها الله، وتنفيذ الأمر موكول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كأنه أراد تأخير بيان الحكم حتى تستقر الأسس المتينة للتربية الجهادية، والتأخير بحد ذاته تربية وتزكية للنفوس، تسمو بها عن الاهتمام بحطام الدنيا وغنائمها إلى معالي الأمور المتعلقة بأصل البعثة، والغاية الجليلة لهذه الرسالة.

﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ يَتَنَبَّكُمْ﴾ أمر بإصلاح العلاقة بين المؤمنين، وفيه الإشارة إلى أن التعلق بحطام الدنيا سبب لفساد العلاقة بين الناس.

﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ تعظيماً لله، وهذا واحد من الأعمال القلبية الجليلة المنبثقة عن الإيمان.

﴿زَادَتْهُمْ إِيْمَانًا﴾ الإيمان واحد، لكن حضوره في القلب متفاوت، وآثاره في الخلق الباطن والسلوك الظاهر متفاوتة أيضاً، وبقدر ذكر الله وتدبر آياته يكون المؤمن أقدر على استحضار الإيمان وجني ثماره المرجوة.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ذكر الإنفاق عقب الحديث عن الغنائم فيه دلالة تربوية دقيقة لا نخفى على متدبر.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ هم المؤمنون الصادقون الذين تظهر عليهم آثار الإيمان.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ أخرجك من المدينة إلى مياه بدر.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ كارهون لمواجهة قريش من دون إعداد واستعداد؛

حيث إن كثيرا منهم قد خرجوا لاعتراض القافلة فلم يأخذوا أهبتهم للقتال الحق.

﴿يُجَدِّدُ لَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ لضعف استعدادهم؛ ولأنها أول مراجعة لهم، وهذه من صفات النفس البشرية، لكنها صورة تقابلها صورة أخرى عبّر عنها أشدّاء الصحابة رضي الله عنهم، كما هو مفصّل في كتب السيرة، كمقولة سعد والمقداد وغيرهما.

﴿إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ العير أو النفير.

﴿غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾ العير؛ لأنها غنيمة سهلة، والشوكة: القوة.

﴿وَيَقْطَعُ دَائِرَ الْكَافِرِينَ﴾ آخرهم، ويعني استئصال الكفر من الجزيرة، وقد تحقق بالفعل كما أخبر سبحانه.

﴿إِذَا تَسْتَعِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ بعد التردّد والمجادلة، لجأ المسلمون إلى الله، وهذا هو دأب المسلم الحق؛ يسأل ويناقش ويجادل، فإذا عزم الأمر انتهى كل شيء، وباشر بالتنفيذ مع الاستعانة بالله، فهو مصدر كل قوة.

﴿مُرْدِفِينَ﴾ مددًا وسندًا لكم، فالصحابة أصل الجيش، والملائكة تبع لهم، كما يتبع الرديف صاحبه، وهذا أولى من تفسيره بالمتتابعين، والله أعلم.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ لأن الإنسان يأنس بالأسباب ويطمئن لها، كما يأنس الظمآن بالماء، وهذه فطرة لا تعارض أصل الإيمان.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ فلا ينعس في وقت الشدّة إلا من اطمأن قلبه، فالنعاس دليل الاطمئنان، وهو كذلك يعيد للجسم نشاطه، بخلاف الذي يبقى ساهرا قلقا على وتيرة واحدة.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ من مؤيدات الله أيضا لتلك الثلثة المباركة؛ حيث أذهب عنهم بهاء السماء ما علق بهم من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، فتطهروا وابتهجوا، ولا شك أن هذا الاستبشار والابتهاج بنزول الغيث يترك أثره

الطيب في النفوس، ويُسهِم بتنظيف القلوب من وساوس الشيطان وكدوراته.

﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ تعليم للملائكة؛ لأنهم لم يكونوا على علم بقتال الآدميين، وفيه إشارة إلى ضرب مكان من الخطر؛ الرأس الذي هو مصدر القرار، واليد التي هي مقبض السلاح، بلا مثله ولا تمزيق للجسد؛ لأن هذه كلها من بواعث التشفي والحقد الكريه، وليست من أخلاق المؤمنين.

﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ أي: لا تنهزموا وتُعطُوا الأعداء ظهوركم.

﴿إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقَالٍ﴾ استثناء أول من النهي، وهو صورة المقاتل الذي يفر ويكر، ويتنقل في الميدان بحسب ما تقتضيه ضرورة المعركة.

﴿أَوْ مَتَحَرِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾ استثناء ثانٍ، وصورته الانسحاب من المعركة إلى مكان يحتمل فيه المسلمون لتنظيم صفوفهم، فهذا وذاك من الصور المشروعة التي لا تدخل في النهي، وهما يصلحان للقياس في كل ما ظاهره الفرار، وقصده النكاية بالعدو، والله أعلم.

﴿فَلَمْ يَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ لأن الله هو الذي أعطاكم القوة، وأيدكم بأسباب الثبات والنصر.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ النفي ليس مسلطاً على أصل الرمي، فالرمي قد حصل منه ﷺ لكنه مسلط على آثاره، فالآثار التي تربت على هذا الرمي كانت بالتدخل الرباني وليس بصورة الرمي الظاهرة، فالتراب الذي ألقاه عليهم رسول الله ﷺ لم يكن ليصل إلى عيونهم لولا إرادة الله وحده.

﴿وَلِيُسَبِّلَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءٌ حَسَنًا﴾ إشارة إلى أن كل نعمة في هذه الدنيا تحمل معنى الابتلاء؛ فالصحة ابتلاء، والغنى ابتلاء، والنصر ابتلاء، لكنها ابتلاءات حسنة؛ لما فيها من نعيم وبهجة ولذة، بخلاف المرض والفقر والنكبة، والعاقبة في كل ذلك لمن صبر وشكر.

﴿مُؤْمِنِينَ كَيَدِ الْكَافِرِينَ﴾ مضعفهم وذاهب بقوتهم ومكرهم.

﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ الخطاب للمشرّكين على صيغة التّهكّم، والفتح: النصر والغلبة والسيادة، وهذا هو الذي قصّده من الحرب بعد نجاة قافلتهم.

﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ﴾ إن عُدتم لمحاربة النبي ﷺ عُدنا لمناصرته، وفيه إشارة أن من عادى رسول الله ﷺ فهو مخذول لا محالة عاجلاً أو آجلاً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فَتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَوَارِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ يُنْصِرُهُ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَقَنَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَانْظُرْ عَلَيْنَا جُجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ، وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ، إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُشْكُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾

محور هذا المجلس قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾، فالتمايز سنة من سنن الله في هذه الحياة، وهو غاية الابتلاء والاختبار ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(١)، وقد عرضت سورة الأنفال لصورتين متباينتين ومتمايزتين:

الصورة الأولى: صورة المؤمنين الطيبين، وقد جاءت ملامحها الجليلة في هذه التوجيهات الربانية، وكما يأتي:

أولاً: الإيمان المقترن بالعمل والتسليم والطاعة ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.
ثانياً: الإيمان المقترن بالعلم وفتح منافذ التلقي ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾^(٢) ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾.

ثالثاً: الإيمان المقترن بالمراقبة والمحاسبة الذاتية ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

رابعاً: الإيمان المقترن بالوفاء وحسن الالتزام ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ﴾.

خامساً: الإيمان المقترن بالإصلاح والحفاظ على هوية المجتمع وسلامته ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾.

سادساً: الإيمان الذي يقود إلى الحياة الأفضل في كل جوانبها ومجالاتها، في الدنيا والآخرة ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ

(٢) تكرر هذا النص الكريم في كتاب الله مرتين: في سورة هود / ٧، وسورة الملك / ٢.

مُسْتَضَعُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ مع الحِيطة والحذر من الفتنة والتنافس المحرَّم ﴿٣﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٤﴾.

الصورة الثانية: صورة الكافرين الخبيثين الذين أعماهم الحسد، وأصمَّهم العناد، وهي الصورة المعكوسة عن الصورة الأولى بكل تفاصيلها وملاحمها، يضاف إليها:

أولاً: الكفر المقترن بالتعالي والتكبر على الحق ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَاهُ الْحَقُّ مِنِّكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٦﴾ وهي صورة للعناد والمكابرة لا تشبهها صورة في كل ما حكاه القرآن عن المكذبين الضالين في الأقوام السالفة حتى فرعون الذي قال: ﴿٧﴾ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٨﴾ [النازعات: ٢٤]، حين أدركه الغرق قال: ﴿٩﴾ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٠﴾ [يونس: ٩٠].

ثانياً: الكفر المقترن بالتعالي والتكبر على العلم وسد منافذ المعرفة ﴿١١﴾ وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿١٥﴾.

ثالثاً: الكفر المقترن بالتشبُّث بالعادات والتقاليد ولو كانت خرافة وسفاهة ﴿١٦﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴿١٧﴾.

رابعاً: الكفر المقترن بالصد عن سبيل الله وانتهاك الحرمات ﴿١٨﴾ وَمَا لَهُمْ إِلَّا يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴿٢١﴾.

خامسًا: الكفر المقترن بمعاداة المؤمنين ومحاربتهم بكل أدوات الحرب ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾.

سادسًا: الكفر الذي يقود إلى الخسارة في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ مع أن باب التوبة مفتوح لهم ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ تنفضوا وتخلوا عنه وتركوا طاعته ومناصرته.

﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ إشارة إلى صلة الإصغاء بالاستجابة، فمن فتح منافذ المعرفة عنده كان أقرب للحق وأولى به.

﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سمعوا بأذانهم ولم تسمع قلوبهم، سماع بلا تدبر ولا تفكير.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الدواب: كل ما دب على الأرض.

﴿الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ هم كل من عطل بإرادته منافذ المعرفة، وحجب عقله عن التفكير، فهو لاء شرار الخلق، وأما من ولد ناقص الأهلية في عقله وحواسه فهو معذور، وهو أهل للرحمة والمعونة.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ هذا جارٍ على سنن الله؛ فمن عطل عقله وسمعه وبصره استحق هذه النتيجة، وليس في الآية معنى التقدير الجبري الذي يفقد المكلف القدرة على الاختيار.

﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الحياة الطيبة والسعادة الدائمة في الدارين، وهذه غاية الرسالة المحمدية
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا اللَّهُ يُحَوِّلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَوَلِيِّهِ﴾ بمعنى أنه تعالى أقرب إلى العبد من نفسه، فلا تخفى عليه خافية مهما بالغ المرء في تحسين صورته الظاهرة أمام الناس، والمقصود دعوة المؤمن لمراقبة داخله وأعماله الباطنية، ونيته الخفية.

﴿فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ لأن المجتمع كالسفينة الواحدة، وظهور الفساد في المجتمع دون نكير يُعرض المجتمع كله للهلاك، والمقصود بالآية التنبيه إلى ضرورة الإصلاح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

﴿إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ تذكير بحال المسلمين في مكة.

﴿تَخَافُونَ أَنَّ يَخْطِفَكُمُ النَّاسُ﴾ يأخذوكم بسرعة وقوة؛ لأنهم أكثر وأقوى منكم.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ اختبار وامتحان، وليس فيها منقصة، فالدنيا كلها اختبار وامتحان ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ [المالك: ٢]، والمقصود التنبيه لشروط النجاح في هذا الاختبار، وليس الابتعاد والانعزال عنه.

﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ نوراً تفرقون به بين الحق والباطل، وظهوراً لرايتكم حتى لا تخفى، ولا تلبس برايات الباطل.

﴿لِيُنْفِثُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ ثلاثة خيارات كان المشركون يفكرون بها ويعملون على تنفيذها أو تنفيذ واحد منها؛ حبس الرسول ﷺ، أو قتله، أو إخراجهم من مكة، وقد اختار الله لنبيه الخروج، وهو من مكر الله بالمشركين ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ حيث جاء الخروج بالنصر والفتح والتمكين.

وهنا إشارة إلى أن ما يريده لك العدو بحسب طريقة تفكيره ليس حتمًا أن يكون شرًا لك، فالواجب النظر في خياراتك وإمكانياتك ومآلات أمورك، ولا عليك بعد هذا إن كانت وافقت رغبة العدو أو خالفته.

﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةُ لَعْنَتِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ يعني: عذاب الاستئصال؛ لأنه يعم ولا يخص؛ ولذلك إذا أذن الله بهلاك قوم وفيهم نبيهم أمره بالخروج.

﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةُ لَعْنَتِهِمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ترغيب لهم بالتوبة والرجوع إلى الحق، وجاء بالفعل المضارع؛ إشعاراً بالحركة والمتابعة، فلو ظهر فيهم بوادر الصلاح والاستجابة للحق ولو على مراحل، ولو طال الزمن، فإن هذا مؤذن برفع العذاب عنهم، بخلاف ما إذا أصرُّوا جميعاً على الكفر، وتعطيل الفكر، وغلق منافذ المعرفة.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يَعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: كيف لا يستحقُّون العذاب وهم يصدُّون عن المسجد الحرام؟

﴿إِلَّا مَكَاةً وَتَصْدِيَةً﴾ صغيراً بالأفواه وتصفيقاً بالأيدي؛ تشويشاً على صلاة المسلمين وسخرية منهم.

﴿وَجَعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ فالخبث مهما تنوع واختلفت أشكاله وصوره فإن عاقبته واحدة، كالخطب الذي يأتي من أشجارٍ مختلفة وبأشكال مختلفة لكنه يوضع بعضه فوق بعض ثم يُرمى في النار، وهذا مثال للخبث المعنوي في المعتقدات والأعمال الظاهرة والباطنة، والتي تتجمع لمحاربة الحق وأهله لكن عاقبتها الخسران ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٣).

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ فيه سعة رحمة الله حتى بالكفار المحاربين، فبمجرد توبتهم واعترافهم بخطيئتهم يغسل الله ما عليهم، ويعودون كيوم ولدتهم أمهاتهم أنقياء أبرياء، وإذا كان هذا للكافر المحارب، فما بالك بالمؤمن الذي يخشى ذنبه ويرجو رحمة ربه؟!

﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: سنة الله فيمن تقدَّم من الأمم السابقة أن يهلكهم الله إن هم أصرُّوا على الكفر والتكذيب بالحق بعد أن أقام الله عليهم الحجَّة، واستبانت لهم السبيل.

(٣) تكرر هذا النص الكريم في موضعين من كلام الله: في سورة الأعراف / ١٢٨، وسورة القصص / ٨٣.

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِذَا انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ يَغْنَمْ الْمَوْلَى وَيَغْنَمْ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ * وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادْتَ كَثِيرًا لَفِطْنْتَهُمْ وَلَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلَيْهِ يُدَاتِ الضُّدُورُ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِيقًا فَالْفَشَلُ وَلَهُمْ فِي اللَّهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْقُسُوفَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغْتَابًا لِقَوْمٍ أُتُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَخُفُّوا أَعْيُنُهُمْ فَخَنَزَكْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ فَاثْبُتْ وَأَعْرِضْ فَأَنشَأْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَلِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ بُدُنُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَتُوبُوا وَأَعْرِضْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَاذِبٍ لَلِظَلَمِينَ ﴿٥٣﴾ ۞

أولاً: إن الصراع بين الفئتين كان صراعاً حتمياً، وهو أشبه بصراع الوجود ﴿وَقَلِيلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كُلُهُمُ اللَّهُ﴾ فوجود قريش في مكة وسيطرتها على البيت وهيمتها على القبائل العربية، مع إصرارها على الشرك وعبادة الأصنام ومحاربة التوحيد وأهله، كل هذا يجعل من الصدام مسألة وقت لا أكثر.

ثانياً: إن الأمور كلها كانت تدفع الفريقين باتجاه المصادمة لحكمة قدّرها الله سبحانه، فقد رآهم النبي ﷺ في منامه قليلاً ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَدْنَاكَ أَكْثَرًا لَفُشَلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ثم قلّ لهم في نظر المؤمنين عند اللقاء، وقلّل المؤمنين في نظر المشركين ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِيَ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيَ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ وكان هناك من يُحرّض المشركين ويُشجّعهم ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ﴾.

ثالثاً: إن معسكر المسلمين كان في طرف الوادي مما يلي المدينة، ومعسكر المشركين كان في الطرف الآخر الأبعد عن المدينة ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ وهو وصف لموقع المعركة.

أما القافلة فقد سلك بها أبو سفيان جنوباً باتجاه مكة ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ وفيه إشارة أن المسلمين كانوا قد اتخذوا موقعاً دفاعياً يتمكنون فيه من صدّ المشركين في حال إغارتهم على المدينة.

رابعاً: إن التعبئة الجهادية كانت تقوم على أساس الإيمان بالله، ووحدة الصف والثبات في الميدان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٥) وأطيعوا الله ورسوله ولا تنزعوا أنفسكم ولا تنزعوا أنفسكم وتذهب ربحكم وأصبروا إن الله مع الصّابرين ﴿بينما كانت تعبئة جيش المشركين تقوم على أساس الرياء والبطر والصدّ عن سبيل الله ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ

خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ^٥.

خامسًا: إن الله قد نصر المؤمنين وهزم الكافرين، فكان يوم بدر هو يوم الفرقان ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ النِّقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وقد نكص الشيطان يومئذ على عقبيه، وتبرأ من المشركين بعد أن وعدهم بالنصر والغلبة ﴿فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ^٦ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

سادسًا: إن مصير قريش هذا هو مصير الباطل في كل زمان ومكان، مهما تعددت أسماؤه واختلفت أشكاله ﴿كَذَٰبٍ ءَالِ فِرْعَوْنَ^٧ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ^٨﴾، ﴿فَاهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَاهُ^٩ أَلِ فِرْعَوْنَ^{١٠} وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾. سابعًا: التحذير من دور النفاق والذين في قلوبهم مرض، وهم العدو الداخلي الذي لا يحمل السلاح وإنما يحمل الدسائس والتشكيك، وإثارة الفتن، وتشبيط العزائم ﴿إِذْ يَكُولُ الْمُنْفِقُونَ^{١١} وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ^{١٢} دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. ثامنًا: إن غنائم المعركة ينبغي أن تكون لها وظيفة في التنمية والتكافل وسد حاجات المجتمع ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ^{١٣} وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وهو جواب للسؤال الذي استهلّت به السورة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ^{١٤}﴾ وقد أخرج حتى نهاية بيان المعركة، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ الفتنة: اسم جامع للشر، شر الدين بالكفر والشرك، وشر الدنيا بالظلم والنوضى والفساد.

﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ الدين لله من قبل ومن بعد، وإنما المقصود خضوع الأرض لهذا الدين، وقبولها لهذه الرحمة.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ من أموال المحاربين.

﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ على سبيل التشریف، وإلا فإن الدنيا والآخرة لله، فما ينفق على الفقراء والمساكين والأموال العامة كأنه أُعطي الله سبحانه.

﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يوم بدر؛ لأنه فرَّق بين الحق والباطل، وفرَّق بين مرحلة الاستضعاف ومرحلة السيادة والتمكين.

﴿بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ طرف الوادي الأقرب.

﴿مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ الهلاك بالكفر والعناد بعد قيام الحجّة، والحياة بالإيمان بعد وضوح الحجّة والاهتداء بها.

﴿وَلَوْ أَرَدْنَا أَنَّا كَثِيرًا لَفَاشَلْنَا وَلَنَنْزَعْنَهُمْ﴾ يعني: لو أن النبي ﷺ رآهم في منامه كثيرًا، وقصَّ هذه الرؤيا على المسلمين، لداخلهم الخوف والهلع، ولاختلفوا في الخروج، وفيه إشارة لدور الشورى وتأثيرها في القرار.

﴿فَأَنْتَبَهُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ إشارة إلى أن الذكر عبادة لا تنفصل عن الحياة، بل هو ضرورة لها؛ لأنه يمنحها القوة والعزيمة والثبات.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ دلالة أن ترك الطاعة لله جهلاً أو عناداً يؤدي إلى التنازع، والتنازع يؤدي إلى الفشل، فالتربية الصحيحة أصل للوحدة، والوحدة أصل للنجاح، والمجتمع الفاشل لا بد أن يبحث في كلتا المقدمتين.

﴿وَنَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ نزول قوتكم، ويمحى اسمكم.

﴿خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾ هم المشركون الذين خرجوا من مكة بالخمرة والقيان؛ اغتراراً بقوتهم واستهانة بخصمهم، وطلباً للسمعة والفخر وبقاء هيبته في نفوس العرب.

﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقَبَيْهِ﴾ ولَّى هارباً مذعوراً وترك عهوده ووعوده.

﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ يعني: الملائكة؛ لأن الشيطان كان يراهم ويعرفهم.

﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ ليس خوف التقوى والتعبد، بل خوف الجاحد الحاسد الذي يعرف مصيره بعد عصيانه وتكبره.

﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ أصابهم بالغرور، ودفعهم لمواجهة غير محسوبة، والقصد التشكيك والسيط، وهو دور النفاق في كل زمان ومكان.

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ صورة من صور الخزي التي تنتظر الكافرين يوم القيامة، وهي الصورة المناسبة لما كانوا عليه من العناد والتكبر وتصعير الخد، وهذا أقرب من القول أن هذا كان يوم بدر؛ لأن الملائكة علمهم الله أن يضربوا فوق الأعناق، ويضربوا كل بنان.

ثم إن كلمة ﴿يَتَوَقَّى﴾ أقرب للمعنى الأخروي، وقد تقدّمت على الضرب، فالضرب حاصل عند الوفاة، والله أعلم

﴿كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ﴾ الدأب هو الشأن المعتاد والمتكرّر.

﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعْرِضُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ دلالة على أن تغيير النعمة عقوبة، والعقوبة لا تكون إلا بذنب، والظاهر أن النعمة هنا جاءت بمعناها الشامل، أما العوارض والحوادث التي تصيب الناس من صحة ومرض وغمى وفقر فهذا يحتمل العقوبة، ويحتمل الابتلاء والاختبار، وهو ماضٍ وفق عالم الأسباب وسنن الله وقوانينه في هذه الحياة.

﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُّوبِهِمْ﴾، ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَذُّوبِهِمْ﴾ فسر الكفر بالتكذيب، والأخذ بالهلاك، ثم ذكر بأن الله الذي كفروا به إنما هو ربهم الذي يخلقهم ويرزقهم، وهكذا يفسر القرآن بعضه بعضاً بنسقي بنائي تكاملي.

﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْزٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿١٥٧﴾ فَإِنَّا لَنُفَقِّنُهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَدَ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّا نَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَأَيُّدِ الْيَهُدِ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاسِقِينَ ﴿١٥٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَظَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلِبُونَ ﴿١٦١﴾ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٦٢﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَتَاكَ بِالنُّصُرَةِ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٣﴾ وَاللَّهُ يَتْلُو فِي قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ آتَاكَ مِنْ بَيْنِهِمْ إِتَاءًا لِيُثَبِّتُ بِهِمْ إِتَاءَ عَزِيزٍ حَكِيمٍ ﴿١٦٤﴾ يَتْلُوهَا النَّبِيُّ لِلَّذِينَ هُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٥﴾ يَتْلُوهَا النَّبِيُّ حَرِصٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٦٦﴾ أَلَمْ تَرَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٦٧﴾ مَا كَانَتْ لِيُنَبِّئَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَمْرٌ حَتَّى يَشِخِرَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٦٨﴾ لَوْ لَا كَتَبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦٩﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٠﴾ يَتْلُوهَا النَّبِيُّ قُلُوبَكُمْ فِي الْأَمْرِ إِنْ يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧١﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٧٢﴾ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يَهَاجَرُوا وَإِنْ أَسْتَضَرُّوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثْقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٧٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿١٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿١٧٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

صُمّت خواتيم الأنفال أحكامًا فقهيةً، وتوجيهات عمليةً تفصيليةً متعلقة بفقه الجهاد وما يتفرّع عنه من مسائل، وهذه طريقة القرآن في التفقيه والتعليم؛ حيث يسوق المعلومات مع أحداثها وأسبابها؛ لتكون مشروحةً بالوقائع، ولتكون أدعى لرسوخها واستذكارها:

أولاً: حكم العدو المعاهد إذا نقض عهده ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ (٥٦) فَإِمَّا تَغَفُنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿يلاحظ هنا أن القرآن ذكر صفتين لهؤلاء؛ تكرار النقض، ووقوفهم في الميدان مع العدو، فهم بهاتين الصفتين يستحقون أشدّ العقاب، بحيث يكونون عبرةً لغيرهم من المعاهدين.

ثانيًا: حكم العدو المعاهد الذي بدّرت منه علامات النقض دون تصريح، بحيث تكون هناك خشية من نقضه للعهد في ساعة الشدة ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ فالواجب إعلامهم بإبطال العهد قبل البدء بقتالهم، أو يُقدّمون ما يزيل هذه الخشية وذاك الشك.

ثالثًا: حكم العدو الذي يطلب السلم ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وهذا دليلٌ أن أصل العلاقة بين المؤمنين وغيرهم السلم والمعاملة الحسنة، وأن القتال استثناء من الأصل، ولا يُلجأ إلى الاستثناء إلا بشروطه.

رابعًا: التنبيه إلى ضرورة الحيطة والحذر عند كلِّ عهد ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ فالمؤمنون عليهم أن ينتبهوا لهذه المخادعة إن وُجدت، وهذا الانتباه من تأييد الله لنبيه ﷺ.

خامسًا: وجوب إعداد القوة التي تردع العدو ومن وراءه قبل أن يفكر بالعدوان، والاستعداد لكلِّ طارئ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

سادساً: وجوب الإنفاق على الجهاد والمجاهدين، وهذا من تمام الإعداد ولوازمه ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

سابعاً: وجوب التوحد والتلاحم والتكافل بين المؤمنين ﴿هُوَ الَّذِي آيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَقَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ وهذا التآليف ثمرة من ثمرات الإيمان ونتيجة له، وليس تآليفاً قَدَرِيّاً بالمعنى البعيد عن التكليف وتحمل المسؤولية.

ثامناً: وجوب التحريض على القتال؛ استعداداً للمواجهة في حال حصولها أو توقعها ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ وخطابُ النبي ﷺ خطابٌ لأُمَّته إلى قيام الساعة.

تاسعاً: حكم القتال إذا كان عدد المسلمين أقل من عدد المشركين ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

ومقتضى الحكم الأول: الثبات في المعركة حتى لو كانت نسبة المسلمين إلى الكافرين واحداً من عشرة، ثم خفف الله الحكم؛ بحيث لا يجب عليهم الثبات إلا إذا بلغوا النصف من عدد عدوهم، وهذا التخفيف مرده إلى تغير مستوى الإعداد التربوي، والقدرة على المقاومة وتحمل المشاق بين طبقة المهاجرين والأنصار، والطبقة المتأخرة من الأعراب، والذين دخلوا في دين الله أفواجا.

وهنا مسألة أخرى: أن الآية تتحدث عن الفارق العددي فقط، وهناك فوارق أخرى لم تتعرض لها الآية، ومن أهمها: فارق التسليح، وفارق التدريب، وطبيعة الأرض، ونسبة الموارد، ومستلزمات الرعاية والتواصل، وهذه كلها ينبغي أن تؤخذ بالحسبان، والظاهر أنها متروكة لأولي الأمر وقادة الجيش؛ لأنها مختلفة في كل مكان وزمان، ولا يمكن تحديد ضابط مسبق لها، والله أعلم.

عاشراً: حكم الأسرى ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُتَخَيَّرَ فِي الْأَرْضِ ﴾، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبٌ لَمَّا فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأُسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ومجموع الآيتين يدل على أن غاية القتال تحقيق المصلحة العليا للأمة بدفع الخطر عنها، وردّ عدوّها، ولما كان الانشغال بالأسر وما يكلفه الاحتفاظ بالأسرى من حماية وجهد مُضاف على قلة عدد المجاهدين تجاه عدوّهم، وإمكانية رجوع هؤلاء الأسرى إلى القتال، فكان الحكم المناسب هو قتلهم، أما وقد عفا عن قتلهم رسول الله ﷺ اجتهداً منه لعدم وجود النص الإلهي فيهم، وأخذاً بمبدأ الشورى فقد أمضاه الله، ونزل القرآن معلماً للمسلمين فيما ينبغي عليهم فعله في مثل هذه الحالة، وداعياً للأسرى أن يفكروا في الحق وفي هذا النبي ﷺ الرحيم بهم رغم عداوتهم ومحاربتهم له.

والجدير بالذكر أن حكم الأسرى يختلف باختلاف الظروف والأحوال، وقد أشارت الآية الأولى إلى وجه من أوجه الاختلاف: ﴿حَتَّى يُتَخَيَّرَ فِي الْأَرْضِ﴾، والله أعلم.

حادي عشر: حكم الولاء بين المؤمنين الذين يعيشون في دولة المدينة أنصاراً ومهاجرين ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فهؤلاء بينهم الولاء الكامل، ويقاس عليهم كل مجتمع مسلم يعيش في دولة واحدة، ويخضع تحت سلطان شرعي واحد، والله أعلم.

ثاني عشر: حكم الولاء للمسلمين الذين يعيشون خارج الدولة المسلمة ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَدَّعٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ وهذا حكم دقيق ومرتب، فالمسلم الذي يعيش خارج الدولة المسلمة ليس له من حقوق المواطنين شيء، لكنه داخل في الولاء العام للمسلمين، وهو الولاء للأمة المسلمة أينما كان أفرادها، فله أن يستنصر بالمسلمين وبالدولة المسلمة حتى لو كان في دولة أخرى، وعلى الدولة المسلمة نصرته إلا إذا كانت هذه النصرة تخالف معاهدة قائمة؛ فالالتزام بالعهد واجب.

وقد حصل مثل هذا بعد الحديبية مع أبي بصير وأبي جندل وغيرهما من المستضعفين في مكة، فردَّهم رسول الله ﷺ ووفى بعهدده مع قريش، بينما لو اعتدت قريش على واحد من المسلمين في المدينة فنصرته واجبة، وهذا فارق نفيس في الولاء بين ولاء الأمة التي يجمعها الإسلام، وبين ولاء الدولة التي لا تضم كل المسلمين، كما هو معهود في الدول المسلمة على اختلافها زماناً ومكاناً، والله أعلم.

ثالث عشر: حكم الذي يلتحق فيما بعد بالدولة المسلمة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ فلهم تمام الولاء، ويقاس عليه كل مسلم يهاجر إلى دولة مسلمة، ويحصل فيها على الجنسية باعتباره مواطناً وليس زائراً أو كاسباً، والله أعلم.

رابع عشر: حكم العلاقة بين القربات والأرحام ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابٍ﴾ وهو ولاء خاص ومرکز، ويتضمن حقوقاً مضافة؛ كالتوارث، والتواصل، والنفقة، وهو ولاء داخل ضمن الولاء للدولة، والولاء للأمة.

دقائق التفسير

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يرجى إيمانهم؛ لأنهم سدُّوا منافذ المعرفة لديهم، كما تقدم في قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾. ﴿فَأَمَّا نَشَقَّفُهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ تظفرن بهم.

﴿فَشَرِدَ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ اضربهم ضربةً تلقي الخوف والرعب في قلوب الأعداء الآخرين حتى لا يفكروا بعودان، ولا يتحالفوا مع عدو.

﴿تَخَافَتَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ﴾ تظن فيهم الخيانة، والخوف هنا توقعُ السوء.

﴿فَأَنذِرْهُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أعلمهم بانتهاء العهد بينك وبينهم إعلماً صريحاً لا تشوبه شائبة؛ تحرّزاً عن شبهة الغدر.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ أي: نجوا فلا نقدر عليهم.

﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ القوة المناسبة لذلك الزمن، والعمل بالآية يقتضي إعداد القوة المناسبة لكل زمن، ولا يشترط إعداد الخيول، وهنا دلالة أن أدوات العمل وتنفيذ الحكم تتغير زماناً ومكاناً، كما نحجُّ اليوم بالطائرات والسيَّارات ولا نحجُّ (رجالاً) ولا (على كل ضامِر)^(٤)، وقد أجمع المسلمون على هذا، وهو بابٌ واسعٌ لمواكبة العصر، والاستفادة من علومه ومخترعاته.

﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ والإرهاب هنا تخويف العدو حتى لا يُقدم على عدوانه، وليس فيه معنى التوحُّش والرغبة بسفك الدماء - حاشا لله -؛ فالأصلُ في الإسلام: الرحمة، والدعوة للخير ولسعادة الدارين لكلِّ العالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ﴾ أصل الجُنُوح الميل، ومعناه هنا: إظهار الرغبة بالصلح.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ قدَّم تأليف القلوب؛ لأنه أصلٌ لكلِّ معاني التآلف الماديَّة والمعنويَّة، وأكد أن تأليف القلوب لا يكون بالأعطيات والنفقات المجرَّدة.

﴿حَتَّى يُنْخِرَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى أن تكون له القوَّة والشوكة والتمكين.

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ بالفداء الذي تأخذونه من الأسرى.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ يريد لكم ثوابها الذي هو أعمُّ وأبقى.

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ حكمٌ إلهيٌّ سابقٌ أن لا يعذب من اجتهد ولو أخطأ، وأن لا يعذب أحداً قبل بيان الحكم؛ لأن حكم الأسرى لم يكن قد نزل فيه وحي، والله أعلم.

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ تأكيدٌ لمشروعية الفداء؛ لأنه جاء باجتهادٍ وشورى دون مخالفةٍ

(٤) مُقْتَبَسَةٌ من قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

لنصّر، وحاشا لرسول الله ﷺ أن يقع في مخالفة لنصّر.

﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ ترغيب لأسرى المشركين أن يهتدوا لطريق الحق والخير، وهذا دليل على رغبة الإسلام في تحقيق الرحمة الشاملة لكل العالمين.

﴿وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا﴾ هم الأنصار ﷺ الذين آووا رسول الله ﷺ ونصروه.

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ تحذير من مخالفة أحكام الولاء، ومنها: مناصرة المؤمنين، ومنازمة الكافرين المعتدين، والفتنة: الشر العام في دين الناس ودنياهم، والله أعلم.

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ عام في كل القربات من طريق الأب، ومن طريق الأم، ممن يرثون وممن لا يرثون، والله أعلم.

تم الجزء الأول،
ويليه الجزء الثاني وأوله
﴿سورة التوبة﴾